

جامع التولّج

تاريخ غازان خان



دراسة وترجمة
الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّال

تأليف
رشيد الدين فضل الله الهمداني

الدار الثقافية للنشر

جامع التواريخ

تاريخ غازان خان

تأليف

رشيد الدين فضل الله الهمداني

دراسة وترجمة

الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

الدار الثقافية للنشر

Jam'ic Al-Tawarikh

Dr. Fouad Abdul-Monemy Al-Sayad

17 x 24 cm. 446p

طون الكتاب: جامع التاريخ الجاهلي

ترجمة ودراسة / د. فؤاد عبد المنعم السيد

٢٤٨١٧ ص. ١٦ نص.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩/٢٢٨٨

الترقيم الدولي: ISBN: 977-5875-70-6

اسم الناشر: دار الثقافة للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة للناشر

دار الثقافة للنشر - القاهرة



ص.ب. ١٢٤ بلورنا لكتوير - خالف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧

Email: sales@thakafia.com

Website: www.thakafia.com

المقدمة والدراسة

كيفية نطق الحروف الفارسية

المستعملة في هذا الكتاب

- (١) الحرف الفارسي (پ) ينطق مثل حرف (P) في اللغة الإنجليزية.
 - (٢) الحرف الفارسي (چ) ينطق مثل حرفي (CH) في اللغة الإنجليزية.
 - (٣) الحرف الفارسي (ژ) ينطق مثل حرف (J) في اللغة الإنجليزية.
 - (٤) الحرف الفارسي (گ) ينطق مثل حرف (G) في اللغة الإنجليزية.
- في مثل كلمات: Big - Gun - Garden
- أو مثل الجيم المصرية في اللهجة الماروجة.

مُقَدِّمَةٌ

مُقَدِّمَةٌ

هذه ترجمة كاملة قمت بها لتاريخ غازان خان الذي يكون قسما مهما من كتاب جامع التواريخ، تأليف مؤرخ المغول الكبير "رشيد الدين فضل الله الهمداني". ولا شك أن الترجمة ضرورة إنسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكل أمة حية تتشد الكمال الإنساني أو الاقتراب منه في الأقل. كما أن ترجمة الآثار الفكرية من أجدى أنواع الترجمة وأهمها لأنها تفتح المجال واسعا أمام أبناء مختلف أسمى الأرض للاطلاع على سيرات بعضها والإفادة منه وربما التأثير به أيضا^(١).

ولن يتسنى للشعوب وفي طبيعتها العرب أن تنال نصيبها من التراث الإنساني بشقيه العلمي والثقافي إلا عن طريق الترجمة؛ فهي الجسر الوحيد الذي نصير عليه إلى حياة علمية راقية^(٢).

وعبر ما نذكره في هذا المقام هو ما سبق أن قاله أستاذنا المحرم الدكتور إبراهيم أمين الشواربي: "لو استطاع كل متخصص في علم من العلوم أو فن من الفنون أن ينقل إلى العربية كتابا واحدا من أمهات الكتب المتعلقة بموضوع تخصصه، لكان للعربية من مجموع هذه الترجمات ثروة طائلة كفيلة بأن تجدد الفكر العربي واللغة العربية تجديدنا كاملا، ينتهي بنا إلى نهضة كاملة شاملة كالتى حدثت في أوروبا عندما نقلت إلى لغاتها الكتب العربية والشرقية في سالف الوقت والزمان، ولاستكملنا بهذه الثروة العريضة ما نقصنا في الفترة التى وقفنا فيه موقف الفتنور والتكاسل والتخلف والتراكل"^(٣).

كان رشيد الدين مؤرخا كبيرا وكتابيا موسوعيا أحاط علمه بكثير من أنواع المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتي في المقدمة دائما. وعندما حاول المستشرقون

(١) سياست نامه أو سير التورك، تأليف نظام الملك الطوسي، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة الثانية، ص ٤
الطبعة دولة قطر، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) مجلة الثقافة: مقالة الدكتور زهير عبد الوهاب بعنوان: حاجتنا إلى الترجمة، المجلد الثالث، العدد الرابع والأربعون، ص ١٠، عدد ربيع الأول ١٤١٦هـ - يولية أغسطس ١٩٩٥م، للطبعة العربية السعودية.

(٣) تاريخ الأدب فى إيران من الفروسى إلى السعدى، تأليف المستشرق الكبير إدوارد جرانفيل بسرون، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، ص ٣٥، الطبعة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

دراسة دراسة متعمقة كان أول ما استرعى نظرهم كتابه جامع التواريخ. وكانوا على صواب فيما ذهبوا إليه، لأن كتابه التاريخي هو الذي أذاع صيته ورفع قدره وسجل اسمه بين النابغين الأفاضل من أبناء الشرق الإسلامي.

ومن المتفق عليه أيضا أن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب إنما تتجلى في المجلد الأول للمتضمن تاريخ المغول؛ فعندما تحدث رشيد الدين عن هؤلاء القوم ذكر أصلهم ونشأتهم وقبائلهم وعاداتهم وتقاليدهم وفتوحاتهم على نحو دقيق ومفصل لم يشهده في أي مصدر آخر.

ولا شك أن الباحث يهجم عندما يتناول التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية أن يستطيع التمييز بين الحقائق التاريخية المقبولة وبين الأساطير. ثم إن المعلومات عن المغول الأول ليست جوهرية للطالب الذي يريد أن يتناول بإحكام علاقتهم الخارجية فيبرز تأثيرهم في الجنس البشري خارج حدودهم. كذلك تبرز أهمية الكتاب فيما تقرأه عن المغول في الأحداث التي كان يعايشها المؤرخ؛ فقد عاصر دولة المغول في أبعى فتراتهما، وشاهد حصار بغداد وفتحها على يد هولاكو خان، والتحق بتقدمة أعظم سلاطين الإيلخانيين وبلغ أسنى المراتب في عهد غازان وأولجايو وفترة من حكم أبي سعيد بهادر خان، ولعب دورا هاما في سياسة دولة المغول وإدارتها. فإذا جاء هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ لأحداث كان يعاشرها ويشهدها بعيني رأسه، وبصفتها وصف الثقف الجبر بثقون الحياة. كذلك استطاع الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه ميزة كبيرة لم تتوافر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ المغول من السابقين أو المعاصرين له.

لكل هذه الميزات لقي المجلد الأول من هذا الكتاب اهتمام المستشرقين والباحثين فخصوه بعنايتهم، وعكفوا على تحقيقه ونشره وترجمته إلى مختلف اللغات الأوربية وجاءت هذه الترجمات مصحوبة بالشروح والتعليقات. وكان في مقدمة ما عتوا به القسم المشتغل على تاريخ الإيلخانيين "سلاطين المغول في إيران"، فهو عظيم الأهمية:

أولا: وبالذات لعرض الأحداث التي وقعت في القرنين السابع والثامن الهجريين "الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين"، وشملت إيران وجورجيا وأرمينية ووسط آسيا وغربها.

ثانيا: للحدث عن الإصلاحات المختلفة التي قام بها غازان خان.

ولم تكن اللغة العربية بمعزل عن الاستفادة من هذا الأثر الخالد أيضا فقد شاركت المرحومين الأستاذين محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنتلوي في ترجمة النص المتعلق بتاريخ هولانكو خان، ونشر في القاهرة عام ١٩٦٠م تحت عنوان: جامع التواريخ: رشيد الدين فضل الله الهمداني: تاريخ المغول، المجلد الثاني - الجزء الأول - الإلهياتيون: تاريخ هولانكو.

وهذا القسم سبق أن حقق نصح الفارسي للمستشرق الفرنسي كاترمير مع ترجمة فرنسية للمصنف الفارسي، ونشر الأصل والترجمة في باريس عام ١٨٢٦م. وقد صحب المتن كثير من المحاشي والتعليقات المستفيضة التي تدل على اطلاع واسع وعلم غزير. وصدرت هذه الطبعة بمقدمة باللغة الفرنسية ذات قيمة علمية كبيرة عن حياة رشيد الدين وآثاره. هذا وقد قام المرحوم الدكتور محمد القصاص بترجمة هذه المقدمة إلى اللغة العربية، تصدرت الترجمة العربية لتاريخ هولانكو خان على النحو الذي ذكرناه سابقا.

كذلك شاركت الأستاذ محمد صادق نشأت في ترجمة النص المتضمن تاريخ أبناء هولانكو خان من آبا قاقخان إلى كيخا توخان. وهذا النص سبق أن نشره بالفارسية المستشرق "كارل بان" في براغ عام ١٩٤١م. وقد صدرت الترجمة العربية أيضا في القاهرة عام ١٩٦٠م.

ثم قمت بمفردى بترجمة قسم آخر من هذا الكتاب بعنوان: "جامع التواريخ" تأليف "رشيد الدين فضل الله الهمداني": "تاريخ خلفاء چنگيز خان من أوغتاي قاآن إلى تيمور قاآن، بيروت ١٩٨٣م. وذلك عن الطبعة التي نشرها بالفارسية المستشرق الفرنسي بلوشيه " Blochet " في ليدن سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م ضمن سلسلة جيب التذكارية. وقد تم صدور هذه الأجزاء الثلاثة بإشراف أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الحشاش ومراجعتهم.

وعلى هذا يبقى من تاريخ الإلهياتيين قسم هام جدا، وهو الذي يتناول تاريخ غازان خان. ولعل هذا القسم هو أهم أقسام جامع التواريخ لأنه يتضمن الإصلاحات العديدة التي قام بها غازان وتناولت كل شؤون الحياة من إدارية واقتصادية وقضائية وعمرانية. وقد قدر لهذه الإصلاحات البقاء الطويل بعد ذلك في الممالك الإسلامية. ولا شك أن هذه الجوانب تجذب أنظار الذين يؤرخون للحضارة الإسلامية. كما تحظى باهتمام الباحثين والدارسين.

وقد لوحظ أن المؤرخ رشيد الدين ذكر تاريخ "بابلو" ضمن تاريخ غازان خان لأن "بابلو" في الحقيقة تولى الحكم لفترة قصيرة جدا لا تزيد على ستة أشهر، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ أبريل إلى أكتوبر سنة ١٢٩٤م، فرأى رشيد الدين أن يكتب تاريخ هذا الإيلخان كجزء لا يفصل عن تاريخ غازان الذي حارب بابلو وانتصر عليه، وتولى الحكم بعده في سنة ٦٩٤هـ ١٢٩٤م، وذلك على النحو الذي يطالع القارئ في الترجمة.

هذا قليل من كثير مما حواه النص الفارسي لتاريخ غازان. ويرجع الفضل الكبير في تحقيق هذا القسم أيضا إلى الأستاذ العالم المستشرق كارل بان "Karl Jhan" الذي قام بنشره بعنوان: "كتاب تأريخ مبارك غازاني: داستان غازان خان" تليف رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بسعي واهتمام وتصحيح أئبل العباد كارل بان، هرتفورد، إنجلترا سنة ١٣٥٨ هجرى مطابق ١٩٤٠مسيحي. وقد صدر المحقق هذه الطبعة بمقدمة كتبها باللغة الألمانية.

وفي عصرنا الحاضر نال كتاب جامع التواريخ حظا وافرا من عناية الأفراد والحكومات، وحدثت تطورات واتجاهات مختلفة، وكلها تؤكد ضرورة دراسة كثر من آثار الشرق التاريخي.

ونظرا للأهمية القصوى للمجلد المتعلق بتاريخ الإيلخانيين، استقر الرأي على أن يبدأ العلماء الروس بنشره اعتمادا على لؤس المخطوطات الخاصة بكتاب جامع التواريخ والم محفوظة بمكتبات العالم. ثم عهد إلى الأستاذ "عبد الكرم على أوغلي على زاده" بتحقيقه ونشره، وصدر ضمن منشورات مجمع علوم جمهورية روسيا السوفيتية الاشتراكية بأذربيجان معهد التاريخ، باكور ١٩٥٧م.

ولما كان هذا المجلد يضم قسما كبيرا يشتمل على تاريخ غازان خان، وكان لا يزال في نصه الفارسي، عقدت العزم على ترجمته أيضا إلى اللغة العربية؛ إذ رأيت أصح وأدق بالمقاس إلى غيره من الطباعات.

بقي أن نقرر أن رشيد الدين قد أنهى المجلد الأول من كتابه بتأريجه لغازان خان، وأنه لم يستكمل تاريخ الإيلخانيين؛ إذ لا يزال هناك اثنان من كبار الإيلخانيين حكما إيران بعد

أولاً : رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ

هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير ابن موفق الدولة الهمداني^(١). كان جده موفق الدولة يمش مع الخواجة نصر الدين الطوسي في فلاح الإسماعيلية بتهستان ثم التحق بخدمة هولاءكو خان علي أثر استيلائه على تلك الفلاح^(٢).

ولد رشيد الدين في همدان سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وأمضى فترة شبابه هناك في تحصيل العلوم المختلفة وبخاصة الطب. وعن طريق مهنة الطب عمل طبيباً في بلاط أبها قاجان (٦٦٣-٦٨٠هـ/١٢٦٤-١٢٨١م) ثم صار يترقى شيئاً فشيئاً إلى أن عين وزيراً في عهد السلطان غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٤-١٣٠٣م)، واستمر يتقلد أعباء هذا المنصب في عهد السلطان أوجتايو (٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م) وابنه السلطان أبي سعيد بهادر خان (٧١٦-٧٣٦هـ/١٣١٦-١٣٣٥م).

كان رشيد الدين من أصل يهودي^(٣). ثم أسلم وخلص إسلامه. وكان يسير في حياته الرسمية سير المسلم الصحيح الإيمان للكمال العقيدة. وهناك علماء لا سبيل إلى الشك في حسن نيتهم وكفائتهم شهدوا بصحة عقيدته في كتاباته وفي حياته، وأن أعماله كلها كانت خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين.

(١) انظر المزيد من التفاصيل في كتاب مؤرخ النول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني. الطبعة الأولى تأليف الدكتور فؤاد عبد المصطفى الصبيح، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م، حين كتبت في عهد وزارة رشيد الدين فضل الله الهمداني، تأليف دكتور حاشم رجب زاده، تهران ٢٥٢٥ شاعشاهي.

(٢) انظر كتاب النول في التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المصطفى الصبيح، ص ٢٢٢ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(٣) انظر فؤاد عبد المصطفى الصبيح: مؤرخ النول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ص ٩٤ وما بعدها، مجموعة خطابه هاي تحقيقي در باره رشيد الدين فضل الله الهمداني: مقاله الأستاذ عباس زوياب عويي بعنوان: سه نكته در باره رشيد الدين فضل الله، ص ١٢٢-١٢٥، طهران ١٣٥٠هـ ش، جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله الهمداني، به تصحيح و تفسيرا محمد روشن، مصطفى موسى، جلد اول، ص ٧٢ وما بعدها من المقدمة، تهران ١٣٧٢هـ ش، Walter J. Fischel: Jews in Economic and Political life of Mediaeval Islam, Royal Asiatic Society Monographs, Vol. XXII, PP. 118-125, London 1937, Encyclopaedia Judaica, Vol 13, P. Rec. Second Printing, p. 1566, Jerusalem, 1973.

دكتور حسين بنبي اسرائيل نودوشني: دين ودولت در ايران عهد مغول، حكومت الهمداني: نود مهان دو فرهنگ، جلد دوم، ص ٤٩٠-٤٩٣، چاپ اول، تهران ١٣٧١هـ ش

استمر رشيد الدين يعيش معززا مكرما. لكنه في أوائل عهد أبي سعيد وقع فريسة
للدسائس والمؤامرات التي كان يملكها له زميله في الوزارة "علي شاه الجيلاني"
وانتهى الأمر بقتله بغير حق بأمر أبي سعيد بالقرب من تبريز في جمادى الأولى
عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م، وهو في الثالثة والستين من عمره. وبذلك أنهوا حياة أحد عظماء
الحكماء والأطباء والكتاب والمؤرخين والوزراء^(١). وعلى أثر مقتله نهبت جميع أمواله
وممتلكاته، وخربت محلة "الربع الرشيدى" التي أنشأها شرقى تبريز، وأتلفت المكتبة التي كان
يضمها هذا الربع، وكانت تحوى ستين ألف مجلد^(٢).

كان رشيد الدين رجلا واسع الأفق غزير الثقافة، يعرف كثيرا من اللغات والصفات
العربية والفارسية والعربية والتركية والمنغولية. وعندما تولى غازان خان عرش المغول، وعرف
في مؤرخنا النبوغ والذكاء ولمس فيه الإخلاص والوفاء، لم يكف بتقليده منصب الوزارة
فحسب، بل كلفه بعمل أديب كبير هو تأليف كتاب جامع في تاريخ المغول. ولكي تكتمل
عناصر النجاح لهذا المشروع، وضع غازان خان تحت تصرف رشيد الدين خير المصادر
وأندرها في الإمبراطورية للمنغولية كالوثائق والسجلات التي كان على رأسها "التون ديمتر"
(الكتاب الذهبي) الذي يشتمل على التاريخ الرسمي للمغول. كذلك استطاع رشيد الدين
أن يحصل على الكثير من الروايات الشعبية التي كان يدور معظمها على لسان غازان نفسه
والأمير "بولاد جينگ سيانگ" سفير الخاقان في بلاط غازان خان. وكان كلا الرجلين قد
اشتهر بمعارفه الواسعة وإحاطته التامة بتاريخ المغول^(٣). وهكذا نهأت الفرصة لرشيد الدين
لأن يكتب كتابا مدعما بغير الوثائق، كتابا يمكن اعتباره فريدا في نوعه في تاريخ المغول
منذ أقدم الأزمنة حتى عصر التأليف.

اهتم رشيد الدين بهذا التكليف غاية الاهتمام، ووضع نصب عينيه أن ينجز مهمته على
الوجه الأكمل. ورغم أنه لم يكن متفرغا تماما لهذا العمل الشاق استطاع أن يقطع شوطا
بعيدا في تأليف هذا الكتاب الذي أطلق عليه اسم "تاريخ غازاني". وبينما كان رشيد الدين

(١) على أكبر دماغنا: لغت نامه، حاضرة مسلسل ١٢٨، حاضرة حرف و (شش لول)، ص ٤٦٩، طهران،
فروردین ١٣٤٦هـ.ش.

(٢) أدبيات ایران دو زمان سلجوقیان و خواران، تأليف بروفسور "مان ريكنا"، ترجمة دكتور بطروب زاندي، ص ١٤٧،
چاپ اول، تهران ١٣٦٤ هـ.ش.

(٣) انظر الترجمة العربية.

على وشك الفراغ من مهمته، مات فجأة السلطان غازان خان في شوال ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فتولى أخوه أوجلتايو عرش المغول، وأبهى رشيد الدين في منصبه، وكلفه بأن ينجز تاريخ المغول، وأن يستمر في إهدائه إلى غازان باعتزازها بالجميل نحو ذكرى هذا الراحل الذي فضله كان التفكير في تأليف هذا الكتاب. وفي الوقت نفسه، كلف السلطان أوجلتايو وزيره رشيد الدين بمهمة جديدة هي أن يكتب مجلداً ثانياً يشتمل على تاريخ لجميع الشعوب التي اتصل بها المغول أثناء فتراتهم.

وفي هذه المرة أيضاً استجاب رشيد الدين لطلب السلطان، وأرخ للدول التي قامت قبل الإسلام وبعده في الشرق والغرب، ورجع في استقاء مادته العلمية إلى مصادر متخصصة، كما استطاع بمساعدة العلماء الذين كانوا يقطنون تبريز والسلطانية في ذلك الوقت وكان منهم الصينيون وأهل التبت والأوزبوريون والمغول والفرنج أن يفرغ من تأليف كتابه في سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وأطلق على العمل بأكمله اسم "جامع التواريخ" فكان أقيم كتب التاريخ العامة. كما أن لعبته كبيرة في الكتابة التاريخية بأسرها. كذلك كان أول تاريخ عالمي معروف بالمعنى الصحيح، وأول مجموع منظم للتطور التاريخي لكل الأوطان التي تحتل قارة أوراسيا (أوروبا وآسيا) من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي. يقول المستشرق الروسي بارتولد: "تخذ مصنف رشيد الدين صورة موسوعة تاريخية ضخمة لم يوجد لها مثيل عند شعب من شعوب القرون الوسطى سواء أكان ذلك بأسيا أم بأوروبا. وإن مجرد الاضطلاع بتنفيذ مشروع ضخم كهذا يستد على مجهود علماء من مختلف الشعوب ليُقف مثلاً حياً للتأليف الإيجابية التي شخص عنها المغزى المغولي حين ربط بين شعوب باعدت بينها الشقة واختلاف الثقافات، وحين تهيأت الظروف الملائمة لظهور شار ذلك. وكان رشيد الدين على ثقة من أن الأجيال القادمة ستفيد كثيراً من مصنفاته"^(١).

(١) انظر بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان حاشم، الطبعة الأولى، ص ١٢٠، الكويت ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م.

أقسام كتاب جامع التواريخ:

يقع هذا الكتاب في مجلدين:

المجلد الأول: يشتمل على باين:

الباب الأول: يتولى على مقدمة وأربعة فصول في تاريخ القبائل التركية والمنغولية وأصولها مع تفاصيل مسهبة عن فروع الأتراك والمنغول وأنسابهم وأساطيرهم.

الباب الثاني: تاريخ چينگيز خان وأجداده وأبنائه وأحفاده إلى غازان خان.

المجلد الثاني: يشتمل أيضا على باين:

الباب الأول: يتولى على تاريخ لولجاتيو، وهو مفقود من جميع نسخ هذا الكتاب.

الباب الثاني: ويشتمل التاريخ العام للعالم، ويقع في مقدمة وقسمين:

القسم الأول: في ذكر ملوك الفرس، وذلك منذ عصر كيومرت أول ملوك الفرس الأسطوريين حتى آخر عهد يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين.

وهذا القسم يقع في أربع طبقات:

أ - طبقة الپيشداديين.

ب- طبقة الكيانيين.

ج- طبقة الإشكانيين.

د - طبقة الساسانيين.

القسم الثاني: وينقسم بدوره إلى الأقسام الثلاثة الآتية:

١- في ذكر تاريخ النبي ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين

والعباسيين حتى آخر عهد المستعصم.

٢- تاريخ الدويلات التي نسات في إيران على أثر ضعف

الخلافة العباسية. وهذه الدويلات هي: الغزنوية

السلجوقية الخوارزمية السلفورية (أتابكة فارس)

الإسماعيلية.

٣ - تاريخ الدول الأخرى مثل تاريخ "لونغوار" جد الأتراك -

تاريخ الخطا والصين - تاريخ بنى إسرائيل - تاريخ

الإفرتنج والقياهرة - تاريخ الهند. وهذا القسم ينتهي

بمقالة طويلة عن الديانة البوذية^(١) ومؤسسها ساكيمونى.

وكان من المفروض أن يكتب رشيد الدين مجددا ثالثا فى جغرافية أقاليم العالم. وقد أشار

السلطان لوجتايو على وزيره بتأليفه أيضا؛ إلا أنه لم يشر عليه فى جميع نسخ كتاب جامع

التواريخ. ويبدو أن المؤلف لم يكتبه أو أنه كتبه، ولكنه فقد.

(١) انجمرت البوذية بدرجة كبيرة من لهند موطنها الأصلى، وانتشرت انتشارا واسعا فى اليابان وكوريا والهند الصينية

ونيبال والتبت. انظر موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، تأليف جوزيف نيندام، ترجمة محمد غريب جودة،

ص ٤٢٦، لفظة المصرية الخاصة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

أهمية كتب جمع التواريخ:

بعد رشيد الدين بحق أكبر المؤرخين الفرس في الدولة الإلخانية وكان ينظر إلى كتابه على أنه أحسن وأكمل كتب التاريخ العام في الأدب الفارسي، وغير يمثل للانجاء إلى التأليف في التاريخ العالمي الذي ساد العصر المغولي؛ إذ كثرت فيه الموسوعات، وتعدد المكتثرون من درس الموضوعات التاريخية المختلفة حتى ليصح أن يطلق عليه بحق عصر الموسوعات.

وغن في الحقيقة إذا رحنا نكتب بالتفصيل عن أهمية كتاب جامع التواريخ والوقوف على قيمته الحقيقية، فسوف نتشعب الآراء وتطول الصفحات. ولهذا فضلنا أن نقتصر على إبراز ما يميز هذا الكتاب بالنسبة إلى غيره من الكتب.

أولاً: تبدو عقيدة المؤرخ رشيد الدين حقاً فيما كتبه عن تاريخ المغول؛ فقد كشف عن تاريخ هذه الجماعة، وأزال ما كان يكتفه من إبهام وغموض. ولا شك أن الفصول التي تتناول الحديث عن الأتراك والقبائل المغولية وعن چنگيز خان وأجداده، وانضواء منغوليا تحت لوائه والعبارة النسوية إليه، وغير ذلك من ضروب البطولة والصراع لما يعطى قصة رائعة عن الحياة البدوية التي لم تشوه بضرور المحسنات والتي تثير الرغبة الشديدة، وتلقى الأهمية الكبيرة لدى القراء الأتراك^(١).

يقول الأستاذ أحمد زكي وليدي: «اختص رشيد الدين المغول والترك لأول مرة في التاريخ بنسبتهم إلى مدينة أصيلة تجمعهم، واتسع لهم مجالاً خاصاً بهم»^(٢).

وإذن فهذا الجزء الخاص بتاريخ المغول يمتاز ورائع؛ حقق فيه مؤلفه كل ما وعد به. ونستطيع أن نشهد بأنه الكتاب الوحيد الذي نعتز فيه على أصدى المعلومات عن حياة چنگيز خان وخلفائه وعن عهدهم^(٣).

ثانياً: كان رشيد الدين من مؤرعي البلاط، والمشهور عن هؤلاء أنهم كان يهمهم قبل كل شيء إرضاء السلاطين والأمراء وعبادتهم بما يريدونه، وكتابة ما يوافق أغراضهم

(١) بارتولد: مجلة العالم الإسلامي من ٩٩ Mir Islatom.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، عالم الإسلام باللغة التركية، ج ٩٨، ص ٢١٠، استانبول ١٩٦٣ م.

(٣) جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، تاريخ هولاندر، مقدمة كاترمير، ص ١٠٠، القاهرة ١٩٦٠.

وميوهم؛ فكان لا بد أن يظهر في تأريخهم التحيز والتملق وإخفاء الحقائق. فهل كان رشيد الدين على شاكلة هؤلاء، وهل استطاع ككتاب مسلم أن يتجرد من التعصب عندما كان يتصدى لكتابة تاريخ الأمم الوثنية واليهودية والمسيحية، والذي كان يتعارض تعارضا تاما مع نصوص القرآن ومبادئ الإسلام؟.

للإجابة عن هذا السؤال نقول: على الرغم من أن رشيد الدين كان مؤرخا للباطل، فإنه انتمز الحياء الترهه بقدر استطاع؛ فهو معجب بالمقول، يشيد بأعمالهم، ولكن دون مبالغة ولم يمنعه قط اتصاله بالمقول من أن يقول فيهم كلمة الحق؛ فكان يمكنهم الفظيعة وإسرافهم في القتل. يقول في هذا الشأن: "لا يخفى على من تتبع التواريخ الصحيحة وسلك الطريق المقبول أنه لم تكن البلاد مطلقا أكثر خرابا مما كانت عليه خلال هذه السنوات، خصوصا في المواضع التي وصلت إليها جيوش المغول؛ إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام چنكيز خان وذريته، لم يتسر لأى ملك مثل هذه المظلة الفسيحة التي سخرها وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد في العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء المغول".^(١)

أما كيف أرخ رشيد الدين للأمم غير الإسلامية فهنا أيضا مما يدعو إلى الإعجاب والتقدير، فرغم أنه يرهن على تسكته بالإسلام، إلا أنه كان يتجنب الطغطنة والتعصب وظل وثقا من نفسه طول الوقت؛ إذ كان يعتقد أنه من الضروري أن تعرض تقاليد كل قوم حسب الصورة التي يحفظ بها الناس هذه التقاليد. يقول في هذا الصدد: "على المؤرخ أن يكتب تاريخ كل قوم كما يبدو في زعمهم، وليس عليه أن يزيد فيه أو ينقص منه، فإذا كان حقا أو كان باطلا، فليقل كما هو في اعتقاد كل طائفة؛ وذلك يلغى عبء مسغولية الزيادة والنقصان والحق والباطل في ذلك التاريخ على أصحابه لا على المؤرخ. وإننى أعود وأكرر هذا المعنى هنا أيضا حتى لا لأخذ على ما يبدو غير مقبول وغير مستساغ، وحتى لا يمتد إلى لسان الطعن فأعترض في هذا المعنى إن شاء الله الواحد العزيز"^(٢). وعلى ضوء هذا الاعتراف الصريح يمكننا أن نقرر أن رشيد الدين لم يكن يعرف النقد التاريخي؛ ونعنى به

(١) انظر ترجمه.

(٢) جامع التواريخ: مخطوط للكتابة الأولية بطهران، ص ١٣٦.

النظر في التاريخ بعين النقد وبيان ما قد يتوره من المغالط والأوهام^(١). يقول بارتولد "حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من روايتها بدون تغيير؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخاً علمياً بالمعنى المفهوم اليوم، إلا أنه يشغل في آداب العالم مكانة متازة من حيث اتساع دائرته. ولم تر اجتماع علماء جميع الأمم المنحصرة في العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام في كتاب واحد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده.

وقد كان علماء أوروبا حتى القرن التاسع عشر يرددون أن ينهسوا من التاريخ العام تاريخ أوروبا الغربية فقط. ومن رواية أحد مساعدي رشيد الدين من كتاب المسلمين يبين أنه منذ ابتداء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كان ينظر إلى تاريخ العرب والفرس كأنه "أحد الأنهر التي تنصب في بحر تاريخ العالم العام"^(٢).

ثالثاً: أتبع لرشيد الدين فرصة الاطلاع على الوثائق المكتوبة واستخدامها على نطاق واسع في استقاء المادة العلمية لتأليف كتابه. أما سلفه عطا ملك الجويني^(٣) فعلى الرغم مما كان يتمتع به كتابه "جهانگشاي"^(٤) من شهرة كبيرة في التأريخ للمغول، كانت نفسه هذه المرة؛ إذ كان اعتماده على الرواية الشفوية. كذلك عندما أرخ رشيد الدين لشعوب العالم المختلفة، كان يستقى معلوماته من أوثق المصادر، ومن أفواه العلماء الثقات والمتخصصين في تاريخ كل أمة. ومعنى هذا أن رشيد الدين اعتمد الرواية الشفوية أيضاً مصدراً من مصادر التعرف على التطورات السياسية والتاريخية. ولو لم يكن رشيد الدين ثقة

(١) انظر جرجي زيدان: تاريخ كتاب اللغة العربية، ج ٣، ص ١٤٨، القاهرة ١٩٣١م.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثة، ص ١٦٩ - ١٣٠، نشر دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.

(٣) انظر المزيد من التفصيلات عن هذا المزيج في المقدمة لظولا التي كتبها العلامة محمد بن عبد الوهاب قزويني، علق كتاب تاريخ جهانگشاي، ج ١، لندن ١٣٢٩هـ - ١٩١١م عطا ملك الجويني وكتابه جهان گشا تأليف الدكتور السبيعي محمد السبيعي، ص ٧ وما يتبعها، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية، تأليف الدكتور محمد السيد جمال الدين، ص ٥ وما يتبعها، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٦م.

(٤) أي، فتح العالم والفراد به بيسگيز خان.

في كل ما كتب لما أشاد به معاصروه ومن جاؤا بعده، ولما قلده كثير من المؤرخين بعد مماته.

رابعا: - ترد بالكتاب إشارات جغرافية هامة عن مناطق كثيرة كانت مجهولة لدينا! لأننا إذا لاحظنا أن الأقاليم التي استطاع رشيد الدين أن يجمع عنها المعلومات الإيجابية الصحيحة هي الأقاليم التي لم تكن معروفة لنا قط، وهي الرقعة الممتدة من بحر قزوين حتى الأطراف الشرقية، وتحتل وسط آسيا جميعه، وتذهب حتى حدود الصين. وفي هذا العهد، كانت تلك الأقاليم تكون جزءا من الإمبراطورية المغولية. وقد وصفها رشيد الدين أدق وصف وأصدق، وأضاف إلى ملاحظاته الشخصية القيمة ما استطاع أن يجمعه عن مواقع المدن وطبيعة الجو وحاصلات الأرض والعادات والتقاليد الخاصة. يقول كراشكوفسكي: "في العصر المغولي بلغ الأدب الجغرافي باللغة الفارسية أوجه، وتبين لنا من خلال فحص مصنف رشيد الدين المشهور "جامع التواريخ" الذي وإن كان في جوهره أثرًا تاريخيا صرفا، إلا أنه يمكن اعتباره بنفس القدر مصنفا في الجغرافية التاريخية أيضا"^(١).

خامسا: - وفق رشيد الدين في إعطائنا معلومات مفيدة في بعض الأقسام التي يحتويها المجلد الثاني المتعلق بالتاريخ العام قد لا نجدها في غيره من المصادر! فقد أفاض في الحديث عن طائفة الإسماعيلية، وذكر خلاصة واقبه لكتاب "سرگذشت سيدنا"^(٢) الذي يشتمل على معلومات قيمة عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هذه الجماعة. فكانت هذه الخلاصة إلى جانب الخلاصة التي كتبها عطا ملك الجويني في الجزء الثالث من كتابه تاريخ جهانگشاي في غاية الأهمية والقيمة^(٣). ولا فرو أن يكون القسم الذي كتبه رشيد الدين عن هذه الطائفة أحسن ما كتب عن الإسماعيلية^(٤).

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي: القسم الأول، تلمذ إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، ص ٢٧٥، القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) أي "سيرة سيدنا" والرد سيدنا عنا الحسن بن الصباح مؤسس فرقة الشيعة الإسماعيلية في إيران.

(٣) انظر تاريخ جهانگشاي، ج ١ ص ١٢٥ من مقدمة المحقق محمد بن عبد القويوم القزويني، لندن ١٣٢٩هـ - ١٩١١م.

(٤) انظر جامع التواريخ: قسمت اسماعيليان وعلمايان ووزيريان ودايميان ورفيضان، تأليف خواجه رشيد الدين فضل الله مصلاني بمرورش محمد علي دانش يزوه وعبد مفرس (زنجاني) ص ١٢ من مقدمة المحققين.

كذلك أمكننا أن نعرف من هذا المجلد معلومات مفيدة بهمتنا أن نحيط بها، فهناك مثلاً إشارات عن إقليم التبت واعتناق أهلها البوذية وارتفاع شأن هذا الإقليم عند المغول؛ لأن البوذية كانت تنتشر منه، وتجذبهم إليها^(١). ويقرر رشيد الدين أن كهان التبت كانوا أعظم كهان البوذية مكانة خصوصاً في عهد قوبلاي^(٢). كذلك يذكر هذا المؤرخ معلومات مفصلة عن فن طباعة الكتب الذي كان معروفاً في إيران كما كان معروفاً في الصين منذ زمن بعيد.

وإذا انتقلنا إلى القسم الذي كتبه رشيد الدين عن الفرنج، فإننا سوف نجد أيضاً يشتمل على معلومات مفيدة ومثيرة للعشّة في ذلك الوقت. يذكر أربري Arberry أن الجوانب العديدة لثقافة رشيد الدين كانت متصلة عميقة بالنسبة إلى دارس كان يمشي في العصور الوسطى؛ فهذا المؤرخ كان يعرف قصة الكفاح بين البابا والإمبراطور، وأن أسكتلندا تدفع الضرائب لإنجلترا، وأنه لا توجد ثمانين في أيرلندا^(٣). وأما كارل فان فيصرح قائلاً: "بالرغم من أن تاريخ الفرنج تمتع ببراء كبير في التفاصيل الممتعة التي ذكرها رشيد الدين، يمكننا أن نقول بوجه عام من وجهة النظر التاريخية: إن ما كتبه لا يكاد يأتي بمعلومات جديدة أو غير معروفة تميد البحث في تاريخ أوروبا في القرون الوسطى. ومع ذلك فإن هذا الكتاب في نظر المحققين، يصف بدقة الأذكار الخاصة بالعالم كما كان يتصورها المسلمون المتحضرون في القرن الرابع عشر للميلادى (الثامن الهجرى)، وهي صورة تدل بوضوح تام على أن وجهة نظر المسلمين في ذلك العصر في الجغرافيا والتاريخ كانت تتمتع باتساع والفتاح يفوق بكثير وجهة نظر الأوربيين^(٤)."

كذلك عندما تحدث رشيد الدين عن تاريخ الهند بسط الحديث في جغرافية هذه البلاد، وشرح مختلف العادات والتقاليد والأديان التي كانت تسود هناك^(٥).

(١) انظر مقالة العارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص ٣٠.

(٢) انظر جامع القوتوب، جلد دوم: در تاريخ باد شادان مغول از نوگنای لادن تالبور لادن، تحقيق باروشه، ص ١٥٠
ترجمة العربية لهذا القسم، ص ٢٩٨.

(3) Classical Persian Literature, P.156 on Din, London, 1958.

(٤) تاريخ الفرنج بالعسلى از جامع القوتوب، تأليف حواجه رشيد الدين فضل الله وزير همدانى، بما مقدمه وحوليات ولها رس يکوشش محمد دبير سبلى، ص مقارده (١١)، مدخل "كارل بان"، تهران ١٣٢٩ هـ. ش ١٩٦٠ م

مجموعه خطابه هاى شهبلى در باره رشيد الدين فضل الله همدانى: مقاله كنيها "كارل بان" باللغة الإنجليزية بعنوان

Rashid ge of Europe, PP. II 25, Tehran, 1971.

(٥) انظر نفس المصدر السابق، مقاله كنيها بالإنجليزية، K.A.Nizami، طهران:

وعلى هذا النحو يكون رشيد الدين قد نهج في تأليف كتابه نهجا خاصا؛ إذ لم يتبع النهج الذي سار عليه بعض المؤرخين من العرب والفرس اللذين كانوا يعرفون أن التاريخ العام هو التاريخ للأُمم الإسلامية فقط، بل إنه كان يرى بحق أن التاريخ العام يجب أن يشمل وقائع الحياة لجميع أمم العالم المعروفة في العصر المغولي، فيكون مشتملا على تاريخ الشعوب ابتداء من المغرب حتى الصين في الشرق^(١). وإذن فرشيد الدين مؤرخ لا مثل له في تعدد مصادره واتساع ثقته، ولن نلتقي بمؤلف مثله لا في هذا العصر، ولا في العصور التالية بما لج تاريخ العرب والفرس باعتباره "جغولا من الجداول المعديدة التي تصب في بحر التاريخ العثلي"، ويعمل جاهدا في ترويب مادته من وجهة النظر هذه^(٢). وعلى هذا يمكننا أن ندرك دون مشقة مقدار الخدمات الجليلة التي أداها رشيد الدين للباحثين حين قدم لهم هذا السفر الضخم المشتمل على التاريخ الصحيح لجميع البلاد المعروفة في العالم حتى ذلك الحين. فهنا المؤلف يجمع بين سعة المعارف التي لا حد لها وحاسة النقد المستمرة ويستعصي عن الأخبار الأسطورية التي كانت شرة الجهل والسلاجة بأعبار صادقة. ولذلك يجب أن يحرص على قراءته بشغف كل لولئك الذين يرغبون في تحصيل المعارف الحققة، ويفضلون ذهب الحقيقة على مرقب الغرائب والأخطاء^(٣).

سادما: عدل رشيد الدين عن التاريخ حسب نظام الحوليات، وتجنب حشد جملة من الأحداث توضع تحت كل سنة، وتتصل بدول وشخصيات مختلفة لا تجمعها رابطة، ولا تقوم بينها صلة؛ فتأتي مبعثرة مشتتة لا يحصل منها على غرض. وفي بعض التواريخ قد نطفي أخبار الوفيات على الحوادث السياسية حتى لتضامل هذه، وتقتصر في الغالب على جمل قليلة مقتضبة؛ فيترتب على هذا أن تصبح مهمة الباحث شاقة عسيرة إذا أراد تقصي الموضوع والإفهام بأطرافه من كل جوانبه. أما رشيد الدين فقد أرخ حسب الموضوعات وتناول تاريخ كل دولة وفقا لترتيبها التاريخي. وهذه الطريقة أقرب إلى الدقة وحسن التنسيق. كما أنها تساعد الباحث في الحصول على المعلومات التي يريدها في يسر

«Rashid-al-Din Fedi Allah and India, PP. 36-53.

(١) تاريخ إيران لا دوران باستان تابستان سنة هجرتهم ميلادي، تأليف ن. و. بيكولوسكايا وآخرين

ترجمه كريم كشاورز، ص ٣٠٥ تهران ١٣٥٤ هـ

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تأليف كراتشكوفسكي، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان مخلص،

القسم الأول، ص ٣٩٦، القاهرة ١٩٦٣ م.

(٣) جامع قرايخ، المجلد الثاني، الجزء الأول: تاريخ هولانكو، مقدمة كتريمر، ص ٩٦، القاهرة ١٩٦٠ م.

وسهولة. وإذا كان قد وجد قبله من المؤرخين من دونوا التاريخ فصولا متصلة، فإنه يمتاز عنهم بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات، ووضع الفهارس وإدراك الجزليات إدراكا دقيقا والتوفيق في ربط الحوادث وتسبيق الوقائع التاريخية. هنا فضلا عن أن كتابه - كما سبق أن رأينا - سجل جامع لأخبار أرم الشرق والغرب، يتحدث عن الحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة، يتلو بعضها بعضا إلى وقت تأليفه.

سابعاً: يتميز كتاب جامع التواريخ أيضاً بسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة وحسن التعبير والبعد عن التصفيد والقموض؛ فرشيد الدين لم يحاول أن يتكلم في كتابه بأساليب البيان والصنائع البديعية، تلك الآفة التي اجتلى بها التاريخ، فأخرجته في كثير من الأحيان عن الغرض الذي وضع من أجله. مثلما فعل مفاصره وصديقه "وصاف الحضرة" فعلى الرغم من أهمية كتابه "تاريخ الوصاف" في التاريخ للعصر المرفول في الفترة ما بين فتح بغداد وأواسط عهد السلطان أبي سعيد أي حتى سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م، نراه قد أفرط في استعمال الصناعات اللفظية وحشد كتابه بأبيات الشعر وأبيات القرآن والتباسات من عبارات البلاغ والأدباء فقلل ذلك كثيراً من قيمته والاتضاع به^(١١). أما من يقرأ كتاب رشيد الدين، فإنه يستطيع أن يحصل على مراده في يسر وسهولة، ولا يشعر بسأم أو ملل. هذا ويلاحظ بصفة عامة أن أسلوب جامع التواريخ يجرى على نسق واحد في أغلب أجزائه. أما عندما ينقل مؤلفه أو يقتبس من كتب المؤرخين الإسلاميين فإن الأسلوب يتأثر قليلاً، ويأتي مشابهاً لما هذه في المصادر، ولكن هذا كان يحدث في نطاق ضيق ومحدود، ويقتى بعد ذلك طابع أسلوب رشيد الدين هو الطابع الغالب. يقول المستشرق ريبكا: "كتاب جامع التواريخ الذي كتب بأسلوب سهل سلس له أهمية عالمية. والمجلد الأول المشتمل على تاريخ المرفول الذي يفصل جزئيات أكثر والمطالعات أوفى وأجمع، يعادل في قيمته سائر الكتب المشابهة لا سيما الكتب الصينية والمرفولية"^(١٢).

(١١) ثلاثي هذا مختصر قام الأستاذ عبد الحميد لبي في طهران بعمل يشكر عليه إذ صلي تاريخ الوصاف من كل أنواع هذا المفسر، والمفسر على الرواية التاريخية فقط، وذلك في دفة واحدة فأسدى بذلك للعلم عمدة جليله، ونشر هذا الكتاب تحت اسم: "تاريخ الوصاف"، طهران ١٣٤٦ هـ.ش.

(١٢) أنهيات إسراف مر زمان سلجوقيان ومغولان، ترجمة دكتور مضمون لزانف، طهران أول، ص ١٤٨ هـ.ش. تهران ١٣٦٤ هـ.ش.

بقي أن نقول في صراحة إذا كان كتاب جامع التواريخ قد ساء من التكلف والتعقيد فإنه قد طغى عليه سيل جارف من الألفاظ المغولية والتركية تتعلق بالإدارة ونظم الحكم وعادات الملوك وتقاليدهم، شأنه شأن غيره من الكتب التاريخية التي ألفت في تلك الفترة. وفي الحقيقة بدأت تلك الألفاظ تسرب إلى اللغة الفارسية منذ عهد السلجوقية والأتراك الغز والقراخانيين وآل أفراسياب. ولكن هذا التأثير كان محدوداً في عهود هذه الدول بالقياس إلى ما صار عليه الحال في العصر المغولي^(١). ولا شك أن هذه الألفاظ المغولية والتركية الكثيرة تحتاج من المترجم مزيجاً من البساطة والدقة حتى يصل إلى تحديد معناها الدقيق باللغة العربية. وفي سبيل تحقيق ذلك، عليه أن يطلع على المزيد من الكتب والمعاجم المتخصصة.

ثامناً: لم تقتصر قيمة كتاب جامع التواريخ على الناحية التاريخية والجغرافية فحسب، بل صارت له قيمة فنية كبيرة؛ إذ أن ازدهار فن التصوير يرجع إلى حد كبير إلى هذا المؤرخ بل إن أكثر صور المدرسة المغولية توجد ممثلة في مخطوطات كتابه جامع التواريخ. وتبدو أهمية هذا الكتاب من الناحية الفنية على وجه الخصوص إذا ما لاحظنا أن أكثر مؤرخي العرب والفرس قبل رشيد الدين كانوا يعولون في تعريف أبطال التاريخ على الأوصاف المجردة من إطرأ أو إعجاب، ويندر أن يسيروا إلى وصف المظاهر الطبيعية أو الصناعية أو الأبنية أو غيرها من المراتب ولا كانوا يصورون المواقع ولا الرجال لكرامية الإسلام للتصوير؛ فترتب على ذلك نقص هام في التصوير العربي لخلو كتبه من الخرائط أو الرسوم أو الصور المنقولة من الطبع^(٢).

أما إيران فكانت في طليعة الأمم الإسلامية التي لم يؤثر فيها تحريم التصوير تأثيراً كبيراً على الرغم من أن الفقهاء في هذا البلد، كانوا يكرهون التصوير والتصويرين. ويرجع تركيز التصوير الإسلامي في إيران إلى أن الإيرانيين شعب ميال إلى الفن بفطرته، وإلى أن أكثر الإيرانيين كانوا من ذوى المهبط العقلي الواسع والأفكار الحرة والتسامح الديني؛ إذ كانوا يرون أن تحريم التصوير في فجر الإسلام إنما كان يقصد به محاربة عبادة الأوثان. أضف إلى ذلك أن الإيرانيين ورثوا عن أسلافهم أساليب فنية في النقش والتصوير. والواقع أن كتاب

(١) عباس إقبال: تاريخ متصل لإيران، جلد أول، فر حفة چنگیز تشکیل دولت تیموری،

ص ٥١٥، طهران ١٣١٢ هـ.

(٢) انظر جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٣، ص ١٥١، القاهرة ١٩٣١ هـ.

جامع التواريخ بعد من تقدم للمخطوطات التي تشتمل على صور دينية. هذا إلى جانب مناظر القتال والمعارك، والمناظر التي تمثل حكام الممّول بين أفراد أسرهم وحاشيتهم^(١).

وأكبر دليل على اهتمام رشيد الدين بالفنون بصفة عامة والتصوير بصفة خاصة أنه أنشأ بالقرب من تبريز ضاحية جديدة أسماها "الربيع الرشيدى"^(٢) أقام بها المنازل والحوانيت ومصانع الورق والفنادق والمستشفيات، ومكتبة ضمت ٦٠ ألف مجلد من الكتب العلمية والفنية باللغات المختلفة. واستقدم رشيد الدين إلى ضاحيته الجديدة رجال الفن وأرباب الصناعات من مختلف الجنسيات. ولقيت أيضاً فى "أحياء أهل العلم" مساكن احتشد بها عدد يتراوح بين ستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة من الأساتذة والطلاب. وكانت فنون الكتابة بصفة خاصة أحب الفنون إلى رشيد الدين. وعهد إلى مهرة الخطاطين والمصورين بنسخ عدد من المؤلفات المختلفة وتصويرها. وفى مقدمتها جميع مؤلفاته^(٣). هنا وبذكر صاحب تاريخ الوصاف أن رشيد الدين أتفق أكثر من ٦٠٠٠٠ دينار فى النسخ والتحرير والزخرفة والتصوير والتجليد^(٤). ولم تقف جهود المؤرخ عند هذا الحد، بل إنه يوقف

(١) انظر فنون الإسلام، تكليف الدكتور زكى محمد حسن، الطبعة الأولى، ص ١٦٤-١٦٥، ١٦٦، الفقرة ١٩٤٨
 قصور وأعلام المصورين فى الإسلام، مقالة لنفس المؤلف، ص ٩، خدمة الملتصق السنوية بعنوان
 ترواح جديدة من ثقافة الإسلام، الفقرة ١٩٣٨.

(٢) للحصول على مزيد من التفاصيل عن الربيع الرشيدى انظر مكتبات رشيدى، حررها نخواجه رشيد الدين
 فضل الله طيب، بسى والانتقام وتصحيح محمد شفيق، ص ٥٢-٥٦، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٢٩-٢٣١، لاهور
 ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م زمرة القلوب، تكليف حمد الله مستوفى قزوئى، بما مقابله وعواشى وتطبيقات وفهارس
 بكوش محمد دبير سياتى، ص ٨٧، تهران ١٣٣٦هـ. فى الكتاب المذكورى (باندانه) لتخليد ذكرى
 "كيشاه يراتى"، مقالة محمود عرفان بدوان: "بزرگترین نبياد خير در ايران"، ص ١٨-٢٠، بهساي ١٩٤٨م
 مجموعة خطابه هاى شفيقى در بارة رشيد الدين فضل الله عبقلى، مقالة محمد رحمانا بدوان:
 "رشيد الدين و ربيع رشيدى"، ص ١١٢-١٢٢، طهران ١٣٥٠هـ. فى عبيد عبقلى كارنگى:
 آثار باستانى كور باستان، جلد اول: آثار وأبنية تاريخى شهرستان تبريز، ص ١٦٢ وما بعدها
 تهران ١٣٥١ هـ.ش.

(٣) انظر كتاب فنون الإسلام، تأليف م. س. صيانت، زمرة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد ذكوى
 طبعة الثالثة، ص ٤٧، الفقرة ١٩٨٢.

(٤) انظر كتاب تاريخ الوصاف، تكليف لبيب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى، للكتب بوصاف الحضرة،
 ص ٥٢٩، طبع بهساي.

على الربع الرشيدى الأوقاف الكثرية من أملاكه وثرواته الطائلة للصرف على المؤسسات التي يضمها هذا الربع وعلى نزلاته من مختلف الطوائف والطبقات، وسجل كل هذا بنفسه بفاية اللغة والتفصيل في سجل وقفية الربع الرشيدى "وقفنامه ربع رشيدى"، وذلك وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية. ولحسن الحظ سلمت هذه الوثيقة من الضياع، وأمكن تصوير نسخة منها نشرت في طهران بإشراف عالين فاضلين هما مجتبي مینوی وهرج انشار سنة ۱۳۵۰هـ. ش ۱۹۷۲م.

وفي الحقيقة لم يكن رشيد الدين مؤرخاً فحسب، بل كان كذلك عالماً أديباً له مؤلفات عديدة امتدت إلى كثير من أنواع المعارف الإنسانية؛ فقد ألف في الطب وفي علم الأحياء والاقتصاد الزراعى والدين والأدب، وترك في كل ذلك آثاراً قيمة إلى جانب مؤلفه التاريخى، مما يهض دليلاً قوياً على عظمة هذا الرجل وعمق تفكيره^(۱). تقول "دوروتيا كرافولسكى": "لم يكتب رشيد الدين فى التاريخ فقط، بل ترك أعمالاً ذات طابع كلامى وفلسفى. وهو يظهر فى هذه الأعمال سبباً متشدداً"^(۲).

وإلى جانب هذا الصوق العلمى البارز - الذى كان يزده خلق طبيب كريم - عرف عن رشيد الدين براعة التخطيط وحسن الإدارة وتقديره للعلم والعلماء. ونحن لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن رشيد الدين كان آخر نجم لمع فى سماء دولة الإيلخانيين؛ فقد صارت الأمور بعد رحيله تخطفى سرعة نحو الاختلال والتدهور ثم الانهيار.

بهذا نكون قد انتهينا من الحديث عن رشيد الدين وكتابه جامع للتواريخ، ونتقل - فى الصفحات التالية - إلى الحديث عن رشيد الدين وتاريخ غازان خان.

(۱) للحصول على معلومات مفصلة عن مؤلفات رشيد الدين الأخرى انظر: جامع للتواريخ، تاريخ للفول المجلد الثامن، الجزء الأول الإلهاسيون: تاريخ هولاسو، طبعة كترسبر، ص ۱۱۳ - ۱۶۵ ترجمة الدكتور محمد التماس، القاهرة ۱۹۶۰م؛ مؤرخ للفول الكبير رشيد الدين فضل الله لعللى، ص ۳۷۳ وما بعدها؛ وقفنامه ربع رشيدى نشر رشيد الدين فضل الله بن أبى الحسن بن عماد المصلى، مشتهر به رشيد الطب، زير نظر مجتبي مینوی، ابرج انتشار، ص ۲۱-۲۲، تهران ۱۳۵۰هـ. ش.

(۲) مسلك الأبهسار فى مسلك الأبهسار: دولة للمالك الأول لابن فضل الله المصرى: دراسة وتطبيق دوروتيا كرافولسكى، مشهد، ص ۲۳، ترجمة العربية.

ثانياً : رشيد الدين وتاريخ غازان

كان عصر المغول أحفل العصور بالمؤلفات التاريخية. ومن المسلم به أن جامع التواريخ هو أفضل وأجمع هذه المصادر. وقد لورد رشيد الدين معلومات قيمة بعيدة عن الغرض والموى والتعصب بقدر المستطاع، وتبع غاية الدقة في وصف المسائل السياسية والاجتماعية. فهذا المؤرخ الذي كان يعمل في خدمة المغول لا يستطيع أن يخفي وحشية چنګيز خان وقسوته. وكان لا يتردد في الكشف عن الجوانب المظلمة والمجحفة بحق الأقوام المغلوبة على أمرها. وإذا كان ينسب على چنګيز خان وأعقابها؛ فإنه يبدو من الواضح أن هذا لم يخرج عن مراعاة موقفه الدقيق الذي يقتضيه أحياناً أن يعضض عينه عن الحقيقة المؤلمة و فقط يبدو أن مدحه وثناؤه على غازان كان نابعا من صميم قلبه وحقيقة شعوره نحو هذا العاهل المغول^(١).

وإذا كانت عبقرية رشيد الدين كمؤرخ قد تجلت في تأريخه بچنګيز خان، فإنها لتجلى أيضا بصورة أتم وأشمل في تاريخه لغازان خان. يبدو ذلك واضحا في إحاطته الكاملة بجميع أطراف حياة هذا الرجل منذ ولادته حتى وفاته، وتبع ما تم في عهده من إصلاحات؛ فالأقوال التي وردت في هذا الشأن لم تذكر في أي مصدر آخر على نحو ما نراه في مؤلف رشيد الدين من الإفاضة والتفصيل.

وفي الحقيقة حينما أراد رشيد الدين أن يؤرخ لغازان خان، نحس أنه قد أخذ على عاتقه تسجيل هذا السلطان؛ ورأى من واجبه الأول أن يبرز تلك الشخصية في صورة كاملة من شتى جوانبها، فكان فيما كتبه عنه موفقا غزير المادة. ولقد مهد له منصبه الرسمي - الذي كان يشغله أن يكون على علم تام بكل التفاصيل والتنظيمات المعمول بها في حكومة المغول. وعندما ذكر قصة إصلاحات غازان خان، كان على مقربة منها، وواقفاً على دقائقها وتفاصيلها وشاهد عيان لكل ما تم من إنجازات، ومشيرا بالرائى السديد والتفكير والعقل الراجح كي تؤتي هذه الإصلاحات شأرها الهانمة وتحقق هدفها المنشود. وهكذا كتب رشيد الدين قصة الإصلاحات هذه بدرجة تفوق المادة الغزيرة التي كتبها في الأجزاء الأخرى من كتابه، وبصورة حية صادقة قلما نصادفها في العصور الوسطى بين المؤرخين في آسيا وأوروبا^(٢).

(١) انظر بسرعة خطابه حاي شليفي در باره رشيد الدين فضل الله صديقي: مقاله بعنوان: بررسی اوضاع اجتماعی ایران از خلال جامع التواريخ بقلم د. خرين ياني، ص ٦٠، طهران ١٣٥٠ هـ.ش.

(٢) بارتولد: مجلة العالم الإسلامي، ص ٥٤.

وغير في الحقيقة لا نستطيع أن نأخذ على رشيد الدين ما كتبه عن غازان بذلك الصورة التي قد لا تخلو أحياناً من الخلفاء، وذلك لسبب بسيط هو أن مؤرخين من "العصرين أو اللاحقين" قد أجمعوا على شجيد غازان خان والإشادة بما قام به من إصلاحات وذلك من قبيل الوصاف والبنائكي وحمد الله المستوفي القزويني ومحمد ابن علي الشهبانكاري وحمد بن هندوشاه النخجواني ومير اخواند وخواندمير فهؤلاء قد أثنوا على غازان خان ثناء عاطفياً وأشادوا بما قام به من إصلاحات. أما للمستشرق الفرنسي جروسيه^(١) "Grousset" فقد راح ينتهم رشيد الدين بالتحيز لغازان إلى أقصى حد، إذ زعم أن هذا المؤرخ كان مبروراً على إخفاء عيوب هذا الإلهمان، وعلى العكس راح يطرى بحماسة بمبالغته تامة. ونحن لا نوافق جروسيه على هذا التعميم.

أول ما نلاحظه على تاريخ غازان خان هو أن مؤلفه رشيد الدين كان يستشهد بالعديد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأبيات الشعر العربي والأقوال المأثورة لتأييد وجهة نظره. وكان يضع كل ذلك في موضعه المناسب. ولا غرو فقد كان رشيد الدين يجيد اللغة العربية، ويؤلف بها، وبعد من المتأخرين من أصحاب اللسانين الفارسي والعربي. وإذن فليس بصحيح ما ذكره الأستاذ عباس الحلوي^(٢) من أن عربية رشيد الدين كانت ركيكة ضعيفة. ولما كان غازان خان يعرف جيداً تفوق رشيد الدين في اللغة العربية، كان يصحبه في حملاته على الشام ليحرر المنشورات بهذه اللغة، بحث فيها المدافعين عن المدن والقلاع على المبادرة بالتسليم حقناً للدماء فكان هذا يحدث أثره الفعال وبحق غازان غرضه المنشود دون قتال^(٣).

أما عن الموضوعات الرئيسية التي اشتمل عليها تاريخ غازان خان، فإنه يمكن حصرها في الأقسام الثلاثة الآتية:

(١) إمبراطوري صحرا نوردان، ترجمة عبد الحسين ميكله، چاپ سوم، ص ٦٦٨، تهران ١٣٦٨ هـ.ش.

(٢) القصر يصف بالزورعين (١) في عهد الرسول وقر كسان (٦٠١ هـ - ١٢٠٤ م) : (٩٤١ هـ - ١٥٢٤ م)،

ص ١٤٦، بغداد ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

(٣) انظر الترجمة العربية.

القسم الأول- يتنص بحياة غازان خان منذ ولادته ونشأته وتربيته تحت إشراف جده أباخان خان، وإعداده للمهمة الخطيرة التي تنتظره. وقد عهد به إلى أحد كبار العلماء من الخطباء يشرف على تربيته ويعلمه الخط المنقول الأويغوري والعلوم والآداب. وفي مدة خمس سنوات، استطاع أن يتقن تلك المعارف. وبعد أن حصل هذه العلوم، شرع في تعلم الفروسية والرماية، وحفف بالصيد والقتل والرماية والتنقل والإرغال.

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيّد لها عدة معابد في خراسان. وكان يسر كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين يتسمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى إيران في جماعات كبيرة منذ فرض المغول سلطانهم على هذه البلاد^(١).

ولما اعتلى أرغون والد غازان عرش إيران، اختار ابنه ليكون نائباً عنه في حكم إقليم خراسان، وعهد إلى "نوروز" بأن يكون ملازماً لغازان ومساعداً له في إدارة هذا النصف المأم. ولكن بعد مدة خرج نوروز على طاعة غازان، وجهر بالتمرد والعصيان. فما كان من غازان إلا أن حاربه بشجاعة واستبسال. ولما وجد نوروز أنه لا يقوى على مقاومته، أعلن الخضوع، وقدم فروض الطاعة، فعفا عنه غازان وضمه إلى صفه، وصار واحداً من أخلص أتباعه إلى أن حقد عليه غازان بعد اعتلائه العرش وعمل على التخلص منه.

كذلك مما يسترعى النظر في هذا المقسم أن رشيد الدين قد أبرز شجاعة غازان عندما وصل رسل جيخاتو خان (٦٩٠ هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤م) ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "أباجو"^(٢) والأدوات المخصصة به من الورق الأبيض والأخضر وغير ذلك بقصد ترويح هذه العملة في خراسان. وكان غازان في ذلك الوقت نائباً ونائباً عن عمه جيخا توخان في إدارة هذا الإقليم، وهو نفس المنصب الذي كان يشغله في عهد أبيه أرغون، فقال غازان: إنه لا يشاء للأكلات الحديدية والأسلحة في مازندران وما جاورها من مناطق بسبب جوها الشديد الرطوبة، فكيف يمكن أن يبقى الورق دون أن يطف؟! .. ثم أمر بإحراقه شاماً، وامتنع عن تنفيذ قرار السلطان جيخاتو^(٣). كذلك تضمن هذا المقسم نزاع غازان مع هانلو وقيام الحرب بينهما.

(١) الدعوة إلى الإسلام، تأليف سير تومسكي. و. فرنولد، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص ٢٦٣، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٧م.

(٢) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه العملة الورقية في كتاب الشرق الإسلامي، ص ٢٦١ وما بعدها.

(٣) انظر الترجمة.

ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضًا هو أن رشيد الدين زُود الفارسي بتفصيلات ولحبة عن الحدث العظيم الذي غير مجرى حياة غازان ومن جاء بعده من حكام المغول في إيران، ألا وهو اعتناقه الإسلام بناء على مشورة نوروز وانخافه هنا للدين - لأول مرة - دينًا رسميًا لدولة المغول في إيران.

والواقع أنه قبل غازان خان، كان في الإدارة الإلخانية بـإيران تياران يتنازعان حول الصورة التي ينبغي أن تكون عليها الدولة الناعضة. أما التيار الأول لـسريد إنشاه دولة مركزية قوية المسيطر فيها الإلخان وكبار موظفيه وضباطه. وأما التيار الآخر فإنه كان لا يزال متعلقًا بقيم الأرستقراطية البدوية للثغرية إبان حركة چنگيز خان الكبرى. ولا شك أن الموظفين الإيرانيين الكبار في الدولة كانوا من أنصار التيار الأول لما فيه من تدعيم لمكانتهم ومن محافظة على ثقافتهم للمدينة ومدنهم ومجتمعهم. وقد فاز هذا التيار بالفعل بوصول غازان إلى العرش. ومع تحول غازان خان إلى الإسلام، سقطت القواصل القائمة بين الحاكم وشعبه^(١).

وهكذا لم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التائه، كما استطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين للتبريرين وبمعلمهم على اعتناقه. ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لتناعضة منافسين قوميين كانوا يحاولون إحراز قصب السبق في ذلك المضمار. وليس هناك في تاريخ العالم نظير ذلك المشهد القريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، وكل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين الفساة الذين داسوا بتقدمهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم^(٢).

وتنتهجة لاعتناق غازان الإسلام، كان لا بد من تغيير سلوك المغول وقواعدهم ومقرراتهم؛ إذ لم يعد هناك مفر من العثول عن العمل بقواعد الياسا التي وضعها چنگيز

(١) انظر كتاب العرب وإيران: دراسات في التاريخ والأدب من التطور الإثنولوجي تأليف دوروثيا كرفولسكي، ترجمه عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، ص ١٨٨ - ١٨٩، طبعة الأولى، بيروت ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، الترجمة العربية، ص ٢٥٠.

خان^(١)، وترك عادات الفول وتقاليدهم القديمة. وكان هذا مما دفع غازان إلى وضع ياسا جديدة عرفت بالياسا الغازانية^(٢). وليس هناك شك في أن هذه الياسا التي وضعها وشرحها بالتفصيل المؤرخ رشيد الدين هي أرقى وأنسب للحياة الجديدة، وما ذلك إلا لأنها واقعة تحت تأثير الحضارة الإسلامية ووجود وزير مثل رشيد الدين فضل الله^(٣).

ولكن ثارت شكوك وشبهات حول إسلام غازان خان في عصره وبعد عصره؛ غير أنه لم ينهض دليل قوي في سيرة هذا الإلهام يؤيد هذه المزاعم بل على العكس رأينا قد أخذ على عاتقه المحافظة على شعار هذا الدين في حماسة وغيرة طوال عهده^(٤)؛ حتى أنه وهو على فراش المرض قبيل وفاته، لم ينس أن يوصي الحاضرين بالتمسك بأهلئاب الدين الحنيف والمحافظة على الإصلاحات التي قام بها، والتي كانت من وحى اعتناقه الإسلام، ونتيجة مباشرة له. كما حثهم على الائتلاف حول أخيه وولي عهده "تولجاتيو". وأخيراً نصحهم بضرورة الاتحاد والتآزر ونهذ الخلاف^(٥).

ورشيد الدين وزير غازان ومؤرخ عصره يؤيد بالبرهان صحة عقيدة غازان ورسوخ إيمانه فيقول: "وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه، يرجع إلى ترغيب بعض الأمراء والمشايخ وحثهم له على ذلك. ولكن بعد التفتحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بي أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب لا يرضو الله عنها أكبرها أن يسجد شخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطوع به أن الله لن يضر ذلك الذنوب وأن المساكين من الناس اللبطين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضاً كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبني الثور والعلم، فتجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية

(١) انظر لمصليات عن هذه الياسا في كتاب الفول في التاريخ، تأليف الدكتور نوذاد عبد اللطيف الصباد، ص ٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(٢) خلاصة تاريخ سياسي واجتماعي وفرنغجي إيران لتهان عهد صفوي، مجموعة مقالات دكتور ذبيح الله صفا (٢)، ص ١٨٨، طهران ٢٥٣٦ شمسلي.

(٣) مجموعة خطابه هادي تحقيقي درباره رشيد الدين فضل الله مصلحي، مجلة بعنوان: تمكسك لوضع اجتماعي در آثار رشيد الدين فضل الله بقلم د. غلامحسن يوسف، ص ٤٦٦، طهران ١٣٥٠ هـ.ش.

(٤) الشرق الإسلامي، ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٥) تاريخ وصاف، ص ٤٥٧-٤٥٨، طبع بمساعي عبد الله القاسبي، تاريخ لولجياتيو ص ١٣-١٤، طبع طهران ١٣٤٨ هـ.ش.

حضرة الحق تعالى. وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شيء قط يحمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج منه. فكيف يستسيخ العقل السجود أمام حماد؟! إن هذا الإقدام دليل على الجهل الخفى^(١).

وفي موضع آخر من كتاب تاريخ غازان خان يؤكد رشيد الدين هذا المعنى ويعيدنا عن اللبس والإبهام بقول: "إن غازان كان صادق المشهور في اعتقاده الإسلام، ويكرر وينسى أن يكون سبب اعتقاده هذا الدين تأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان يهتدى من الله إذ إنه من المهرب أن للمسلمين إذا أجبروا أهل الناس شأننا على أن يكون ملكاً أو حاكماً عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فإذا وجد الفرصة سانحة في تلك الولاية أو في ولاية أخرى فإنه يرجع إلى عقيدته الأولى. وإذن غاية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، الباطش النوى إلى الانكساف إلى كلام شخص من الأشخاص في مثل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو ينتار دينا آخر مكرهاً لا سيما وأن أباه قد استولوا على ممالك العالم في زمن كفرهم؟!"

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون في هذا الأمر مثل أجر إبراهيم الخليل - صلوات الله عليه فقد أدرك منذ البداية بفضل تور الهداية الربانية ضلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه وعرف الله ببيمانه الوجداني. كذلك كان إسلام السلطان على هذا النوال. ورغم عظمة الملك وجيروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التي كانت بلاد إيران وعرب تحرمها تماماً كل بيوت الأوثان وجملة المعابد غير الشرعية، وأدخل في الإسلام جميع عابدي الأصنام والكفار الذين كانوا يزيدون على عدد الرمال؛ بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أي مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة في الأجر^(٢).

وللصنفون من الباحثين الأوربيين دانعوا عن عقيدة هذا السلطان وأثبتوا أن إسلامه كان عن صدق وإخلاص لا عن تظاهر ونفاق^(٣).

كذلك تحدث رشيد الدين في هذا القسم عن المسائل والمؤامرات التي كانت تحاك ضد غازان وضد كبار معاونيه من القواد والساسة، ويبان ما اتصف به من حزم وشدة مجابهة هذه المشاكل والتغلب عليها. وكان يقول في هذا الصدد: إن قتل شخص من

(١) انظر المرجع.

(٢) انظر نفس المصدر.

(٣) انظر الفرق الإسلامي، ص ٢٥٦ وما بعدها.

الأشخاص أمر صعب علىّ جدك، ولكن إذا لم تراخ السياسة والحزم في المحافظة على القضايا الكلية والجزئية فإنه لا يمكن تدمير الملك^(١).

القسم الثاني: يتضمن التاريخ السياسي للفترة التي حكم فيها غازان خان، كما يتضمن شرحًا للحروب التي خاضها، والفتوحات التي تيسرت له. ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضًا يمثل في نكبة "نوروز" نائب غازان خان، وأكبر شخصية في عهده. فمن المعروف أنه منذ أن تصالح نوروز مع غازان، وتعهد له بالأمان، بر بوعده. وكان له فضل كبير في حثه على اعتناق الإسلام. كما شجعه على ضرورة مقاومة بايبدو والانتزاع العرش منه. والحق أن "نوروز" بذل جهودًا كبيرة في هذا السبيل حتى تم لغازان النصر على خصمه بايبدو، واعتلى عرش المغول في إيران في نهاية سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م.

ولو كان نوروز يفكر في عمارة غازان وطلعه من الخلف والتبطل عن مرة أخرى لانتهاز فرصة إقامته الجبرية عند بايبدو، وانضم إلى صفه بعد أن بذلت معه محاولات عديدة من وسائل التهديد والإغراء؛ وما ذلك إلا لأن "نوروز" في نظر بايبدو وأتباعه هو الساعد الأيمن والعقيلة المتكبرة التي ترسم لغازان الخطط وتوجهه التوجيه الصحيح، وأن استقرار البلاد منوط بالاعتماد بين نوروز وبايبدو^(٢). ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل، ولم تفلح في إقناع نوروز بالتخلي عن موقفه المؤيد لغازان. وأخيرًا لجأوا إلى أخيه "لغزى" الذي كان من جملة أمراء بايبدو في ذلك الوقت لعله يفلح في إقناع أخيه بالتخلي عن غازان والانضمام إلى صفوفهم، ولكنه فشل في مهمته. وكان رد نوروز القاطع في هذا الشأن يتلخص في هذه الكلمات الصريحة: "يا أخى! إني منذ ثلاثة أشهر في موضع "شورخان"^(٣) قد حلفت بعد المصيان والطغيان ليمانا مغلظة، وقطعت اليهود لغازان بالأمان وأخالفه بعد هذا ما دمت حيا، ولا أسلك معه سبيل العناد، وإن أكون صديقا لصديقه وعدوا لعدوه. فبأى وجه أنقض العهد وأنتك لثائق. أتريد أن أكون ملوما ومذموما في الدنيا ومستولا ومعاقبا في الآخرة؟! . كما أن رابطة المحبة واللودة في ولائي وخدمتي لغازان هي بدرجة من الاستمرار والديموم والاستحكام بحيث لا تنفصم إلى نهاية العمر

(١) انظر الفرع ٤.

(٢) انظر كتاب الفرق الإسلامي، ص ٢٣٦.

(٣) تكذب أيضا شورخان، وتغلظها المصا فضول شورخان: مدينة طيبة من اجوزجان قرب بلخ، وبينهما وبين أبيار مرحلة من جانب الجنوب وكانت حفرة لطفة لهم فنزرو للفرول، بلصمعا الصبار ويصمون فيها الأصمعة الكثيرة. (تسليم البلدان، ج ٣، ص ٢٢٢، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٦٨).

وانقضاء الحياة؛ لأنه اليوم الملقان بالاستحقاق والملك على الإطلاق، وإني أرى من واجبي أن ألتزم بطاعته في كل أمر، فليس لنوروز أمير أو ملك سواه، وليس لي شأن بالآخرين".
ولما وجد لگزى أنه لن يستطيع أن يؤثر على أخيه، قال له: "يا أخي! أنت ما دمت مصراً على هذه العقيدة، ومتسكاً بهذا الرأي؛ فلن تأمن على نفسك من هؤلاء الرهط".
فرد عليه نوروز في ثبات وإيمان قائلًا: "رضينا بقضاء الله وقدره. فأى شيء صورته الزمان ولم يمحاه، ومن الذي عاش ولم يموت. وإذا قدر الله أجلى على هذا النحو فمن الذي يمكنه رد ذلك أو دفعه؟". وإذا لم يقدره سبحانه، فلست أخشى مائة ألف عدو قاهر^(١).

ولكن بعد هذه الجهود الجبارة التي بذلها نوروز في خدمة غازان، بدأت عناصر الشر تتجمع وتدبر المؤامرات ضده، فلو حووا إلى غازان أنه كان يتصل سرا بسلطان مصر، وأنه أطعمه في انتزاع الملك من المغول في إيران. ولحك هذه المؤامرة زوّرت عدة رسائل على لسان نوروز تؤيد هذا الاتهام؛ فصدر قرار الإلهام باستئصال شائقة جميع أفراد أسرة نوروز وأبناعه، ونفذ هذا على الفور^(٢). كذلك كلف غازان قائده "قتلغ شاه" بمحاربة نوروز والقضاء عليه، ولكنه لاذ بالفرار بعد أن انفض جنوده من حوله، وسار هائماً على وجهه إلى أن لجأ إلى حماية "فخر الدين كرت" ملك هراة الذي توسم فيه نوروز خيراً إذ كانت تربطه به صلة قرابة من جهة. كما كان يطوقه بستة واقضاله الكثيرة من جهة أخرى. ولكن الملك فخر الدين تنكر لكل هذا، واحتضن نوروز وأرسله مكبلاً بالقيود إلى القائد المغول قتلغ شاه^(٣).

ويتحدث رشيد الدين عن هذه الواقعة فيقول: "سأل قتلغ شاه "نوروز" لم فعلت هذا؟ .. أجاب: إن غازان يستطيع عما كنتي لا أنت. وكلما سئل بعد ذلك، لم يجب على الأسئلة الموجهة إليه. وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنباً قط، وأنه لا إثم عليه". ثم أمر قتلغ شاه بقتله واحتز رأسه وأرسله إلى غازان. وكان هذا في ٢٢ من ذي القعدة سنة ٦٩٦هـ^(٤).

(١) انظر رشيد الدين: تاريخ برك غازي (دستار غازان خان)، تحقيق كارل بان، ص ٧٣-٧٤.

(٢) حمد الله المستوفى القزويني: تاريخ گزیده بهمنام دكتور عبد الحسين نوايي، ص ٦٠٤، تهران ١٣٣٦-

١٣٣٩هـ.ش.

(٣) انظر كتاب الشرق الإسلامي، ص ٦٨٣.

(٤) انظر ترجمه.

إذن فرشيد الدين هنا يعترف اعترافاً صريحاً بمرامة نوروز من التهمة الموجهة إليه. ولكنه يعود ويتناقض مع نفسه، ويذكر في أكثر من موضع من تاريخ غازان أن نوروز عمد إلى الهبالة عدة مرات، وكان السبب في تخريب خراسان، وأنه يعمل على تهديد الأموال. وليس هذا بصحيح لأن "نوروز" استمر على إخلاصه لغازان كما سبق أن ذكرنا. ولم يد على تصرفاته ما يؤاخذ عليه.

وعلى هذا يكون رشيد الدين قد وقف إلى جانب غازان يؤيده ويبرر أفعاله بغير حق لأنه في مركز القوة والسلطة ولا ينبغي أن يصف إلى جانبه شخص آخر يمكن أن ينافسه. يقول بروكلمان: ^(١١) "صطنع غازان في فرض سلطانه على ذوى قرباه وعلى أمراء المغول أبلغ القسوة وأتقل العنف، وحتى الأمير نوروز الذى كان له الفضل فى ارتقاء العرش لم يلبث أن ذهب ضحية هذه السياسة".

والواقع أن صنع غازان خان بالسلطة المطلقة التي لا تقف عند حد تكون أحياناً مصدرراً في إزوال النكبات والمصائب على رؤوس مرعوبيه خصوصاً أولئك الذين يقتربون منه. يقول دوسون () ^(١٢): "لا توجد صفحة من كتاب جامع التواريخ في الجزء الذى يتناول الحوادث التي وقعت في عهد غازان لم يتحدث فيها المؤلف عن قتل هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات البارزة".

ورغم كل هذا نرى رشيد الدين يدافع عن غازان ويجرده من كل عيب! فيصافنا مثلاً قوله: "وإنما حلف المظلمون على بواطن الأمور بالأيمان المغلظة أن سلطان الإسلام غلده ملكه لم يقتل أحداً مطلقاً إلا ذلك الشخص السيء الخلق، ويلزم للقضاء عليه، وأن وجود الأشرار هو عين الضرر للعالمين فإن إيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة"^(١٣). فهذا القول لا يخلو أيضاً من مبالغة، ويخالف الحقيقة. ولنا أن نتساءل: إذا كان الشخص المعادى لغازان يستحق العقاب فما ذنب إخوته ولفراد أسرته وأتباعه إذا كانوا أبرياء؟. للأسف كان يقضى عليهم أيضاً. وهذا ما كان يحدث في عهد غازان وغير غازان من ملوك المغول

(١١) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور تبه أمين فارس ومترجمه الدكتور ج. ج. ص. ٢٧٤، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

(١٢) Histoire des Mongols, IV, P. 333

(١٣) انظر الترجمة العربية.

السابقين. فنحن لا ننسى مثلاً نكبة الجوهريين في عهد والده أرغون خان^(١) أو مأساة الجوهريين في عهد أبي سعيد^(٢). ففي شريعة المغول أنه ما دام الشخص - كائناً من كان - قد نكب، ينبغي أن ينكب كذلك كل من يتصل به من قريب أو بعيد. وهذا لا شك ظلم فادح وتصرف جائر بعيد عن الحق والعدل، ولا يمكن تبريره مهما حاول رشيد الدين. وبإذن فالأمر الذي لا شك فيه أن غازان خان على الرغم من أنه يعد أكفأ سلاطين للمغول في إيران، وأنه رزق القدرة الكافية على إدارة شؤون الحكم، كان قاسياً ومشدداً إلى أقصى حد، ولا يقيم وزناً لأي شخص مهما كانت منزلته، وحتى أقاربه وضيوفه لم ينجوا من بطشه وفتكته. روى أنه خلال شهر واحد قتل خمسة من أسراء الأسرة الحاكمة وسبعة وثلاثين من أسراء المغول الآخرين^(٣). وكما يقول هورث "Howorth"^(٤): "برهن غازان بذلك على أنه ليس أقل من أبيه (أرغون) جرأة على سفك الدماء".

وفي موضع آخر جاءت كلمة الحق على لسان رشيد الدين؛ وذلك عندما أبرز - من غير قصد - النزعة الديكتاتورية السافرة في شخصية غازان خان، إذ يقول عنه: "لم يكن يدع سبيلاً لأي أمر لو وزير كى يعترض ويتحدث عن شأن من الشؤون، ولم يكن يقيم وزناً أو اعتباراً لأي واحد يعرض فكرًا أو رأياً، بل يظل الجميع منتظرين ومترقبين إشاراته لتنفذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالاً لمخلوق كى يسأله حتى عن يوم الرحيل". ويبالغ رشيد الدين مبرراً هذا التصرف، فيقول: "وفي الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص منهم لأنهم جميعاً شاعروا أن نفسه هي الأكمل ورأيه هو الأصوب من كل الوجوه. وكذلك حركاته وسكناته مُرتبة إلى أقصى حد، فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شيء بالقياس إلى كفايته"^(٥).

كذلك من الموضوعات اللافتة للنظر والمجدرة بالتأمل في هذا القسم الثاني، الحملات التي شنها غازان على القوات المصرية والسورية في بلاد الشام، والتي انتهت بهزيمة على يد المصريين والسوريين، وتخليص الإقليم السوري نهائيًا من سيطرة المغول.

(١) الشرق الإسلامي، ص ١٥٣ - ١٦٠.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٤٨ وما بعدها.

(٣) انظر كتاب فوجوات مغول، للبلج ج. ج. ستاندرز، ترجمة طيو القاسم حالي، ص ١٣٤، تهران ١٣٦٣ هـ.

(٤) History of the Mongols, Vol.3, PP.404-405.

(٥) انظر ترجمة.

قام غازان خان بثلاث حملات على الشام؛ ففي المرة الأولى وجد هذا السلطان الفرصة سانحة لخاربه للمالِك بمحجة الدفاع عن الإسلام والمسلمين في هذا الإقليم فتقدم الجيش المصري بفؤده السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتقى الجيشان عند "مرج المروج" شرقي حمص حيث دارت معركة عنيفة في ١٧ من ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م أسفرت عن انتصار المغول.

وعندما أرخ رشيد الدين لهذه الحملة لاحظنا أنه راح بكل المدح للسلطان غازان وصار يبرى شجاعته وبطولته؛ فيذكر أنه وقف في القلب كأنه جبل شامخ، وكان المصريون محتشدين إلى أقصى حد على عددهم وعتتهم، غير أنهم لم يكونوا يتركون أنهم وضعوا أقدامهم على أذنان الحيات، وأيديهم على الأشواك. ولما فتح العرب الكمين على المغول كانت القنرات المغولية تقف لهم بالمرصاد، فدهستهم وشنت ضلهم، وسمع سلطان الإسلام صوتاً من الرادى الأيمن يقول: لا تخف نجوت من لقوم الظالمين^(١)، فكانت تلك البشري أثر قوى في نفسه المباركة، وصار يزجر كالأسد المصور، ويترقى صفوف الأعداء، ويجندل أبطالهم بظن السنان. ثم صاح على جنوده فتزلوا وأمطروا الأعداء برابل من السهام، وشتوا عليهم هجومًا كاسحًا. وفي النهاية هُزم المصريون. ثم يسترسل رشيد الدين في مدحه وشانه على غازان ويمرر بتفوقه على أعدائه^(٢).

بعد ذلك ينتقل رشيد الدين إلى الحديث عن الحملة الثانية سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م فيضق مع غيره من المؤرخين على عدم حدوث التحام بين المغول والمصريين نظرًا لسوء الأحوال الجوية، وهطول الأمطار الغزيرة وكثرة الوحل واشتداد البرودة، بحيث إن قائدين من قواد المغول لم يستطع أحدهما أن يتصل بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. فما كان من غازان إلا أن أرسل قائده ثالثًا على رأس عشرة آلاف جندي حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقلوا أنفسهم بمشقة كبيرة. ولما رأى غازان هذه الصعوبات قرر العودة من حيث أتى دون قتال^(٣).

أما عن الحملة الثالثة التي قام بها غازان على الشام، والتحت قواته بقوات الناصر محمد ابن قلاوون في الثاني من رمضان عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م عند "مرج الصفر" فقد أسفرت

(١) قرآن كريم، سورة القصص، آية ٢٥.

(٢) انظر الفرجة العربية.

(٣) انظر نفس المصدر.

عن انتصار القوات المصرية والسورية انتصارا ساحقا على قوات المنقول. وبصعوبة بالغة نجح من الهلاك القائدان المنقولان قطع شاه وجوهان، وقليل من الجنود. وانتصار المصريين في هذه المعركة تكون قد فشلت ثلاث محاولات للمنقول في إخضاع سورية، ويمكن المصالحك من قهر أسطر وأشد عنو واجهته مصر منذ ظهور الإسلام^(١).

وهنا نلاحظ أنه عندما تحدث رشيد الدين عن هذه الحملة، اختصر الحديث وتغلى عن صفة الجهاد التي تحتم على المؤرخ أن يذكر الحقائق بجرده عن كل غرض أو هوى في حالتى النصر والهزيمة. ولا شك أن رشيد الدين سلك هنا السلوك محافظة على شعور غازان الذى يود أن يراه منتصرا دائما.

وبعد انتهاء المعركة، أسرع القائد المنقولى "قطع شاه" في العودة حيث قابل غازان خان في "كشاف"^(٢). ومن المحتمل أن يكون هو أول من أبلغ السلطان بآ كارتنة الهزيمة. وعن رد الفعل عند غازان وسامعه هذه الأخبار المزعجة، وكيفية استياله قطع شاه، لم يقل رشيد الدين كلمة واحدة^(٣). كذلك نلاحظ أن هذا للمؤرخ لم يحدثا بشيء يذكر عما تم في المجلس الذى عقده غازان في مدينة الإسلام "أرجان" في السادس من صفر سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م للتحقيق في الأخطاء التى ارتكبتها قواد الجيش للمنقولى، وكانت سببا في الهزيمة المتكررة التى لحقت بهم. وكل ما قاله في هذا الصدد هو أن المحققين كانوا يستجوبون المتهمين على ضوء الملاحظات التى أبدتها غازان، وأن قواعد الياسا الكبرى قد طبقت في كل الشئون الحربية^(٤). وإذن فالمنقول بعد إسلامهم لم يتخلوا عن التمسك بأحكام الياسا كلما وجدوا في ذلك مصلحة لهم هذا على حين أننا إذا نظرنا إلى مؤرخ آخر هو أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة، والذي كانت تربطه برشيد الدين علاقة ود وصداقة^(٥) فإننا نراه يسلك مسلكا آخر مخالفا (رشيد الدين) إذ يعطينا تفصيلات وافية عن معركة "مرج الصنبر" في كتابه "تجزئة الأمصار وتزجية

(١) تاريخ سورية ولبنان، تأليف الدكتور هليلج حني، ج٢، ترجمة الدكتور كمال البيازني، الطبعة الثانية، ص٢٧٢ بيروت ١٩٧٢.

(٢) كشاف: بالضم: موضح من زب الروصل (القوت: مسجم البلدان، ج٤، ص٤٦١).

(٣) The Cambridge History of Iran, V.5. Dynastic and Political of the Il-Khans, by Boyle. P.394, Cambridge, 1968.

(٤) انظر الترجمة العربية.

(٥) انظر مؤرخ المنقول الكبير رشيد الدين فضل الله السلفي، ص٢٣٣.

الأعصار"، والذي اشتهر باسم "تاريخ وصال"^(١٦). ومنه نعلم أن عدد قتلى المغول بلغ عشرة آلاف جندي والأسرى عشرين ألفاً^(١٧).

كذلك يزودنا الوصاف بمعلومات عما تم في المجلس الذي عقده غازان شاكسة للمسؤولين عن الهزيمة. وكان في مقدمتهم قتلغ شاه وجويان. وقد تبادل هذان الاثنان الاتهام في حضرة غازان. وبدأ جويان بالحديث فادعى أن قتلغ شاه لم يقم بمحاوطة كفا ينبغي، ولم تغطأ قنعه أرض المعركة لمساعدة الجنود الذين كانوا معرضين للدمار. فرد عليه قتلغ شاه مدافعاً عن نفسه؛ فزعم أن الوقت لم يكن مناسباً للهجوم، وأن جويان قد خالف الأمر. ولهذا كان كارها لتصرفه. وبناء على هذا رأى من المصلحة تجنب عرض المعركة إلى جانب جويان في ذلك الوقت^(١٨). فلما سمع غازان هذا، أمر بتوقيع العقوبة على المقصرين ومنعهم من دخول المعسكر عدة أيام. ولم يستثن من العقوبة جويان نفسه، إذ ضرب بالمرأوة ثلاث ضربات^(١٩).

شيء آخر يثير الإعجاب وبمحمد للوصاف باعتباره مؤرخاً، هو أنه على الرغم من اشتغاله بملزمة المغول وحثه باتعامهم وقربهم، كان لا يستطيع أن يتفنى شعوره الذي ظهر

(١) بعد هذا الكتاب، واحتماً من أهم المصادر في تاريخ المغول في إيران، وروايته في وصف الحوادث التي حدثت عما جاء في كتاب معاصره رشيد الدين؛ مما يدل على أن كلا المؤلفين قد اعتمد على مصادر مستقلة عن تلك التي اعتمد عليها الآخر. هذا فضلاً عن أنه يحوي على أخبار لا توجد في رشيد الدين. وقد أخذ عنه الباحثون مثل ميرخوندا غير أن أسلوبه رديء جداً. وقد كتبه الوصاف كتاب الجويني. وبالإضافة إلى هذه تحدثت عن الأطراف مثل فارس وكرمان وشبكتكوه. ولا شك أن مصادر التاريخ المحلي كذلك قد أخذت من تاريخ الوصاف.

Spuler: Die Mongolen in Iran, P.9, Leipzig, 1939.

(٢) انظر التفصيلات في كتاب تاريخ وصال، ص ١٠٩ - ١١٣، طبع بمسألة.

(٣) يقول بيرس للصورى: وأخبرونا بأنهم لما ضل بهم الأمر، وأحاط عليهم المعسكر حوطة الحصر، جاء جويان أحد مقدميهم. إلى فظفر شاه، وقال له: أريد أن تعطين عسكرياً المعجم به على المسلمين، فما وافقه على ذلك فتابه وقال له: أنت الذي حررتنا وسقنا إلى هنا، وعظمت ما رسم لك به غازان فإنه لم يأمرك بالقتل إلى هنا المكان، بل أوصاك أن تقيم محبس ولا تصدعها ولا تقدم إلى مكان سواها، وضرب فرسه وولى عنه، وجمع أصحابه وحملوا على حميد وتولوا من الجبل طالبين طريق الرحيد. (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة السلطك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ، ص ١٢٦، حققه الدكتور عبد الحميد صالح حيدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.)

(٤) تاريخ وصال، ص ٤١٤، طبع بمسألة.

بوضوح في أسلوبه حينما تحدث عن ملوك الأطراف البعيدة عن إيران. فقد كان كثيره من الناس لا يزال يتقم على المغول ويرى فيهم قوما طغاة جبارين سفاكين للدماء، نكبت بهم الأمم الإسلامية، فكان يتوق إلى أن يرى هذه الأمم تنهض من كبوتها وتسترد مجدها وتستطيع أن تستذل هؤلاء القوم وتغلبهم على أمرهم. وقد ظهر هذا الشعور بوضوح عندما راح الوصاف يشرح أحوال ملوك مصر من الأيوبيين والمماليك، ويصف الحروب التي اشتبك فيها المماليك مع المغول، تلك الحروب التي أسفرت عن نصر محقق للمماليك واندحار تام للمغول^(١). تقول دوروثيا كرفولسكي: "لكن الوعي بالتناقض الذي لا يبدو واضحاً في عمل رشيد الدين التاريخي يظهر في عمل مؤرخ فارسي آخر هو شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي (عاش بين ٦٦٣ و ٧٣٠ هـ تقريباً / ١٢٦٤ - ١٣٣٠ م) الملقب بوصاف الحضرة، والذي كان يحظى بدعم رشيد الدين وتأيده. فقد تجرأ وصاف الحضرة، فأشاد بإسلام المماليك ودولتهم وانتصاراتهم على المغول أعداء الإسلام أملاً أن يأتي اليوم الذي يستطيع فيه المسلمون التحرر من وحشية المغول وحكمهم غير الإسلامي"^(٢).

كذلك الحال عندما تحدث للزورخون العرب^(٣) عن الحروب التي دارت رحاها بين غازان من جهة وبين التاجر محمد بن قلاوون من جهة أخرى، نلاحظ أن مؤلفها حرصوا

(١) تاريخ وصاف، ص ٨٣ - ٨٤، طبع بسبأ مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله اتمشلي، ص ٢٢٤.

(٢) مسالك الأبحار في ملكك الأبحار: دولة المماليك لابن فضل الله العمري: دراسة وتحقيق كرفولسكي، الطبعة الأولى، ص ٣٣ - ٣٤ من التمهيد للمؤلف، ترجمة العربية، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٣) من هؤلاء المؤرخين علي سبيل المثال لا الحصر، أبو القاسم القزويني صاحب كتاب: تاريخ الحضرة السلطنة، الجزء الثالث، ص ٤٢، ٤٤، ٤٨، ٤٩، نشر مكتبة التنقيح، القاهرة بدون تاريخ، ص ٣١٦ - ٣١٨، ٣٥١ - ٣٥٩، للملكة العربية السعودية، بدون تاريخ، نفس المؤلف: نسخة للملكة في الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية في القاهرة من ٦٤٨ - ٧١١ هجرية، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ص ١٥٦، ١٦٦، ١٦٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، نفس المؤلف: مختار الأبحار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ - تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ص ١١٤، ١١٤، ١٢٣ - ١٢٧، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، أبو بكر عبد الله بن أبيك الدوادقاري: كسر القدر وجامع القدر، الجزء التاسع، وهو الدر القادر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس زوبرت روبرت، ص ١٥، ٢٠، ٤٥، ٤٧، ٥٨، ٥٨ =

على أن يزودنا بمعلومات صحيحة، ولم يحاولوا إعطاء الحقائق وراحوا يكشفون عن الثغرات التي وجدت في صفوف المصريين والسوريين وكانت سبباً في هزيمتهم أمام قوات المغول في موقعة مرج المروج. وهكذا جاءت رواياتهم صادقة وبعيدة عن الغرض والهوى. وكان من الطبيعي أن تحدث هذه المصادر عن معركة النصر الحاسمة في موقعة مرج الصفر، وتشيد بكفاءة الجنود المصريين والسوريين.

والواقع أن الجهاد الذي أدى إلى هذا النصر المؤزر على المغول لمثل جانباً مهماً من تاريخنا القومي الذي نخر ونخر به على الدوام. وهناك حقيقة يجب أن نقرها، وهي أن المواجهة الطويلة نسبياً بين المغول والمماليك، كانت حدثاً تاريخياً ترك آثاره الواضحة في أذهان الناس ونسباً لديهم إحساساً عميقاً بالقومية العربية والإسلامية، وطوراً غيائناً بالفخر والزهو بالانتصارات الرائجة التي أحرزها المصريون والسوريون في مصر والشام اعتماداً على كفاح الشعوب في هذه المنطقة وخارجها. كما أبرز فعالية الأبطال ودورهم اللامع المشرق في التاريخ^(١).

هذا وقد شك بعض المؤرخين في إسلام غازان مستلهمين إلى أنه كان في حروب مستمرة مع المماليك الذين كانوا يمدون في ذلك الوقت حماة قديين الإسلام، والذين كانوا يحملون لواء الزعامة للبلاد الإسلامية. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان غازان يرحب بتعاون المسيحيين معه ضد هؤلاء المماليك. وعلى هذا لم يتردد في التحالف مع المسيحيين الأوروبيين في سبيل القضاء على عدوهما المشترك^(٢). ولكن غاب ظن هؤلاء وهؤلاء بانتصار المماليك انتصاراً حاسماً في موقعة مرج الصفر على النحو الذي ذكرناه سابقاً.

١- القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م تقي الدين أحمد بن علي القمزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زبادة ج ١، ص ٢٠٢، ص ٨٨٧، ٨٩٥، ٩٣٣، ٩٣٨، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٠م عهد بن أحمد بن علي الخفسي: بلغات الزهور في وقائع القصور، الجزء الأول، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، ص ٤٠٣، ٤٠٥، ٤١٢، ٤١٦، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٥٢هـ - ١٩٨٢م.

(١) انظر مسالك الأبحار في مسالك الأمصار - دولة المماليك الأولى لابن فضل الله المصري (٧٠٠ ٧٤٩هـ / ١٣٠١ ١٣٤٩م): دراسة وتحقيق كزفر لوكي، الطبعة الأولى، ص ١٢، ١٣ من الشهيد الطول، ترجمة الدكتور رضوان السيد، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر دكتور حبيب لوي: تاريخ يهود إسرائيل، جلد سوم، ص ١٠٦، تهران ١٣٣٩هـ - ١٩٦٠م سجنان ونسبلمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العربي، ج ٢، ص ٧٣، ٧٣٧، بيروت ١٩٦٩.

وردنا على هذا الادعاء نقول إن غازان كان مسلماً مخلصاً في إسلامه ما في ذلك من شك. وإذا كان قد حارب للمسلمين فما ذلك إلا استجابة للطبيعة البشرية التي جبلت على حب العظمة والظهور والليل إلى السيطرة والتوسع والرغبة في الغزو والفتح. كذلك أقدم غازان على اتخاذ هذه الخطوة تحميقاً لسياسة جرى عليها أسلافه من قبل لمدة طويلة دون أن يحققوا أهدافهم إذ لحقت بهم المزاليم المتكررة، ويريد هو أن ينتقم لهم. وها نحن في العصر الحديث مثلاً نجد الأوربيين رغم اعتمادهم في الدين قد اضطرتهم المنافسة السياسية والعوامل الاقتصادية إلى شن الحروب بعضهم ضد البعض، فجزوا العالم إلى حريين علميتين، عانى العالم من وبلاهما مدة طويلة. وإذا كان غازان قد اتحد مع المسيحيين ضد المسلمين، فما ذلك إلا لأنه وجد نفسه في حاجة إلى مساعدتهم. وأن التحالف معهم إنما هو وسيلة أملت عليها السياسة فحسب، وليس للدين دخل فيها لا من قريب ولا من بعيد^(١).

القسم الثالث: فيه يتحدث رشيد الدين بالتفصيل عن أربعين حكاية: الحكايات الست الأولى منها تتضمن مختلف المعارف والمفاهيم التي اطلع عليها غازان خان، والجيرف والصناعات التي مارسها ممارسة فعلية، وبيان ما اتصف به من خلق طيب كريم وما صير به من فصاحة وبلاغة وصبر وجلد وسخاء وكرم. غير أن قيمة هذا القسم تبلغ الذروة عندما يتحدث المؤرخ بالتفصيل عن إصلاحات غازان خان؛ تلك التي تشمل جوانب الحياة المختلفة من إدارية واقتصادية وعمرانية واجتماعية. وهذه النواحي هي التي يهتم بها مؤرخو الحضارة. كما تغطي العناية الباحثين والدارسين؛ خصوصاً من يدرس العصر المغولي الذي ذاع عنه أنه عصر تخريب وتدمير وتحطيم للحضارة والمدنية وتشريد للعلماء والأدباء.

وفي الحقيقة عندما اعتلى غازان عرش المغول في إيران، وأعلن الإسلام ديناً رسمياً للدولة قضى على الفورة السخية التي كانت تفصل بين الحكام والمحكومين. بسبب اختلاف الدين، ونعم الجميع بأخوة الإسلام، غلزلت الحواجز الجنسية والطبقية التي كانت تفصل بين هؤلاء، مما ساعد على اندماج المغول في المجتمع الإسلامي، واشتد تأثيرهم بالبيئة الحضارية الإسلامية. وفي الحقيقة كان إسلام غازان خان نعمة كبيرة، وسعادة لا حد لها بالنسبة إلى إيران؛ ذلك أن الحكومة الباطشة المنهقة القاسية، تصير محنة بل كارثة تحمل

(١) انظر المصنف لفرسي، تاليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى،

بالرعاية المظلومين. ولا شك أن النكبة تكون أشد وأثقل إذا كان دين الحكام يخالف دين المحكومين؛ خصوصاً إذا علمنا أن الكثيرين من أفراد هؤلاء الحكام كانوا يضمرون عداوة صريحاً وحفاً دينياً للمسلمين. ومن هنا عدت حكومة المفلول في إيران - قبل غازان خان- ألقى وأعدت الحكومات، غير أن كل هذا قد تغير تغيراً كاملاً بفضل إسلام غازان خان^(١). كذلك في عهد هذا الحاكم المفلول تحدد موقف الدولة من الأقليات غير المسلمة التي كانت تحظى منهم بالكثير من العطف والرعاية على حساب المسلمين؛ فقد انتهت هذه السياسة إلى غير رجعة، وفرضت على هذه الطوائف الجزية بصورة منتظمة، وحددت مكائهم في المجتمع الإسلامي كأهل ذمة لا يرقون إلى مستوى المسلمين^(٢).

وما هو جدير بالذكر أيضاً هو أن حكم غازان قد هباً للمفلول فترة هدوء كفوا فيها أيديهم إلى حد ملموس عن القتل والفساد، وعادوا إلى الحالة الطبيعية فزاد تأثرهم بمضارة المظلومين، وجلوا في إصلاح ما أحدثه آباؤهم وأجدادهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر استعداداً للمساهمة بتصحيح في إنهاء المضارة الإسلامية من كيوتهما. وفي الحقيقة لم يكف غازان بصيغ حياته الخاصة بالصيغة الإسلامية، بل تعدى ذلك إلى رفع النظام من طبقات الشعب الكادحة، ومعالجة ضروب الفساد في مختلف شئون الحياة، وذلك كله طبقاً لما تنص عليه الشريعة الإسلامية^(٣).

لقد كان هدف غازان هو استقرار الأمور السياسية الداخلية ووضع علاج حاسم للجراح الدامية التي كانت قد وجدت قبله في الجسد العليل بل المستهلك لبلاد إيران. وفي الحقيقة كانت تسود البلاد كلها حالة من الفوضى والفساد؛ فكان لا بد من القيام بسلسلة من الإصلاحات الواسعة التي تهدف إلى الترفيع عن الرعية والعمل على استئصال الداء من جذوره. ولقد رأى بثاقب فكره أن يستعين بالكتاب ولرباب القلم ورجال السياسة المهتمين من الإيرانيين؛ وذلك من أجل تنفيذ برنامج الإصلاح الشامل، فنصّب رشيد الدين الذي

(١) انظر برون: تاريخ تاجي إيران لزينة قرن عظيم لما أعمر قرن نهم هجري (إسحق تاجي) ترجمة على أسس حكيمته، ص ٤٧، طهران ١٣٢٧ هـ - ش / ١٩٤٨ م.

(٢) الدكتور محمد صالح قنزلز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة القرطبية، ص ٢٩٤ - ٢٩٥، شبين ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

(٣) انظر الدكتور مصطفى طه بدر: مفلول إيران بين السجدة والإسلام، ص ٣٧، القاهرة بدون تاريخ.

كان طبيباً ومن أبرز أهل القلم، ومن كبار العلماء والمتقنين، نصبه وزيراً لكل الممالك التي يحكمها غازان؛ فعمل هذا الوزير مع من شاركه في منصب الوزارة على إيجاد حكومة قوية ثابتة ومقتدرة في ظل السيطرة الكاملة والثغور للطلق للسلطان غازان وذلك بهدف تقوية أساس دولة الإيلخانيين، فكان رشيد الدين بذلك العامل الرئيسي في تنفيذ كل الإصلاحات التي تمت في هذا العهد.

وهكذا بفضل مساعدة رشيد الدين وجهوده ورايته الصائب انجزت جميع الإصلاحات التي كان يتوق غازان إلى تحقيقها في مختلف شئون دولته^(١). ونتيجة لهذه الجهود المثمرة أصلح الجهاز الإداري الذي كان يشمل الدولتين المختلفتين. كما أدخلت تعديلات جوهرية على جهاز القضاء، وأصبح يسير شاماً وفق أحكام الشريعة الإسلامية. كذلك أحدث غازان نظاماً جديدة في الجيش. ولم تقف جهوده عند هذا الحد، بل إنه سعى سعياً جدياً في تثبيت حقوق الملاك والزارعين، وعمل على اتساع رقعة الأراضي المزروعة، وذلك بشق الترع والقنوات، مما أدى إلى ازدهار الزراعة^(٢) وإصلاح الحالة الاقتصادية في البلاد وتحسين أوضاع الناس. ومن الإنصاف أن نذكر أن غازان خان أعاد كذلك النظام والأمن والأمان إلى مختلف المناطق التي تعرضت لكثير من المقتل والحزات العنيفة. كما أنه بذل جهوداً جبارة في سبيل أوضاع الطبقات الفقيرة، والقضاء على المظالم التي تعرضوا لها في عهد أسلافه من حكام الغول.

وهكذا رأينا غازان خان بمجرد أن اعتلى العرش، أخذ يسعى سعياً جدياً في أن يجبر النفس الذي حدث في كل أجهزة الدولة نتيجة لأخطاء السالفين؛ وذلك بما كان يبذله من طاقة جبارة وعزيمة قوية، وبمساعدة وزرائه الأكفاء، وفي مقدمتهم رشيد الدين. وفي الحقيقة سعى غازان بإخلاص في تغيير معالم الحياة المختلفة المليئة بالمعيب إلى معالم أخرى

(١) عين كشور داري في عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همداني، تأليف دكتور هاشم رجب زاده، ص ٧ - ٨، تهران ٢٥٢٥ خليفاني.

(٢) عن الإصلاح الزراعي انظر الترجمة العربية للحكاية السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وللحصول على مزيد من التفاصيل انظر كتاب كشوروزي وستانيات لوشي في إيران عهد صفوي، تأليف إيذا باولو مع بطروففسكي، ترجمة كريم كشوروزي، جلد أول، چاپ دوم، ص ١٥٦ وما بعدها، تهران ٢٥٢٥ خليفاني.

مشركة تعيد الأمن والاستقرار للناس، وتؤمنهم على حياتهم وأرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم. ومن البديهي أن غازان ظل طوال فترة حكمه يتمتع بزعامة قوية لا تفتقر. ولم يتخل عن عزمه على تحقيق ملزمه. وعندما برى الحيات ثقف في طريقه، وتحول دون الوصول إلى أهدافه، كان لا يتردد في اللجوء إلى الشدة التي تبلغ حد القسوة يستدل على ذلك بأحداث القتل التي لا أول لها ولا آخر؛ وذلك على العكس من عمه جيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤م) الذي كان تنقصه الشجاعة والجرأة؛ إذ كان في أغلب الأحيان يمتنع عن تنفيذ أوامر القتل والإعدام. وفي عهد غازان بأكمله بذلت جهود كبيرة مرهقة، وشنت حملات متعددة. ورغم الجهود المضنية التي بذلها غازان في سبيل الإصلاح، لم تنجح له الفرصة كي يخرج أفكاره كلها إلى حيز التنفيذ؛ فسرعان ما لبست فترة حكمه القصيرة ثوبا حزينا ووضع موته المبكر حدا فاصلا لهذه الجهود الجبارة التي قام بها والمساعي المتواصلة التي بذلها في سبيل إصلاح دولته. فالخزون عليه، وقبل هذا على مصير بلده الذي كان في أمس الحاجة إلى حاكم قوى مثله^(١).

وإن الروايات التي ذكرها رشيد الدين في كتابه، وشملت الأحداث المعاصرة له لتدل بوضوح تام على أن هذا المؤرخ لم يكن متفرجا غريبا عن هذه الحوادث، أو على أنه المؤرخ الذي يؤرخ فقط، ولكن تدل أيضا على أنه هو الذي يلعب دورا هاما في هذه الأحداث ويشير على غازان بالرأي السديد، ويساعده على تنفيذ مشروعاته وإصلاحاته، مما يثبت أنه الرجل الذي يهتم بكل التفاصيل التي تتعلق بشئون الدولة. ولا شك أن هذه الإصلاحات هي بمثابة مرآة تبدو عليها حياة الناس ووقائع عصرهم، وتعتبر أسنادا تاريخية قيمة جديرة بالدراسة والبحث. ولقد تبه الباحثون إلى أهمية دراسة النواحي الحضارية في حياة الشعوب لأنها النتائج الحقيقية الواقعية لمسيرة التاريخ البشري. ونحن إذا عرفنا أن المصادر التاريخية غالبا ما تهتم بالجوانب السياسية والحربية في حياة الشعوب، فإنه ينبغي أن نقدر تمام التقدير ما كتبه رشيد الدين عن غازان خان الذي استطاع في سنوات قليلة أن يعيد الحياة والازدهار إلى ربوع البلاد التي كان يحكمها.

(١) شيبول: تاريخ مغول در ایران: سیاسته حکومت و فرهنگ دوره ایلخانیان، ترجمة دکتر محمود تقی‌زاده، ص ٩٧، ٩٨، تهران ١٣٥١ هـ.ش.

والواقع أن حدثت رشيد الدين عن الإصلاحات التي تمت في عهد غازان والتي سجلها بقلمه أروع تسجيل في كتابه جامع التواريخ، لا تصادف مثله - على هذا النحو من التفصيل والوضوح - في كتابة أى مؤرخ آخر. وفي الحقيقة عندما أراد هذا المؤرخ الرسمى أن يكتب شيئاً عن السلطان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت اعتبر رفع شأنه واجبه الأول. وهو فى الحقيقة جدير بأن ينال هذه الدرجة الرفيعة عند مؤرخه رشيد الدين.

ما نلاحظه على هذا القسم لثلاث هو أن رشيد الدين عندما تحدث فى الحكاية الأولى منه، والتي كتبها بعنوان: "فى فنون كمالات سلطان الإسلام وعلومه ومعرفته الصناعات المختلفة، ووقوفه على أسرارها" نراه قد تناول الصفات التي اتصف بها غازان، والصناعات التي عرفها ومارسها؛ فذكر أن هذا العاهل كان يحب صحبة الأدباء والحكماء والفضلاء والعقلاء المتنازين وبجالسهم ويطرح الأسئلة عليهم ولا يترك مجالاً لأى مجالس أو مزارع يتحدث فى حضرته بكلام فيه سخاخ ورياء. وكان على اطلاع تام على الأديان والملل والنحل، وواقفاً على معتقدات كل طائفة بحيث إنه عندما كان يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، يعجزون عن الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم. وأما عن اللغات المختلفة؛ فكانت الفارسية لغته الأم. وكان يلم بالعربية والفارسية والهندية والكشميرية والتبتية والمطانية والترجمية وسائر اللغات^(١١).

وكان يعرف أيضاً تاريخ السلاطين المضعفين والمتأخرين، ويقف على آدابهم وعاداتهم ونظمهم. وأما عن الحرف المختلفة فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده؛ وذلك من قبيل الصياغة والحدادة والنجارة والنقش وصب المعادن والحراطة. كذلك مارس صنعة الكيمياء ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة، وأحاط أيضاً علماً بالصناعات الدقيقة الظرفية. وقد اطلع على علم الطب وعرف الأدوية ووقف على أكثر خواصها، واكتشف الأعشاب الطبية، وعرف فوائدها. كذلك امتد نشاطه إلى المعادن وكيفية استخراجها وصهرها، وصار يحيط بما يحويه منها كل موضع من الجبال والصحارى التي يرأها. وأما التعاير فإنه يعرف

(١١) يقول ابن حنبل السبكي: "كان غازان يتكلم بالفارسية مع عوامه، ويضمهم أكثر ما يقال باللسان العربي".
(الدرر الكعبة فى أيمان ثلاثة قنات، ج ٢، ص ٢١٢، نشر دار الجبل، بيروت ١٣٥٠هـ).

منها ما يقرأ لكل أتد. وأخيرا وليس آخرا فإنه كان يحيط أيضا بأسرار علم النجوم والمهنة. وبهذا يكون غازان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور. وقد صرح في النهاية بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات. وإلى الآن ما زال غازان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وإننا لتساءل حقا: هل يمكن لفرد واحد مهما أوتي من ذكاء وعبقريته أن يحيط علما بكل هذه المعارف والثقافات والصناعات؟ ولم لا يكون رشيد الدين قد قال هذا على سبيل التعليل والتبرير والمبالغة؟

في الحقيقة نرى رشيد الدين نفسه يشعر بهذا الحرج، فيسرع بالدفاع عن وجهة نظره دفاعا منطقيًا مستشهدا بالمعاصرين له والقريين من مسرح الأحداث فيقول: "وأهل هذا العهد والتقوم على تلك الحقائق، وهم شهود على أن الحال يجري على هذا المنوال، وذلك حتى لا يظن القراء في كلامي قائلين: لقد حدثت مبالغة فيما كتبت".^(١)

بعد ذلك تنتقل إلى الحديث عن أهم الإصلاحات التي قام بها غازان، والتي كانت صادرة من وحى إسلامه وصفاء نيته. وكان مهتديا فيها بتعاليم الإسلام السمحة ومبادئه القومية؛ فدفعه هذا إلى القيام بهذه الإصلاحات التي رقت منزلة إلى مقام كبار المصلحين والمشرحين، على أن نبين بوضوح إلى أي حد وفق رشيد الدين في عرض هذه الموضوعات بعيدا عن المبالغة والتناقض والرياء؟

في الحكاية السابقة بعنوان "في إبطال الديانة الوثنية وتخريب معابد الوثنيين" نعلم أنه عندما اعتنق غازان الإسلام، أمر بتحطيم كل الأصنام ومعابدها، وهدم بيوت النار والمعابد الأخرى التي لا يجوز وجودها شرعا في ديار المسلمين. كذلك أجبر غازان البوذيين على الدخول في الإسلام، وهدم للناطقين منهم الذين يتظاهرون باعتناق هذا الدين، وخرجهم بين أمرين: إما أن يرحلوا إلى بلادهم وإما أن يظلوا ثابتين على ما في قلوبهم وضمائرهم بشرط ألا يمازوا تلوثة الدين الإسلامي بغائلهم. وهدمهم بأنه سوف يجعل للمخالفين منهم طعمة للسياق. ويعلق رشيد الدين على هذا الموقف الحازم من جانب غازان خان قائلا: "وفي وقتنا هذا فإن القليلين منهم الذين بقوا في إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم

(١) انظر المرجع.

أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام الجوس والملاحنة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم، ولكنهم يفتنون معتقداتهم".

وفي الحكاية التاسعة بعنوان: " في شجاعة السلطان وإعداد الجند للحرب " نرى المؤرخ رشيد الدين بطري شجاعة غازان وبرز مقتره المقاتلة في قيادة الجيوش وبشي على مهارته في عرض غمار المعارك، وبصوره على أنه قائد عنك يرسم لجنوده الخطط الكثيفة بالصمود أمام أعدائهم والانتصار عليهم. كذلك يؤكد ضرورة إرسال الجواسيس بصفة مستمرة لتفصي الخفايا عن العدو والاطلاع على أحواله وجمع المعلومات عنه. وبعد جمع هذه المعلومات توضع كل الأفكار والخطط والأعمال موضع التنفيذ وإلا فإن التصرف الذي يقوم على غير هذا الأساس يكون كالملاكمة في الظلام.

إلى جانب هذه الصبغة المادية لا ينسى غازان الصبغة الروحية، وهي الأخرى ضرورة لازمة لتليبات أمام العدو، وإخلاق الفريضة به؛ ففي حالة مفادرة الجنود قواعدهم، عليهم أن يتوجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشغلوا بذكر الله تعالى، وأن يطهروا أنفسهم فلا يرتكبوا أفعالا سيئة، وأن يكونوا محبين لمواطنيهم ووطنهم، وعليهم ألا يظلموا أحدا حتى يثق الناس بهم، ويتأثروا بهمهم الطيبة في سبلهم، ويدعوا لهم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجند ذخيرة قط أفضل من دعاء الخير والهمة الطيبة.

وفي ختام هذه الحكاية يعطى رشيد الدين على مضمونها بقوله: "وعلى هذا التوال كان السلطان ينصح جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هنا لم يتق في المذاكرة. وإنا لو رحنا نشرح كل ما قاله لأدق ذلك إلى التطويل. وحيث إن المقصود هو إيراد شواهد وأمثلة، يكون هذا المقصر كافيا خاصة وأن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة للجميع.

وأما الحكاية الحادية عشرة، فقد جاءت بعنوان " في منع سلطان الإسلام الجنود وغيرهم من الشفوه بكلمات الكفر؛ إذ لاحظ غازان خان أن بعض الأمراء والجنود وغيرهم يظفون ألسنتهم بالفخر والتباهي بأرائهم الصائبة كما دأبوا على التلطف بالفاظ قد تؤدي إلى الكفر. وكان يلاحظ على الجنود بصفة خاصة أنهم إذا ما تم لهم النصر على العدو وولقوا في حياتهم، نسبوا كل هذا إلى أنفسهم، وأطروا شجاعتهم. أما إذا هزموا في إحدى المعارك أو أنهم لم يوفقوا في عمل من الأعمال، قالوا: "إن هذا قضاء الله وقدره، وإلا فقد سمينا وبلنا الجهود الجبارة".

والحلولة دون الوقوع في هذا الخطأ أصدر غازان مرسوما نص فيه على أن من يتفوه بهذا الكلام يكون مذنباً، وعليه أن يتق أن الحسنة من فضل الله وأن السيئة إنما هي نتيجة الأفعال المستهجنة التي يقدم عليها الإنسان. وغازان في إقراره هذا إنما يسترشد بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾ (١).

الحكاية الثالثة عشرة: "في أبواب البر التي أنشأها سلطان الإسلام في تبريز وهمدان والبلاد الأخرى، والأوقاف التي وقفها، وتنظيم للشعائر".

هذه الحكاية تتضمن أعمالاً بارزة قام بها غازان. وهي أيضاً من وحى الإسلام ومنفعة مع تعاليمه السامية؛ لأنها تحث على فعل الخير، وتدعو إلى العطف على الطبقات الفقيرة التي هي في أسس الحاجة إلى المساعدة والأخذ بيدها حتى تنهض من كبوتها، وتستطيع أن تسير ركب الحياة في المجتمع بطريقة سليمة كريمة بعيداً عن الانحراف والسلوك المشين.

هذه الجهود تتمثل في الأوقاف (٢) الكثيرة التي وقفها غازان على المؤسسات الخيرية للقائمة في الولايات المختلفة للقيام بأعمال البر والإحسان. ويتضح ذلك في الإنفاق على المساجد والمدارس والمؤسسات الخيرية والمستشفيات ودور الكتب والقضاء والحمامات والجراريات والأيتام والأرامل والمسنين وذوي العاهات، وإغاثة المحرومين والمستحقين. وكذلك في سبل الإشراف على تربية الأطفال اللقطاء الذين يلقي بهم في عرض الطريق فهؤلاء يحملون العناية والرعاية، ويعهد بهم إلى المرضعات اللاتي يوفر لمن كل ما يحتاج إليه حتى يبلغ الأطفال سن الرشد والتبصر. وهذه العناية تشمل أيضاً الإنفاق على دفن الموتى من الغرباء الذين يموتون في تبريز، ولم يكونوا يملكون مالا يفي بإجراءات دفنهم. وفي صراحة وتواضع راح غازان يقول: "ومع أنه ليست لنا مرتبة الصالحين، لكن تشبها بهم عمدنا إلى إنشاء أبواب البر كي تكون مثوى لأخوتنا. وبذلك نصير لنا خيرات وصلوات جارية، وبركات تلك الخيرات، تأخذ بيدنا رحمة الله تعالى، ويدخر لنا ثواب دائم. وإته من

(١) سورة النساء، آية ٧٩.

(٢) انظر مقالة بعنوان "طوق حورقة مشرقة في التاريخ الإنساني للحضارة الإسلامية" كتبتها إبراهيم تومري في مجلة النخلة الصادرة في شوال ١٤٤٨ هـ. انظر نوفمبر ١٩٩٨م، العدد الثامن، المجلد السادس والأربعون، ص ٢ ٣، الدمام، المملكة العربية السعودية.

المفضل إلى أقصى حد أن نسرع في إنجاز هذه المؤسسات في الوقت الذي منحنا الحق تعالى القدرة، وهيا لنا الفرصة حتى تتم هذه الأعمال بمن التوفيق^(١).

ومما يذكر أيضا بالخير والثناء على غازان هو أنه لم يقتصر على تقديم مساعدته للإنسان، بل امتدت رعايته إلى الحيوان؛ فقد أمر بأن تشر الحبوب فوق أسطح المنازل في أشهر الشتاء الممتدة الباردة في إيران عندما تشتد البرودة وينزل الثلج، فتلتقط الطيور هذه الحبوب آمنة مطمئنة، ولا يخاف أحد قط اصطادها. وكل من يقصدها يسوء نحل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه، وعلى المتولي وسكان تلك البقاع أن يمتنعوا المعتدين ويردعوهم وإلا يكونوا آسفين.

كذلك شمل غازان بعطفه الفتات المطلوبة على أمرها من الغلمان والجنود والأطفال الذين يكلفون بنقل الماء، وتكسر لواتيهم والكيزان التي يحملونها أثناء نقل الماء إلى المنازل، ويمشون عقاب ساداتهم، فإن المتولي يعرضهم عنها لواتي جديدة، وذلك بعد أن يتحرى الحقيقة.

ونتيجة لإيمان غازان العميق واعتماده على الله وطلب العونة منه، أنه في كل ولاية حل بها، ورأوده أمل، وعن له مراد ومست حاجة مسترة لجأ إلى حضرة الحق تعالى، وأفضى إليه سره، والتزم نذرا وأدى صلقة.

وهكذا ملأ الإيمان قلب غازان، فكان يسر دائما إلى الحق تعالى بحاجته، وهو متأكد - دون أدنى شك - من أنها مقضية لدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والتذوق، ولا يضيع أجر ذلك أبدا.

وفي النهاية يعلق رشيد الدين على أعمال الخير والبر التي قام بها غازان ورصد لها المبالغ العظيمة، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، فيقول على سبيل المبالغة "ولا شك أن أي مخلوق لم يسر في أي عصر ومن أي سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والخيرات والإنعامات والصدقات الجارية". وأخيرا يدعو رشيد الدين لغازان قائلا: "فليمنح الحق جبل وعلا هذا السلطان العادل الكريم مزيدا من التوفيق على هذه الخيرات، وليرسل بركاتها ومثوباتها إلى آياته المباركة"^(٢).

(١) انظر الفرجة.

(٢) انظر نفس المصدر.

خصوصاً بما تم في هذا المجال في عهد ملكشاه ووزيره الكبير نظام الملك الطوسي، فغازان مقتنع تماماً بأن ما صنعوه هو عين الصواب؛ ولذلك رأى أن يسير على منوالهم.

ولما كان رشيد الدين هو المستشار المخلص الأمين لغازان، والذي يساهم بعقله وتفكيره فيما يقوم به المعامل المتورط من إصلاحات، نلاحظ أن هذا المؤرخ كان معجباً بالسلاجقة مشيداً بجهودهم البارزة في شتى المجالات، لا سيما في مجال القضاء؛ إذ كان يرى فيهم المثل الأعلى في تحقيق العدالة بين الناس، وإصدار الأحكام وفقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية. وعلى هذا راح رشيد الدين يذكر صراحة أن غازان اقتدى بالسلاجقة في عدم النظر في القضايا التي مضى عليها أكثر من ثلاثين سنة، كما اقتدى بهم فيما يتعلق بالأوقاف وضرورة مراعاة شروط الواقفين وعدم إتاحة الفرصة للتلاعب والتزوير، وتوقيع العقوبة على المخالفين. والدليل على إعجاب رشيد الدين بالسلاجقة أنه عندما أرخ لهم في المجلد الثاني من كتابه جامع التواريخ للشمس على التاريخ العام، راح يمدحهم ويذكرهم بالحير. يقول: "لم يكن من هؤلاء السلاطين أعظم، وعلى الرعية أشفق، ولرعاية الخلق أجدر من ملوك السلاجقة رحم الله الماضين منهم **﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ﴾**^(١١). وقال جل ذكره: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُم مِّنْ خَيْرَةٍ﴾**^(١٢). وما ذلك إلا أنه قد ظهرت في عهدهم خيرات وميركات كثيرة من إحياء معالم الدين، وتشيد قواعد الإسلام وإن مآثرهم التي أقاموها من بناء وإنشاء المساجد والمدارس والأربطة والقناطر والأسبلة والأوقاف والخيرات، وما أنفقوه من أموال على العلماء والصالحين والقضاة والسادات والزهاد والعباد والأخبار والأمرار، لم يوجد مثلها في أي عصر، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن في الممالك الإسلامية.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بمدنا إلى الآثار^(١٣).

(١١) قرآن كريم: سورة طه، آية ٢١٧.

(١٢) قرآن كريم: سورة القصص، آية ٦٨.

(١٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد ٢٤ جزء ٥: ذكر تاريخ آل سلجوق، بسني وانصام أحمد كاش،

ص ٣، ٤، آئرة ١٩٦٠م.

كذلك رأى غازان ضرورة تحرى الدقة في اختيار القضاة نظراً لعظم المسؤولية التي يتحملونها، وحتى يضمن القيام بواجبهم على الوجه الأكمل. وبذلك تتحقق العدالة على أيديهم أثناء نظر القضايا التي تعرض عليهم. وفي نظير ذلك قرر منح القضاة امتيازات خاصة من قبيل إعفائهم من الضرائب، وإعطائهم مرتبات مجزية حتى لا يسلوا أيديهم إلى غيرهم فيقبلون الرشا والهدايا. وكان يمانظ على كرامة القضاة وتوفير الحماية الكافية لهم في قاعة الجلسة. وفي سبيل تحقيق ذلك، كان يهتد إلى الشحنة بتوقيع العفوة على من يرفع صوته للشوش على القاضي أثناء انعقاد الجلسة أو محاولة التأثير عليه. كما ألزم القضاة بتنفيذ أحكام الشرع بكل دقة، وعليهم أن يمتنعوا النظر في المحاضر المزورة والعسوك والسجلات الموهمة، ومحاولة تقصي حقائق الأمور والأحوال حتى يصلوا إلى فورها.

• وبالإضافة إلى ما سبق، ألزم غازان القضاة بضرورة مراعاة الدقة المتناهية وشدة الاحتياط في الاستماع إلى شهادة الشهود التي يترتب عليها صدور الحكم في القضايا المختلفة؛ فقد رأى غازان بشاقب فكره أن القضاة يسعون تساهلاً في هذا الشأن ولا يجتهدون في تحرى الحقيقة، ودون أن يتطرقا لظنهما إلى تفوسهم أو يظلب الظن ويعطفا الشك في صحة الشهادة وسلامتها؛ فترتب على هذا الإهمال ضياع حقوق الأبرياء من المتقاضين. ومن المعروف أن شهادة الزور في الدين الإسلامي تعد من أكبر الكبائر؛ فقد ورد في الحديث الشريف عن أنس: "أكبر الكبائر الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وشهادة الزور". وعلى هذا يقف القضاة عاجزين أمام شاهدين، ولا يفتشون مقبة هذا الإهمال. ومن المعروف أن ثبوت الحق شرعاً، ولو أنه متوقف على شهادة شاهدين؛ إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا تتوافر إلا في أفراد البشر وعلى سبيل التندرة؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. إذن يجب على القاضي أن يفكر دائماً في أن شهادة زبد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس أو اغتيال إلى إحدى الجهات أو مراعاة شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن يتخذ هذا القاضي مجرد أن الشاهد يسو في سمت الرجال الصالحين، ويزين ظاهره بزخرف القول.

وما دام الأمر على هذا النحو، كان على القاضي أن يمتنع بسلامة التفكير ولطائف الخيل وصفاء الذهن؛ فيسأل كلا من الشاهدين على اتفراد كي يتبين التناقض في أقوالهما

ويستمر في سؤال كل منها عدة مرات حتى تضع الحقيقة، فإما الصحة التي يمكن الاعتماد عليها وإصدار الحكم بموجبها، وإما الشبهة التي توجب التوقف عن إصدار الحكم؛ فيكون ذلك سبباً في النجاة من ورطة الحكم بالباطل. ونتيجة هذه الإصلاحات البناءة صارت الأمور الشرعية والقضائية الدينية تبرم وفقاً لأوامر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق في مواضعها الصحيحة.

وأخيراً بين رشيد الدين على لسان غازان الهدف الذي يهدف إليه من وراء إصلاحه القضاء فيقول: "إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق جل وعلا وتقوية الشرع الإسلامي لا زال معظماً وبسط العدل وراحة الرعية. كما أن من التبيه هو أن يقضى القضاة آثار الحق والعدل. وإن غرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأولى أن يستمع القضاة لهذه التعليمات طامعين وأن يتفعلوا بما جاء فيها وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها ويرجع جانب الحق ويصون منصب الشرع الشريف من شين^(١) الطيس، ويتخذ الاحتياط التام في الفصل في القضايا سوف يكون مشمولاً بعظمتنا إلى جانب الأجر الجزيل الجميل^(٢).

وفي الحكاية السابعة عشرة بعنوان: "في المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم" نلاحظ أن غازان كان يسعى سعيًا جدياً في سبيل أن يعيش الناس دائماً في راحة تامة. وقد صرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء في الدنيا إنما تكون في تحقيق الصالح للناس. وعلى هذا ألزم نفسه أن يجتهد إلى أقصى حد في هذا المجال لتدارك العيوب. ومن الإنصاف أن نذكر أن هذا الصاحل قد نجح نجاحاً باهراً في إعادة الأمن والنظام إلى ربوع هذه البلاد التي تعرضت للفلاقل والمخزات. كما أنه بذل جهوداً جبارة في سبيل تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة والأخذ بيد العناصر المطلوبة على أمرها والقضاء على اللظام التي تعرضوا لها في عهد أسلافه من حكام المغول، ويريد ألا تتكرر هذه المأسى في عهده. ولهذا يتوجه بكلام صريح وواضح إلى أفراد الهيئة الحاكمة من أسرته، ويطلعهم على

(١) الشين: الحب والصبغ وغلاف الزين. يقال شانه شينا: خروجه وعمله (للمعجم الوسيط، ج ١ ص ٤٠٤).

(٢) انظر الترجمة.

سياستهم التي تقوم على التعالي والقطرسة اعتمادًا على أنهم هم السادة المسيطرون، وأما غيرهم فهم العبيد المطيعون.

يقول هؤلاء مهتدًا ومخبرًا: "لنا لا أحاسي التمازيك (السكان من الإيرانيين) وإذا كانت هناك مصلحة لأن نغير على الجميع، فليس هناك من هو أكثر مني على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توطينت مني بعد ذلك زائدًا أو طمأنًا، أو التمسع هذا أو ذلك، فسوف أغلظ لكم في القول، وأخذكم بالشدة والعنف. وينبغي أن تفكروا جيدًا في أنكم لو أنقذتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتهم على بلورهم وغلالهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟ 19 . كما أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وأذيتهم؟ فإن عليكم أن تفكروا: كيف أن نساءنا وأبنائنا أعضاء علينا، وأن حال فلذات آبيادهم تكون هي نفس حال أطفالنا، وهم أيضًا آدميون مثلنا صائمًا. وقد قرّض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسوف نُسأل عما يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب؟ ونحن عندما نؤذيهم نكون جميعًا شقي ولنا يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعي إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم وأية عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟ 20 . وماذا نجني غير الشؤم الذي سوف يريق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن نتجح في أي عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والمعاصي من الرعية. والفرق بين الحالتين هو أن الرعايا المطيعين في أمان من الحماكم والعصاة غير آمنين. وإذا فكيف يجوز ألا تؤمن المطيعين فيكونون منا في عذاب ونصب؟ 21 . لا بد أن تستجاب دعوتهم بلمسا والدعاء بالسوء علينا. وعلى هذا ينبغي التفكير في هذه الأمور. وأنا دائمًا أسدى إليكم هذه النصائح وأتم عنها غافلون".

وهكذا نتيجة لأمثال هذه النصائح بقي واحد من ألف من تلك المشاعب التي كانت تلحق بالرعايا قبل هذا؛ فلا غرو أن ازداد جمهورهم في مختلف الممالك توجهًا بالدعاء للدولة. فليكن هذا الدعاء مقروئًا بالاستجابة بحق الحق وعزته⁽¹⁾.

ولا شك أن ما جاء على لسان غازان من نصائح غالبية لأبناء قومه وتحذيرهم من مغبة سوء معاملتهم الرعايا لما ينادى به الإسلام الذي يدعو إلى المساواة ويحث على فعل الخير دائمًا.

(1) انظر المرجع.

وفى الحكاية السادسة والعشرين بعنوان: "فى منع إقراض المال بالربا والتقصاء على التعامل بالربح الفاحش" تحدث رشيد الدين عن الأضرار التى لحقت بالجموع نتيجة التعامل بالربا، وكشف عما جرته هذه العادة للذمومة من مشاعب ومشكلات على مختلف الطبقات، وما سببه من إفساد الذمم وتخريب المصالح، الأمر الذى أدى إلى تحجج الكبار المخلصين من مناصبهم وإجبارهم على ترك أعمالهم حتى يفسحوا المجال للعابثين والشهازين للفرض فى الاستغلال والإفساد، وحتى لا يكونوا عتبة أمام هؤلاء الضالين المضلين. فكانت النتيجة المتوقعة أن عصت القوضى وكثر التصب والاحتيال، وأدى الأمر إلى إفلاس الكثيرين. وصدق الحكماء الذين قالوا: "إن الملك يمتثل وبزول عندما ينحى الأشخاص الإكفاء عن مزاوله الأعمال المناسبة لهم وتسد إلى غير الإكفاء".

فطن السلطان غازان بعد نظره وثاقب فكره إلى أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا؛ فإذا منع ذلك؛ فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى.

ولما اقتنع غازان بأنه لا بد من وجود علاج حاسم لهذا الوضع الذى أدى إلى الإفلاس والحسران، أصدر مرسوما فى شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م يقضى بتحريم التعامل الربا. ولكن وجدت معارضات فى بادئ الأمر، فلم يصح إليها وأصر على وأبه. وكان يرد على المعارضين قائلا: "إن الله تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. وهذا ما أمر به الله^(١) ورسوله ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك".

ونتيجة لهذا الموقف الحازم والإصرار على الرأى الصحيح، زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف كافة الطبقات. ثم بحث رشيد الدين للأمر حتى لا يتهم بالمبالغة فيصرح قائلا: "ولا شك أن أهل هذا الزمان يتركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاسد. أما الذين يمشون بعد هذا ولم يروا حقيقة ما حدث فأتى لهم أن يدر كوا غائلة هذا القانون؟"

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿الذين يآكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يصابه الشيطان من السر؛ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأمر الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانصه فإن ما سلف وإمره إلى الله ومن عاد فإن لك حسابا عظيم فيها مخلدون﴾. (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

وأخيراً يدعو رشيد الدين لغازان بقوله: "قلوبك الحق تعالى هذا السلطان كى يقضى دائماً على هذه الرسوم المنومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف مهيئة وراسخة".

وفي الحكاية السابعة والعشرين بعنوان: "فى منع المخالاة فى صداق الزواج" بين رشيد الدين كيف عالج غازان شان موضوعاً اجتماعياً مُهماً يتعلق بالعلاقة بين الرجل وزوجته. ومعنى هذا أنه كان للأسرة أيضاً نصيب كبير من عنايته فهو يرى بحق أن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج أن يكون هناك تاسل وتوالد بين الأدميين للحفاظ على النوع البشرى واستمرار الحياة. وعلى هذا لم يهجر غازان وسعاً فى اتخاذ الوسيلة الكفيلة بالمحافظة على الأسرة، والعمل على ترابط أفرادها.

ومن هذا المنطلق حرص غازان على أن تقوم العلاقات الإنسانية بين الرجل وزوجته على أسس سليمة من التفاهم والمحبة. فإذا تعرضت هذه العلاقات لخطر الخلاف والنزاع، وتعدرت التوفيق بين الطرفين، فإنه من الأفضل أن يفترق الزوجان. ولكن غازان رأى بحق أنه فى هذه الحالة قد يقف الصداق المغالى فيه عتبة كئداء تحول دون التفراق فتتحول الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق.

والواقع أنه إذا روعيت بين الزوجين طرق المحبة والوفاء فإنه لا يستطيع أحد أن يفصلهما الواحد عن الآخر. وإذن لا يكون للزوجة نفع من المخالاة فى الصداق ولا يتصور أن يقع ضرر على الزوج من هذا الإجراء. أما إذا لم يحدث بين الجانبين اتفاق واتحاد، فإنه عندما يكون الصداق كبيراً، لا يستطيع الزوج أن يطلق زوجته لأن ذلك يتطلب المزيد من المال؛ وهذا من شأنه يؤدى إلى استمرار الخصام والنزاع بين الزوجين، ويجر فى النهاية إلى زيادة الكراهية والحقد والغضب، فيقضى كل منهما حياته فى ضجر وعناء. أما إذا كان الصداق قليلاً، فإنه بالنسبة لمفلس الطلاق تنهى المرافعة بالمناقرة، ويتخلص كل من الزوجين من شر النزاع والجندال، ويبحث كل منهما عن زوج آخر يناسبه^(١). والله تعالى يقول: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعة. وكان الله واسعاً عليهما﴾^(٢).

(١) عورتهم: حبيب السر، ٢٢، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) قرآن كريم، سورة النساء آية ١٣٠.

تبه غازان إلى تلك المغالاة في الصداق، ورأى أنها لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تقول على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: "خير النكاح أيسره وخير النكاح أقله كلفة"^(١). وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد استحسّن المهر القليل في الزواج، ينبغي أن يفضّل الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث إنه لا تجب عليه الزكاة.

بناء على هذا أصدر غازان أمره بتقليل الصداق، فجعل حده الأقصى تسعة عشر ديناراً ونصف، وكلف القضاة بالألا يصدّقوا على عقود الزواج إذا زاد على هذا المبلغ. ولا شك أن مسألة تحديد الصداق هي من شؤون الحياة الموكول معظمها إلى اجتهاد المفكرين والمصلحين. ومضى رأى الحاكم تحديد ذلك بقدر معلوم يتواءم مع مصلحة جميع الناس، فإنه جائز قطعاً، وليس في الشرع ما يمنعه إذ هو من المصالح التي تتفق مع مقاصد الشارع كما جاء في الحديث الشريف: "يسروا ولا تعسروا"^(٢).

وفي الحكاية التاسعة والعشرين بعنوان: "في منع الناس من احتساء الشراب" يتحدث رشيد الدين عن تحريم غازان خان على الناس احتساء الخمر في الطرقات والأسواق بسبب ما كان يحدث من عربلة ومشاجرة بين السكران، وإلحاق الأذى والضرر بالناس، غير أن غازان لم يمنع شرب الخمر منعاً تاماً؛ لأنه على حد قوله: إذا فعل ذلك فلن ينفذه أحد. وللمحافظة على حرمة المساكن أصدر أمراً بالألا يدخل أي مخلوق منازل الناس للبحث عن السكران حتى لا يمسك العسس سلوكاً يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحمل المتعصب والمشقات بالخلق. وعلى سبيل الإحياء قرر أن تعرض عليه الموضوعات المهمة التي تتعلق بشؤون الدولة في حالة صحوه وبفكرته. وقد اتبع هذه القاعنة داخل إيران وخارجها فنحن نعلم أنه بعد أن انتصر غازان على قوات الناصر محمد بن قلاوون في موقعة مرج المروج سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م واحتلاله مدينة دمشق، خرج إليه ابن تيمية في "مرج راعط" ليشكو له ما جرى من انتشار بعد أمنائه، فلم يسكت الاجتماع به لشغفه بالسكر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فقالا: "لا بد من المال". فانصرف^(٣).

(١) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: تسمية تحديد الصداق، ص ١٠، مؤلة لطره، الدورة ١٣٩٦هـ.

(٢) نفس المرجع، ص ١٩.

(٣) السلوك: ج ١، ص ٣٠١، ص ٨٩٢، الطبعة الثانية، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيان، القاهرة ١٩٧٠م.

ورغم هذا نرى رشيد الدين يبالغ عن غازان. وفي مبالغة واضحة راح يبنى عنه نقيصة ضيابه عن وعيه أثناء تناوله الشراب؛ بحيث إنه لا يستطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سبيل التحايل والتليس والمغالطة^(١).

والواقع أن شرب الخمر حرام ومنهى عنه في الإسلام سواء أكان هذا في الأسواق أم في غيرها. قال تعالى: ﴿لَهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ. إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٢).

وفي الحكاية الثامنة والثلاثين بعنوان: "مسئور الفرمان بإقامة دور خاصة للرسل في البلاد ومنع الشمن والحكم من النزول في منازل الناس" يتحدث رشيد الدين عن جانب آخر من الجهود التي كان يبذلها غازان خان في سبيل راحة الناس والقضاء على أسباب شكواهم، وذلك بالمحافظة على محتكاتهم وأعراضهم وإعادة الطمأنينة إلى نفوسهم. وهذا مبدأ قويم يدعو إليه الإسلام، ويحرص على ضرورة مراعاته والتمسك به. وكانت العادة قد جرت في عهد المغول أن يوفد للحكام وكبار رجال الدولة الرسل مزودين بالأخبار الهامة إلى الإبلخان وكبار الشخصيات. ولكن قبل غازان، خرجت المسألة عن هذا الهدف إلى ضروب من سوء الاستغلال إلى أن وصل الأمر إلى حد الاعتداء على حرمة المساكن؛ إذ كان الشمن والحكم يتزلون هؤلاء الرسل في بيوت الناس، وذلك عن طريق الأدلاء الذين كانوا يصحبونهم إلى بيوت رعابها قائلين لأصحابها: "إن هؤلاء الرسل يتزلون ضيوفا عليكم". وفي مقابل ذلك كانوا يأخذون من هؤلاء الرسل تقوفا نظير تأدية هذه الخدمات. وكان هؤلاء الأدلاء لا يكتفون بذلك بل يأخذون أيضا السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثر هذه الأدوات كان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم، وإما الأدلاء بحجة أن الرسل قد استولوا عليها ولم يردوها. ولو فرض وأعيد بعضها فأية قيمة لها بعد أن ظل الرسل يستعملونها مدة طويلة. ولقد كانت المنازل التي ينزل فيها الرسل أحسن المنازل وأفضها. وفي اليوم الذي يتخذ فيه رسول أحد المنازل، كانوا يحملون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما يصلون تباعا ولا ينقطعون.

(١) انظر الترجمة العربية.

(٢) قرآن كريم: سورة المائدة، آية ٩٠-٩١.

وقصارى القول أنه عندما ينزل رسول في إحدى الحملات، كان السكان هناك يقعون في عذاب ومشقة؛ إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التي تصادفهم من مأكولات ومشروبات وأصناف علف الدواب. ومهما كان الملاك يصرعون وينحون كان صباحهم صرخة في واد، لا يمكن أن تصل إلى أى من الأمراء والوزراء. ولدهى وأمر من كل هذا أن هؤلاء الرسل كانوا يدخلون بيوت الناس ويرنكبون أعمالا شائنة مخلة بالأداب، كما تروى قصة هذا الشيخ الحرم الذى قدم ذات يوم إلى الديوان، وصار يخاطب الأمراء والوزراء فى صراحة تامة قائلا: إني رجل هرم ولئى زوجة شابة ولولادى مسافرون، وقد ترك كل منهم زوجة شابة حسنة. كما أن لى بنات. وها هم الرسل قد احتلوا منزلى، وجميعهم من الشباب القوى النشيط ويتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقمبون عندى فيشاهدنهم لوئك النسوة ولن يستطعن أن يفتنن بى وبأولادى المسافرين، وأنا عاجز عن مراقبة كل ما يحدث ليلا ونهارا. ثم يضيف الرجل فى حسرة وألم مينا أنه إذا كانت الأمور تجرى على هذا النمط من الاختلاط المصيب، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة وسيكونون جميعا أبناء أتراك غلظين.

فلما وقف غازان على أطراف هذه المشكلة أمر بأن يكفى بإيقاد رسول واحد، وأن يكون إيفاده لتصرف مصالح الملك الضرورية. وإذا كان يراد إبلاغ السلطان أخبارا مهمة فإنه يختار لهذا الغرض الرسل المدايون وسعاة البريد. كذلك منع منعاً باتاً نزول هؤلاء الرسل فى مساكن الرعايا، وأمر بتشييد دور خاصة لهم على أن تزود بالمعدات اللازمة من فراش وملابس وكل ما يحتاجون إليه. كذلك رصدت مبالغ تنفق بصفة مستمرة على هذه الدور وتعميرها. وبالإضافة إلى هذا، أصدر غازان مرسوماً يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأبناهم منازل خاصة بهم لو استأجرونها.

وبهذه الإجراءات الحاسمة زالت تلك المتاعب، وقضى نهائياً على الوسطاء فاستراح الناس، ونسوا ما كان يمل بهم من عذاب ومشقة. أما جمهور الفارين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عن أوطانهم، وصاروا يتنقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعاً قد أخذوا يعودون إلى منازلهم وديارهم الأصلية وذلك بمحض اختيارهم، وألستهم تلهج بالدعاء من صميم قلوبهم وبإخلاص تام. فليستجيب الله دعاهم.

وأخيراً في الحكاية الأربعين التي كتبها رشيد الدين بنحوه: «في حضر إقامة الجوارى بالقوة في دور البهاء» نراه يذكر هذه الحكاية من بين إصلاحات غازان خان الاجتماعية التي تهدف إلى عبارة الرذيلة بمقتضى الطرق وكلفة الوسائل. وكانت العادة قد جرت قبل تولي هذا العاهل أن يجبر العاهرات على السكنى في المدن الكبيرة بجوار المساجد والخوانق ويوت الناس. وكان التجار والمستوطنون يجلبون الجوارى من أطراف البلاد، ويفضلون يبعهن لأصحاب بيوت الدعارة أكثر من غيرها؛ لأن هؤلاء الناس الذين لا حلاق لهم كانوا يدفعون أثماناً خيالية، خصوصاً للجوارى الجميلات؛ مما يحقق هؤلاء التجار الكسب والإثراء سريعاً وبأبسط الطرق وأهسر السبل.

ولقد رأى غازان حين أن وضع هذه اللوائح وإجبار العاهرات على السكنى فيها لممارسة الرذيلة، أمر معظوم ومنموم، ومخالف لأحكام الشريعة^(١). ولهذا ينبغي المبادرة بعلاج الموضوع، والعمل على غلق هذه البيوت. ولكنه رأى أن هذه العادة كانت متبعة منذ قدم الأما؛ مما يتعذر معه مكافحة البهاء دفعة واحدة. فلا بد إذن من الحذر والتأني والصبر مؤثماً على هذا للكروه. وإذن فالسبل إلى تحقيق هذا الهدف هو التدرج في علاج البهلاء.

وبناء على هذا صدر مرسوم غازان الذي يقضى بأن كل جارية لا ترغب في ممارسة الرذيلة في بيوت الدعارة، لا تباع إلى جماعة المشرفين عليها. وأما من يقمن في تلك البيوت، فإن كل من تريد أن تغادرها لتعيش عيشة شريفة، لا تمنع من ذلك، ويحدد لها ثمن تشتري به، وتزوج من الزوج الذي يقع عليه اختيارها^(٢).

هذا قليل من كثير مما حواه تاريخ غازان خان، صاغه بقلمه وزيره ومؤرخه رشيد الدين فضل الله. وقد لاحظنا أن هذا المؤرخ كلما شعر بأن كلامه قد يحمل على سبيل التمهيل والمبالغة، والإغراق في المدح والنساء على غازان خان، يسارع إلى الاستشهاد بالمعاصرين فهؤلاء قبل غيرها هم شهود على ما أحدثه غازان خان من إصلاحات مختلفة وهم وحدهم يستطيعون أن يحكموا بصحة ما كتبه عنه هذا المؤرخ.

(١) يقول الله تعالى في هذا الشأن: ﴿ولا تكفروا بما كنتم على البهاء إن أردن أن تصفوا فيهن أو عرضنهن للهوا﴾ ومن يكفهن فإن الله من بعد إكرامهن لغفور رحيم ﴿قرآن كريم، سورة التور، آية ٣٣﴾.
(٢) انظر شرحه.

ولكن رشيد الدين يحاط للأمر ولا يكفى بالروايات الشفهية، بل يشير أيضاً إلى الوثائق والسجلات المكتوبة التي هي خير دليل على صدق ما يقول. وعلى هذا رأيناه في الحكاية السادسة التي كتبها بعنوان: "في بطل سلطان الإسلام وعطائه وجوده وسخائه على الوجه المستحسن القائم على أساس المعرفة"^(١) يتحدث بالتفصيل عما قام به غازان من مجهودات في سبيل إصلاح شئون المال والاقتصاد، وتوجيه العناية في فرض الضرائب وتحصيلها^(٢). وفي نهاية الحديث عن هذه الإصلاحات يصرح رشيد الدين بقوله: "لا بد أن الناس يحملون كلامي هذا على سبيل المبالغة ويقولون: من الذي رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خزائنهم حتى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد على هذه الأمور هي سجلات الدخل والمخرج الخزائن السابقين، وكلها محفوظة في دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجوداً حتى الآن.

فأي شهادة في هذه الدنيا أكثر عدلاً وصدقاً من السجلات والدفاتر التي لم ترها عين، ولم تحظر على بال أحد؟! ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقال أو كذبه"^(٣).

والأمر الذي لا شك فيه أن ما قام به غازان بخان من إصلاحات، كان نتيجة اعتناقه الإسلام عن إخلاص وإيمان؛ فلقد أخذ على نفسه أن يعمل بتعاليم هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وما نحن نراه يوضح الهدف الأول من وراء هذه الإصلاحات حين يقول: "هو تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء من شدة عنايتنا واحتماننا باستقامة أمور الدين، فتزول من النفوس نقيصة الفسائل والتهاون في شئون الشرع، وتعمل محلها فضيلة الصلاة والنبات"^(٤).

ولقد صدق المستشرق الإنجليزي بيلون حين قال: "على الرغم من أن غازان لم يكن أول سلطان مغول يعتنق الدين الإسلامي، فإنه في الحقيقة كان أول شخص يعيد إلى هذا الدين الحنيف عظمته وجلاله"^(٥).

(١) انظر الترجمة.

(٢) جامات الفروض للكشفية في آسي وأنترة والرقبة إلى عهد خلفاء غازان مصدقة لما قاله رشيد الدين عن هذه الإصلاحات (انظر بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، نقله إلى العربية الدكتور نيه أمين فارس ومتر العنبري، الطبعة الأولى، ص ٢٧٤، بيروت ١٩٤٨م).

(٣) انظر الترجمة.

(٤) نفس المصدر.

(٥) تاريخ لدين إيران أربعة قرن عظيم لنا أسير قرن هشتم هجري: عصر استيلاي مغول وولغار، ترجمة وحواشي بقلم علي أسير حكمت، ص ٢٠، تهران ١٣٢٧ هـ - ١٩٤٨م.

هذا الحلق الثمين وهذه الأعمال المجيدة والإصلاحات المفيدة التي شملت جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تصدر إلا من رجل قلبه عامر بالإيمان، يقظ الضمير، بعيد النظر بحسب ربه، ويعمل بأوامره، ويتقذ تعاليمه. ومن هنا كان لنا أن نقرر أن هذه الإصلاحات قامت على أسس إسلامية عخالمة^(١).

وبناء على هذا لا نوافق على رأى المستشرق الألماني شپولر (Spuler) الذى يزعم أن نظم غازان فى كثير من النواحي تسير على النمط المتبع فى الغرب؛ فالحاجات متشابهة والأساليب متشابهة، وأجهزة الديوان فى عهد غازان تستند إلى أساليب شرقية قديمة مأخوذة من إدارة إمبراطورية روما الشرقية^(٢)؛ إذ إنه من الجلبى الواضح أن هذه النظم سواء فى الديوان أو فى المصالح الأخرى تستند كلها إلى أحكام الشريعة الإسلامية.

وفى الحقيقة بعد أن اعتنق غازان الدين الإسلامى صار واحداً من المؤمنين الذين خلصت نيتهم وصلحت سريرتهم، واتجهوا بكل ما فى طاقتهم إلى رعاية آداب هذا الدين وإقامة شعائره على أحسن وجه. يقص علينا ابن الفوطى ضمن أحداث سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م أن غازان توجه إلى بغداد، ودخل المدرسة المستنصرية من الدار الجاورة، وكان يسكن بها نظام الدين محمود شيخ المشايخ. وكان للمدرسون والفقهاء قد جلسوا على عاداتهم، والربعات للشريعة فى أيديهم. فلما عينوه قاموا وخدموه؛ فأمر رشيد الدين أن يقول لهم: أتسم مشغولون بقراءة كتاب الله عز وجل كيف جاز لكم تركه، والاشتغال بغيره؟ فقال أحد المدرسين: السلطان ظل الله فى أرضه، وطاعته وتعظيمه والانتقاد له واجب فى الشرع. فدخل خزانة الكتب ولجها، ثم عاد إلى الدار المذكورة، قيات بها^(٣).

ورغم أن المستشرق الفرنسى "جروسية" يرى أن حكم غازان يحدد اللحظة التى تحول فيها هؤلاء البدو البدائيون شيئاً فشيئاً إلى الحياة المستقرة فى إيران، إلا أنه راح يدعى أن هذا الاستقرار لسوء الحظ لم يتم دون أن يكون له مضار؛ لأن هؤلاء المنقول عندما خرجوا عن تسامهم العام إلى اعتناق دين خاص هو الإسلام، وإلى اعتناق مذهب خاص فيه لم يلبثوا أن فقدوا جنسيتهم، وأن فقدوا معها مميزاتهم، وأن تركوا أنفسهم للوسط الذى

(١) الشرق الإسلامى، ص ٣٤٠.

(٢) تاريخ منقول من إيران، ترجمة دكتور محمود مير قاضى، ص ٢٩٢، تهران ١٣٥١هـ.ش.

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب العخالمة فى اللغة السليمة، ص ٤٩٢ - ٤٩٣، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ.

همهم وشربهم وانخفاضهم. ولكن لم يكن الوقت قد اتسع ولا الوسيلة قد تهيأت لظهور هذه النتائج الضارة في أيام غازان الخازم^(١).

ونحن لا نوافق على هذا الرأي؛ لأنه إذا كان "جروسه" يتحدث عن التسامح العام للمغول؛ فإننا نرد عليه بأننا نرى أغلب المغول قوما متعصبين ضد الإسلام والمسلمين فجنغيز خان مثلا كان أشد أبناء المعامل للمغول قسوة وأكثرهم بطشا. وكان يشرف على تنفيذ أحكام والده وقوانينه كما نصت عليها الياسا. وقد لاقى المسلمون منه الأمرين؛ إذ كان ينزل بهم أشد العقاب على أقل هفوة. وكثيرا ما يكون العقاب الرهيب هو الإعدام^(٢)؛ فضلا من يذبح الحيوان على الطريقة الإسلامية كان جنغيز يأمر بقتله على الفور، لأنه يخالف طريقتهم التي أقرتها الياسا^(٣).

والحقيقة أن ما حدث للمغول في إيران من الضعف والتضيق والانحلال ثم الفناء حدث أيضا في جهات أخرى مثل الصين وروسيا وغيرها من الجهات التي كانت تخضع للمغول. والسبب الرئيسي في ذلك هو تفرق أمراء المغول بعد أن كانوا وحدة متماسكة. وسرعان ما دب النزاع والقتال بينهم؛ فكانت النتيجة المحتمة لكسل هذا هو السقوط والانهيار. وبذلك أثبتت المحاضرات أنها أقوى من سلطة المغول الممجبة^(٤).

وهناك أسباب أخرى كان لها أثرها المباشر في ضعف المغول وانهيارهم، فنحن لا ننسى الصراع الرهيب الذي نشب بين أفراد الأسرة حول ولاية العرش والحرب الطاحنة التي دارت بينهم في سبيل الوصول إلى كرسي السلطنة؛ تلك الحروب التي طالما حفرهم منها جعلهم الأعلى جنغيز خان؛ فقد كان ينصحهم دائما بالاتحاد والتآزر.

يروي أنه عندما كان على فراش الموت، جمع لولاده وقال لهم: "اعلموا يا أولادى الجهاد أنه قد قرب سفرى إلى دار الآخرة ودعا أجلى. وأنا بغرة الإله والتأييد السماوى استخلصت

(١) Grousset: des Steppes, P. 457

الترجمة القاسمية لهذا الكتاب، چاپ سومه من ١٣٦٨هـ، تهران ١٣٦٨هـ.

(٢) انظر الجوزجاتى: طبقات تاسرىه جلد فومد شقيق عبدالمولى حيسى، من ١٥٤ ١٥٧، كابل ١٣٤٣هـ.

(٣) انظر للفرزى: المخطوط، المجلد الثالث، الجزء الأول، من ١٤٦ ١٤٧.

(٤) خارولد لام: جنغيز خان وجغائل للمغول، ترجمة منرى أمين، مراجعة وتقديم الدكتور زكى محمود،

من ١٥٥ ١٥٦، القاهرة ١٩٦٢م.

مملكة عربية فسيحة، حيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم أتمم
با أولادى وحياتها لكم. فوصيتى إليكم أنكم تشتغلون بعدى برفع الأعداء ورفع شأن
الأصدقاء، وتكونون جميعا على رأى واحد حتى تمشوا فى نصرة وعز ودلال، وتتمتعوا
بالسلطة والجاه^(١).

هنا ويذكر الدكتور زكى محمد حسن ميا آخر لانهيار دولة الإيلخانيين هو أن خلفاء
هولاكو لم يفتنوا فى بداية الأمر إلى ما فى شو النظام الإقطاعى فى إيران من خطر على
دولتهم؛ فتطرق إليهم الاحتلال، وانقسمت إيران بعد سقوط هذه الأسرة إلى دويلات محلية
ظلت قائمة حتى قضى عليها تيمور لنگ فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر
الميلادى) حين استقر له الأمر فى بلاد ما وراء النهر، وبدأ سلسلة فتوحات أخضع فيها
إيران وجزيا من جنوبي الروسيا وبلغد، وهزم بايزيد سلطان الأتراك العثمانيين عند أنقرة
سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م^(٢).

ونظرا لغزارة المادة العلمية التى كتبها رشيد الدين عن غازان بوجه عام وما قام به من
إصلاحات فى مختلف ميادين الحياة بوجه خاص، صار ما كتبه منبععا ومرجعا مهما لمعاصريه
ومن جاء بعده من المؤرخين. ونحن نخص من هؤلاء بالذكر محمد بن هندوشاه النخجوانى
فى كتابه "دستور الكتاب فى تعيين المراتب"^(٣) وعوانده فى كتابه "حبيب السير"^(٤).

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج ١٦، نشر وتحقيق دكتور جهن كرمى، ص ٢٨٥ نهران ١٣٢٨هـ.ش.

(٢) فنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، ص ٢٨، منشور دار الفقه العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
نفس المؤلف: التصور فى الإسلام عند فرس، ص ١١، منشور دار الفقه العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣) مؤلف هذا الكتاب هو حسن الدين محمد بن هندوشاه النخجوانى المعروف بشمس اللشى، الله سنة ٧٦٠هـ وتقدمه
إلى السلطان لوبس الجلالتارى (٧٠٧ - ٧٧٦هـ). ولقبه ما اشتغل عليه الكتاب بعنوان على شكل رسائل
من الإسمات والرتب والمقامات المرفوعة من الأمال إلى السلطان والأسراء على شكل رسائل
تعلق بالقدون الاقتصادية المتعلقة من زراعة وتجارة وتقسيم للأراضى وزراعتها. وكذلك الأرفاف
والإقطاعات الخاصة بالأسرة الحاكمة والأمال والكتاب على هذا النحو يشتمل على موضوعات مهمة
تصلب بصفة خاصة بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لبلدان الشرق الأدنى والأوسط.
كما أنه مفيد أيضا تاريخ كزيجان. قام بتحقيق هذا الكتاب عبد الكريم على لوشلى زاده، ونشر فى موسكو
عام ١٩٦٦.

(٤) انظر مؤرخ الملوك الكبير، ص ٣٣٤ وما بعدها.

أما الأول فقد تأثر بما كتبه رشيد الدين عن إصلاحات غازان بصفة خاصة، فنراه في أكثر من موضع من كتابه ينقل عبارات رشيد الدين بتصحها أو بتضيق طفيف. فعلى سبيل المثال عندما تحدث غازان إلى الأمراء القبول بتصحيحهم بأن يعاملوا رعائهم معاملة حسنة ويحذروهم من الإساءة إليهم، وينذروهم بإتزال أشد أنواع العقوبات إذا لم يحكموا عن إيذائهم نرى النخجواني يعقب على ما ذكره قائلًا: "يقول الوزير العادل الشهيد الخواجه رشيد الدين فضل الله طاب ثراه الذي دون أخبار السلطان المسجد المقفور: "إنه بواسطة استماع هذه النصائح، صار يحدث واحد من ألف من المشاهير التي كانت تحدث قبل هذا من المتطلبين والمتعدين بالنسبة إلى الرعايا الضعفاء. وقد اشتغل جمهور الرعايا في الممالك بالدعاء للسلطان السيد نور الله مرقد^{١١٣}". كذلك نراه في صفحة ٢٠٣ تحت عنوان: "النوع السادس: في منع المكارين وأمثالهم من إيذاء الرعايا" يتأثر بما ورد في كتاب رشيد الدين إلى حد كبير؛ فالعنوان هو نفسه العنوان الذي كتبه رشيد الدين تقريبًا في "الحكاية التاسعة والثلاثين": "في منع المكارين والجسمالين والسعاة من إيذاء الناس"^{١١٤}. والعبارات مصوغة في أسلوب يختلف قليلاً عما ورد في كتاب رشيد الدين. وكذلك فعل النخجواني في حديثه عن الإصلاحات الاقتصادية التي شئت في عهد غازان خان^{١١٥}.

وأما "خواتمير" مؤلف كتاب حبيب السيرة، فقد راح هو الآخر ينقل عن رشيد الدين. وكان يصرح بهذا في أكثر من موضع؛ فهو مثلاً عندما تحدث عن أخلاق غازان خان وإصلاحاته تحت عنوان: "ذكر شمة از محاسن أوصاف ومحمد آثار غازاني، وبيان قوانين يستلذه أن"^{١١٦}، نراه يمدح هنا المعامل ويشي عليه، ويكشف عن نواحي العظيمة في شخصيته، ويذكر عنه أنه لم يقصر في تأسيس بناء للدولة وصهيد مراسم العدل والاهتمام بشؤون الرعية. وقد اختصر خواتمير الحكايات الأربعين التي ذكرها رشيد الدين في عشرين حكاية لتكون دليل صدق وشاهد عدل على إثبات ما يدعيه، واعترف بأنه نقل هذه الحكايات من كتاب جامع التواريخ^{١١٧}.

(١) دستور الكتاب في تسعين للترتيب، ص ١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر الترجمة العربية.

(٣) دستور الكتاب، ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٤) حبيب السيرة، ج ٢، ص ٩١ وما بعدها.

(٥) خواتمير: حبيب السيرة، ج ٢، ص ٩١.

وهكذا فإن من يدرس تاريخ المغول يرتاح حقاً عندما يتحول فجأة من قراءة ما لترفه هؤلاء القوم من فظائع تقتشر لهُوما الأبدان، وما سفكوه من دماء يغير حساب إلى أسس للمواطف الإنسانية وأنبيل المشاعر الرقيقة التي أعلنت عن نفسها في سلوك غازان وأعماله المجدية. وإن المرء قد تضره الدهشة وتملكه الحيرة، لأن هذه الإنجازات كلها قد بُنت على يد غازان الذي كان جده الأعلى هولاًكو غازياً جباراً سفاكاً للدماء ونحن لا يمكن أن ننسى أنه معظم الخلافة العباسية وقاتل الألاف للؤلؤفة من الأُنفس البرقة. ولكن ما تلبث أن تزول الدهشة وتنتفي الحيرة عندما يعلم أن هذا التحول الكبير إنما يرجع أولاً وقبل أى اعتبار إلى الإسلام الذي اعتنقه غازان عن التنازع وإخلاص، وأمن به إيماناً راسخاً صادقاً، ونفذ تعاليمه فكانت النتيجة هذه الإصلاحات المعظيمة التي قامت على أسس إسلامية قوية^(١).

وإذاً فغازان رغم قصر مدة حكمه بعد دون شك واحداً من أكبر السلاطين في الشرق، وذلك بواسطة القواعد والقوانين التي خلفها والإصلاحات التي قام بها. ونحن لا نعدو الحقيقة إذ اعتبرناه أيضاً واحداً من السلاطين المشهورين في إيران من حيث السياسة التي انتهجها ومن حيث التنظيم والإدارة، فهو من هذه الوجهة بعد أكبر سلاطين الإبلختانيين على الإطلاق.

ولكن يجب أن نضع في الاعتبار أن ما ناله غازان من فخر وعظمة وسمعة طيبة إنما كان بمعونة وزيره العبقري الفذ رشيد الدين فضل الله الهمداني الذي كان من جهة يدير للممالك الواسعة لغازان بكفاءة وتدريب. وكان من جهة أخرى الساعد الأيمن لغازان في ترفعه عن الرعية وإصلاح الشؤون الاقتصادية وتشيد الأبنية والآثار المجدية.

ونحن لا ننسى جانباً هاماً آخر هو أن رشيد الدين خلّد - على صفحات الدهر - في كتابه الذائع الصيت "جامع التواريخ" محامد غازان وأعماله المجدية ووقائع أيامه بقلمه السلس الجذاب. وبالإضافة إلى هذا ينحى ألا نفضل ذكر النخبة الممتازة من العلماء والأدباء والفضلاء الذين اجتمعوا حول رشيد الدين في تمييز نتيجة شغفه بالعلوم والآداب وتشجيعه الأدباء والعلماء والفضلاء الذين بذل كل واحد منهم جهداً مشكوراً في هذا

(١) الشرق الإسلامي في عهد الإبلختانيين (أسرة هولاًكو خان) ص ٣٤٠.

السبيل؛ بحيث إنه يمكننا أن نقول: "إن عصر غازان ولولجياتو وأبى سعيد يعد من أكثر العصور إشراقاً في تاريخ إيران"^(١).

والآن أكتفي بهذا المقدّر من الدراسة، وأترك المجال للقارئ كي يحكف على قراءة الترجمة بأكملها، ويستخلص منها ما يشاء. وأنا على ثقة تامة من أنه سوف يظهر بمتعة عقلية كبيرة، ويجد في تاريخ غازان المزيد من العظات والعبر، ويتأكد أنه إذا توافر للإنسان العزم الصادق واليقين الراسخ، فسوف يتخطى العقبات ويتحقق الأهداف.

لقد أعجبتني كلمة الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ "رجاء النقاش" التي يقول فيها عن التاريخ: "عندما نقرأ التاريخ نشعر بالمتعة؛ فالتاريخ هو ملخص الحياة، وفيه مواقف وشخصيات وصراعات ومغامرات، وفيه أيضاً ألوان متعددة من حسن الحظ وسوء الحظ. والذين يحبون قراءة التاريخ لا يتوقفون وهم يقرؤون عن المقارنة بين ما جرى في الماضي وما يجري في العصور الحاضرة، بل كثيراً ما يقارن قارئ التاريخ بين أحواله الشخصية وبين ما يقرؤه من شخصيات قديمة وأحوال ماضية. وهذا هو ما يضاعف متعة التاريخ في نظر قرائه وعشاقه، فهم يستمتعون مرتين: مرة بمعرفة ما حدث وما جرى في عصور سابقة، ومرة أخرى بالتفكير والتأمل والمقارنة بين ما حدث في الماضي وما يعمله الحاضر من أحداث. والتاريخ آخر الأمر هو فن، ولكنه أكثر من كل الفنون قدرة على التأثير في النفوس؛ لأننا ونحن نقرؤه نعرف أنه حقيقي وصادق وبعيد عن الخيال"^(٢).

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول: ترجمه چنگیز تالشكيل دولت نيموري، ص ٢٨١ - ٢٨٢، طهران ١٣٦٢ هـ.ش.

(٢) صحيفة الأهرام، ص ٢٤ بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٩٦.

الترجمة العربية

لتاريخ غازان خان

غازان خان بن أرغون خان بن أبها قاخان بن هولاكو خان ابن تولوي خان بن چنگيز خان

وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

في تقرير نسبة العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة وذكر زوجاته (خواتمه) وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

القسم الثاني:

في مقدمة جلوسه اليمون، وصورة العرش والخواتين "والأمراء الأنجال"^{١١٦} والأمراء وجلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ حكمه، والحروب التي قام بها، والفتوحات التي تيسرت له.

[ص ٢٤٧]

القسم الثالث:

في سيره الحميدة، وسجاياه المحمودة، وأثار عدله وإحسانه وخيراته ومبراته وفتون آدابيه ومستحب عاداته، والكلمات التي قالها في كل سنة على وجه التطبيق وسبيل التفتيق والأحكام المحكمة والفتاوى المبرمة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلق، والتي نفذها في كل شأن من شئون الحياة، ونوادر الحكايات والأحوال التي لم تذكر في القسمين السابقين. وهي نوعان:

أحدهما: ما كان موبخاً. وهو عبارة عن أربعين حكاية.

وثانيهما: ما يسجله القلم بصورة مخرقة حسب اقتضاها والحوادث المختلفة.

(١) ترجمة لكلمة خاتمة كان للتمييز بينها وبين كلمة "خاتمة" من غير أبناء القرد.

القسم الأول

في تقرير نسبة العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة، وذكر خواتمه ولولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

غازان خان هو الابن الأكبر لأرغون خان الذي تزوج، وهو في الثانية عشرة من عمره من والدة غازان المسماة "قولتاق" ابنة "يتكجي" الصغرى من قبيلة "توربان". وكان أرغون قد خطبها من "كرك تيمور" الذي كان أمرا "لأرتسو" و"مولاي". وكان الأمر "تيسر" قد تزوج من أختها الكبرى المسماة "أشلون".

كانت "قولتاق" في غاية الكمال والجمال. وكان أرغون يحبها حبا شديدا لدرجة أنه أراد أن يستقبلها، ولكن منعه من ذلك الأمران "سرتاق" و"جوجان". ولشدة تعلقه بها صعد برج القصر، وجلس فوق سطحه، وصار يشاهدها من بعيد.

وصفوة القول أنه بعد إتمام مراسم الزفاف والزواج، تكونت مواد العنصر الشريف لغازان، واستقر صدف مشيئة ذلك القمر للملكي في در البحر الخاقاني. وبعد تسعة أشهر وفي أحد ساعة [ص ٢٤٨] من فجر ليلة الجمعة التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م الموافق (بمير بيكو مينج آي) علم بالخروف جاء من كنه العلم إلى حيز لوجود، طالع غازان المبارك القدم في "تيسكون"^(١١) من لواحي ماژندران، وذلك وقت طالع السعد بمرج المقرب، وسهم السعادة وسهم الغيب، فأضاء عين الدنيا بجماله.

ووقت ولادته رصد الكواكب جماعة النجمين المهرة الذين كانوا حاضرين واستخرجوا في احتياط تام طالع المولود، فوجدوه مسعوداً للغاية. فقال كل منهم (شعر فارسي في الأصل ترجمته):

لقد نظرت إلى طالعك فرأيت

إقطاعك سيكون مائة ألف نفس

(١١) أبسكون: جزيرة صغيرة متصلة على بحر فروسن. اشتهرت في التاريخ بأنها أحد مكنان لجأ إليه السلطان علاء الدين محمد غورغز شاه فلما من جماعات الملوك، ومات فيها قليلاً في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م. (الطر: كي لستنج: بلدان الحلافة الشرقية. نقله إل العربية، بشره الفرنسي وكور كيس مواد، ص ٤١٩ - ٤٢٠ بتعداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م الدكتور فتوح عبد الطليعي الصبيح: الملوك في التاريخ، ص ١٢٢ - ١٢٣ القاهرة ١٩٧٥م.)

ثم عهدوا به إلى مرضعة حسنة الخلق تدعى "مناجين"، وهي زوجة رجل خطائي اسمه "إيشنك"، وكانت قد جاءت مع "تولتاق خاتون"، وعرف عنها أنها امرأة عفيفة، محمودة السيرة، تليق بتربية أبناء الملوك. وكان ابنها "هنغو" على قيد الحياة.

وصفوة القول أن مرضعته للرحمة، صارت تربيته في جبر الشفقة. وكللك انطلق لسانه في عهد المهدي بالكلمات اللطحة والكلمات النصيحة طبقاً لما يقول الشاعر:

(شعر عربي في الأصل)

في المهدي ينطق عن سعادة جنه أسر النجابة ساطع الرهسان

بحيث إنه حير الجميع.

ولما كانت عادة المزل إلا يسمحوا لبعولة مرضعات أبناء الملوك أن يقربوا نساءهم ولأن "إيشنك" الخطائي جامع زوجته في ذلك الوقت، فحملت منه - أصيب الأمير غازان بإسهال نتيجة تغير لبن مرضعته. ولذا سبب استردوا الأمير منها، وأركبوه جواداً وهو في الثالثة من عمره، وسلموه لأم حسن الذي كان أميراً على طائفة "توقجيان" من قبيلة "سولتوس"، واسم والده "حسن آشتو" واسم والدته "آشتاي". وكان لآشتو ولد آخر يدعى "تولاي" يعمل ساتبا وطاهياً.

وعندما بلغ الأمير غازان الثالثة من عمره أرسل أرغون الأمير "تغلق شاه" من مشتي ماژندران إلى حضرة آبا قاعان لإيجاز بعض المهام، فحظي بالثول بين يدي الحضرة في "موغان"^(١)، فاستفسر آبا قاعان عن أحوال الأمير غازان. فرد "تغلق شاه" بأنه في الثالثة من عمره ويركب الجواد. فأظهر آبا قاعان ميلاً شديداً إلى رؤيته.

وعند عودة "تغلق شاه" قال له آبا قاعان: لقد بلغت من الكبر عتياً وتطوف بخاطري - من وقت لآخر فكرة الرحيل إلى الآخرة. وإذا كان ولدى أرغون بحسب ابنه غازان حياً

(١) مورغان: تكتب أيضا مورغان؛ مدينة ترسان من أعمال طوس. ولما سرق وسور حصن. وبها تجار قرياء وشياخ وفضل. ولما حصن منح. ويوجد بها قبر علي بن موسى الرضا. وعجل مورغان معادن الفضة والفضة والحديد. وفيها كذلك كثير من أحجار الفيروز. وكانت مورغان مقر الإسالة بترسان إلى أيام الظاهرية ثم انتقلت منها إلى نساور. إنظر كتاب الروض للسلطان في غير الأقطار، تأليف محمد بن عبد الوهم الحميري حققه الدكتور إسحاق عباس الطرية الثانية، ص ٥٦٦، بيروت ١٩٨٠م.

جاء، ولا يريد مغارفته لأنه وحيد فإني أتوق إلى أن يرسله إلى حتى يلهو باليواسق^(١)
والصقور.

فلما بلغ قلع شاه تلك الرسالة لأرغون، قال: ليس لي غير هذا الابن، فكيف أستطيع أن
أرسله إلى والدي؟ . غير أن الامتثال لأوامر الأب واجب على. وإذن فالمصلحة تقتضي
أن أتوجه بنفسى إلى حضرة والدى، واصطحب ولدى معى.

وفى أول شهر فصل ربيع من عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م، غادر أرغون مازندران قاصدا
زيارة حضرة والده [ص ٢٥٠]، واصطحب معه ابنه، ومثل بين يديه فى "قونقور
اولانگك"^(٢).

وعندما سمع أبأ قاخان خبر قدومها، بائر باستقبالهما، وذلك لفرط شغفه بلقاء الأمير
النجل غازان. وما أن رآه حتى رضعه عن صهوة الجواد وأجلسه على مقدم سرجه، وابتهج
برؤيته.

وحيث إن أبأ قاخان كان يشاهد على غازان أبهة لذلك وشمال السلطنة صرح قائلا:
"إن هذا الولد جدير بأن يبقى معى، وأن أقوم بنفسى بتربيته". ومع أنه كان يحب ابنه
أرغون حيا شهيدا، فإن حبه له قد ازداد، ورسخ فى قلبه أكثر من ذى قبل، وذلك بسبب
تعلقه بنغازان.

وفى تلك الفترة من الإقامة، وتيمنا بوصول ذلك النجل، صار أبأ قاخان مشغولا
بأسباب التبع واللهم والمرح. وكان يذل الإنعامات والمجانبا للجميع. وعند عودة أرغون قال
أبأ قاخان: "ليق الابن غازان عندى هنا حتى أقوم بنفسى بتربيته". ولما لم يكن لبولغان
خاتون الزوجة الكبرى لأبأ قاخان ولد ذكر، قال أرغون: إذا صدر الأمر، فإني أقدمه إليها
على سبيل العبودية والمخدمة، فأعجب بذلك أبأ قاخان. وكانت بولغان خاتون قد توجهت

(١) للسر "باشق" وهو نوع من جنس البازى، من فصيلة القطب النسرية وهو من الجوارح يهده الفصير
ويميز جسم طويل ومطار قصير يلقى القنوس (جمع القنة العربية) للصم القويط، ج ١، ص ٥٨.

(٢) "قنقر لولانگك" الاسم القبول للمدينة التى خرج فى إنشائها السلطان أرغون خان، وأنها السلطان لولانگكو
والمطلق عليها اسم "السلطنة" وذلك فى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م، وجعلها عاصمة الدولة الإلخانية.
"الجزر كسى لسرنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشر فرانسيس وكوركييس عواد، ص ٢٥٧
بغداد ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م.

إلى ناحية "سخورلوق"، فتبعها أرغون مسيرة منزل واحد وأدى لها الصحة والولاء، وسلم لها غازان، ثم عاد إلى خراسان. فسرت بولغان خاتون سرورا شهيدا، وقالت: إن هذه كرامة، وهديت لي من الله، وهو مثل ولدي من صلي.

ولقد ترك أرغون لابنه غازان عشرة من الخدم، هم: حسن وكوكا وما جار وأدرم وبوقا وقردغميش وفلجاي والتون وبوقا وأقاجي وهم من قبيلة اونككوت، [ص ٢٥١] ثم صرح أبا قاقان قائلا: ليق غازان في هذا المخيم، وينسب إليه، ثم يشول إليه من بعدى، ويقوم مقامى.

وجمل القول أن الأمير غازان كان يقم في مقر "بولوغان خاتون"، وملازما لحضرة أبا قاقان. ولأن غازان كان طفلا، كان أبا قاقان يمه أكثر من ابنه الصغير "جيجاتو"؛ بحيث إنه كان يؤاخذ جيجاتو إذا ما ضايق غازان أثناء اللعب.

وعندما كان أبا قاقان يمل زردحام الناس وضجيجهم، وفي الوقت الذى يطلب فيه زوجته "توادي خاتون" التى شغف بجهها، كان يتزلفا على بعد ما يقرب من نصف فرسخ من المعسكرات. ولم يكن أى مخلوق من الإخوة والأبناء يقضى هناك. ولكنه لفرط حبه لغازان، كان ينزله بجوارها، وكان يصحبه فى سكره وصحوه ولوفات صيده وظنعه وإقامته وفى أى وقت يشاء. ولم يكن يطيق صبرا عن بعده لحظة واحدة. وكان يصرح دائما بأنه تتجلى فى رأس هذا الصبي السعادة، ويدنو عليه الإقبال التام.

ولأن غازان كان عاقلا إلى أقصى حد، صار فى أول سن الطفولة يجمع الأطفال والأتراب، ويعلمهم القواعد والقوانين، وأساليب الصراع والتزال. كذلك عين أحد أقاربه من بين كبار أفراد الأسرة، ومن الأصدقاء المقربين؛ بحيث إنه لو تجاوز شخص حده، فإنه كان يؤاخذ طيفا لقواعد الهاسا^(١)، ويعاقبه بالزجر والتننيف. ولم ينصرف إلى اللعب واللهو شأن الأطفال الآخرين، بل كان من عادته فى اللعب أن يأمر بأن شاك له من اللباد والثيراب "دمى" على هيئة الأدميين والحيل ثم يدججها بالسلاح، ويجعلها تواجه بعضها بعضا كجيشين متحاربين الواحد منها فى مواجهة الآخر، [ص ٢٥٢] ثم يشير بيده الحرب والظن.

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن الهاسا التى وضعها ينجيز خان تقرر كتاب القول فى التاريخ للسرجم ص ٢٣٨ وما بعدها، القارة ١٩٢٥ م.

وعندما بلغ غازان الخامسة من عمره، عهد به جده أبا قاخان إلى "ماروق بنجشي" الخطائي حتى يشرف على تربيته، ويعلّمه الحقل للفتوى والأوغوري والعلوم والآداب. وفي مدة خمس سنوات، أتقن تلك الفنون. وبعد أن حصل هذه المعارف، شرع في تعلم الفروسية والرماية.

(شرح فارسي في الأصل ترجمته)

بينما كانت لا تزال راحة اللين تفوح من فيه

جاءته الرغبة في العطن بالسيف والرمي بالسهم

وكان دائما يطارد الحيوانات، ويجري الخيل بطريقة أدهشت البشر.

وفي سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م عندما توجه أبا قاخان إلى خراسان لمقاومة جنود القراوية الذين كانوا قد خربوا فارس، اصطحب معه "بولوغان خاتون" وغازان، فقدم أرغون لاستقبال أبيه. وفي سنان^(١) لحق بالخضرة، وجدد الأب والابن اللقاء. ولما غادر الجميع سنان، مارسوا الصيد عند الجبل الواقع بين سنان ودامغان^(٢).

وفي ذلك الوقت بلغ الأمير غازان الثامنة من عمره. وهناك شغل بالصيد^(٣). ولما كان هذا أول صيد له، مكث ثلاثة أيام في دامغان من أجل طلاء يده بالشحم^(٤). وقد أقيمت الولائم وحفلات التهور ثم غمس "بوقا" صاحب السلاح "تورجى" - الذى كان "مركانا" بمعنى أنه يجيد الصيد - يد الأمير غازان في شحم للصيد.

(١) سنان: تقع بين دامغان والقرى على طريق خراسان. جوهها مستدق، وتستخدم مايعا من السهول. وهي مدينة حسنة ومتوسطة بها أسواق وصناعات، وتنتج الرمان والقمي، وتشتهر بها غابة الجسوة (انظر حمد الله المستوفى القزويني: ترجمة القلوب بكرشش محمد ديسو سبكي، ص ٢٠٠ فروسى للطائر، ص ١٢٢١ بشأن الخلالة الشرقية، ترجمة العربية، ص ٤٠٧).

(٢) دامغان: تقع بين القرى ونيسابور، وهي اقرب إلى نيسابور. ولقد أطلق عليها العرب أيضا اسم قوس. يسهل جوهها إلى الجمرارة، وهي الليلة لئام، ومن فواكهها الكشمري المبهمة (انظر ترجمة القلوب، ص ٢٠٠ فروسى للطائر، ص ١٢٢١ بشأن الخلالة الشرقية، ص ٤٠٥).

(٣) كان للأولاد الصغار فرص يظهر فيها مهارتهم في الصيد، ويبدون عدم اكتراثهم بما قد ينجم عن ذلك من أخطار. وفي الحين كان الصيد يقرب الصغار على مطاردة الأعداء الأيمن ووضعهم في مركز حرج. (انظر چنگيز خان وجنرال الفول: تأليف مارولد لاپ، ترجمة منى أمين، ص ٥٥، القنطرة ١٩٦٢م).

(٤) جرى العرف عند الفلول أن يوضع شحم الصيد الذى يصيده الصبي لأول مرة على إصبعه الأوسط وكذلك يظفون مع من يتقدم أول ولقى لظفل تحت الظم في التمر كد.

وعندما كان أباً قاضان يتأخر دافغان، أمر بأن تسافر بولغان خاتون ومعها غازان عن طريق مازنغران؛ ولأن الوقت كان أول الربيع لم يكن العلف قد توافر بعد. وسلك هو طريق بسطام. ثم اتخذت بولوغان خاتون ومعها غازان طريق "شهرك نو"، ولحقا بحضرة أباً قاضان في "مرغزار رادكان". ثم رحل أباً قاضان إلى كيتو جام وهرة، وسير ابنه أرغون إلى ناحية غور وغرجه لصد القراونة. [ص ٢٥٣] وعندئذ قال غازان لجدته أباً قاضان: لو أذنتم لي فأتى على استعداد للسير كي أكون في خدمة والدي. فاستحسن أباً قاضان منه ذلك، وأمر له بزي من الشراب الخاص حتى يلمح بأبيه أرغون. ثم اصطعبه إلى موضع "باغ حين" مما يلي طوس حيث قام بتوديعه ثم قفل راجعا.

بعد ذلك أوفد أباً قاضان "سالموق خاتون" إلى ناحية دماوند وأعاد معها غازان أيضا. ثم استدعى "مايجو بنشى" والد الأمير "تارملر" ووالدته "توكال تي"، وقال لهما: "إبنتي أتت بكما ثقة مطلقة وأودعكما غازان كابين لكما، وسوف يكون معكما "باروق بنشى" أيضا. وعليكم أن تذهبوا مع "سالموق" إلى مصيف "دماوند" حتى يتوافر لغازان الحظ السعيد. وهكذا أمضوا الصيف هناك.

ولما عاد أباً قاضان وقت الحريف، لحق بحضرة غازان في ورامين الري. وكان أباً قاضان لقرط حبه الشديد للحفيد، يلبس قنسوة عتيقة في بعض الأحيان، ثم يأتي متكررا إلى مخدع غازان، ويلبغبه وهو مستلق في ثياب النوم. وكان يعرته، ويلبس "تمشتا اكاجي" بالأبيض ومادة تحت رأسه. وكذلك لم يسمح بأن يضعوا وسادة على سرج فرس غازان جريا على عادة أبناء الملوك، بل يجلسوه على سرج بلا غطاء حتى يصير متعشقا.

وكانت توغهاي خاتون تكرر قولها: "لست السلطان يهين غازان كولد لي أتهناه، إذ إنه ليس لي ولد. ولكن لما كان أباً قاضان يحب زوجته بولغان خاتون حبا جما، ويريد أن يجعل مفرها خاصا بنغازان، كان يجيبها بقوله: "إن والده أرغون قد وهب لبولغان خاتون كابين لها [ص ٢٥٤]. فكيف يمكن استرداده منها؟" وكان دائما يصرح بأن آيات السعادة والإقبال تدو على جبين هذا الغلام. وكان يضرب لذلك مثلا مغوليا يقول: "كالفرس بين الكرشمة: بنى الكرشمة اللينة لفتى نبت منها فرس، وكان يدعو به هذا الاسم "كرشمة" مداعبا.

وفي سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م عندما عاد آبا قاسخان من بغداد، وتوفي في همدان، كان غازان في العاشرة من عمره، فبكى على جده بكاء حاراً، فكلت الخواتم والأمراء جميعاً يرقون ثيابه وعويله. ولما عاد أرغون خان من خراسان، ولحق بالمسكرات في مرضه رجع بعد جلوس أحمد على العرش. وكان غازان لا يزال مقيماً عند بولوغان خاتون كما كان مقرراً من قبل.

وفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م عندما كانت بولغان خاتون صغرى الشتاء في بغداد، كان معها الأميران كجياتو وغازان. وكان أحمد في إيران^(١). لما أرغون فقد قدم من خراسان إلى بغداد، وسكث هناك خلال فصل الشتاء. وفي وقت الربيع توجهت بولوغان خاتون إلى خراسان، فتزوج منها أرغون خان، وأدخلها في حبلكه^(٢). ولكن ظل غازان في مسكرها جرباً على الفرار والقاعدة.

وعندما توجه أحمد إلى ناحية خراسان، أراد أرغون أن يعود من حيث أتى، وذلك على النحو المذكور في تاريخ أرغون. ثم أوفد أرغون ابنه غازان إلى أحمد ثانية، فأدركه بناحية سنان. وقد لاحظ عليه أحمد أمارات الملك، وشمله بعطفه، وأطرى شجاعته كثيراً. ثم أذن له بالانصراف من بسطام. وعندما قدم أرغون إلى أحمد - الذي كان معه إيلدار - صار أحمد يقول كلاماً سفيهاً في مواجهة أرغون. فرد عليه غازان، وأبدى فصاحة وبلاغته، فبقي الجميع حيارى مذهوشين لحسن جوابه وسؤله.

وبعد أن نصر الحق تعالى أرغون وتعقب أحمد في آذربيجان، سارت بولوغان^(٣) خاتون أيضاً متوجهة إلى تلك النواحي. أما غازان فقد تركه في خراسان ليحل محل أبيه، وتركوا له أكثر المحيمات. وكان برفته الوزراء الكبار، وأيضاً "أيسن بوقا" الذي كان أميراً لذلك للمسكر [ص ٢٥٥]، كذلك بقيت الخزان كلها هناك لغازان.

ولما توفيت بولوغان خاتون، تزوج أرغون بعد مدة من سبلة تحمل نفس الاسم "بولوغان خاتون" وهي موجودة الآن، وقد أسكنها محل الأخرى. وعندما شاهدت خزان

(١) إيران: ولاية واسط وبلاط كسرة منها جنزه "كجيه". ومن آذربيجان وإيران نهر نيسابان له طرس. وأران أيضاً لغة مشهورة من نواحي قزوین (مجموع البلدان، ج ١، ص ١٣٦).

(٢) جرباً على عادة اللؤلؤ التي تبيع للأبناء الزواج من زوجات آبائهم ويستثنى من ذلك أمهاتهم.

(٣) بكسر، هذا الاسم: برلغان أو بولوغان أو بلغان.

بولوغان خاتون المتوفاة، اختارت منها لنفسها قليلا من الثياب وأدوات الذهب والفضة. وقالت عن الباقي: بموجب فرمان آبا قاخان تكون الخزانة والوطن والمخيم ملكا لغازان فينبغي أن نغتم هذه الأشياء ويحافظ عليها. وقد أجمع الذين شاهدوا هذه الخزانة على أن مثلها لم يتبع لأي شخص آخر مطلقا؛ إذ كان يوجد بها الكثير من الجواهر واللاقي الثمينة بحيث لا يمكن وصفها. ويرجع السبب في ذلك إلى أن آبا قاخان - لقرط حبه الشديد لبولوغان خاتون، كان كلما ذهب إلى الخزانة، يأخذ منها جوهرة شينة، ويعطيها إياها في الحفااء. ولكن بعد أن توفيت بولوغان خاتون، صد الخزانة أهدى الخبثانة إلى محتويات هذه الخزانة. فعلم بذلك غازان، وكان دائما يؤاخذهم على خيانتهم. وحتى لا تحدث هذه السرقات كانت تلك الخزانة نغتم بالحتم.

ولما توفى أرغون عمان، تزوج جيخاتو من بولغان خاتون رغم إرادتها ولم يدع غازان يذهب إليها، كما سبق أن ذكر في تاريخه^(١). ثم أعادها جيخاتو من تبريز فخأرت تأثرا شديدا لتلك الحالة. وكانت تصير دائما على هذا الوضع. وقد استمر الأمر على هذا للنوال حتى مقتل جيخاتو وانتصار غازان على بابو، وصار سلطانا، فتزوج من بولوغان خاتون. وفي لواخر ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وصل الحق إلى مستحقه. وفي الوقت الذي قدم فيه أرغون عمان إلى خراسان، وجلس على العرش وترك غازان هناك نائبا عنه، لم يتبع لهما اللقاء بعد ذلك. وسوف نذكر أحواله في خراسان خلال تلك المدة في قسمين إن شاء الله تعالى.

(١) انظر جامع التواريخ، المجلد الثاني الجزء الثاني: لتاريخ أبناء حولاغو من آبا قاسان إلى جيخاتو عمان. نقله إلى العربية محمد صادق نشأت وولاد عبد السطى قصاب، ص ١٧٠. القاهرة ١٩٦٠م.

ذكر زوجات غازان وأبنائه

[ص ٢٥٦] تزوج غازان في البداية من "بندى قورقته"، وهي ابنة منكو تيمور كور كان من قبيلة سولدوس. وكانت والدتها طوقلفشاه بنت مباركشاه بن قراهولاقو بن بيسونوي بن مواتوكان بن چغتای. وبعد ذلك تزوج من بولوغان خاتون الخراسانية بنت الأمير تسوكا، وكانت والدتها بنت أرغون آقا. ثم تزوج من أشيل خاتون بنت نوقتهيمور أمير التومان (عشرة آلاف جندي) ابن نوقای بارغوچی. ومن بعدها تزوج من كوكاجي خاتون التي جیه بها من منفولیا، وهي من بين قریبات بولوغان خاتون الكبرى، والتي أنزلها في عظیم توقوز خاتون ونوقیتی خاتون. ومن بعدها تزوج من بولوغان خاتون بنت اوشان بن أخی آبتای نویان. وقد أنجب منها ولدا اسمه "الجمو"، توفي في صغره. كذلك كانت لها بنت اسمها "لوجلای فتلخ" زوجها من ابن أخيها .. وبعدها تزوج من "دندی خاتون" ثم من "كرمون خاتون" وهي بنت قتلخ تيمور بن آبتای نویان. وقد أحلها محل كوكاجي خاتون.

ما ذكرناه هو قصة زوجات غازان، وقد تم شرحها. أما جعلول شعبة الشريفة لأبنائه فهو على هذا النمط الذي تتيه.

القسم الثاني

من تاريخ غازان

في مقدمة جلوسه المبارك، وصورة العرش والأمراء الأتباع
والأمراء عند جلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ عهد حكمه
والهروب التي قام بها، والفتوح التي تبصرت له

مقدمة جلوسه المبارك ابتداءً من ذلك العهد
الذي اختاره فيه أرغون نائباً عنه في خراسان
إلى أن تغلب على بيبدو

وذلك القسم عبارة عن عدة حكايات:

حكاية حلقه في خراسان في عهد والده:

لما نجا أرغون خان بعون الله تعالى من يد أحمد، وتعبه إلى ديار آذربيجان، وجلس على عرش الملك، ترك الأمير غازان نائباً عنه في خراسان، ومنحه تلك البلاد مع جيوش كثيرة، وعهد إليه بتلك المنطقة التي تعد من أعظم الثغور. وظل يقيم هناك طبقاً لأوامر والده. وكان يرعى مصالح تلك البلاد، ويرتب شئونها. وكانت الرسل تتردد دائماً من أجل إتمام مختلف المهمات. وظل الأمير نوروز يلازمه. وكان غازان يبذل الجهود والمساعى في تصريف شئون الجند والإمارة.

وفي شهر ذي الحجة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م، عندما عاد غازان خان من مشى مرو وكان نوروز في خدمته، توجس هذا خيفة بسبب قتل صديقه بوقا وأتباعه^(١). [ص ٢٥٨]

(١) الأمير بوقا كان شخصية كبيرة في عهد أرغون وولد غازان. وكان قد عهد إليه بالإسراة والوزارة وذلك مكافأة له على دوره البارز في القضاء على السلطان أحمد توكودر وتولية أرغون عرش النول في إيران. ثم تقم عليه "أرغون" بسبب طيافته واستبقائه. فقتل عليه وعلى جميع أتباعه. ولما كانت تربطه بنوروز صلة صالحة، حلف نوروز على نفسه وأمر على غازان وحريمه. (انظر كتاب الشرك الإسلامي)

فما كان منه إلا أن استأذن غازان قائلًا: "متصل أتباع عن الثمرديين، فأريد أن أعود إلى ديارى، وأشاهد الألاف من أتباعي. وإذا دعت الحاجة، فسوف لأزحف بإساليش. فلما حصل على الإذن عاد إلى دياره. ثم ترك زوجته الأميرة طوغان مع والدته "سرميش" وإخوته "يراتاي غازان" و"حاجي" و"تارين حاجي" وأبناء أخيه في ملازمة الحضرة.

بعد ذلك أرسل أرغون الأمير "مككا" على رأس الأمراء بصفته معارنا لغازان فى حكم خراسان. ولكن لم ترق لغازان عادات "مككا" وسيرته. ولما لم يكن ذلك مناسباً لطبعه لم يتيسر له أن يفعل ما يريد. وكان الأمير قتلغ شاه نويان قد عاد من ناحية أذربيجان، وأقام على حدود "خوجان" بسبب اعتلال صحته.

أما نوروز فقد سار إلى "وادى جز" حيث للمقر الشعوى لجماعته، وأمضى الأمير "كينشو" فصل الشتاء فى هراته تغلباً لحكم المرسوم. وعندما حل الربيع، رحل الأمير غازان من مرو إلى ناحية سرخس^(١) حيث مكث عدة أيام. ثم قدم إلى "قرابيه" سرخس حتى تسمن البواب وانصرف إلى اللهور والرسمى. ولخوف نوروز من أرغون بسبب نهمة بوقا صار يرسل تبعاء، ويتحلى الأعفان قائلًا: "إن ما أصابى من وجع فى قدمى هو المانع من وصولى إلى الحضرة". ثم أحضر أمراء السرايا بمن هم تحت إمرته وكذلك أتباعه، وقال لهم: "سمعت أنه قد وصل أمر من أرغون إلى الأمير المنجل غازان يقضى بأن "نوروز" وأتباعه كانوا يتآمرون مع بوقا، فينبغى اعتقالهم وإعدامهم جميعاً. ولما كان الأمير "كينشو" قد تزوج من أخت "نوروز"، أرسل إليه أيضاً رسالة بهذا المعنى، بحيث إنه خوفاً وحذراً، وجعله متحداً معه. وفى تلك الأيام القريبة، وصل "ساداق ترخان" و"بيكلاميش" اللذان أرسلهما غازان إلى حضرة أرغون. ثم أقام مدة شهر فى "قرابيه". وهكذا ذاع على الأفواه سرد نوروز وفتنه. وفى تلك الأثناء، وصل أيضاً الأمير قتلغ شاه.

^١ فى عهد الإلخانيين أسرة هولكو خان، تأليف الدكتور نواز عبد القادر صاحب، ص ١٦٠ وما بعدها منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية جامعة قطر، الدورة ١٠٧-١٠٨ / ١٩٨٧م.

(١) سرخس: يندرج توله وسكون تليه وقصع الهاء للمجسد. وأميره سين سيمبلد. ويقال سرخس بلسنريك. والأول أكثر. مدينة قديمة من توابع خراسان، كبيرة وشعبة. وقصع بين نيسابور ومرو فى وسط الطريق. وتكثر فيها مرامى الإبل والأضغان. ولو أن سا يزرع من أراضيها محمود المساحة بسبب قلة مائها. ولأهلها سيطرة فى صنع القلصم والصلاب القفوشة للخبز (انظر معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٨ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٣٨).

بعد ذلك استأذنت "سرميش" والدة نوروز والأميرة طوغان وكذلك إخوته وأبناء إخوته في المسير بحجة أن "نوروز" قد زوج ابنته من "ساربان بن نيكبي"، وأن الجميع في انتظارهم كي يحضروا مراسم الزواج والأفراح على أن يعودوا بعد حفلات الزفاف فلما ذهبوا لحقوا بنوروز.

وفي أوائل ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م رحل غازان من "قرابيه"، وسار إلى ناحية طوس وراذكان^(١١). ثم أرسل "ساداق" برسالة إلى نوروز يقول فيها: "إننا قد ارتحلنا، لنلحق بك هناك، فينبغي أن تقابلنا عند نهر فرغانة أي عند "كشرف رود". فلما وصل "ساداق" إلى نوروز، اعتقله وقيده، ثم استجوبه بضرب العصي والمراوات قاتلا: "لقد كنت في خدمة أرغون، فصارحتي: ما حكمه علي؟ فأجاب: "خير وحسن". وعندما هم نوروز بقتله تحدث ببعض كلمات مضطربة خوفا على حياته، غير أن والدة "نوروز" "سرميش" والأميرة طوغان حالتا دون قتله، فزج به في السجن. ثم سار به في الطريق. وهكذا شرع نوروز في إثارة الفتنة والاضطراب. لما غازان فقد نزل بعد ذلك في منطقة "كشرف رود" عند "سد معين".

وفي يوم الخميس ٢٧ من ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م [ص ٢٩٠] قدم نوروز بالجيش الذي معه، ليدهم العسكر المعظم لغازان. واتفق أن يوقا وتكسا وكورك والأمراء الآخرين كانوا قد نزلوا عند النهر، واجتمع جمع غفير وعسكر الجيش عند حافة رهوة خارج وادي النهر.

ولما كانت العناية الربانية ترعى غازان، أدرك نوروز ذلك التجمع، وظن أن تلك الجحافل تابعة لغازان خان، فحاصرها فأغلوا يهللون ويصيحون جريا على عادة المغول. وبسبب اللطف الإلهي، استيقظ غازان مبكرا، وغسل وجهه، وحضر المقربون إليه، وركب الأمير قتلغ شاه استعدادا للقتال، وازداد الضجيج. كذلك ركب غازان. وكان الأمير قتلغ شاه في خدمته. وقد سارا إلى ناحية رباط "سنگ بست" على طريق نيسابور. وبذلك نجما

(١١) رلاكان لورادكان: قرية من قرى طوس. وقبل بلدة شع في نصف الطريق بين بحوشان وطوس. مسرح منها جملة وأخرة من أصل الطمس. ويقال: إن الوزير نظام الملك كان منها. (مجموع البلدان، ج ٣، ص ١١٢ بلقان الثلاثة الشرقية، ترجمة العربية، ص ٤٢٥).

من تلك الغارة المفاجئة بفضل العمون الإلهي. وقد أعتق "نوروز" الأمير يوقا^(١) وتكنا وكورك. وأمر بإجلاء الجنود من المعسكرات ومنزل الأمراء جميعاً، وأرسلهم إلى "بزاوكان". ثم نهبوا كل ما وجثوه، وقتل "نوروز" يوقا، وكان يحتفظ بتكنا والأمراء الآخرين مسجونين عنده.

وعندما بلغ غازان نيسابور، كان هناك الأميران ساتلمش ومولاي فالتحقا بخدمته. ثم اعترم غازان السير إلى مازندران. ونصادف أن اللرع الذي كان في غاية الحسن والجمال قد أسقطه السياس من العيبة^(٢) وبثوا عنه مئة، فلم يهشروا عليه.

أما سبب عزيمة غازان على التوجه إلى مازندران، فمرجع إلى وجود الأمير "هولاجو" بها. وكان يشاع أنه متفق مع نوروز. وكان نوروز يكتب النشورات إلى الولايات بهذا المعنى [ص ٢٦١]، فأراد غازان أن يقتل "هولاجو" قبل أن ينضم إلى نوروز، فسار بسرعة فائقة بحيث إنه ركب من نيسابور، فبلغ ظاهر "شهرك نو" خلال خمسة أيام. وبقي الأمير "كورتور" بمفرده. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش مازندران. وكان هولاجو في ظاهر مدينة جرجان^(٣) على مقربة من "كورداغى".

وفي يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر، داهموا "هولاجو"، وطلقوا بهلولون وهبيحون قبل أن يصلوا إلى دياره. وكان "هولاجو" يشكو من ألم في قدمه، فخرج مسرعاً قبل أن يلبس نعله، وعزم على الفرار. وعندما وصل الجنود إلى منزله، ولم يجدوه تعقبه الأميران مولاي وبانجار وقبضا عليه بالقرب من "سنگ سواد"، وأحضراه. ثم نهب الجنود دياره. ولما اقتادوه إلى الحضرة، وسألوه عن أحوال نوروز أنكروا وقال: ليست لدى معلومات عن أحواله، وإنما لم أكن متواطئاً معه، ولم تخطر بهال هذه الفكرة قط.

(١) يوقا هنا شخص آخر غير الأمير يوقا وزير لفرعون السابق ذكره.

(٢) العيبة: وعاء من أدم وغروه، يكون فيه لشعاع. الجمع عيب وعياب (انظر للمعجم الوسيط، ج ٢، ص ١٣٩).

(٣) جرجان: مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان، ليس لها نظير في توابعها. والشعب على أحسن حال الجبال والقللج، ويعرف عن أهلها الوفرة والبرودة واليسار. وفيها مياه كثيرة وضياغ واسعة. وليس بالقرب من جرجان من بلاد العراق، مدينة أجمع ولا تظهر حسناً من جرجان. وبها الرتود والتعل والجوز والقرمان وتصب السكر والأثرج. وفيها بحره الإبريسم ويمتلئ إلى كمال الأمان. وقد خرجت جرجان كثيراً من الطماء والأدياء (معجم البلدان، ج ٢، ص ١١٩ - ١٢٠) فروض المنظر، ص ١٦٠ - ١٦٢.

وفي ذلك اليوم نزل غازان على مقربة من جرجان. وفي اليوم التالي، أرسل "هولاجو" إلى حضرة أروغون رسالة، وذلك على يد "تايمور". أما غازان فقد ألقم يوماً، وتفقد الجنود. ومن هناك تحرك إلى جانب عيرشان^(١) وطوس وراذكان لمواجهة نوروز؛ بحيث إنه في اليوم السابع، وصل إلى موضع "سلطان ميدان كلندر" الذي كان على بعد ساعتين فرسخاً. وفي آخر النهار، وصل خير من الحراس بقيد أنه يبدو ظل جيش المتمردين، فصدر الأمر بأن يتسلح الجيش كله. ولما رأى المتمردون [ص ٢٦٢] الجيش المنصور من بعيد، ساروا إلى ناحية راذكان. وفي تلك الليلة ظلت الرهات السلطانية في "سلطان ميدان". ثم هطل مطر غزير أثلث معظم السروع وسروج الخيل.

وفي الصباح الخامس عشر من ربيع الآخر، توجهت الرهات السلطانية إلى راذكان في طلب نوروز، فالتقوا به في موضع يسمى "بئجك سو". واصطف الفريقان، فأسرع الجيش المظفر إلى مدهمتهم، وذلك لفرط شجاعته، وقاتل الجند قتالاً عنيفاً؛ لا سيما الأمير قتلغ شاه. ومن الجانب الآخر ثبت كينشو ونوروز وتكنا.

وفي نهاية الأمر ظهر وهن في جنود هذا الطرف (أي جنود غازان) فولوا الأديبار منهزمين. وكذلك توقفت الرهات السلطانية مدة طويلة في مواضعها. ثم أمر غازان الأمراء قتلغ شاه وساتميش وسوتاي بجمع قلوب الجنود. ورغم ما بذلوه من جهد لم يستطيعوا جمعهم. وعندئذ تحركت الرهات السلطانية إلى "جوين"^(٢) عن طريق أرغيان. وعقب أمراء الجيش، وصل ابغورنای وغازان والآخرين. ومن كل ولاية جوين لم يقدم أي مخلوق إلى الحضرة سوى "مهتر نجيب الدين الفراهي" الذي خرج على الفور عندنا وصلوا إلى قرية

(١) عيرشان أو جرجان: مدينة تقع في المستنقعات التي تخرج منها نهرا تترك بالقرب من طوس. سمي رستانها "ستور". وقد عرف المصوبة أرضه، وأصل هولاجو خان بناء عيرشان في ثلاثة السابعة (الثالثة عشرة). ثم وسع حليده أروغون هذه المدينة كثيراً وطلبها محتل. وهي تتسع القسح والقسطن وفواكهها كثيرة. وقد وسع حليده أروغون هذه المدينة كثيراً وبشأن الحلافة الشرقية، فترجمه القرية، ص ٤٣٥.

(٢) جوين: اسم ولاية على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور. وجميع قرعاتها متصلة واحدة بعد الأخرى. وأكثر سكانها من الشافعية، وتشتهر جوين أيضاً من الفنون، وحاصلاتها متنوعة. وإلى جوين ينسب ملحق كثير من الأئمة والعمامة. انظر مجمع البلدان للفرات، ج ٢، ص ١٩٢ - ١٩٣، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ترجمة

الفتوة، ص ١٨٤، تهران ١٣٣٦هـ (ش)

"زيرآباد"، وقدم أكمل فروض الطاعة وعنى بالتحليل عنابة فافقه، وقام بالخدمات الجليلة الثلاثة من كل نوع؛ فلا جرم أن سلطان الإسلام عندما تربع على عرش السلطنة، شمله بعطفه، ومنحه كثيرا من الامتيازات، وجعله من جملة المقربين إلى الحضرة. [ص ٢٦٣]

ومنحه قرية "زيرآباد" التي كانت من أملاكه الخاصة. كذلك منحه مرسوم الترخانية^(١) وفوض إليه الإشراف على الخزانة، وإدارة الخاتفة التي بناها في قرية "بوزنجرد" من أعمال همذان. وهي عبارة عن عسكرة مرتفعة وبناء رائع. وقد لوفف عليها أوقافا كثيرة من الضباغ والقفار، وجعل ولايتها له ولأولاده وأعقابهم، وصار ملحوظا بنظر العناية والعاطفة السلطانية.

وعلى هذا لا يخفى أن كل من يؤدي للسلطين خدمة جليلة ومرضية لا بد أن ينجي نبيجتها وشرتها، ويكون موقرا ومحترما في نظر الجميع. وحتى هذا الوقت في عهد السلطان أوجلتير خلد الله سلطانه كان هذا الشخص لا يزال يباشر هذه الأعمال ويتمتع بما كان له من توفير واحترام.

والحق أنه رجل شريف ومرتب، طيب الخات، حسن السيرة؛ فلا غرو أن يكون جديرا بملازمة السلاطين، وينال منهم دائما الخيرات والليارات. وهكذا فإن كثيرا من الناس من الصلحاء والعلماء وسائر أصناف الطوائف ينعمون في وجود غازان بالراحة والرفاهية. وصغوة القول أنه عندما وصلت الرايات للسلطانية إلى مكان قريب من جاجرم^(٢) نشاوروا في الأمر، وقالوا: إن للصلحة تقضى بأن نذهب إلى حضرة أرغون خان لو أن

(١) الخزان هو الرجل المني من القربى، ويكون له حق الاستعواذ على ما ينص في الحرب، ويدخل على الخان الأعظم دون استئذان، ويخص له عدد من الخيول والأضياع يكونون تحت تصرفه، ويغطي من الغواب والحسب والنفقات ما لا يدخل تحت حد وحصر، ويضي من السائلة عن الخنوب الفضة الأولى التي يركبها، ويكون لأبيه أيضا من التسع بهذه الامتيازات وتكون فرعية خاصة بهذه الطبقة. (انظر عطا ملك الجويني: تاريخ جهانگشاي، جلد اول در تاريخ چنگيز خان وانشاء لو تاكوك خان، ص ٢٧ - ٢٨، بسى وانشاء وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزويني، ليدن ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م).

(٢) جاجرم: بلد له أيضا أرغون. بلدة لها كورة ولها بين نسابور وجوين وجرجان. تشمل على لرى كورة. وهي بلد حسن وتميز مساحتها بالعمارة تنبع الفصح، وتكثر بها المأكهة. (انظر مصعب القليل، ج ٢، ص ١٩٢ لزخا الخنوب، ص ١١٨٤ بلدان الخانات الشرقية، ص ١٣٣ - ١٣٤).

نقيم في كاليوش. فرد عليهم غازان بقوله: حيث إننا قد أرسلنا الرسولين: بنميش وأرمنى بلا، بنهى أن نصر حتى نعرف ما عمله أن يحدث. ثم توقف في كاليوش. ولما كان بها موطن "أغورتاي غازان"، وكان مطلعاً أيضاً على الأوضاع في مازندران، قدم هناك خدمات جليلة. بعد ذلك عين غازان طائفة من الحراس ليرابطوا حتى صمتقان وجرمقان.

وفي تلك الأيام وصل نظام الدين يحيى من ولاية "يهق"^(١)، وأحضر معه كل ما تحتاج إليه الحضرة السلطانية، وما يلزم للمسكر من الخيول القبجاقية والآلات الذهبية [ص ٢٦٤] والفضية والمخيمات والسرادات والأواني والبغال والإبل. كما قدم للأمرء خدمات مستحسنة، ثم عاد إلى يهق حسب الأمر الصادر إليه كي يعد الأموال والميرة للجنود.

وقبل الاشتباك مع نوروز يومين، هاجم الأمير "إلادو" وطائفة أمراء القزلوناس ديار نوروز، ونهبوا كل ما فيها. فلما وقف نوروز على ذلك الأمر تعقبهم. أما كينشو والآخرون فقد ألقوا في رادكان. وكما هي عادة القزلوناة، انقسموا - بعد تلك الغارة - إلى فرقتين أو ثلاث فرق وانفضوا من حول الأمير "إلادو"، وانضم بعضهم إلى الأمير نوروز، وسار بعضهم إلى ديارهم، وشرعوا في إثارة الفتنة والاضطرابات. وعندما شاهد "إلادو" تشتتهم وتفرقهم، نقل خيامه إلى حدود "بلاغيد" في واد حصين وانضم إلى الحضرة، فشملة غازان بنهاية عطقه ورعايته، وأقام مدة أربعين يوماً في "كاليوش". وعندما قدم الجنود من حضرة أرغون، يتقدمهم الأمير بابلو، ونورين أمنا وابنه انضموا إلى حضرة غازان، وشغلوا عدة أيام بإقامة الولائم والاحتفالات. ثم رحل غازان من هناك - بطالع السعد إلى "خبوشان" عن طريق صمتقان.

وعندما علم نوروز بوصول الجنود من ناحية العراق، وعرف أنهم يقصدونه، نقل خيامه وأمتته إلى هراة، وقدم هو نفسه إلى حدود جرمقان. وعندما رأى أنه لا طاقة له بالمقاومة

(١) يهق: ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من ترانس نيسابور. تشمل على ثلاثمائة وأحدى وعشرين قرية بين نيسابور ولومس وجوين. وكانت فصيحاً لولا خسروجره ثم صارت سرور. وقد خرجت يهق عندا كبيرا من الفضلاء والعلماء والفقهاء. والقباب على أهلها مذبح الشجرة الفلانة. إنظر مجمع البلدان، ج ١ ص ٥٢٧ - ٥٢٨ تاريخ يهق، تأليف قبي الحسن على بن زيد البيهقي المعروف بمان نسك: مغلة العلامة محمد بن عبد الرحمان القزويني، ص: ٥ وما بعدها، طهران ١٣١٧هـ.ش.).

عاد من حيث أتى، فصار الجيش المنصور يتعقبه حتى حدود جام. وفي موضع "نجر سراي" التي تلي جام [ص ٢٦٥] دخل في طاعة غازان "تولجيتو" مع جماعة القراونة وساجي بن بكه بنون من أتباع نوروز. ولما بلغوا "مخرجرد جام" كان نوروز قد ساق كل الدواب التي وجدها في خراسان، سواء أكانت له ولجنوده أم كانت للعرب والتركماني وغيرهم. وكان يأخذها معه.

ولما وصل الجنود المنصورون متعاقبين، شاهدوا ابتداء من مدخل جام حتى مدخل هراة الحزون^١ والسهول وكلها تعج بالدواب التي تركها وراءه نوروز وجنوده. وفي عدة أماكن أخرى شوهد كثير من الدواب قد نفق. ونظرا لشدة العفونة، أصبح السير متعذرا فكان المغول يأخذون تلك الدواب، ويسرون بها. وفي القري كانتوا يبيعون كل خروف بدقيق واحد. وحيث إنه كان قد صدر أمر بالأباهتموا بالفتن، لم يكرؤوا على أن يأخذوا منها المزيد. وقد حمل نوروز كل ما خف حمله من المتاع. ثم سار مع الأميرة "طوغان" وعائلات الإخوة وعدد معلود عن طريق فره وسيزوار وهي منطقة صحراوية قاحلة.

ولما كان الوقت صيفا، لم ير غازان من المصلحة في شيء أن يرسل الجند في إثر نوروز وأقام عند باب هراة على ضفاف نهر "بول مالان". ثم أرسل الأمراء إلى بادغيس لاستدعاء "كينشو" والجيش للعظم. وعلم كينشو بهذا الأمر، فخرج مع نسائه وأطفاله وأتباعه إلى جبال الغور وخرجستان. أما أمراء المسكر المعظم وتكنا وجنود القراونة الذين كانوا معه فقد رحلوا جميعا إلى هراة. ومما يدل على ثبات "كينشو" وسكونه وأمانته - خلال تلك المدة - أنه لم يستول على دينار واحد من الخزائن الخاصة أو الأموال والدواب التابعة لبيوت الأمراء الذين كانوا هناك، ولم يتصرف فيها. بل إنه في المواقع أدى خدمات جليلة.

[ص ٢٦٦] وبعد عدة أيام رحلوا من هراة، واتجهوا إلى ناحية "رادكان" ومن هناك سير غازان إلى حضرة أرغون "أهورتاي غازان" في صحبة تكنا ليشرحا له أحوال جيش خراسان. وعلى الرغم من وجود المزيد من الفتن والاضطرابات التي كانت تحدث في خراسان، لم يكن غازان يفتل دقيقة واحدة قط عن مراعاة قواعد العدل والإنصاف. وكان

(١) مفرد حزن. وللحزن من الأرض: ما غلط. ومن الدواب ما صحت ويصنعه ومن الناس من عشتت معاملته. للمجم الوسيط، ج ١٠، ص ٤٢٦.

يبدل قصارى جهده في رعاية شؤون الرعية. وكان قد سن قانونا يقضى بالألا بدع أى مخلوق من الجنود أو غيرهم الدواب تلتف مزارع الناس وبساتينهم. وقطعا لا يطعمونها الغلات، ولا يهثون في المولات فسادا، والألا يشقوا قط على الرعايا.

بعد ذلك تحرك غازان من رادكان إلى "شتركوه" مع طائفة القرونوة الذين كانوا قد تركوا في ناحية "جام"، وذلك كي يصطاف. وهناك شغلوا بالتهو والشراب. وقد أكرمهم غازان غاية الإكرام.

وفى أثناء ذلك ورد نبأ من الحراس يفيد أن العصاة قد ظهوروا فحركت الرميات السلطانية إلى ناحية رادكان. وكانت تلك الإشاعة كاذبة. وبسبب إيمان غازان الشراب اعتلت صحته. ثم قدم الجمع من هناك إلى خيوشان. وقد ظل غازان مريضا ما يقرب من أربعين يوما. وبعد ذلك استرد صحته.

وخلال تلك المدة وفد الأمير "شيكور لقا" و"طوغان" من لندن حضرة أرغون، وأمضيا الصيف والخريف مع أتباعهما في منطقة خيوشان ورادكان وشتركوه. فلما صار الجو باردا، استقر الرأي على أن يمضوا الشتاء في نيسابور. أما غازان فقد مضاه في "مويدى" ومضاه الأمر بالبلو في موضع "شامكان" للذى يقع بين ييهق ونيسابور. ولقد اشتد البرد في ذلك الشتاء، ونزل الثلج بغزارة فهلك أغلب الدواب، وبقي أكثر الناس مترجلين [ص ٢٦٧].

ولما حل ربيع سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م قضوا الصيف في مناطق رادكان وخيوشان وشتركوه. وفي هذا العام كان الأمن مستبأ في كل الجهات. وقد أحضروا الأموال من لندن أرغون، وقسموها على الجنود. بعد ذلك سار طوغان حتى منطقة بادغيس ثم عاد. وفي أوائل الصيف بسبب عدم توافر الميرة في خراسان، صدر الأمر بأن يعود الأمير بالبلو ومن كان معه من الجنود الذين كانوا قد ساروا من العراق وأذربيجان، وأن يلازمه "تورين". ثم قدم غازان إلى ناحية بام ولرخيان لتوديع بالبلو، وعاد بعد ذلك.

وفى ذلك الصيف تغيرت نيات طائفة من القرونوة، ودخلوا ولاية جوبين، بتقدمهم "دانشمند بهادر"، وصاروا يهربدون ويغربون، ضمن غازان الأمير "سولاي" لمقاومتهم واستمر غازان طوال الصيف والخريف يشغل بالصيد والترعة في منطقتى خيوشان

وراد كان. كما عهد إلى الأمراء بتنظيم الجيش، وإلى أصحاب الديوان بضبط الأموال وإعداد المرة للجند. ثم أمر بقضاء الشتاء في "مزن بلورد"، وإقامة سد على النهر الذي يدعى "كال ترن"، وعمر عدة قرى.

وفي ذلك الحريف، وصل المدعو "خوارزمي ترخان" من لندن أرغون خان لضبط شئون خراسان وتدير الأموال في هذا الإقليم. كذلك أمر غازان بأن يباشر الجميع أعمالهم وفقا للفرمان السابق. وبموجب الفرمان أيضا أمر باعتقال نواب طوغان في قهستان وإحضارهم إلى الحضرة. وأما الكتاب والعمال في خراسان، فقد زوج بهم في السجن، وحقق معهم.

وفي آخر الشتاء شرع جمع من القرونة في التمرد في ناحية سرخس وساروا إلى جهة مرو [ص ٢٦٨]. ثم تحركت الرهبات السلطانية إلى "وادي مرغه". وقد سير غازان "الإدونوبان" للقضاء على فتنة القرونة، فحاربهم إلى أن أخضعهم وألزمهم الطاعة. بعد ذلك لقم غازان مدة في ناحية "رجاه" و"شوكان". ومن هناك سار إلى سرخس، ثم نزل "بقراته" التي تسمى "شيرسيل".

وفي شهور سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وصل نواباً يقيد بأن "نوروز" سوف يصل قاصدا خراسان بجيش معد ضلما ومعه ساربان وأبو كان أغول ولور كيمور وقواد يساورور. وكان سبب ذلك هو أن "نوروز" عندما هزم قبل ذلك في منطقة هراة، فر هاربا، وسار إلى قاهدا^(١). وبعد أن قدم له خدمات كثيرة، التحس منه أن ينده بجيش فأجابه إلى طلبه وأرسل إليه جيشا، وسير أيضا ابنه "ساربان" على رأس جيش آخر لمساعدة نوروز. فما كان من غازان إلا أن أرسل "قيرتو" مع طائفة من القواد لاستطلاع الأخبار، فساروا إلى "مرغاب" ثم عادوا وقالوا: إن التمرد سوف يصل حقيقة على رأس جيش كبير.

(١) تايهو: هو ابن تاش بن لوگهای تا آن بن چنگیز خان ونظر جامع التواريخ: تلويح خلفه چنگیز خان من لوگهای تا آن إلى تیمور تا آن: نقله إلى العربية الدكتور نواد عبد القاسم الصبيح، ص ٣٦١ - ٣٦٢، بيروت ١٩٨٣ رحلات ماركو پولو، ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جلوباد، ص ٢٥١ - ٣٥٢، القاهرة ١٩٩٧، بارنولد: تركستان من الفصح العربي إلى الغزو للفنول نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ص ٧٠٤ وما بعدها الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م الشرق الإسلامي، ص ٤٢).

ولما لم يكن جنود غازان مجتمعين، رحل المحاضرون منهم إلى موضع آخر حيث مرغانه وكشف رود، وصاروا ينتظرون حتى يصل الأمير قتلغ شاه والجنود الذين كانوا يعضون الشتاء في هراة. كذلك أرسلوا الأمير "كوشك" لاستدعاء جنود مازندران. وعندما وصلوا إلى "جسر معين" "بول معين"، استأذن الأمير مولاي، وسار إلى قهستان حتى يحضر الجنود من هناك. وكانت أخبار للمتمردين تصل تباعا، فرحل غازان من هناك، [ص ٢٦٩]. ونزل في أعلى المشهد الرضوي، وظل في انتظار الأمير قتلغ شاه. وأثناء النهار وصل "قبان احتاجي" من ناحية أذربيجان موفدا من قبل الأمراء الذين كانوا قد أثاروا الفتنة هناك، وقتلوا جوشي وأوردفها وسعد الدولة، ثم أرسلوا قبان حتى يضرم نار الفتنة في خراسان مع نفر من المفسدين. كذلك أخبر أن جيوش أذربيجان والعراق سوف تصل من لدن أرغون خان. أما غازان خان فقد عرف بما كان له من فراسة وكياسة - أن ما يقوله "قبان احتاجي" كذب. ولكن لما كانت الأخبار تصل تباعا عن تحرك المتمردين، لم يتحصص حقيقة الأمر.

وفي اليوم التالي، وصل الأمير قتلغ شاه، وصرح بأن جيوش نوروز للمتمردين، قد وصلت إلى رباط "سنگ بست"؟ فشملة غازان بعطفه، وألبسه قباهه الخاص، وأعادته ليلا كي يحضر الجيوش صباحا إلى الحضرة في موضع يلي المشهد للقدس، وذلك لحوض غمار المعركة. وفي منتصف الليل ورد تبا من الحراس يفيد بأن العصاة اجتازوا جسر معين "بول معين"، فانقضى الرأي العاقل أن يسير الجيش الأعظم ليلا بمعقداته مع الخواتين إلى "أسفراين"^(١).

وفي صباح غرة ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م تحرك غازان من هناك. وكان في صحبته الأمراء: نورين آقا والإدو وابهورتاي غازان وغيرهم. ثم ارتحل إلى ناحية تقع أسفل المشهد الرضوي، ومكث هناك ساعة واستعرض الجيش، وظل منتظرا وصول الأمير قتلغ شاه كي يهارب المتمردين. وفي وقت الظهيرة قدم "جمجمة" من قبل قتلغ شاه، وقال:

(١) أسفراين وتكتب أيضا أسفراين: بلدة حصينة من توابع نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. واسمها القديم "مهرجان". ساءها بذلك بعض اللوك لحضرتها ونسارتها. وفيها أسواق وسهارة وجارية وعاملات. وهو أراضا رطب. وتكثر فيها الأعداب والقمح. (انظر معجم البلدان، ج ١٦، ص ١١٢٧، فروض للطاهر، ص ١٥٧ بلدان الخلافة لشرفه، ص ١٣٤ - ١٣٥).

عندما وصلنا إلى "سنگه هست"، كانت الجيوش كلها قد سارت عن طريق "وجنك" و"اسحاقباد" إلى نيسابور [ص ٢٧٠]. وعلى أثره جاء الأمير قتلغ شاه إلى الحضرة. وبعد ساعة ظهر سواد الجنود. ولما كانوا كثيرين - على حين أن جنود هذا الجانب (أى غازان) كانوا قليلين - تشاور الأمراء في الأمر، ورأوا أن المصلحة تقتضى بتجنب الحرب وعدم خوض غمار المعركة. كذلك صرح "إلادو" بقوله: إنه ليس من صالحنا مواجهتهم. ثم ضرب هنا المثل المرفوع الذى يقول: "إن الالتحام بجيش العدو المتسرد أسر سهلاً، أما التخلص منه فأمر عسير". وأنتم تعرفون أيهما كثيرة تجيئون فيها على أرغون. أما جواب هذا اليوم فعلى أنا".

وأخيراً استقر الرأى المبارك على أن يترى الحاضرون، وهموداء ويرابطوا فى أحد المواضع حتى تتجمع الجيوش بأكملها. ومن هناك تحرك غازان إلى ناحية "رادكان"، فصارت التمردون يتعقبونه. وفى آخر النهار داهم غازان بقواته جنود التمرديين بالقرب من طوس وتحاربوا. ثم ارتحل فى اليوم التالى، ورابط فى عدة مواضع. ولم يتصادف حدوث ذلك. ثم نزل فى "سلطان ميدان" ليلاً، ولرتحل صباحاً. وقد عرض "إلادو" قائلاً: "ما دام القتال ليس ميسراً. وقد سار أهلى وعشيرتى وأكثر الجنود إلى ناحية "جوين". فلو أذن لى قائدى، فإنى سوف ألحق بهم. فصرح له غازان بذلك، وذهب "إلادو" إلى حال سبيله. كذلك قال: "رايمور" والد "شيرين أيكاجى": لقد ذهب أهلى وجنودى أيضاً إلى ناحية نيسابور، فلأذهب، وأتى بهم. فمضى هو كذلك. أما ابنتاى غازان فكانت بحب زوجته توزميش خاتون ابنة الأمير مباركشاه. وكان قد سيرها مع أهله إلى "كبود جامه". وفى نيتة أن يأخذها وينضم إلى نوروز [ص ٢٧١]، فطلب هو أيضاً الإذن بحجة أنه سوف يذهب إلى دياره حتى يعين جنود ماژندران، ويحافظ على تلك الحدود. فأذن له هو الآخر ورحل. أما الأمراء نورين آقا وقلغ شاه وسوتاي فقد ظلوا ملازمين للحضرة.

بعد ذلك تحرك غازان سالكا طريق أرغيان. وكانت أخبار الأعداء تصل بها. ثم توقف برهة فى مدينة إسفراین، ومر من هناك ونزل فى قرية "كسرغ"، من أعمال إسفراین وفى منتصف الليل علم نورين وقلغ شاه وسوتاي أن طائفة القراونة الذين كانوا فى "هزاره"، وجىء بهم إلى المعسكر كى ينضموا إلى "باتاي" يترون إثارة الفتن. وقد تشاوروا

فيما بينهم، ثم استقر رأيهم على أن يتمرّدوا، ويهودوا أدرّاجهم. فرضوا تلك الحال على غازان، ورأوا من الصالح أن ينادروا ذلك الموضع على أن يبقى الأمر قتلغ شاه ليوقف على حقيقة الأمر. ثم تحركت الرهات المباركة إلى ناحية "جوريد"؛ بحيث إن غازان وصل إليها في الصباح. ثم عاد ذلك الجمع من هناك، وهاجروا ديار "كوتنجك" و"قتلغ خواجه" وبقية الحرس ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، وانضموا إلى المتمرّدين. وكذلك كان جنود الأعداء يأتون في إثرهم حتى بلغوا "جوريد".

فلما وصل السلطان إلى هناك، أمر بترحيل أسر قاجير من سرناق وسوفار وسواتو والقراوة الآخرين الذين كانوا قد نزلوا هناك في ناحية جاجرم وبسطام^(١)، وأقام غازان هناك إلى آخر النهار. وعندما وصل الأمر قتلغ شاه، وعرض الأخبار عن وصول المتمرّدين نزل غازان في جاجرم حيث أقام تلك الليلة، وعاد نوروز من جدمد. وإن ما حدث في تلك السنة بخراسان من ضروب القتل والسلب والتخريب ليعوق حد الوصف والبيان؛ فلقد حاصروا مدينة نيسابور، ولكن يمين غازان وإقباله، وفي الحق تعالى هؤلاء المسلمين شر الكفار^(٢) [ص ٢٧٢] فلم يسيطروا عليهم. لكنهم مع هذا أغاروا على القرى، وأسروا كثيرا من السكان. ثم قصد المتمرّدون "بارونقي" من نواحى نيسابور، حيث يوجد محاربون أشداء.

ولما كان للموضع حصينا للفاية، لجأ كثير من الناس إليه بأموالهم ودوابهم. ثم ذهب المتمرّدون إلى أحد الوديان، فحاصروهم السكان وسدوا عليهم الطريق من فوقهم، وقتلوا ما يقرب من ألف فارس من الكفار. ثم عاد المتمرّدون من هناك، وذهبوا إلى مشهد طوس وانتزعوا أربع كرات فضية، كانت قد وضعت كحلية في أعلى الضريح. ولقد قتل الأهالي

(١) بسطام أو بسطام: بلدة طروس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد مئذنان بر خاتين. عنها أبو يزيد البسطامي الزاهد. وفيها نواح جيد يمد إلى العراق. (معجم البلدان ج ١، ص ٤٢١). انظر كتاب بسطام وما يزيد بسطامي نكارش قبائل بختي، ص ٨، ص ١٧، تهران ١٣١٧ هـ ش.

(٢) من اللا حظ هنا أن رشيد الدين يظن على غازان ورفقته اسم مسلمين ويحذر أعتابهم كفارا. هذا على الرغم من أن العكس هو الصحيح؛ إذ إن غازان وأتباعه كانوا ينادون بالوحدانية في تلك الوقت. أما عمدة نوروز فكان يحن الإسلام.

كثيرا من هؤلاء الجنود؛ بحيث إن الأعداء عندما وصلوا إلى حدود بادغيس^(١)، واستعرضوا الجيش، لم يجدوا ما يقرب من خمسة آلاف فارس. ولهذا السبب اعتصموا "نوروز" مذنبا ومقصرا، وضربوه بالعصا.

وفي اليوم التالي لرغلت الرابات الملكية عن طريق بسطام ودامغان. وكان جميع الأمراء قد علموا بوفاة أرغون، ولكنهم يخفون ذلك عن غازان. فلما وصل إلى بسطام، أقام بها يوما؛ لأن الخواتين كن هناك. ثم اتجه إلى دامغان. وكان قبل ذلك قد أرسل "أيشقا" أخا إلامو برسالة إلى حضرة أرغون، ولكن لأنه كان قد سمع بوفاته، توقف في دامغان. وكان جميع سكانها قد خرجوا من المدينة، ومضى بعضهم بصحبة "شاه ابلدوز" إلى "گردكوه"^(٢) وبعضهم إلى حصن "دين مايان"، وهو مكان حصين. ولهذا السبب عاد "أيشقا" من دامغان. [ص ٢٧٣]، ووصل إلى الحضرة في بسطام وعرض على غازان أحوال سكان دامغان. وعندما وصلت الرابات السلطانية بدمغان، لم يتقدم لاستقباله مخلوق قط، ولم يكن الأهالي قد أعدوا الهدايا والعلف وللميرة، فغضب عليهم غازان. ولما كان الأكبر والأعيان هناك في حصن مايان، أمرهم بالخروج، فأبوا، فأمرهم بمحاصرتهم. وبعد حرب استمرت ثلاثة أيام بلالها، طلبوا الأمان، ودخلوا في الطاعة وأعطوا غازان أموالا كثيرة من النقود والأمتعة وقدموا للجيش المؤن والأبقار والأغنام، فصفح غازان - لفرط عطفه ورحمته - عن ذنوب هؤلاء المجرمين. ثم أشار بتخريب القلعة. وبعد جلوسه المبارك أمر بتحصينها.

(١) بادغيس أو بادغيس: عبارة عن بلدات وقرى كثيرة وسفوح بتواحي هرات. وأصلها بالفارسية "بادغيز" أي نيام الريح أو هبوب الريح لكثرة الرياح فيها. (التوهم البلدان ص ١١٥١ بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٥٦).

(٢) گردكوه: قلعة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من دامغان في وسط الجبل برضا الوقت بدمغان. ويطلق على هذه القلعة أيضا اسم "مز گهبدان" أي قلعة القبيذ. ويعرف سلطانها الخصب بتصور آباد، وزراعتها وعصولائها وطرة. وگردكوه إحدى نواح الإسماعيلية التابعة التي كانت تسيطر عليها طائفة الإسماعيلية في إيران. وقد قاوم المندلسيون عن هذه القلعة قوات النور للبيعة حوالي مائة سنة استمرت من سنة ١٠٠٠ إلى أن سقطت في أيديهم في عهد نيا دامغان وانتظر جامع النور أربع، جلد سوم، من عيسى والفقاهي قرسي عيسى وانضمام عبد الكريم على لوطلي على زاده، ص ٣٥ - ٣٦، باكور ١٩٥٧ نزعة القنوب، ص ١٢٠١ بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٠٥. وللقوف على مزيد من التفاصيل عن التطور التاريخي لهذه القلعة انظر كتاب "تلاخ إسماعيلية در رشتة كوههای البرز، تأليف دكتور منوچهر ستوده، ص ١٤٦ وما بعدها، تهران ١٣٤٥ هـ ش.

بعد ذلك سار إلى ناحية سمنان. وخلال تلك الأحداث، كان معين الدين مستوفى الدعوان الأعظم، وجمع من الكتاب يسرون إلى نيسابور فقبض عليهم، وسبقوا إلى الحضرة فلم يلتفت إليهم غازان إلى أن صدر الأمر باسترداد للراسيم (برليفها) والأختام الحمراء (آل صفها) التي كانت في عهدهم. ثم أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا.

وعندما وصل غازان إلى سمنان، شاور الأمراء، فأحاطوه علما بوفاة والده أرغون. فقدم الأمير مراسم العزاء. وجرى على عادة المغول أمر بانتزاع الريشة من قلائس الحاضرين. ثم قدم الأمير "مولاي" من قهستان إلى سمنان عن طريق الصحراء، وانضم إلى الحضرة فاختصه غازان بأنواع العطف والرعاية. ثم صدر الأمر بتزويجه من شقيقة الأمير ساتلمش. ولما عاد "ابخورناي غازان" من "سلطان ميدان" متجها إلى "كبود جامه"^(١) وجرجان كانت ترلوده فكرة فاسدة؛ فاصطحب معه "ترميش"، وقدم حتى حدود "سلطان دوين" واستزاد وصاح قائلا: إن تلك الولاية ملك قايغو [ص ٢٧٤] وصار يشق على جنود المغول الذين كانوا يقيمون في تلك المناطق، ويدأب على إثارة الفتن. ولما لم يكن كبار الأمراء حاضرين، اتفق سايفان إياجي وماملق وآخرون، وهجموا عليه فجأة، وطاردوه من هناك، وصاروا يتعقبوه حتى أخرجوه من حدود جرجان وكبود جامه. فهام على وجهه مع نفر قليل ومضى إلى حال سبيله. وكان قبل ذلك يشق كثيرا على جماعة السادات والأهالي والرعايا في مشهد طوس. والسلام.

(١) كبود جامه: ولاية توجد وراء مدينة استزباد التي تقع في إقليم جرجان قرب حدود سمرقند. وفي كبود جامه بكسر الحاء والقلم والكسرة. وهي كثيرة القنص والخيول إلا أن الحروب لحقت بها في حروب تيمور في ثلاثة فترات (الرابعة عشرة). (زرعة القلوب، ص ١١٩٩ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٦).

أحوال غازان خان بعد وفاة أرغون خان حتى وقت رهيله إلى ناهية آذربيجان في عهد كيخاتو خان ثم عودته من تبريز إلى خراسان

بعد ذلك مكثت الراهبات السلطانية عدة أيام في سمنان. ثم تحركت نحو فيروزكوه^(١) وسار حتى حدود دماوند بالقرب من ميشان حيث لاقاه عدة أيام. وهناك أنجبت بلغان خاتون الخراسانية ولدا لكنه توفي. ثم قدموا إلى فيروزكوه. وقد ورد نياً يفيد بأن كيخاتو قادم من الروم. أما الأمراء الذين أثاروا الفتنة في المعسكرات فقد تفرقوا، وانضم بعضهم إلى كيخاتو، ورافق بعضهم "بابلو". وقد فر "طوغان" من بينهم، وقدم إلى خراسان. ولهذا السبب أمر غازان باعتقال "مولاي" وسجنه. وعندما ورد نياً باعتقال طوغان، أطلقوا سراح مولاي بشفاعة الأمراء.

ولما تحقق نياً اعتلاء كيخاتو^(٢) العرش، أوفد إليه غازان الأمير قتلخ شاه برسالة عرض فيها أحوال التخريب في خراسان، وحثون الجيش هناك. ثم أرسل الأمراء "هورقدناق" و"قرا بن جاورجي" [ص ٢٧٥] وخلق تيمور وآخرين إلى خراسان. وفي صيف سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م بموضع "السيوان" الواقع بين فيروزكوه وسمنان والذي يدعى مصيف "نكاتو" كان غازان يشتغل دائماً بالصيد والأخذ بأسباب التمتع. هنا على حين أن أصحاب الدبوان كانوا

(١) فيروزكوه: قلعة حصينة في جبال فرجستان بين مرغة وخرنة اتخذها المغولون حصينة لهم. وقد استمروا في الحكم إلى أن اكتسح المغول بلادهم، وسقطت حصنتهم في يد چنگيز خان سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م بعد أن أنزل بها الحراب والدمار (انظر معجم البلدان، ج ٤ ص ١٢٨٤ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥٩).

(٢) كان التقليد يقضي لتعويض أكبر سناً خلافاً للإعلان للفرس، لكن الأكبر سناً يمكن أن يكون الأخ الأكبر للفرس. وبالمثل كان كيخاتو خان هو الأخ الأكبر لأرغون وقائد غازان. كما يمكن أن يكون أكبر أبناءه. ولم يكن هناك حرق بمقد من جنس إحمال الجبل الأسير حمل الجبل الأكبر في تعاقب السلطة. وكان المعتاد أن يتصر الأبناء والأحفاد على فرض نفسه وسيطرت في حلقه تقدم اثنين كمرشحين لتوليد السلطة. وبمثل ذلك الاحتكام إلى السلاح. وانظر حوروتيا كزافولسكي: العرب والبرابرة، ص ٦٩٢ - ٦٩٣، فترحة العربية، بيروت ١٤٤٣هـ / ١٩٩٣م.

يقومون بجمع المؤن للجنود وتكبير أموال الولاية. وقد وصل الأمر فتلخ شاه إلى حضرة
 گيخاتو في أران، وعرض عليه حقيقة الأوضاع في خراسان. ونظرا لاشتغال گيخاتو
 بالتمتع والبهجة والنهوض والأنس، لم يعبأ به كثيرا، فرجع هو أيضا من حيث أتى، وقدم إلى
 حضرة غازان. وبعد ذلك حلت الرهات السلطانية بناحية دامغان وبسطام. ثم هناك اتجهت
 إلى كالبوش، وأرسلت "قتلغ خواجه" و"لالا" إلى ناحية ييهق لاستعداد "نظام الدين يحيى".
 لأن هذا الشخص قد جاوز حده كثيرا بخراسان؛ إذ قتل جمعا من الأكابر رغم أنهم كانوا
 تابعين له، واغتصب من الناس أموالا طائلة ولهذا ظل متوجسا خيفة، وتقاعس في الجوى.
 بعد ذلك دخلت الرهات السلطانية جرجان عن طريق قلعة "جناشك"، وقضت ذلك الشتاء
 في "سلطان دوين استراباد".

ولقد أرسل گيخاتو إلى غازان عن الأمير النجل أنبارجي والأمراء "دولاداي"
 و"قونجقبال" و"ابلتور" لإمداد جيش خراسان، فحفظوا بشرف المثل أمام حضرة غازان في
 "سلطان دوين". ثم صدر الأمر بأن يمضوا الشتاء في ناحية "قراوغان". وفي أواخر الشتاء
 أشيع أن "نوروز" قدم إلى نيسابور قاصدا "جوين" حتى يخرج نظام الدين يحيى [ص ٢٧٦]
 من قلعة "أندمد". ولما كان الجو لا يزال باردا والندوب هزيلة، تحركت الرهات السلطانية
 إلى "كالبوش" حيث مكثت عدة أيام. ثم أرسل غازان الجواميس إلى الأطراف والنواحي
 وزحف مع عدد قليل ناحية "جوين" ثم رجع. بعد ذلك عادت الرهات الملكية إلى جرجان
 حتى تسعن الندوب.

وفي أول ربيع سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م سير غازان الأمير أنبارجي مع الجنود الذين
 كانوا قد قدموا معه، وذلك عن طريق "دهستان" و"مارز" و"تسا" و"آبيورد"، وأرسل معهم
 "هوراندق" لإعداد المؤن وما يحتاج إليه حتى لا يحدروا على البلد ويغربوه. كذلك
 تحركت الرهات السلطانية. وفي تلك السنة حلت بخراسان ضائقة شديدة بسبب القلاقل
 والاضطرابات؛ بحيث تعذر وجود من من الفلة بمائة دينار، فعين غازان الصاحب الأعظم
 الخواجه سعد الدين على رأس أصحاب الديوان لإعداد المؤن للجنود، وتكبير الأموال في
 خراسان ومازندران والرى. وفي تلك الرحلة، كان طعام أكثر الجنود من لحوم الصيد. بعد
 ذلك نزلت الرهات السلطانية على ضفاف نهر هرة الذي يسمى "جوقجور". وبسبب
 غزارة المياه عبروا بمشقة بالند. ثم سار إلى الحضرة الأمير النجل أنبارجي وأمراء العراق.

بعد ذلك وحصل نيا من الحراس يفيد أنهم رأوا ظل للمتدربين. فرحلت الرمايات السلطانية إلى ناحية بادغيس، ولقّات في "يولداك بادغيس"، فأرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف ولكن لم يكن هناك أثر أو خبر عن العصاة في موضع قطع. ولأن مؤن الجنود قد نفذت صار الجنود يسرقون خيول بعضهم البعض [ص ٢٧٧] وماكلون لحومها. وبسبب عدم وجود الأغذية وقعوا في مشقة بالغة. وهنا ذكر الأسماء أنهم على مقربة من هرة حيث توجد مناطق ينضج فيها اللحم، وأنه من المصلحة أن ينهبوا إلى هناك. وعلى هذا رحلوا قاصدين تلك الجهة، ونزلوا على جسر مالان "بول مالان". ولكن صدور هرة وأكابرها لم يكونوا في المدينة بسبب الفتن والاضطرابات. وكان الملك "شمس الدين كرت" يقم في قلعة "عيسار". ومن المعروف أن هنا للملك كان قد سجن ابنه الأكبر "فخر الدين"^(١) بسبب تأله منه وغضبه عليه. أما ابنه الأصغر "علاء الدين"، فقد أرسله إلى حضرة غازان ليكون ملازما له.

ولما كانت ولاية هرة قد خربت بسبب المتاعب والأضرار التي نتجت عن عبور الجيوش، ولم يحدث فيها عمران، عطف غازان على الأهالي هناك. ولم يشق عليهم. أما سكان فوشنج^(٢)، فلأنهم كانوا قد لجأوا إلى القلعة عندما وصلت إلى هناك جيوش العراق، ولم يقدموا المؤن المطلوبة، وشنوا الحرب، غضب عليهم غازان بسبب تصرفهم هذا وأصدر أمرا بمحاصرة القلعة، واستولى الجنود عليها بمشقة بالغة، وأخرجوا منها الدواب والثيران والأغنام والمؤن الوفيرة، وأسروا أغلب السكان هناك.

وعندما غادرت الرمايات السلطانية هرة، وصلت إلى فوشنج. وهنا عرض سكانها ضعف حالها فعطف عليهم غازان، وأصدر أمرا بإطلاق سراح نسائهم وأطفالهم الذين كانوا قد أسروا، وطيب خاطرهم. ثم ركب بطالع السمند، وقدم ناحية رادكان. ولأن غبختو لم يرسل أموالا إلى جيش خراسان، احتشد هناك جنود كثيرون، وتعرضوا لكثير من

(١) انظر كتاب الفتح الإسلامي، ص ٢٨٣.

(٢) فوشنج أو فوشنج: مدينة بناها زين هرة عشرة فراسخ. وتقع في ولا كثير الشجر والقرآن، وهي تتجح الغيب بأشجاره الكثيرة للضلع. وأكثر حيرات مدينة هرة محلوبة منها، وطواحينها كلها تعمل بالهواء. ومن هذه المدينة خرجت طائفة متميزة من أهل الطب. (معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ ترجمة قطرب، ص ١٦٨٨).

المشقات والمتاعب؛ فصمم غازان على التوجه إلى جيخاتو، ليسن له حقيقة الأوضاع مشافهة، ولكنه عدل عن عزمه، وقدم إلى "شتركوه".

ونظرا لانقطاع أخبار العصاة، ونفاد المؤن، استأذن جنود المراق وأذربيجان في الانصراف. ثم أمضى غازان الصيف في شتركوه وشيد بها "جوسق مراد"، [ص ٢٧٨] ولم يكن السلاطين قد أقاموا عمارة في تلك الجهات. وفي هذه الأيام وصل نبا بنفيد أن الأوغاد والسفلة (رنود ولوباش) قد اجتمعوا، وخلقوا أولاد ملك زوزن^(١)، وطالفة من عظماء تلك الولاية، واستولوا على إحدى الفلاح؛ فصدر الأمر بأن يسير الأميران سوتاي ومولاي للقضاء على هؤلاء المجرمين. وعندما اتربها من القلعة، كان شاه علي ابن ملك سجستان قد جاء من فهستان طمعا في الاستيلاء على "غوف"، وقام بحصار القلعة فداهمه الأميران فجأة، وقتلا أغلب أتباعه، وسطوا على أموالهم ودوابهم. غير أن شاه علي خلص نفسه بصعوبة بالغة، ولاذ بالفرار. وبعد ذلك أخضع الأميران المقاتلين في تلك القلعة، وقتلا المشايخين ومثري الفتنة، واستمالا الرعية ثم عادا.

وفي شبان سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م صدر الأمر باعتقال "علي عماد الدين" خطيب نيسابور الذي كان رجلا عظيما، غير أنه كان يتدخل لصالح نوروز، وكثرة الحديث عنه اعتمادا على صيته؛ فأحضره من نيسابور وأعلموه. وفي ذلك الصيف لم تحدث وقائع تذكر. وعندما دخل الشتاء أمضاه غازان في "سلطان جوين استراباد". ثم أوفد الأمير نورين إلى سمنقان وشقان.

وفي أوائل الربيع أشيعت أخبار عن ظهور المتمردين، فتحركت الرهبات السلطانية إلى ناحية جرجان و"شهرك نو" و"مورجا باد". ثم وصل الأمير "تورين" إلى حضرة غازان. وفي أوائل شهور سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م رحل من هناك، ومكث عدة أيام في "سمنقان" وأرسل الجواسيس إلى مختلف النواحي. وقد اتضح أن الأنباء عن ظهور المتمردين كانت كاذبة. ومرة أخرى راودت غازان فكرة العودة إلى ناحية أذربيجان. والسلام.

(١) زوزن: يضم أوله وقد يفتح: كمررة واسطة بين نيسابور وحره وبمسوتها في أعمال نيسابور. وهي تطلق مهمة في نظام الطرق. ومن أعمالها ملقة ولربيع وعشرون قرية. وفيها بيت نذر المسوس. كانت زوزن تعرف بالحصرة الصغرى لكثرة من خرجت من الفضلاء والأنبياء ولعل المشق وبصم البلدان، ج، ص ١١٥٨ بلدان الخلافة الشريفة، ص ٢٩٨.

مكايبة

توجه غازان إلي ناحية ألتاغ^(١) بقصد مقابلة كيقخانو

ثم عودته من تبريز وهريرة نوروز

تشاور غازان مع الأمراء، وعقد العزم على الرحيل إلى آذربيجان وكلف الأمير الكبير "قتلغ شاه" وبقية الأمراء بالمحافظة على خراسان ثم عاد من سمنقان. وكان في حضرته الأمراء تورين وساتلمش وسوتاي؛ الذين دخلوا عن طريق "شهرك نو" ومازندران. كذلك قدم إلى حضرة الأمير قتلغ شاه، وسار حتى موضع "شمشه" حيث يقيم غازان. وفي هذه البلدة تزوج الأمير قتلغ شاه من ابنة "جبرخوتاي"، وعاد بعد ذلك. أما الراهبات السلطانية فقد سارت من شمسه حتى شوربيل من نواحى مازندران؛ حيث كان المعسكر العظيم. وقد قطع غازان في ليلة واحدة ما يقرب من واحد وثلاثين فرسخا. وحدث أن أحد زعماء مازندران خاف ولم يحضر إلى الحضرة؛ فاتهم بالتمرد. ولكن غازان لم يعبأ بذلك وعقد العزم على الرحيل إلى العراق وآذربيجان. وسلك طريق "شاه دز" متجها إلى "تمروزكوه" وأقام عدة أيام في دماوند. ومن هناك عهد إلى الأمير "ساتلمش" والتوجه سعد الدين بتحصيل أموال خراسان ومازندران وقومس والرى وإدارة شئون تلك المناطق والمحافظة على الولايات وتعيين مؤن الجند. ثم توجه غازان إلى تبريز، وكان تورين آقا يرافقه. وقبل ذلك سير "بغيش" إلى كيقخانو للإعلام بوصولهم، ثم عاد إلى منطقة أبهر، وصرح بقوله: "إن كيقخانو يتساءل: ما الناصي إلى مجيء غازان؟... كان ينبغي أن يهرود إلى خراسان، وأن يرسل جماعة من قبله لإنجاز المهمات، وتقدم للتمسكات. فكان رد غازان: "حيث إننا وصلنا إلى هنا، كيف نعود، دون أن يرى الواحد منا الآخر؟".

وعلى هذا توجه غازان إلى تبريز، وسير الأميرين "إلادو" و"مولاي" لتصرف المهمات وتوجه هو إلى تبريز. وعند قلعة زره [ص ٢٨٠] وصل إلى الحضرة السادة: نجيب وعنبر ورمهان من خواص أرغون خان وعندما وصل غازان باليمن إلى تبريز، مكث عدة أيام.

(١) الألتاغ: تكسب أيضا "الألتاغ". وفيها تكثر المياه، ونهرود مسرورح السلف، ويصفه مسافر الصيد. وقد أقيم فيها لرغون خان قصرا كان يبنى فيه أكثر أيام الصيف. (ترجمة الفلوب، ص ١١٨).

وكان رسل جيخاتو يصلون تباعا كى يعود غازان. وفى نهاية الأمر وصل "كمنجو" و"بارجو"، وصرحا لغازان بقولهما: "إن جيخاتو بأمرك بالعودة أيضا فى نفس هذا اليوم. وقد أرسل إليك هدانا قلبية. فلم بلغت إليها غازان، ورد عليهما قائلا: "حيث إن جيخاتو لا يريد لقاءنا فنحن أيضا لا نريد لقاءه مائة مرة".

بعد ذلك غادر غازان تبريز بطالع السعد، وأقام فى "بوز آغاج" حيث تزوج من "أشيل خاتون" ابنة الأمير "توتشور". وهناك أقام حفل الزفاف. وقد وصل إلى الحضرة الأمير "محمد ابداجى" الذى كان على رأس إمارة إسفهان، فقدم الهدايا اللطيفة، وحظى بأشرف الرعاية والتكريم، وصار ملازما لغازان".

وبعد شهر توجهت الرمايات السلطانية إلى خراسان. وفى مدينة "أبهر"^(١) تقدم إلى الحضرة الخواجه^(٢)، وطلقة من الرسل الذين كان أرغسون خان قد أرسلهم إلى حضرة آقا آن^(٣) لإحضار إحدى قريبات بلخان خاتون الكبرى كى يتزوج منها،^(٤) فجاءوا بـ "كوكاجين خاتون" مع هدايا أخرى عظيمة وصينية تليق بالملك. وكان غازان مقبما فى "أبهر" فتزوج من "كوكاجين"^(٥). وبعد إتمام مراسم الزفاف، أرسل إلى جيخاتو هدايا، كان من بينها بير وعدة أشياء أخرى.

بعد ذلك سار إلى ناحية دماوند. وعندما نزل عند حدود فيروزكوه، وصل رسل الأمير قتلغ، وبشروه قائلين: "لقد حاربنا (نوروز)، فاتدحر، وفر منهزما وراجلا إلى جبال نسابور. وقد استولى جنودنا على كل الأموال والثواب والخيول المحملة بالأدوات والثياب. وعلى أثر ذلك غرقت الرمايات السلطانية إلى دامغان وبسطام. وإلى بسطام وصل الأمير

(١) أبهر: مدينة مشهورة بين تروين وزنجان ومثلث من نواحي الجبل. (معجم البلدان، ج ١، ص ٨٢).

(٢) هكذا فى النص.

(٣) المقصود به فرستايى لما أن الذى كان يحكم فى مدينة بكن حاصلة العين (انظر جامع التواريخ تأليف رشيد الدين فضل الله اليازجى: تاريخ خلفاء چنگيز خان من لوغجايى لما أن إلى نيسور لما أن الفرجة القريبة، ص ٢٣٦ وما بعدها) بسطام نوري محضرا نسورخان، تسلف رنه كروسبه فرجا عبد الحسين ميكند، ص ٤٨٧ وما بعدها جاب سوم، تهران ١٣٤٨ هـ ش.

(٤) انظر الفرق الإسلامى فى عهد الایلخانين (أسرة حولاكو خان) ص ١٩٧ - ١٩٩.

(٥) لأن ليد أرغون كان قد توفى.

قتلغ شاه والأمراء فأنعم عليهم غازان بالذخائر التي غنمها، واختصهم بأنواع الرعاية والتكريم [ص ٢٨١]. ومن هناك دخلوا جرجان عن طريق خرمايه.

بعد ذلك نزل غازان "بسلطان دوين استراهاد"، وحصار يمارس ضروب اللصعة والصيد. وبسبب إفراط الأمير قتلغ في الشراب، اعتراه مرض شديد؛ فلأزمه الأطباء وفقاً للأمر الصادر إليهم، حتى استرد صحته، وحصارت كما كانت من قبل. ومنذ ذلك الوقت أُلغى عن الشراب. وحتى وقتنا هذا لم يخصص الشراب أبداً.

أما عن "كبا صلاح الدين" فقد تخاضى مقابلة غازان عندما حل هو ومرافقوه بولايته وهم يقصدون آذربيجان. وبعد أن عاد غازان من تبريز، ومثل بين يديه "كبا صلاح الدين" في الري وتشفع له الأمراء الآخرون، عفا عنه. ولكنه عندما عاد إلى ولايته، رجع إلى العصيان مرة أخرى؛ فكلّف غازان الأمير "سوتاي" بالقضاء عليه، فذهب هذا، وأعدمه وأحضر من هناك مالا وفيراً ودواب عديدة، فوزعها غازان على الجنود. وفي ذلك الشتاء كانوا في مازندران، ولم ترد أخبار من أمة ناحية.

بعد ذلك تحرك في الربيع إلى ناحية دماوند، ثم سار عن طريق "جهار ديه"، ومكث شهراً في دامغان. ثم غادرها إلى فيروزكوه عن طريق "سلطان ميلان". وأمضى الصيف في دماوند. ومن هناك أرسل قائدين من قوات الجيش هما مولاي وهورقداق إلى خراسان فأبلغاه نياً يفيد أن أهل نيسابور يتوون الخروج عن الطاعة، ويسوا مشغولين بالرحيل، فلم يعبأ غازان بذلك. ومن غاية لطفه النظري، سير الرسل مندوبين بالوعد والوعيد. ولكن دون جدوى؛ فتحرك بنفسه إلى تلك الجهة، ووصل إلى هناك في ذي القعدة سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، ونزل في "موهدي". ثم أرسل الخواجه سعد الدين إلى المدينة ليحضر أهلها فاستطاع هذا بتصالحه ومواعظته أن يهدمهم إلى جادة الصواب، لأنه ليس من المستأخ أن يقتل الأتباع المخلصون التقدماء بواسطة جرائم حفنة من المفسدين. وعندما ذهب الخواجه سعد الدين إلى المدينة تقدم إليه القاضي صفر الدين والإهلوان عمر وأعيان نيسابور وقالوا: "نحن نفكر في أرواحنا. فإذا تعهد الخواجه بأن يعطينا الأمان، فإتينا سوف نخرج [ص ٢٨٢]، ونؤدى فروض الطاعة. فقبل الخواجه أن يعرض الأمر على الأمير غازان وقال لهم: "سوف أعمل ما في وسعي حتى لا يهيبكم أذى. كذلك خرج من المدينة

القاضي صدر الدين واليهلوان عمر مع طائفة من السكان، وتقدموا إلى الأمراء الكبار فأرسلوهم إلى الحضرة. وكان غازان قد رحل من "مويدى" وحل بنيسابور، وصرح قائلاً: "لن نمر ملكنا ورعيتنا بسبب حفة من الفوغاه؛ فينبغي أن يسلموا طائفة المفسدين ومثري الفتن وهم: فخر الدين الرمس وحسام الدين أيك الخطاطي، أبو بكر علي عابشه وعثمان مشكاني ومحمد عبد الملك. وعلى السكان أن يؤدوا الخراج بصدق وأمانة؛ حتى نعود من هنا في أمن وسلامة. ولكنهم ماطلوا في تسليم تلك الجماعة. وصدر الأمر بمحاصرة نيسابور فلجأ أهلها إلى مسجد حصين، ودخل الأمراء عليهم، كل منهم من ناحية. ولما طوفهم الجنود، عجزوا عن المقاومة بسبب خوفهم وفرعهم. ثم نهب الجند الأحياء والأزقة وفصدوا المسجد، ونقبوا عدة أماكن فيه، وتسلقوا الجدران؛ فصاح هؤلاء للساكين، وطلبوا الأمان. فصيح غازان عنهم لفرط رنجته وشفقته. وذلك على الرغم من كثرة ذنوب المتمردين، ورغم أن بعض الناس الأبرياء قد قتلوا. كذلك أشار غازان على الجنود بالكف عن السلب والقتل.

ولكن لما كان الجنود قد هجموا مرة واحدة، لم يبسر منهم. وعنفذ ركب غازان عنان بنفسه المباركة، وتجول في المدينة، وقتل واحداً أو اثنين من التوجهية، كما أسر بتعلق أعضائهم على البوابات.

وبهذا يخاف الجنود وارتعدوا، وكفوا أيديهم عن القتل والنهب. وقد اعتقل الجماعة المذكورون الذين أثاروا الشغب والفتنة وأعدموا، ولم يسمح لغازان بإخراج دابة واحدة من تلك الولاية. كذلك استمال الرعايا، فأمنوا على أنفسهم، واتجهوا إلى التصير والزراعة. بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى ناحية جرجان وقضى غازان ومرافقوه ذلك الشقاء في "سلطان دوين استرهاباد". والسلام.

خضوع نوروز، ودخوله في طاعة حضرة غازان مرة أخرى، وإقامة الولائم والحفلات وتقديم الهدايا

في أوائل المحرم سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، وصل غلام "نوروز" موافداً من قبله إلى غازان خان، وذكر أن "نوروز" يقول: "إبني عبد وابن عبد قديم. ولكن بسبب اقتراء الجنشين من الناس وبهتانهم شردت نفسي عن الخضوع للحضرة؛ فإذا عطف على غازان، وصفح عن ذنبي، وعفا عني، وتناسى جرمي؛ فإبني سوف أتوجه إلى الحضرة ثم أرحل على أن أقوم بتنفيذ شروط العبودية.

ونظراً لكمال شفقة السلطان وعدله، تجاوز عن ذنوب نوروز وقبل عفوّه. كما شرفه بأجوبة سلطانية كريمة. وفي نهاية الرسالة التي عرضها "ساتلمش" على غازان، جاء فيها: "إذا تعلق السلطان، وأرسل جنداً على سبيل المدد إلى منطقة "مروجوق"، فإن العبد سوف ينضم إليهم بعد مفارقتهم هذه الجماعة. وإذا تعقبهم أحد، فسوف يكونون مدداً للقضاء عليه؛ وذلك حتى أتال شرف العبودية بفضل إقبال السلطان. فأجيب السلطان غازان: "حيث إنه الآن فصل الشتاء وليست هناك أخبار واردة من الأطراف والجوانب، فإبني سوف أتحرك بذاتي المباركة إلى تلك الجهات باسم الصيد". ثم خص ساتلمش بأنواع التكريم والرعاية، وقفل راجعاً.

وكان جواب الرسالة هو أنه ينبغي على نوروز أن يكون عند كلمته. ثم سار السلطان باليمن والبركة. وكان في ركابه الأميران الكبيران: نورين وقطغ شاه آقا. وعندما بلغ ولاية "بازر" في موضع "كوشك"، ووصل من قبل نوروز أخوه "حسين حاجي" واتجهل بن جاردو بهادر لنفس الغرض الذي كان ساتلمش قد جاء من أجله شملهما الأمير النجل بعطفه. ثم سار من هناك حتى سرخس. وبعد أن استراح، رحل متخذاً طريق "دالان قودون".

وعندما خرج الجمع من بين الجبال [ص ٢٨٤] والتلال، وظهرت في صحراء مرو وشوبرغان الديار والخيام والنبوء، صدر الأمر بأن يتحصن أمرهم "باوداي" الذي كان

أسرا للمشرفين على تعبئة الجيوش. وقد عاد بعد مدة ومعهم سائلمش غلام نوروز، فخرضا
معا على غازان قائلين: إن نوروز قد نزل هناك ينتظر وصول الرهائن السلطانية؛ فوقف
السلطان فوق ربوة فما كان من نوروز والأسير النجل طغان إلا أن أسرعا، فوصلا إلى
الحضرة، وتشرفا بلقاء غازان. وقد مكث السلطان ثلاثة أيام في تلك القرية، وأهيمت
الولائم والأفراح.

ولما كان الصار بعينا والشراب قليلا، أمر السلطان بأن يقيموا مراسم الصلح ببادل
كئوس الماء. وهناك أمر بإقامة ناد يطلق عليه المقول اسم "لوبا". وعفا عن ذنوب نوروز
وخصه بأنواع الرعاية والتكريم. ثم عاد إلى ناحية "مروجوق"، وساروا إلى طريق "شاخ".
وقد اعترى "بورين آقا" ألم شديد جدا في قدمه، وشغل في تلك الرحلة مشقة بالغة. وقد
انضم إلى الحضرة أسراء جيش القراونة "توعاي" وآخرون. ثم رحل غازان عن طريق
"الدخوى"، وتشرف بالثول بين بدى الحضرة أبناء عمر أهل كهكو وآخرون. ثم سار إلى
طريق فارباب، واشتجكت طلائعه بطلائع المتمردين، وقتلت منهم كثيرين، وقبض على
بعضهم وسبقوا إلى الحضرة. وعندما سئلوا عن الأحوال، ذكروا أن جيش المتمردين يوجد
في فارباب وجوزجاته. وعندما نزل بفارباب ترك المتمردون الخزائن والأمتعة والجنود الذين
عجزت دوابهم عن السير هناك.

بعد ذلك تحرك غازان إلى ناحية شبورغان حيث الطريق مقعر للغاية، ولا ماء فيه.
وأخيرا وصل لبالا بالقرب من تلك المنطقة في موضع "اتنجكه سو" وأمر بالآلا يشعل أى
مخلوق نارا حتى لا يعلم المتمردون بوجودهم، وأن مهاجمهم فجأة عند الصباح. فعلم
المتمردون [ص ٢٨٥] أن الرهائن السلطانية قد وصلت إلى فارباب، فعادوا وخرجوا إلى
طريق صان وجريك. ثم نزل الجيش المنصور عند وادى نهر شبورغان. وصدر الأمر بأن
يتعقب المتمردين الأمراء الكبار قطع شاه والآخرون، وأقامت الرهائن السلطانية في تلك
المناطق. وأما جنود القراونة الذين كانوا قد التجأوا إلى أماكن حصينة عشية المتمردين فإنهم
قدموا جميعا إلى الحضرة. ثم ساروا إلى ناحية سرخس بناء على الأمر الصادر إليهم. هنا
على حين أن الأمراء الذين كانوا قد تعقبوا المعصاة في مناطق جبل "صان" و"جريك" قد
أدركوا هؤلاء المتمردين في لوائل ربيع الأول سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وشنوا عليهم حربا
شعواء، وهزمهم، وقتلوا منهم كثيرين، ثم وصل هؤلاء الأمراء إلى الحضرة ومعهم أسرى
كثيرون، وضائم لا حصر لها.

وقد أقاموا عشرين يوماً في تلك المناطق. وشرع جميع الجنود الذين كانوا مرافقين للحاضرة في نقل الغلال من المخازن، وصاروا يأكلون منها ويضعون دوابهم. ونظراً لكثرة هذه الغلال لم يظهر نقص فيها.

وفي تلك الأيام انضم نوروز أيضاً إلى الحاضرة. وبعد ذلك رحل غازان من هناك. فلما وصل هو ومرافقوه إلى "فراسزان" كان هناك الأمير النجل "طوغان"، وأهل نوروز؛ فأقاموا الولائم والاحتفالات عدة أيام، وأحضروا هدايا محدودة، وقدموا مراسم الخدمات من كل نوع. ومن هناك تحرك غازان ومرافقوه عن طريق "سرغس" حتى إذا بلغوا "قراتيه" وصل "بوغداي ابوداجي" من لندن كجسائير، وأعلمه على علاقة باينو والأمراء كجسائير، فلم يعبأ بهذا.

بعد ذلك استأذن نوروز، وعاد إلى دياره بناحية "بادغيس". ثم توقفت الرهبات السلطانية عدة أيام، وسارت عن طريق "زجا" و"شوكان". وعندما وصلت إلى وادي "جز" حزمت على المسير إلى "مرج رادكان" لتصطاد طائر الحجلة كذلك وصل من قبل باينو المدعو قتلغ شاه وطائفة من الرسل وعرضوا على غازان اختيار النزاع بين كجسائير وباينو، وقالوا إن جميع الأمراء كبيرهم وصغيرهم وففراد الأسرة الحاكمة وعواتين الأمراء [ص ٢٨٦] قد اتفقوا على أن يسير أمير العالم إلى تلك المناحية، ويجلس على عرش السلطنة التي يستحقها إرثاً واكتساباً. ولكن الأمير النجل لم يعر ذلك اهتماماً، وأعاد جماعة الرسل. ثم تشاور مع الأمراء الكبار، وأرسل رسولا لاستدعاء نوروز ثم أقام عدة أيام في "رادكان" و"جشمة" كلسب. ثم قدم ومن معه إلى "عبوشان". وغادرها بعد عدة أيام. وعندما نزل "بنوير" لحق نوروز بالحاضرة.

ولأن العناد وأغلب الجنود والأمير النجل "سوكا" الذي قدم من قبل كجسائير كانوا في مازندران، استقر الرأي المبارك على أن يذهبوا إلى "سلطان دويك". ومن هناك يقصدون العراق وآذربيجان. ثم قدم غازان إلى "شهرك نو" في جرجان، ونزل في سلطان دويك استبراد. وفي المسكر المظلم اتهمكوا في إتيامة الولائم والأفراح واللهو والأنس. ثم أرسل أورداجمور ابوداجي إلى باينو قائلاً له: "بئنا سوف نصل على الأمر". والسلام.

مكاتبه

توجه غازان من خراسان إلى العراق العجمي

ومهاربته باهتو في [] هشترو

وقريان شيره

تحرك غازان خان باليمن وطالع السعد من "سلفطان دوين" قاصدا العراق وأذربيجان. ثم قدم عن طريق "چهار ده" إلى دامنجان. بعد ذلك أراد أن يتجول في قلعة "مردكوه". لكن الأمراء قالوا: لأن أماننا عملا خطيرا ليس من المناسب الآن التفاضل بولوج القلعة. ثم أمر بأن ينفذ القلعة أبناء تاج الدين الذين كانوا حراسا عليها، وذلك مع نسايتهم وأطفالهم [ص ٢٨٧]. وقد سلم مفتاح القلعة للحواجة سعد الدين حبش، وعهد إليه بالمحافظة عليها.

وعندما قدم غازان إلى سنجان، وصل "أوردوبوقا" موفدا من قبل كيجياتو، ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "أيلبو" ^(١) والأدوات الخفاصة به من الورق الأبيض والأخضام وغير ذلك. فقال غازان خان: "إنه لا يقاء للآلات الهندية والأسلحة في ماژندران. وما جاورها من مناطق بسبب جوها المشددة الرطوبة؛ فكيف يمكن أن يقى فيها النورق دون أن يتلف؟! ... وأمر بإحراقه تماما. ثم قدم من هناك إلى طهران عن طريق فيروزكوه حيث تشرف "بورالفي" وأمراء العراق بلقاء الحضرة. ولما بلغوا موضع "خيل بزرگ" قدم ثانية "أورابتمور ايداجي" من قبل باهتو وعرض قائلا: "إن باهتو قد رجع في كلامه، وظهرت في رأسه الرغبة في السلطنة. وقد أثار الأمراء "طفاجار" و"فونجقبال" و"دولاداي" وغيرهم الفتن، وأراقوا دماء أوردوبوقا وجوشى وغيرهما. وبسبب خوفهم من حضرة غازان ووحشتهم منه، اتفقت كلمتهم جميعا على توليه باهتو الحكم، وهم يفكرون في إثارة الفتن والشغب.

(١) انظر مزيدا من التفاصيل عن التعامل بهذا النوع من العملة الورقية في كتاب "مجموعة مقالات عباس إقبال آشتياني، شامل بكشف ذلك مقاله بالفقه وتصحيح نقاي دكتور محمد دبير سبالي بدران - چارو چاه اسكاسي، ص ٣٣٧ - ٣٣٤. تهران ١٣٥٠ هـ. ش. الشرق الإسلامي، ص ٢١٢ وما بعدها.

ولما لم يكن غازان خان يفكر في مخالفة بايبو، لم يحضر معه جنودا كثيرين، ولم يصطحب الفرقة المدرعة بأسلحة الحرب إلى حد أنهم تركوا هناك المطوق المبارك والعتيل الخاص. وقد تشاور مع الأمراء. وبدافع الشجاعة السلطانية، لم يلتفت إلى ما قالوه. ثم أرسل مولاي وبغيش برسالة إلى بايبو يقول فيها: "إننا سوف نصل بذاتنا المباركة. فأين تقابل الواحد منا مع الآخر؟" ثم استدعى "توركاوك".

وعندما قدم باليمن إلى "آل خواجه" من منطقة فروزين، ووصل إلى الحضرة "شادي گوركان" الذي كان قد أرسله بايبو والأمراء فتحدث بشئ الأموال التي يتكلم بها أصحاب التخطيط والتبويه. وضحى هذه الأقوال التي جاءت على لسان بايبو: "إله لم يكن لي تفكير ولا رغبة في الحكم. ولكن نظرا لبعث الأمير النجل غازان، وقعت [ص ٢٨٨] الفتن والقتال بين الرعية. ولهذا السبب اتفق أفراد الأسرة الحاكمة على أن أعتلى العرش. والحالة هذه فإن الأمير النجل سوف يجاب إلى كل ما يطلبه. وليس في ذلك مجال للمضايقة. ولكن ينبغي أن يعود غازان من حيث أتى"، غير أن هذا الأمير لم يعبأ بذلك وسار في طريقه. فلما وصل إلى "توتقور أولانگ"، قدم مولاي وبغيش، وأخذنا يتحدثان بمثل هذا الكلام المزخرف. وفي نفس ذلك اليوم انفصل "تاوولدار" عن بايبو، ووصل إلى حضرة غازان، فشمله برعايته، واختصه بأنواع العطف والتكريم. ثم رحل غازان من هناك ونزل في طريق "رباط مسلم". ثم استدعى "شادي گوركان" ورسل بايبو، وأنبهم تأتيا شديدا لدرجة أن شادي گوركان يمس من حياته. بعد ذلك أرسل غازان رسائل شديدة اللهجة بخصوص تولي بايبو الحكم.

وفي الوقت الذي ذهب إلى هناك مولاي وبغيش، تفوه اليلدار - في حالة سكره - بكلمات قال فيها: لقد اتفقا نحن أفراد الأسرة الحاكمة على أن نولي بايبو مقاليد الحكم. فإذا لم يتفق معنا الأمير النجل غازان في هذا الرأي، فإن الحصومة تقع بيننا. وأخيرا أذن للرسل في العودة. ثم كلف الأمرين الكثيرين: نورين وقنغ شاه باستعراض الجنود والتفتيش عليهم. وعلى الفور أرسل "ميسا بوقا" الكاتب برسالة إلى بايبو قال فيها: "نحن سوف نصل". وعلى أثر ذلك سلك طريق "توكاتو". ثم عبر "سفيد رود"^(١). وفي

(١) "سفيد رود" أي نهر الأبيض. تسمى وادعه كثيرة نواحي أذربيجان الجنوبية الشرقية. ويؤلف معظم مجرى هذا النهر الحدود الفاصلة بين أذربيجان وإقليم الجبال. ويصب أسرا في بحر قزوين بعد مروره بجلهم جيلان. (بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٠٣).

اليوم الثالث الثلاثاء غرة رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثاني من شهر "شون آي" وصل إلى باهيو نبأ وصول الأمير النجل غازان، فأرسل في الطليعة الأمير النجل ايلدار والأميرين اهلجيداي وجهك. وأما من هذا الجانب (المقصود به غازان) فكان على المهسرة الأمير قتلغ شاه ونورين آقا، ووقف في القلب الأمير النجل "سوكا" و"بورالغى" و"نوروز" والأمراء الآخرون الذين كانوا في حضرة غازان.

وعندما اقتربوا من باهيو، أوفدوا أمامهم يوقدای احتجاجي وعقدوا في كل أنواع الكلام عن الصلح والمودة، وضرورة مراعاة صلة الرحم بين أفراد الأسرة الحاكمة، غير أن غازان لم يلتفت إلى ذلك [ص ٢٨٩]. واتعم الجنود من الطرفين بعضهم ببعض. وكان الأمير قتلغ شاه في المقدمة كالطود الثابت. ولما كان الأمير النجل "ايلدار" قد تموه بكلام خطير اقتضى رأى غازان العال للبادرة بتأديه.

ولم تكن قد قرعت بعد طبول القلب إذنا يده للمركة، وقبل أن يتحرك جنود القلب من جانب العدو، هاجهم الأمير قتلغ شاه، ودرهم بحملة واحدة؛ بحيث إنه عندما وصل الخبر إلى القلب في جيش العدو، كانت المزيمة قد حلت به، وقتل منه ما يقرب من ثمانمائة جندي، وانهزم الباقون. وقتل "تغاي" نائب "ايلدار". ثم أحضر "أرسلان أوغول" إلى الحضرة مترجلا، وطلب أن يهجم جنود خراسان دفعة واحدة ليستاصلوا شافة أعدائهم ويقنوهم. ولكن غازان حال دون ذلك مدفوعا بما فطر عليه من رحمة، وقال: إن هؤلاء الجنود جمعهم عبيد آبائنا وأجدادنا. وإذن فكيف تقتلهم بسبب حفة من المشايخ ومثري الفتن! هم أولئك الذين ولوا "باهيو" الحكم؟... غير أن نوروز وبقيه الأمراء صاروا يبالغون مصرين على أنه ينبغي الانتقام الفرصة. فما كان من غازان إلا أن صاح فيهم ونهرهم فالتزموا السكون.

وعندما اعتقل "أرسلان أوغول"، وسبق إلى غازان، قال ابن عم بورلتاي: "بما أن "أرسلان" سل السيف في وجوه عبيد الدولة، فإني سوف أقتله لو أذن لي السلطان بذلك غير أن غازان لم يلتفت إلى هذا القول. ثم أمر بأن يحضروا من خزائنه الخاصة قباء وقنسرة ومنطقة (حزاما) وحذاء، وألبسوا الأسير هذه الأشياء، وأركبوه جوادا مخصيا من جباد الخاصة. كما أمر بإحضار جرحى للمركة، وصار يضع المرهم على جروحهم، وكان

يسقيهم الأدوية المفيدة في الشراب. فلا جرم أن الحق تعالى وضع أطراف الممالك وأكتافها في قبضة سلطته جزاء وفاقا لتلك العاطفة وهذه الرحمة.

ولما رأى باهيو وأمرؤه أن "البلنار" و"توكال" اللذين هما أشجع رجائهم قد هزما، عرفوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومة أعدائهم فسلخوا طريق المسألة والشفاعة، وجاء باهيو وسط ميدان المعركة، ووقف على قمة رمية مع الأمراء: طغاجار ودولاداي وفونجقبال. [ص ٢٩٠] ومع أن سلطان الإسلام قد غنمهم وهزمهم، نجسهم لسير إليهم. وكان الأمراء نوروز ونورين وفتلغ شاه وسوتاي ملازمين للحضرة. وقد اتفق الجانبان على اللقاء، وسأل بعضهم بعضا وقالوا: "ينبغي أن يعقد بيننا عهد وميثاق تشهد فيه بألا يؤذى بعضنا بعضا. فصاح الأمراء من هنا الجانب (جانب غازان) قائلين: ينبغي أن نحسم أولا أمر الملك والسلطنة. وبعد ذلك يبرم العهد والميثاق.

والخلاصة أنهم أحضروا الشراب، وأحسوه في الكؤوس. أما المسلمون منهم فصافحوا وأنسموا بألا يفكروا في الإساءة بعضهم إلى البعض. ثم قالوا: غدا يتقرر أمر الحكم والسلطنة. ولما كان النهار قد انتهى، وأذن بالمغيب، عاد كل منهم إلى مقره. وفي تلك الأثناء انفصل عن باهيو أفراد أسرة الخاتون للعظيمة "بولوغان خاتون" منهم الشيخ "هورقاسون" وجمع آخر، وانضموا إلى الحضرة. ولما كان جنود بغداد وموغان قد اقتربوا كان باهيو يرسل إليهم الرسل تباعا لاستدعائهم أثناء المفاوضات وكان الأمراء يصلون مع جنودهم لحظة بعد أخرى، فظهرت لهم شوكة كبيرة آخر النهار. وفي اليوم التالي سار الجيشان حتى "قربان شيره" لمناوشة الواحد منهما الآخر. ثم دخل جيش السلطان غازان واديا ضيقا يبلغ طوله فرسنا. ولم يكن أمامه غير طريق واحد فأسرع "توكاتو بهادر" مع ألفي فارس، واستولى على مدخل الوادي. وكان فونجقبال يتبعه لبعونه. فلما علم باهيو ذلك، وعرف أن هذا التصرف يؤدي إلى الحرب، لوفد على الفور رسولا يأمر أتباعه بفتح الطريق أمام جنود غازان، ولا يستعملونهم من الخروج؛ فغضب فونجقبال من ذلك التصرف.

وصفة القول أنهم نزلوا في تلك الليلة بعضهم بجوار البعض، بحيث إنهم كانوا يشربون من عين واحدة على الرغم من أن جميع الجنود كانوا يسكنون بأعنة خيولهم مدججين بأسلحتهم، ولم يستريحوا في تلك الليلة. وفي اليوم التالي الإثنين السابع من رجب، أخذ جمع

من الساعين في الصلح يترددون بين الجانبين. [ص ٢٩١] وأخيرًا استقر رأى الأميرين
توتشيمور وسوتاي على أن يقام سدادق بين الطرفين على أن تحضر "توداي خاتون" التي يقع
موطنها على مقربة من ذلك المكان، وتمتد الصلح بين الطرفين. وفي تلك الأثناء قدم
"تجنقبال" وعرض قتالاً: "إذا كان المظفر من نصيب غازان، فإن الأمير "قبوقا" سوف
يلقى علينا. ولهذا السبب قطوه في نفس ذلك اليوم.

وبعد حديث طويل تقرر أن يجتمع الأمراء وسط ميدان المعركة، ويقر الطرفان بصواب
وجهة نظر الطرف الآخر. وعلى هذا ذهب من هنا للطرف (أى غازان خان) الأمراء
نوروز ونورين وقتلغ شاه وتوتشيمور. ومن طرف بايو قدم طفاجار وتوتجنقبال ودولاداي
وصاروا يتناقشون حتى منتصف النهار. وكان جنود بايو يصلون لحظة بعد أخرى
فصارت ترددات قوتهم.

ولما رأى الأمراء ذلك، استقر رأيهم على أن يرسل بايو إلى حضرة الأمير النجل غازان
المعيونات الخاصة بأرغون خان والخاتون المعظمة بولوغخان واوروك خاتون والأمير النجل
خربنده مع الأمراء الأنجال الآخرين، وأن تُسلم له أسوالة وعزائته. ويكون لغازان أيضًا من
الجانب الآخر مناطق "سغيدرود" والعراق وخراسان وقومس ومازندران ونصف إقليم
فارس مع كل أملاك الخاصة هناك. وعندما عرضوا ذلك الأمر على حضرة غازان، طلب
أن يسلموه طفاجار أيضًا مع عشرة آلاف من القراونة الذين هم من خاصة أرغون.
وبموجب هذا الاتفاق انتهى الحديث عند هذا الحد وتعود. فأجاب بايو بحضور الأمراء
قائلًا: "إن الأمير النجل غازان يعلم أن أرغون كان يحترقني ابناً له من صلبه، وكان يعين
لكل ابن مشى خاصاً في جهة من الجهات في صحبة أحد الأمراء. وكان طفاجار مع
عشرة آلاف جندي من القراونة في صحبتي دائماً في بغداد. وما أنا أقر ذلك حسب أمر
أرغون خان، فإنه هو الحاكم". وأخيرًا استقر رأى السلطان والأمراء على هذا، وقالوا:
"فكسلم هذه المقررات لغازان حتى تعود". ثم أرسل بايو "دولاداي" بحمل الطعام
والشراب إلى الحضرة، فحظي بالإعزاز والرعاية، وتاوله قدحاً من الشراب.

بعد ذلك أشار السلطان غازان قائلًا: لنعد عن طريق "سيه كوه"؟ غير أن بايو والأمراء
لم يرضوا بهذا الرأي. والسبب في ذلك هو أن جيش القراونة كان مقيماً هناك، فحافظوا أن

بعضوا إلى غازان خان إذا ما قرَّ في تلك الناحية [ص ٢٩٢] فتحدث الفتنة مرة أخرى. ثم أوفدوا "بولاد چينگسانگ"^١ إلى الحضرة ليقتن غازان بالعودة من الطريق الذي قدم منه. وفي اليوم التالي أرسل بابو ابنه "تيجاق" مع طائفة من الأمراء إلى حضرة غازان لإيلاء رعايتهم وإعزازهم له، ولتناول اقتناح الشراب، وليبلغوه أن بابو يقول: "إن الأمير النجل قدم إلى هنا باليمن والبركة، وتم الصلح والاتفاق بيننا. فإذا ما انصرفنا دون أن يرى الواحد منا الآخر، ولو للحظة، فسوف يقطن القرب والبعد أن الكفر لا يزال بيننا. وإذن فالأولى أن نجلس ساعة بعضنا مع البعض لتجدد عهد اللقاء، ثم يعود الأمير النجل باليمن والبركة". ولإبلاغ هذا الانتعاش، قدم أيضاً الأميران سوتاي وتوقتيبور عدة مرات. وأخيراً تقرر أن تعد دار ينزل فيها كلا الجانبين مع عدة أشخاص من خواصه، ويقابل الواحد منهما الآخر. وفي ذلك اليوم تودد السلطان غازان إلى "تيجاق اغول" وشمله بعطفه ورعايته، وخلع عليه، وأركبه جواده وأعادته. ثم تشاور مع الأمراء نوروز ونورين وفتنغ شاه فلم يروا المصلحة في هذا الاجتماع. كما أن المنجمين قالوا: "إنه يوم نحس. فأرسل غازان "سوتاي" وتوقتيبور إلى بابو ليقولا له: "إن اليوم نحس حسب قول المنجمين، وقد اقترب أيضاً وقت الليل، وغداً صباحاً سوف يقابل الواحد منا الآخر. ثم كلف الأميرين نوروز وتوقتيبور بأن يبقيا معه هذه الليلة، على أن ينحيا في الصباح إلى بابو. وبعد ذلك يصرقان شعون الملك، ويسيران الجنود. ثم رحل غازان ليلاً باليمن والبركة بعد أن أوفدوا الثيران في كافة البيوت، وسار في طريقه حتى إذا حلَّ الصباح كان قد عبر نهر "سپهرود"، وانضم إلى الحضرة أمراء الجند الذين كانوا هناك. ثم خرج وسلك طريق "دهه منار"، وبات ليلته في زنجان.

وفي اليوم التالي أرسل غازان "كورتيمور" من "مسلم" إلى بابو ويقول له: "لقد سرنا إلى ناحية دماوند، وتركتنا هناك الأميرين نوروز وتوقتيبور فينبى أن تكون عند كلمتك فتسير الجنود والحوادثين، ونحسم أمر الملك بالمشاهدة". [ص ٢٩٣] ومن هناك مرَّ غازان "توقتيبور أولنگ"، ووصل إلى موضع "كره رود" الذي يسميه المثلث "تركان موران".

(١) كان يعمل سفيراً للملكان في بلاط إيران، وصحح بضرورة كبيرة بين الالهامتين (انظر كتاب فخر الإسلام، ص ٢١٢، ٢١٤).

وهناك وصل إلى الحضرة "كشهر بنشى"، وأبلغته رسالة يابندو التى يقول فيها: "كان من المتوقع أن تجدد عهد اللقاء، وتأنس لحظة بمجلورة الواحد منا الآخر. وحيث أن الأمير قد ارتحل فإن الصلاح يكون فى ذلك. والآن ينبى أن ينى كبل منا بوعده". فأعاد السلطان غازان "كشهر بنشى" بصحبة إبراهيم شكورجى (سكورجى) برسالة إلى يابندو يقول فيها: "ينبى أن نبرم الأمور بأكملها مع نوروز وتوقتيصور وكورتيصور، ونعهدهم فى أسرع وقت". ومن هناك توجه غازان إلى دماوند حيث أمضى الصيف.

وعندما رجع الأمراء: نوروز وتوقتيصور وكورتيصور، ظهر أن يابندو قد أبدى اعتذاراً غير مقبولة فيما يتعلق بتصريف المهمات، وتدمير شعون الملك، وإرسال الخواتين والجنود، ولم يف بما تعهد به مما أثار غضب غازان؛ فأمر بأن يذهب الأمراء جميعاً مع جنودهم لإعداد العلف وتسيمن الدواب.

أما عن حال نوروز ومن معه من الأمراء، فكان على هذا النحو: عندما وصلوا إلى يابندو، واتسموا إليه أن يصدر مرسومًا بشأن البلاد والجنود والخواتين، توجب خيفة بسبب عودة السلطان غازان، فاعتقل رسله. ثم أرسل قوتقبال ودولاداي وإلجيداي فى المقدمة لتعقب غازان، وتحرك هو نفسه فى اليوم التالى. وفى يوم الأربعاء التاسع من رجب عبر غازان "سفيد رود". وفى يوم الجمعة الحادى عشر قدم "كورتيمور" برسالة. وكان الأمراء يتبعون أثرهم حتى شرويان، ثم عادوا من هناك، واتصلوا بيابندو فى منطقة سجاس^(١) ورحلوا فى يوم الاثنين الرابع عشر من رجب حتى ريوه شرويان ثم عادوا من هناك.

وأما عن يابندو فقد [ص ٢٩٤] تشاور مع الأمراء فيما يتعلق بالتصرف فى شأن نوروز وتوقتيصور، فأجابوا جميعاً: "لا يمكن أن نسهما بسوء". ما عدا "توكال" الذى كان يسعى فى إزالة دم نوروز؛ إذ قال فى هذا الصدد: "إن نوروز هو الملجأ والظهير لغازان. وإذا نقضه يكون ضرورة لازمة". لكن طغاجار والأمراء آخريين لم يجزوا ذلك بسبب صلات

(١) سجاس أو سحاس: بلدة تقع على بعد خمسة فراسخ غرب السلطانية، ويجاورها أكثر من مائة قرية أغلب سكانها من التتار، وكان فى الجبل الجبلور لها قبر لرغون خان. وجرى على عادة التتار أن يبنى فى القبور، وكان الناس يعمدون مشقة فى حور تلك المنطقة إلى أن جدت لولجاي عتقون فظهرت قبر ليها وأقيمت هناك خانقاه للتتاروفى. (ترجمة القلوب، ص ٦٩ - ١٧٠ بلقان الخليفة التتارى، ص ٢٥٨).

القريبى والصدائق فعاد توكمال مهموماً لعدم الأخذ برأيه، ورحل إلى ولاية جورجيا "جرجستان" حيث موطنه، ولم يعد منها حتى حادث مقتل باهلو.

وعن موقف طغاجار فظنراً للعداء الذى يكنه له "توداجو" نفر من حكم باهلو. وكذلك الحال بالنسبة إلى "صدر الدين" ويرجع سبب ذلك إلى أن منصب الوزارة لم يتيسر له فحقد على باهلو، وصار يعرض "نوروز" عليه، واتفق معه على مؤازرة غازان. كذلك أشار على نوروز بأن يتظاهر بالموافقة على ما يراه باهلو وأتباعه، وأن يبرم معهم عهداً على أى نحو يريدونه.

بعد ذلك شمل باهلو "نوروز" بعطفه. وأخيراً استقر رأى على أن يعقد معه ميثاقاً يتعهد بموجبه بأن يرسل إليه غازان مقيماً^(١). وعلى هذا سرح باهلو لنوروز بالعودة، وأخصه بمزيد من الرعاية والتكريم. كذلك فوضت إمارة يزد من قبل باهلو إلى "سلطان شاه" نجل نوروز، وحررت له حوالة على يزد بعشرة آلاف دينار.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م أعادوا نوروز وتوقيتمور والرسل الآخرين. وفى اليوم التالى عاد ايلجيداي الذى كان يتعقب غازان. ثم لوى باهلو العنان، وسار صوب "سوغورلوق" وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب نزل فى موطنه الكبير يسوغورلوق. والسلام.

(١) يقول بيرس الفوندار فى كتابه زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩، ص ٢٨٨ - ٢٨٩، تحقيق د. زبيدة محمد عطا للمملكة العربية السعودية، بدون تاريخ: "لا أستوى نوروز من الأشراف الذين استسلموا، علم لغازان بأمرهم، فنجسهم لئسوا من خراسان، وبلغ باهلو خبره فلوجس حيلة منه، وذكر ذلك لنوروز، فقال له: أنا أكتفيك أمره، وأدفع عنك خبره، وحتى وجهتى إليه نبت عنك حزيت، وفرقت جماعته وأرسلته إليك مربوطاً، فاستحلفه أنه لا يكون عهده إذا فصل من عنده ثم سرجه فأسر إلى خراسان، وأخبر لغازان بكل ما كان وعرجاً مشاً لتقصده باهلو. وساراً طالبين الأردو. وأرسل نوروز إليه لندرك مربوطاً فى عدل. وقال: تمم وقيمت بما قلت لك، وأرسلت لغازان إليك مربوطاً بالوثاق، ولم أغير ما وقع به لثباتك. غضب باهلو لرسالة، وتبين له سكره به من سقائه". انظر أيضاً الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين وأسرته حولاًكو خان) ص ٢٢٨.

مكاتبه

انشرح الصدر المبارك لسلطان الإسلام غازان بنور الإيمان واعتنقه الإسلام هو والأمرء بحضور الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بن [] الجويني ذاعت بركته

عندما يكون الله تعالى وتقدس قد أراد في أزل الأزال أن يخلق عبداً سعيداً، ويختصه بأنواع الشأيد، يجعل قابلية السعادة [ص ٢٩٥] في طينته وجهته مغمورة ومركزة. وإن الألفاظ الدرية النبوية الدالة على تحقيق هذا المعنى، وتصديق هذه الدعوى لدليل واضح وبرهان ساطع. "السعيد من سعد في بطن أمه"^(١). وبعد ذلك يربيه مربي العناية الربانية في مهد التربية بيد العناية، ويوصله بالتصريح إلى مدارج الكمال، ويرشده بمرور الشهور إلى النظر في حقائق الأمور حتى يتأمل في أحوال الصور والمعاني، ويطلع بذلك على حقيقة كل شيء، وبطلانه وتحول آثار سعادته من القوة إلى الفعل بفضل ذلك التدبر والتفكير ويتحقق ظهور كل ما تقتضيه سر الحكمة الإلهية القائمة عليه إرادة تلك السعادة، وفقاً لنص القرآن الكريم: ﴿وكان أمر الله فدرًا مقدورًا﴾^(٢).

وبموجب هذه المقدمات، فإنه لما انتضت عناية ذي الجلال ومشيئة الأزلي أن يتدارك الوهن والفنور اللذين قد تطرقا إلى أطراف نللة الإسلام بتغلب الشهور والأعوام، وتعاقب الليالي والأيام على يد أحد خواص العباد الذي يتولى حكم الأمصار والبلاد. لئلك جعل ذات صفات غازان الملائكية مستعدة لتبض أنوار الهداية والإلهام الرباني.

(١) أخرجه البيهقي في المدخل والخرز في مسنده عن أبي هريرة. وجاء على هذا النحو: "السعيد من سعد في بطن أمه وقضى من خلق في بطن أمه". وسنده صحيح. وأخرجه الطبراني في الصغير مفسراً على "السعيد من سعد في بطن أمه" (كشف الحفاء ومزيل الإلهاس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس، تكليف إسماعيل بن محمد السجستاني الجراسي، ج ١، ص ٥٤٨، طب بطون تاريخ).

(٢) الآية بأصلها ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله فدرًا مقدورًا﴾. (سورة الأحزاب ليا ٢٨).

ولما كان في أوائل طقوله يترى في رعاية جده الأعظم أبانخاين وكان ميالاً إلى طريقة الكهنة البوذيين، ومعتقداً معتقداتهم، عهد به إلى واحد أو اثنين من كبار الكهنة، وكلفهما بأن يجدا في تعليمه إلى أقصى حد، وحثه على اقتباس مراسم طريقتيهما. وعلى هذا كانا بلازماته. ودالماً كانا يواظبان على ترغيبه في تلك الملة.

ولكن الأمير النجل لفرط كياسته ودهائه وفضته ذهنه وذكائه اطلع - في وقت تصير على عيوب تلك الطريقة "عجبرها وبجرها"^(١)، ووقف على غوامض و دقائق أقوال تلك الطائفة وأفعالها وحاز درجة الكمال؛ بحيث إنه صار متمسكاً إلى درجة كبيرة في الطريقة البوذية^(٢).

غير أنه بتأثير العناية الأزلية، صار ينظر بفكره الثاقب [ص ٢٩٩] ورأيه الصائب إلى أسرار البوذية. كما كان يتأمل حقيقة الأديان والمثل؛ فسطمت ولمعت أشعة أنوار الهداية الحميدة على ضميره المنير، وذلك بسبب فيض الإلهام الإلهي، وصار يظهر في خاطره العاطر الليل إلى هذه الملة الصحيحة.

ولكنه نظراً لشمكته وتثبته، ظل سائرًا على تلك الطريقة البوذية. وكان في هذا المجال متمسكاً وثابت القدم. وبسبب غلوه في تلك العقيدة كُفم معابد عالية للأصنام في "مجبوشان" بخراسان. وكان يؤدي طقوسها بصورة جعلت جميع اللامات والرهبان متعجبين مندهشين من تلك الرياضات والشقائق. ومع هذا كان يجتأ إلى أقصى حد في البحث عن أسرار الحق، وتحقيق طرق الصواب. إلى أن اجتمعوا يابلوا وكان الأمراء الحاضرون يرمون العهد والميثاق؛ فالسلمون منهم كانوا يقسمون بالقرآن الكريم، على حين أن المنقول كانوا يقسمون بالذهب.

ولقد اغتم نوروز هذه الفرصة، فعرض على غازان بقوله: ماذا يحدث لو يقوى السلطان ملاذ العالم الدين الإسلامي باعتناقه الإسلام والإيمان به؟ فرد عليه غازان بقوله: إن هذه

(١) حُجْر وَجْر: يقال حَجْرَهُ وَجَرَهُ أي ذَكَرَ عِيْبَهُ وَلَمَرَهُ كُلَّهُ مَا أَعْيَى مِنْهُ وَسَا لَبَدَى. (المصمم قوسيط: ج ٢ ص ٥٨٥).

(٢) انظر دكتور طبرين يالتي (إسلامي منشور): دين ودولت در إيران عهد منور، جلد دوم، حكومت إلهخاني: نرد میان دوفرهنگ، چاپ اول، ص ٤٤١ وما بعدها، تهران ١٣٧١ هـ ش.

الفكرة تجول تخاطري منذ زمن. عندئذ أخرج نوروز قطعة من الدمل المصقول الناعم، وركب على ركبتيه وقال: "ولو أنه ليس للعبد سبيل إلى هذه الجرعة؛ بحيث يقدم هدايا لأبناء الملوك. ولكي أطمع في أن يتعطف السلطان على عبده، فيحفظ بهذه الهدية حين عودتي من مهنتي ووصولي إلى الحضرة".

فلما قدم نوروز وبقيّة الأمراء من لندن باهلو دون أن ينجزوا مهنتهم غضب السلطان وصار يفكر في تدارك الأمر. وهنا طرح نوروز تلك القضية مرة ثانية بحضور الشيخ زاده العظيم صدر الدين إبراهيم ابن قطب الأولياء الشيخ سعد الدين حمويه - أعزه الله وقدهس نفسه - وكان بلازم السلطان في أغلب الأوقات، فيتمنصر منه عن الدين الإسلامي وحقائقه، ويتباحث معه في هذا الشأن، فيشرح صدره للإسلام^(١). ولقد كان نزول السكنية على صدره المبارك يقوى سطوع أنوار الإيمان في ضميره، فيستولى عليه إمداد الهداية، فقال: حقاً إن الإسلام [ص ٢٩٧] دين متين ومبين للغاية. ويحتوى على كل الفوائد الدينية. وإن معجزات - الرسول عليه الصلاة والسلام - مؤثرة في القلوب وباهرة وعلامات صحتها - على صفحات النهر واضحة وظاهرة. ولا شك أن المواظبة على أداء الترائض والواجبات والتواقل تؤدي إلى الوصول إلى الحق. ولما عبادة الأصنام فإنها عديمة الجدوى، وبعيدة كل البعد عن العقل والعلم. وعند أصحاب الرأي والكفاية يكون وضع الجبهة على الأرض أمام الجماد محض جهالة وحمق، ويبدو أيضاً - من وجهة نظر الحق - أمراً مكروهاً أمام الإنسان الذي هو سيد الروح والعقل. ولا يوجد أي إنسان كامل مرضى أن يضع جبهته على الأرض أمام الصنم. وعلى وجه الصدق، فإن صورة الصنم تليق بعتبة الباب، يطرؤها الناس بأقدامهم دون مشقة. ثم إن اتفاق كافة الناس على الإسلام وإنكار عبادة الأوثان، أمر مقطوع به، وليس فيه مجال للتأويل.

وصفوة القول فإن غازان خان نطق بكلمة التوحيد في أوائل شعبان سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بحضور "الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بن حمويه"^(٢)، ومعه كافة الأمراء. وبهنا

(١) الآية القرآنية: ﴿من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كلما يعتد به السيء﴾ كلفك جعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴿سورة الأنعام، آية ١٢٥﴾.

(٢) هو الشيخ المصري فرزند الإمام الجليل صدر الدين أبو الجاهع إبراهيم بن الشيخ سعد الدين محمد بن المؤيد بن أبي بكر بن حمويه الجوهري الشافعي. ولد سنة ٦٤٤هـ في أمل بطبرستان، وتعلم على أكثر علماء عصره. وقد =

صار الجميع مسلمين. ولقد أقيمت الولائم والأفراح، واشتغل الحاضرون بالعبادة. وشمل غازان برعايته جماعة الساعات والأئمة والمشايخ، وأجرى عليهم الإدرات والصدقات. وفيما يتعلق بتعمير المساجد والمدارس والخوانق وأبواب البر، بالغ في إصدار الأحكام المتعلقة بهذه المؤسسات. وعندما حلّ شهر رمضان، صار مشغولاً بالطاعة والعبادة مع طائفة الأئمة والمشايخ.

ولا ينبغي على كافة العقلاء أن إسلام وإيمان سلطان الإسلام غازان خان إنما كان عن صدق وإخلاص، ومبرماً من شواحب الرياء والرعونته، وصالحاً محالفاً؛ إذ إنه لا يتصور أن يكون هناك إجبار وإلزام في اعتناقه الإسلام مع وجود عظمة السلطان وشوكته، وكمال القدرة على إبرام الأمور وتنفيذها. ومن المسلم به أنه في حالة عدم الاحتياج وفقرط الاستثناء لا يمكن أن يكون هناك رياء ومرء. والله الموفق.

رحل في طلب العلم والحديث إلى العديد من البلاد والمدن العربية والإسلامية وفي سنة ٦٧١هـ هـ فرج من إحدى بناك للزوخ الفارسي عطا ملك الجوزي. وعلى يد أسلم السلطان غازان في سنة ٦٩٤هـ ونال حظوة كبيرة في بلاط هذا السلطان. وقد توفي هذا العالم الجليل في سنة ٧٢٢هـ ودفن في "كبر أباد" إحدى قرى جوزين (انظر كتاب شه الأزر في حظ الأزر عن زوفر نزر، تأليف حسين الدين أبي القاسم جند شيرازي، تصحيح وحشيشة محمد زرويني وحماس إسبالي، ص ٢٧١ - ٢٧٢، حاشية ٧٤، طهران ١٣٢٨هـ ش شهرى الإسلامي، ص ٢٥٠، ٢٥١، حاشية ٣٦).

حكاية

توجه الرمايات المباركة لسلطان الإسلام إلى بايندو للمرة الثانية وخضوع أمرائه

بعد أن نطق غازان بكلمة التوحيد، وتبعه جمهور الأمراء [ص ٢٩٨] وأعلنوا إسلامهم، وصاروا مشغولين بالعبادة، قدم رسولاً بايندو: المدعو "قلغ شاه"^(١)، وشيخ المشايخ "محمود"، فتحلنا عن كل أنواع الكلام عنه وسمنه. وقد اختتم الشيخ محمود الفرصة وعرض كلام الأمراء الذين في معية بايندو وقلوبهم مع غازان، وأبلغ رسالة كل منهم، وأخذ عليها الجواب عتقاً بالتحتم النهي. وفي اليوم الثالث أذن غازان للرسولين بالإنصراف. ولما عاد الشيخ محمود، وأبلغ تلك الجماعة الإجابة المنجزة بالتحتم النهي عقدوا النية على نصره سلطان الإسلام، وانفتحت كلمتهم على الإخلاص له.

كذلك لأن "صدر الدين الزنجاني" لم يبلغ غايته في عهد بايندو وذلك بسبب إسناد منصب الوزارة لجمال الدين الدمجرتي، صار هو الآخر يمرض طفاجار على المخالفة والشاؤفة. ولما كان بايندو وأتباعه يتشون مكائدهم فشمطوه برعايتهم الفاسدة، ومنحوه الفرمان والبايزة، وعينوه حاكماً على بلاد الروم. فلما اجتاز حدود "هشترود"^(٢) تفرغ بإحدى الحجج، وأرسل إلى تيريز أهله وأتباعه مع الأمير "باغلاكو" الذي كان في صحبته. ثم ذهب بنفسه إلى "سراو" بحجة أنه يريد قرصاً، وعرج من ذلك الطريق على "جبلان". ومن سوغورلوق عقد عزمه على التوجه إلى قزوین لإخطار أخيه قطب الدين بطلب الفكرة فخرج هو الآخر من المدينة متفرعاً بإحدى الحجج. ثم توجه إلى جبلان، وانضم إلى أخيه وذهبا معاً إلى سلطان الإسلام غازان خان. وفي فيروزكوه تشرفنا بقبيل الأرض بين يدي غازان، وبمضور الأمير نوروز الذي كان قد قدم من خراسان منذ وقت قريب. وقد ذكر الأعران أمراً مرضية نقلاً عن لسان طفاجار.

(١) "قلغ شاه" هنا محض اسم يحمل نفس اسم "قلغ شاه" أحد أمراء غازان ولقد قرأته للسلمة.

(٢) هشترود (الأنهار الشمالية) خرجها الجبال شرق مرانته ذات الشين وثلاثين طناً (بلدان الحلاله الشرقية، ص ٢٠٤).

ولما كان نوروز قد شمل برعايته جنوده، وهياهم للقتال، أمر غازان بمشد كافة الجيوش. وقد جرت تلك الأحوال في شهر شوال. ولأن باهلو كان خائفاً حلقاً، أرسل "قتلغ شاه" مرة أخرى بالثوال موجهة؛ غير أن سلطان الإسلام [ص ٢٢٩] - بفرط كياسته - عرف أن الأمر لا يخلو من كيد ومكر؛ فأمر بتحصينه، وبضربه بالمعصي والمراوات وبهذا تفحص منه حقيقة الأحوال. إذ راح يشرح كل أحوال باهلو وأمرائه وجنوده وتفكيرهم في إثارة الدسائس والفتن وتلئس العيوب. ثم أضاف قائلاً: لقد أرسلوني حتى أعلم إن كنتم تروون الرخف لو لا. فأمر غازان بتقييده وسجنه في قلعة استونايند بهلرود.

وفي يوم الجمعة منتصف شوال توجه غازان باليمن والبركة صوب الري، وسار الأميران نوروز وقتلغ شاه في المقدمة، وصار نوروز جريئاً على عادته يذبح الأبناء عن كثرة جنود غازان. وعندما وصل سلطان الإسلام إلى "بهلرود"، فر من باهلو الأمير جويان وقورومشى جوركان بن عيناك، وانضما إلى الحضرة، فر سلطان الإسلام سروراً شديداً بوصولهما، واعتبر ذلك فائلاً ميموناً، وأكرمهما إكراماً بالما، ومنح كلا منهما قباء وقنسوة ومنطقة (جزائراً) مرصعة. ثم تحرك من هناك، ونزل عند وادي نهر "قروه" وأقام عدة أيام. وقد انتهز الأميران جويان وقورومشى هذه الفرصة فقالا: لو جمعطف علينا سلطان الإسلام فسوف نرحل ونسير في المقشعة مع الأمرين الكبيرين نوروز وقتلغ شاه، فأذن لهما بذلك وانضما إليهما.

بعد ذلك ترك سلطان الإسلام غازان خان زوجته بولوغان الخراسانية هناك، وسار عقب الأمراء. وعندما وصل إلى آمد خوجه قزوين، قدم "لرغا بيتكجي" أخو بوغداي احتجاجي من قبل نوروز، وأعلن أن الأمرين طغابار وبوغداي انفصلا عن باهلو وأنهما يقصدان حضرة سلطان الإسلام. وقد انضما إلى نوروز. ثم سار السلطان من هناك عن طريق "سجاس" حيث وصل إلى خدمته الأمير الشجل خرينده والأمير النجل "البلدار". وعندما قدم غازان إلى بهستان على ضفاف "سپهرود"، وصل إلى الحضرة الأمراء دولاداي ابداجي والشمور بن هنتوقور مع طائفة أخرى. ثم رحل من هناك، ونزل "بيوز آغاج" في انتظار [ص ٢٠٠] نوروز وقتلغ شاه اللذين خرجا إلى "نخجوان" و"لرس" يتعقبان باهلو وتوكمال.

وبعد ذلك قدم غازان إلى أوجان، ووصل من قبل نوروز وقلع شاه الأمير "باينجار" يعلن أن يابندو قد أسر، وسبق من ناحية غنجان إلى تبريز. وهو يقول: أريد أن أتحدث إلى السلطان بكلمة أو كلمتين. فما هو الرأي؟ غير أن السلطان قد عرف بفراسته أنه ليس لدى يابندو كلام مفيد بقوله، وإنما يبحث عن حجة يتلذذ بها. وعلى هذا صدر الأمر بعدم إحضاره إلى الحضرة والخلع منه هناك. وكاتبوا قد أخرجوه من تبريز، ووصلوا به إلى "باغ بيكش" حيث أنهوا حياته في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ١٢٩٤هـ / ١٢٩٤م.

وعلى أثر ذلك، نفذ حكم المرسوم الذي يقضى بتخريب كل معابد اليهوديين ودور الأصنام والكنائس والبيع في دار الملك تبريز وبغداد وسائر بلاد الإسلام. وقد شكر المسلمون الله تعالى شكراً كثيراً على هذا النصح المبين؛ لأن أهل الأزمان السالفة لم ينالوا تلك الأمانة.

بعد ذلك عقد سلطان الإسلام العزم على السير إلى دار الملك تبريز، فاستقبله صدر الدين الزنجاني الذي كان قد ذهب إلى المدينة لتدبير المصالح، ثم سار حتى بلغ "كندرو"، وكان يريد أن يطلق الناس على منزله وجاهه، فصار يتمايل ويتفطرس إلى حد الوقاحة. وكان يتحدث وهو على سهوة جواده. وفي ذلك اليوم كانت النتيجة للأمر مولاي، فقال لصدر الدين الزنجاني: ليس هذا السلوك هو سبيلنا فلا تتجاسر، والزم حدك". ولكن صدر الدين لم يعأ به؛ فضربه عدة مرات على رأسه، وأقصاه عنه. ولهذا السبب ولأسباب أخرى انحط شأن صدر الدين.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذي القعدة نزل سلطان الإسلام في عظمة تامة بظاهر تبريز في السراي المبارك "بشم".

وبموجب فرمان أحمد الهجيتاي توشجي دون محاكمة، وأعطى السلطان بولوغان الحراسانية ما يملكه. وبعد ذلك وصل نوروز وقلع شاه وقدمت من "سوقورلوق" بولوغان خاتون والخواتين الأخريات. وفي جوستق المادلية أقيمت التولائم والاحتفالات، وحقق مع فتعقبيل وجيجك، وقتل تونغقبال قصاصاً لدم آتوقا [ص ٣٠٩] ثم أسرع غازان من هناك إلى "قراتيه"، وضرب جيجال بالفرولة وأطلق سراح توداجو، وأرسل الأمير "نورين"

على رأس جيش إلى خراسان ومازندران، ثم عاد إلى تبريز حيث وجه هذا النداء ومضمونه أن على الجميع أن يراعوا مسلكهم، ولا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يسيروا الفتنه والفساد، ولا يعطوا دافعاً ذهبياً قط لأى مخلوق بدون حوالة محتومة بالختم الذهبى.

بذلك نال العالم والعالمين بفضل عدل سلطان الإسلام وميامن إنصافه الثبته والتنظام والراحة التامة، ولجعت ألسنة القريب والبعيد والترك والتازيك^(١) بالدعاء للدولة الممتدة أمامها، وتصبيراً عن الشكر لئلا هذه الموهبة الفضة قدموا صدقات لا حد لها. ومن وراء حجاب الغيب، صاح هاتف الإقبال وقال:

(بيت فارسى فى الأصل ترجمته)

كان ملك العالم قد بقى بغير سلطان ورئس

أما الآن فجاء سلطان جدير بأن يزين رأسه

بعد ذلك أرسل السلطان من تبريز الأمير مولاي للإمارة والحكم فى ديار بكر وديار ربيعة، ورعى الأمير نوروز رعاية تامة، وأصدر مرسوماً ينص على أن تفوض إليه الوزارة لجميع الرعايا. وهو يقيم الآن فى تبريز، ويصرف مصالح الناس ثم يجىء عقب ذلك إلى أركان.

وفى يوم الإثنين ٦ من ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م تحرك غازان خان من دار الملك تبريز قاصداً مسمى "أران". وفى ناحية تبريز تزوج من بولوغان خاتون زوجة شرعياً رغم أنها كانت ضجيجة والده أرغون خان. ولكن حيث أن الزواج كان قد تم مع اختلاف الديانة فى ذلك الوقت، وأن السلطان والخاتون فى الوقت الحاضر، كلاهما على دين الإسلام، فإن هذا النكاح يعتبر نكاحاً صحيحاً شرعياً^(٢).

(١) كان الإيرانيون يقولون من أطلق هذه الكلمة على العرب، ثم انتقلت إلى الصينيين، ويحصل أن تكون قد وصلت إلى الترك. ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت عما كانت فى القرن الحادى عشر الميلادى كما كانت تطلق على غير العرب وربما على الإيرانيين. ولغلب الظن أن الأتراك أطلقوها على كل المسلمين إلى الديانة الإسلامية. ثم بعد ذلك على الإيرانيين خاصة، لأن الأتراك كانوا يهرونهم أكثر من غيرهم من المسلمين. (انظر: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، تأليف المستشرق الروسى و. بارتولد، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان، ص ٣٨، القاهرة ١٩٥٨م).

(٢) بخصوص زواج غازان من بولوغان خاتون يقول ابن حجر العسقلانى عن غازان: "قال أسلم قبل له: إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء. وكان قد استضاف نساء أبيه إلى نسائه. وكان أبوهن إليه بولوغان خاتون، وهى أكبره"

وقد زف عليها باليمن والسعادة. وجرياً على المعهود والمعاد أتيحت الولاكم والأفراح، وأظهروا البهاج والسرور. ثم خرجوا إلى طريق "مرويشكين"، واتجهوا إلى موغان، ونزل الموكب عند (أبو بكر آباد) بموضع "بول خسرو".

وبعد أسبوعين نال نوروز الشرف بالحضرة، واجتمع في "قرباغ" من أرباب كافة الخوئين والأمراء والأنجال والأمراء وأركان الدولة وأعيان الحضرة، واتفقوا جميعاً على تولية سلطان الإسلام الحكيم بلا رياء ونفاق، وحرروا مهنهم بقراراً مكتوباً شاهداً على ذلك. وقد اختاروا لجلوسه المبارك [ص ٣٠٢] يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثالث والعشرين من شهر طوقسونج آي، ثوبين بيل، وأجلسوا سلطان الإسلام على عرش الخانية بالطلع للمعبد. وقد ركب كافة الخوئين والأمراء الأنجال والأمراء كل في مكانه وأداروا الكئوس، وهنأوا العالم بجلوسه المبارك وقالوا:

(بيت من الشعر الفارسي في الأصل ترجمته)

اسع بنفسك واجتهد لأن الروح العالمية

مرتبطة بتلك الروح العزيرة التي تملكها أنت

حسباً إليه، فسيتم أن يرتد عن الإسلاماً فقال له بعض خواصه: إن أبناك كان كسافراً ولم تكن بلدان معه في عقد نكاح صحيح، إننا كان مسلمةً بها، فاعتقدت عنها، فإنها مثل لك فصل. ولولا ذلك لارتد عن الإسلام. واستحسن تلك من الذي تكلم به فسنه الصفحة. (القدر الكائن ج ٣، ص ٢١٢، حد ليد القدر، ١٣٥٠هـ).

مكايبة

بدء تنظيم شؤون الجيش والبلاد بأمر سلطان الإسلام بعد جلوسه المبارك

بعد إقامة مراسم الأفراح والأنس، اتجه رأي غازان - الذي هو زينة للممالك - إلى ضبط وتنظيم شؤون المملكة. وفي الأربعماء سلخ ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، أرسل الأمير طغاجار ليتولى إمارة الروم وحماتها، وذلك لأنه رجل سريع القلب. ومن المصلحة أن يكون بعيداً عن الحضرة. وفي يوم الجمعة سلخ المحرم سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم الرسل من خراسان، وأخبروا أن الأميرين "دوا" و"ساربان" ابني "قاهنو" انتهزا فرصة غياب الرامات السلطانية، ودخلا خراسان ومازندران، وشرعا في النهب والسلب، فشاور سلطان الإسلام مع الأمراء، واستقر الرأي على أن يسير الأميران سوكا ونوروز للقضاء عليهما. غير أن سوكا ذهب إلى دياره. ومهما حاولوا استدعاه كان لا يستجيب متعللاً بشئ الأعذار. وأخيراً أرسل سلطان الإسلام "هورقداق" لاستدعاه. ونحت وطأة السكر تفوه بعبدة كلمات مشرة للفتنة؛ فأولصوا تلك الحكاية إلى السمع الأشرف؛ غير أن غازان لم يلتفت إلى ذلك لفرط ثباته ووقاره [ص ٣٠٣] وعندما وصل سوكا إلى الحضرة شمله غازان برعايته التامة وعينه على خراسان، وسير ٣٠٠ من لمرء التومان "بارولا" بن الخواجه بن يسور نوبان من قبيلة أولقونوت، وكذلك أرسلان أغول من أحقاد "جوجي قسار"، وأرسل في الطلبة نوروز وهورقداق في خدمة الأمير طاجو أغول، وعين للنهاية حاجي نارين أخا نوروز وساتلمش من أتباعه المقدسي.

وفي يوم الجمعة ٢١ من صفر غادر نوروز وهورقداق المسكر. وفي يوم الإثنين ٢٤ من صفر سارا عن طريق العراق. وفضأة وصل نيا يفيد أن طرقاي گوركان أمير أوبهات الذي كان في ديار بكر، وتلك الناحية عزم على المسير إلى ديار الشام مع الأميرين يسوتاي بن طاشنكوتوشجي وكوكتاي بهادر مع أهلهم ومنتاعهم وأتباعهم من كتائب الأوبهات فركب الأمير مولاي لمنهم، لكنهم هزموه ورحلوا. وفي آخر ربيع الأول، وصل خير يفيد بأن "هانداز" هرب صبح ثلاثائة فارس، فسار إليه شادي بن بوقور وأبته بك أخو أشك

توغلى مع ثلاثة آلاف رجل، وحاربوه وانتصروا عليه. وقد ظل محتضياً مدة في منطقة أوزن الروم. وفي النهاية اعتقلوه في إحدى القرى وقتله إقبال بن لورغوتو بن اهلکای نويان. وكذلك في يوم الخميس العشرين من رجب قتل يسوتای بن طلمشمنكو قوشجى الذى كان قد أثار الفتن في ديار بكر. وفي السادس من ربيع الآخر أعدم بولارغى قتای شكورجى الذى كان متضامناً في آخر عهد أرغون مع الأمراء الثيرين للفتنة، وحتى يوم مقتله كان له دخل في كل ما حدث من فلاقل. والسلام.

حكاية

شروع سوکا وبارولا فی المخالفة والتمرد ووضوح ذلك وتوجه الجيش للقضاء عليهما ومآل ذلك الحال

لما سار سوکا وبارولا من أربان تشاورا كثيرا مع الجنود، فقالوا جميعاً: إنهم يرسلوننا إلى خراسان كي يتفلسوا نساءنا وأطفالنا ويوزعوهم على جنود خراسان. وعقب التشاور اتفقوا على أن يتخلصوا من نوروز أولاً. وبعد ذلك يتفلسموا للمسكرات، ثم يجلسوا سوکا على العرش. وقد جرى هنا التدبير في موضع "كره رود" الذي يسمونه "تركان موران". فلما علم نوروز بذلك المتأامرة داهم سوکا وقت الضحى، وقتل الطرفان قتالاً شديداً فقتل "بارولا" أولاً في تلك المعركة وهرب سوکا، واتجه إلى خرقان^(١) وسأوه^(٢)، فتعقبه هورقداق مع كوكبة من الفرسان، وتم اعتقاله في ناحية خرقان، ثم جاءوا به إلى موضع "سركوى رى". فقال هورقداق لساتى بن لاوداى الذى كان متأمراً معهم: "قتل أنت سوکا". فذهب إلى السرادق كي يقطه جريماً على العادة المثبته في قتل أبناء الملوك. ولكن سوكاى طعن ساتى بدمية في بطنه، فأرداه قتيلاً. عندئذ دخل المدعو باتيمور من أتباع هورقداق، فانتزع المديحة من يده وأجهز عليه.

في ذلك الوقت كان سلطان الإسلام قد اعتزم صيد نوع من الأسماك اسمه "أقى باقى" من موضع "أبى بكر آباد". وفي الثامن من ربيع الآخره قدم "سائلمش كلجى" من قبل نوروز وأبلغ غازان وهو في موضع الصيد نبأ صرد سوكا. وفي تلك اللحظة عاد

(١) خرقان: تابع على بعد أربعة فراسخ من بسطام في الطريق القاصب إلى استراباد. وكان لها شأن كبير في الثامن السابعة والثامنة (ثلاثة عشرة والرابعة عشرة) وهو أيضاً طيب وملاها كثير. ولها قبر قول لى الحسن المرقاني (بلدان الحلاله الشرقية، ص ١٠٦).

(٢) سأوه: مدينة حسنة بين الرى وهمدان، ويقربها مدينة يقال لها توه وسأوه سنة شافعية، ونسبة إليها سزوى وساجى. أما توه فلعليها شعبة إباضية، وبينها نحو فرسخين. وكان بها دار كتب كبيرة. وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم (معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٩).

سلطان الإسلام، ونزل على حافة سد "متكو تيمور". [ص ٣٠٥] وكان في حضرة غازان الأميران قتلغ شاه وساتلمش. وفي الصباح أصدر غازان قراراً يقضى باعتقال ابن بن قونقورتاي وقورمشی أخي بارولا إذ كان لما دخل في المؤامرة لثني دبرها سوکا. وبعد المحاكمة قتل ابن تيمور و"جرمك مغول" الذي كان أميراً على معسكره وكذلك قورمشی.

وقد اتفق الأمراء قتلغ شاه وچویان وساتلمش وسوتای وإيلباسمیش على تعبئة الجيوش. وفي أثناء ذلك وصل ياساميش أمير مولاييد من خراسان، وأخبر أن "نوروز" قتل سوکا^(١) وبارولا، وأن الأمير "تورین" اعتقل جيجاك ودولادای في خراسان، وأن الأمور تسير وفق المراد، وهزم أغلب طائفة الأمراء. لما الجماعة التي بقيت فقد نصبت أرسلان أغول رئيساً لها، ثم قدموا إلى يلسور^(٢)، ومن هناك ساروا إلى جهة ساری للتصورية، وقرية بائی (دنه بائی)، وأقاموا بهما. وفي الحال كلف سلطان الإسلام الأمراء چویان وسولاميش وقورمشی وطفريليجه وتانياق وإيلباسميش بالسير بجندهم للتضاء عليهم، فالتحموا في منطقة ييلقان^(٣)، وخاضوا حرباً حامية. وكان مع أرسلان أغول من الأمراء تولك ابن عم أوجان الذي كان أمير السلاح، وأبنة بك بن أشك توغلي من الجلائر وغازان بن طانجو بهادر وموسی ترخان وسركيس بن نارين احمد. وكانت هم الغلبة في ذلك اليوم. وقد أصيب من جنودنا طفريلجه بجرح بليغ؛ كاد يسقطه على الأرض، فرعاه قورمشی بن عليشاق (ص ٣٠٦) ثم سار هورقوداي وباريم مع ألفي جندي لمد جيشنا، ووقف الجيشان كل في مواجهة الآخر؛ غير أن جنود الأعداء استسلموا وأعلنوا خضوعهم دون قتال، وبذلك لحقت الهزيمة بأمرائهم.

بعد ذلك عاد هورقوداي، واعتقل سركيس، وأحضره معه.

(١) ذكر التورخ أن الذي قتل سوکا هو تيمور أحد أمراء هورقوداي.

(٢) يلسور: تقع في سهل موغان. يقال إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى الأمير "يله سولر" الذي ولاء بنو بومه عليها، ومعنى اسمه "القناروس الضئيل". (بلقان الحلافة الشرقية، ص ٢١٠).

(٣) ييلقان: مدينة قرب الدربند التي يقال له باب الأيواب. تعد في لرمينية الكبرى قرية من شروان. وقد عدتها قوم من أصل أران (مجموع البلدان، ج ١، ص ٤٢٢).

كذلك قام الأمراء الآخرون بتعقب المهزمين، واعتقلوا "تولك"، وأحضروه معهم، ثم أعدموه مع سركيس. وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م اعتقلوا أرسلان أغول، وأحضروه معهم ثم أعدموه. وعقب ذلك غلصوا أيضاً من غازان بن طاجور بهادر.

وفي تلك الأيام اعتقل صدر الدين الزنجاني، وطالبوه بالأموال التي كان قد سجلها عليه جمال الدين الدستجرداني^(١)، ولكن حتمه بولوغان خاتون، ونجا بشفاعتها. ثم انتقل إلى معسكر فورتول. وفي يوم الخميس السابع من جمادى الآخرة، عزم غازان على زيارة الشيخ إبراهيم الزاهد. وبعد يومين قدم إلى المعسكر، وأرسل الأمير "هورقوداي" ليكون أميراً على إقليم فارس، وعهد إلى "باسايشي" بتصرف الشؤون وجمع الأموال.

وفي تلك السنة وقعت حرب بين توتقا ملك "أولوس" التيجاق ونوقاي بن تاتار، فقتل نوقاي، وتفرق أتباعه، فقلعت إلى حضرة سلطان الإسلام "جيهي خاتون" زوجة نوقاي و"توري" ابنه الأصغر، وطلبوا المساعدة والمدد قصاصاً لدم نوقاي، فصار سلطان الإسلام يعطيهم خاطرهما بلفظه، ويهدئ من روعهما. وفي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من رجب زوج سلطان الإسلام أخته "تولجتي مور" [ص ٣٠٧] من الأمير قتلغ شاه، وكانت قبل ذلك زوجة لتوكال.

ولما كان وجود "طفاجار" أساساً للفتن والفساد، وكان سلطان الإسلام يرغب في أن يقضى نهائياً على مصادر الفتن، أرسل الأمير "خرمنجى" في ذلك الشتاء إلى الروم كى يتفق مع باليو وعرب وأمراء جيش الروم على الخلاص من طفاجار. وعليهم أن يبادروا أولاً بتسليمه (المرسوم) الذى يتضمن استمالته والتودد إليه، ثم يتجهزون الفرصة لقتله فى السر حسب الأمر الصادر إليهم. ومع أن سلطان الإسلام لم يكن يميل إلى القضاء عليه؛ إلا أن مصلحة الملك وإدارة شؤونه حتمت عليه اتخاذ هذا القرار. وفى تلك القضية قال السلطان غازان للمقرئين إليه: حدث فى قديم الأيام فى ولاية الخطا أن ملكين تجارياً فانهزم أحدهما، وتفرقت جنوده، وصار الجتود المتصورون يتعقبون المهزمين عدة أيام، حتى أدرك أحد الأمراء ذلك الملك المهزم. ولما كان هذا الملك فى غاية المجز والضعف أشفق عليه

(١) انظر تفضيلات فى كتاب طرق الإسلامى ص ٢٢٠ - ٢٢١.

الأمير، وأراد أن يخلصه، فصاحه حتى وصل به إلى بر في تلك المنطقة، وقال له: انزل في هذه البر حتى لا يراك جنودنا. ولما وصلت طائفة الجند للتصويرين لم يستطيعوا العثور عليه لأن المنطقة كانت رملية، وثارت للرياح فمحت آثار الأقدام. فقال لهم ذلك الأمير: "إن الطريق ليس واضحاً، ولا يعلم إلى أية ناحية ذهب الملك وقد يمضي في طريق، ونحن نسلك مائة طريق. وإذا فكيف يمكن العثور عليه؟... الأولى أن نعود. فرجعوا جميعاً. ثم خرج ذلك الملك من البر، وعاد إلى مملكته، وجمع جيشاً بالتصريح والثاني وعاد إلى شن الحرب مرة أخرى، وانتصر على ذلك الملك الذي كان قد تغلب عليه في المرة السابقة وقتله واستولى على مملكته، وعص الأمير الذي كان سبب نجاته - بأتواع الرعاية والتكريم وصار مقرباً إليه للغاية، وفوض إليه الإمارة الكبرى والنيابة المطلقة.

وذات يوم قال أحد الأمراء للملك: إن هذا الشخص تكرر لحقوق مليكه، ولم يكن وفياً له، وكان هو السبب في هلاكه ووصولك إلى الحكم. فكيف يمكن تركه حياً؟ إنه عن قريب سوف يفكر في الغدر بك. [ص ٣٠٨] وكان الملك غاية في الذكاء، فاستمع لذلك الكلام، وأشار بقتل متقدمه؛ فصرخ ذلك الأمير قاتلاً: إن لي عليك حقوق إنقاذك والحفاظ على حياتك. فبكى الملك، وقال: إن الحق معك، وأنا لا أرضى عن قتلك مطلقاً. ولكن لا مفر من رعاية مصلحة الملك والحكم. ومن اللازم أن تقتل. ثم قتله وهو يبكي.

وهكذا فإن شأن ضبط الأمور يمر على هذا النمط. ورغم أن قتل شخص من الأشخاص أمر صعب على جلد، فإنه إذا لم تراع السياسة والحزم في المحافظة على القضايا الكلية والجزئية، فإنه لا يمكن تدبير الملك.

وجملة القول أن سلطان الإسلام ركب في أول الربيع من "بيلسوار" قاصداً دار الملك تبريز، ونزل باليمن والبركة في سراي "شم تبريز". وفي السابع والعشرين من رجب قبض على آتته بك، وأحضر إلى تبريز. وفي يوم السبت التاسع والعشرين، قتل في الميدان هناك. وفي يوم الأربعاء الماشر من شعبان وصل الأمير "إلادو" من خراسان، وعرض أحوال ذلك الإقليم كما هي ثم غادر سلطان الإسلام تبريز إلى ناحية "مرغزار صاين" الواقعة بين سراو وأردبيل. وفي يوم الأربعاء السابع عشر من شعبان عقدوا مجلس الشورى (التوريلتاي) في تلك المنطقة، واتخذ المجلس في التاسع عشر. والسلام.

أحوال نورين آقا وكراهية الأمير نوروز آباة

■ اغتال وضع نوروز

كان نورين آقا من قبيلة قيات. وكان بالنسبة إلى غازان شخصاً موثوقاً به محترماً لديه وموضع اعتماده المطلق، ومحرم أسراره. وكانت له سلطة كبيرة في خراسان ومازندران. وكان "أويرتاي" أخو نوروز تائباً له. واعتماداً على عظمة محمد نورين، كان لا يعبأ كثيراً بأويرتاي، فكان هنا يشكوه إلى أخيه نوروزاً فيقول بذلك الكثر والنفور. ثم إن "نوروز" عندما وصل إلى منطقة خراسان [ص ٣٠٩] لوجع سبب تغلب المتمردين وسيطرتهم إلى تقصير نورين، وكان يفتابه بكلمات لاذعة مزعجة في حضور أتباعه وغيايهم. وعندما وصل الاثنان إلى جرجان، كان كل منهما متأثراً من صاحبه. ثم وصل الأمير النجل "طايجو" من طريق "تشيته"، فقال له نوروز مدفوعاً بدافع الغضب والتهور: "لقد أمرت أن أسأل نورين: كيف ترك المتمردين يدخلون هذه البلاد دون اكتراث؟! والآن أسأل هنا السؤال بحضور الأمير طايجو. فتضيق منه الجميع، واستكروا منه هذا الكلام.

وكان أول خلل تطرق إلى وضع نوروز بسبب ذلك العناد واللجاج ثم قدم من هناك إلى خيوشان، واستعرض الجنود. بعد ذلك قدم رسول من الطليعة ينبئ أن المتمردين قد شوهدوا في مرج رادكان (مرغزلر رادكان)، فسار إليهم نوروز للقاء عليهم، ولكن عندما تخصص الأمر اتضح أن الخبر كان كذبة. ثم تشاور مع الأمراء في مشهد طوس قائلاً: "سوف أتحرك إلى مدينة هراة بأربعة آلاف فارس حتى أتف بنفسي على أحوال العصاة. ثم سار على هذا العزم في السابع عشر من رجب، وأرسل غازان الأمير النجل طايجو والأمير نورين إلى رادكان.

وفي يوم الخامس والعشرين من رجب عاد نوروز ونزل في معسكر طايجو، وقال دون أن يعمل عملاً أو يبذل جهداً: سمعت أن زوجتي مريضة، وسوف أذهب إلى حضرة سلطان الإسلام، فاعتصموا أئمتهم بشئون الجيش واعلموا ذلك لحين وصولي. ثم سار على الفور قاصداً أذربيجان، وأعمل شئون خراسان وجيشها. كذلك سار عقب نوروز المذنبون الذين كان السلطان غازان قد أرسلهم معه، ليكونوا في مقدمة الجيش وقت الحرب.

وعندما عاد نوروز، صار جنود خراسان يذيعون إشاعات كل يوم، فتطرقوا إلى هذا السبب إلى حد أنهم رحلوا جميعاً. وكان المدعو "سوم" أمير هزاره^(١) هو أول من هرب مع أربعمائة من رجاله، وعاد إلى حدود أردبيل^(٢) حيث موطنه الأصلي. فلما سمع نوروز في شروهاز خبر فرار "سوم" ورجاله، وكب إلى سرقة دون أن يخبر سلطان الإسلام بذلك وهاجم ديارهم، وأنزول بهم الأضرار وعرضهم للمشقات. [ص ٣١٥] فتأثر سلطان الإسلام بسبب رجوع نوروز، وأرسل إليه رسوياً يقول له: "عد إلى قواعذك". فرد قائلاً: إن زوجتي الأميرة "طوغان" مريضة، فكيف يمكن أن أعود دون أن أراها؟... فكان هذا الامتناع أيضاً سبباً في تغير غازان عليه.

وفي يوم الحادى والعشرين من شعبان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم نوروز إلى حضرة سلطان الإسلام، فاعتصم بالاعزاز والاحترام. ثم جاء سلطان الإسلام إلى "لوجان". وفي يوم الاثنين ٢٩ من شعبان تزوج من "شليل خاتون".

وعندما أحس قطع شاه نوبان والأمراء الآخرون تغير نظرة السلطان إلى نوروز، وتأثره منه، عرضوا عليه قائلين: ليس من المصلحة إرساله إلى خراسان. ومن الواجب التحري عن أحواله؛ إذ إنه من تصرفاته يمكن مشهدة أمارات الفتنة والفساد. غير أن سعة صدر سلطان الإسلام، كانت مثل البحر المحيط لا نهاية له، وحلمه ووقاره تزيد عما يدركه الوصف فقال: مع أن كلامكم صحيح؛ غير أنى لا أستطيع نقض العهد والحث في اليمن.

وفي يوم الأربعاء غرة رمضان عاد نوروز إلى خراسان بناء على أمر غازان، وكان يصاحبه نظام الدين يحيى باعتباره نائباً له. فلما وصل إلى خراسان، كان أبناء "نوقاي بارخوجي" يفتقدون قتله في السر فصاروا لدم أبيهم، فكان نوروز مخالفاً منهم. وخلال هذه الأحداث توفيت "طوغان" زوجة نوروز، وأخذ حاله في التدهور، ولكنه كان يجلد ويجد ويجتهد. وفي الثامن من رمضان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م نزل غازان خان على ضفاف

(١) المقصود قائد كنيا عندما كلف جندي.

(٢) أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان. وهي مدينة كبيرة جداً. وأما بقوت في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م لوجانها تقع في قضاء فسح، وبها عدة أبنار. ولكن من قتراب حذاً لها لا تبت صفناً من الفواكه. فصحا للفول خيرة، وعربوها خراباً تشابه غيرها منها ما عدلت إلى الأذربيجان في صومع. ينسب إليها كثير من فعل العلم في كل من إجماع البلدان، ج ٩، ص ١٤٥ - ١٤٦.

"ناوور حولاً" طرقت تيريزه، حيث شيدت الخنقة والجوسق المبارك. وفي تلك الأيام قدم سلطان "ماردين" وأعدى غازان ملاً وثيراً من النقود والجواهر، ثم عاد مشحولاً بالرعاية والتكريم التام، وبمزيد من الاحتياج. وفي الثالث عشر من شوال قتلوا "حسام الدين لر" في "هشترود". وفي السادس والعشرين كان الاحتفال بهرمس "دوندى" والدة الأفرنك. وفي الثامن من ذي القعدة قتلوا بابهوت بن شيرامون بن جورماغون في "سه كبدان". [ص ٣١١].

بعد ذلك قدم سلطان الإسلام إلى مراغة حيث تفقد المرصد^(١). وقد أقيم الحكم هناك الولائم والاحتفالات. وفي ذلك اليوم عرضوا على غازان الرسالة التي كتبها ايلدار بن قونقورتاي إلى باثو بخرسه على التمسرد والمصيان، فرحل غازان على الفور عائداً إلى المعسكرات. ثم قبض على ايلدار وقتل بعد ثبوت التهمة عليه.

(١) أقام هذا المرصد العالم الفرائسي الفلكي خواجه نصير الدين الطوسي السني محمد بن محمد بن الحسن بأمر هولاءكر خان في مدينة مراغة، وأعدته بأدق الأجهزة المعروفة في زمانه، وألحق به مكتبة كبيرة تحوى ما يزيد على أربع مائة ألف مجلد. وكان هناك علماء في الفلك من الصين يقدرون العمود والتصحيح. إلى جانب المهمة الأساسية التي كان يؤديها هذا المرصد، كان عبارة عن دار للفتاه والملاسة والأطباء، انظر جامع التواريخ، المجلد الثاني - الجزء الأول: تاريخ هولاءكر، الترجمة العربية، ص ٣٠٢ - ٣٠٤ وما بعدها، فوات الفرائد تأليف ابن شاذكر الكشي ج ٢ ص ٣٠٧ وما بعدها، تحقيق محمد محيي الدين عبدالمسيب، القاهرة ١٩٥١م بالسفر لك للطريرزي ج ١ ص ٢٤١ من نسخة ١١٢١م نسخاً تاماً ليلعاشي، تأليف خواجه نصير الدين طوسي، بمشتمه وتطبيقات مدرس رضوى، ص ١٧٥ يست ويك (١٩ - ٢١) من مقدمة المؤلف، تهران ١٣٤٨هـ - ص ١٠٧ تاريخ العلم والمخترعة في الصين، تأليف جوزيف نيغهام، ترجمة غريب جوده، ص ١٢٨، القبة المصرية المشاهير للكاتب، القاهرة ١٩٩٥م.

حكاية

توجه الرهايات السلطانية إلى بغداد، وقتل افراسياب نر وجمال الدين المستجرداني ومولانا عز الدين مظفر الشيرازي وهتدة الأمير النجمل أوجاي

في يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م شركت الرهايات السلطانية من مراغة قاصدةً مشى بغداد، ثم سارت صوب همدان. وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور، وصل نورين أقا من خراسان، فشملة سلطان الإسلام بمطقه ورعايته.

ولما كان بالتو بن تيشي يعمل في ممالك الروم منذ عهد آبا قاخان سيطر هناك سيطرة تامّة؛ خصوصاً بعد أن توفي سمانغار نوبان، وكان ابنه "عرب" لا يزال طفلاً. هذه الأسباب زاد استياد بالتو، واشتد نفوذه. وكلما استدعاه سلطان الإسلام، كان ينتحل الأعذار. وبعد قتل طغان-جار جاوز نفوذه وغطرسته الحد، ولصق به اسم المتمرّد.

وفي شهر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، أبلنوا غازان - في الوقت المناسب، فتوجه الأمير قتلغ شاه إلى الروم بموجب الفرمان مع ثلاثين ألف جندي للقضاء على فتنة بالتو الذي اختبأ في كمين خلف أحد الجبال [ص ٣١٢]. فتعبه الأمير قتلغ شاه مع سولاميش وعرب وهورتاي أنغول وأيشقا الذي كان في المقدمة. فلما وصل إلى ذلك الجبل، خرج بالتو من الكمين. وقد جرح أناس من الطرفين. وعلى الأمر وصل الأمير قتلغ شاه إلى صحراء "مالية"، وهزم بالتو بهجمة واحدة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه "سولاميش" في إثره وعاد إلى مشى أران.

في ذلك الوقت كانت الرهايات السلطانية تقصد بغداد. وعندما عادت إلى "مرج زك" (مرغزار زك) من منطقة همدان، قلد السلطان جمال الدين المستجرداني الوزارة بدلاً من شرف الدين السمناني، وكان ذلك في الثامن من ذي القعدة سنة خمس وتسعين وستمائة. وقد أقام غازان هناك شهراً، وتشرف بلقاء حضرته ملوك "المراتل العجمي"^(١)، وأنجزوا

(١) للتصديق بالمراتل العجمي (بنيهم الجبال) للمنطقة التي تكون حدودها على قسمي قتال: شمالها شرقي مغارة خراسان وغربها واسهبان وشرقي خوزستان، وجنوبها الغربي لأذربيجان، وشمالها بلاد القديم وقروم والري، وجنوبها -

للهمات، ثم استأذنوا في الانتصاف. وكان "هورقداق" قد عاد بعد أن فرغ من جباية أموال فارس. وكان الإثباتك "أفراسياب لُر" قد هم بالرجوع بعد أن وجد الرعاية والتكريم من السلطان. غير أن "هورقداق" أعاده من الطريق، واصطحيه معه. فلما وصل إلى الحضرة، استفسر منه غازان عن الأوضاع في فارس. فقال: إن العبد يعرض أولاً أحوال هنا "الكازيك" إذ أنه عند ذهابي إلى فارس مررت ببلاد "أفراسياب لُر" فلم يجئ لاستقبال فنار أتباعه في وجهه، وقالوا: لقد استولينا على هنا لذلك محمد السيف، فأكت موارده إينا واصبحت حقا لنا. وأنا لن أتحذت عن إشارة الفتن الأخرى وقتل باهلو شحنة أصفهان والزحف بالجيش إلى أصفهان وغيرهوان، وما صحب ذلك من اعتقالات، وأمثال تلك التصرفات. فنضب سلطان الإسلام على أثر سماعه تلك المخالفتات، وأمر بقتل أفراسياب^(١).

وعندما بلغ غازان وأتباعه منطقة قرية سيندان "ديه سيندان" حرض الشيخ محمود وصدر الدين الزنجاني جماعة على التمرد والعصيان [ص ٣١٣]، وذلك بوشاية جمال الدين الدستجرداني، فحقق معه في الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م وقتل. ومن هناك سار السلطان الأمير "خربنده" ابن سلطان العالم إلى خراسان ليكون نائباً عنه. وفي تلك الأيام وشى عز الدين المظفر الذي كان حفيد عميد فارس - بحاكم ذلك الإقليم الشيخ جمال إبراهيم السوملي، وكان صدر الدين الزنجاني متعاوناً معه. ولما لم يستطع إثبات تهمة الخيانة على الحاكم، قتل الواشي عز الدين.

الجنوبي العراق وبعض خوزستان بالنظر الدكتور نافع نوزين الميرزا: الفولدة الموروزية: نشأتها علاقتها مع الدول الإسلامية نظمها العسكرية والإدارية ١٩٠ ٦٦٨ / ١٠٩٧ م، ١٢٣١م، ص ٣٦، حاشية ٥٧، بغداد ١٩٧٨م.

(١) يذكر شرف محمد البلهسي أنه لما تولى غازان خان أمر الدول، وبسط سلطانه على البلاد، بانو أفراسياب إلى تقديم الطاعة له، وإلى التصرف بالحضرة السلطانية لتصف عليه السلطان وأبداه في منسبه في حكومة لرستان. وفي سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) التي كان غازان قد توجه فيها نحو بغداد كان الإثباتك أفراسياب قد تصرف مرة أخرى عند حدود عملان بالجنبت السنية، ونال لديها الخطوة والقبول. ولكنه حين رجوعه إلى بلاده التقى به في الطريق الأمير "هورقداق" الذي كان حاكماً حظه من نقرس لاصدا الحضرة الملكية، فقبض على حله، وأعادته بالقوة والفتصب إلى الحضرة ورفع إلى غازان خان تفصيل ما صدر من أفراسياب من الأعمال الجائرة والتصرفات السيئة، وبالغ في ذلك مبالغة كبيرة حتى حمله على صدور الأمر بقتله (انظر كتاب شرفنامه، ج ١، ص ٣١ - ٣٢، ترجمة إلى العربية محمد علي حوني، ورواهه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٨م).

رسالة على لسان نوروز إلى حاجي نارين بخصوص هذا الموضوع، وذهب إليه، وتناول كأساً على سبيل الاحترام، ثم وضع الرسالة في متاعه دون أن ينتبه، ثم انصرف. بعد ذلك أرسل الشيخ محمود أخاه سليمان إلى الحضرة لإطلاع غازان على ما حدث. وكان سلطان الإسلام قد عاد من موضع الميدان على حدود كرمانشاهان، وجد في السير يوماً واحداً حتى بلغ (شهر آبان) التي تعد ثلاثين فرسخاً.

وفي يوم الأحد الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وصل الشيخ محمود وقطب الدين أخو صدر الدين الزنجاني، ومعهما قبصر إلى "شهر آبان" وعرضاً على غازان موقف قبصر فقال له سلطان الإسلام: "قل الصدق". عندئذ عرض قبصر الموضوع بطريقة لم يثبت فيها أي ذنب على الأمر نوروز. ثم طلبوا عينه، وأخرجوا منها الرسائل والنياب، [ص ٣١٧] وشهدوا جميعاً بأنها كتبت بخط حاجي رمضان كاتب الأمير نوروز. عندئذ أمر السلطان بقتل قبصر ذلك الغلام ضرباً بالمراوات، وتمهد الشيخ زاده بأن يعثر على الغلامين الآخرين.

ثم ذهب بالفعل إلى بغداد لهذا الغرض، ولكن لم ييسر له العثور عليهما. ولما لم يستطع القيام بما تعهد به قضوا عليه أيضاً. وكانت نيران الغضب تضطرم في صدر السلطان غازان، وتحرق الأخضر واليابس، فقال: حيث إنه قد وقع الإطلاع على أمرار نوروز ينبغي اتخاذ شروط الحزم والاحتياط قبل ظهور آثار الفسار والمكر.

وعلى أثر ذلك صدرت الأوامر بأن يقوم الأمير نورين وبهمنجار باعتقال جميع آل نوروز من أبناء وأنصار وأتباع وقتلهم جميعاً. وعلى أثر ذلك رحلت الرهائن السلطانية من هناك إلى المارونية. وكان حاجي قد عزم على السير، فأدركه بابنجار واعتقله، وسبق أتباعه إلى جهة أخرى. وكانوا قد قتلوا قبل ذلك ساتلميش نائب نوروز وابنه قتلخيمور وأوردو بوقا ابن نوروز، وسبق حاجي نارين إلى مرج خاتقن، فحقق معه الأمير نورين. ولما ثبت إدانته بإخراج رسالة صدر الدين من أمته، جردوه من ملابسه، وطافوا به حول البيوت، ثم قتلوه ونهبوا دياره وأمواله. وفي تلك الظروف فرابه تغاي الذي كان في الثانية عشرة من عمره، ولجأ إلى دار الأمير انجيل الذي كان أميراً لمعسكر الخاتون المعظمة بولوغان الحراسانية، فحافظوا على الصبي هناك حتى سكن غضب السلطان، ثم عرضوا عليه حاله

ونجا من الهلاك. وهو الآن ملازم لحاله الأمير حسين، وسلموا خاصته وأتباعه لبولوغان خاتون الخراسانية [ص ٣١٨]. كذلك قتلوا كمال الصغير (كمال كويك) الذى كان أيضا نائبا له. وقتل أيضا لكرى فى السابع من جمادى الآخرة فى ميدان "ماهدهشت"، وغفوا عن كشتك ابن أخى نوروز، وأخيه يول قتلغ. وبسبب ذلك الفتح سما الميدان الكبير "قتلغ ميدان". كذلك أرسلت الأوامر إلى كل البلاد بقتل جميع أقارب نوروز وأتباعه، وقضوا أيضا على شيدون وإبل بوقا ابني هندوقور على حدود قصر شيرين.

وفى يوم الثلاثاء العشرين من رجب، وصل إلى الحضرة الأمير التجمل خريسته من خراسان. وفى الخامس من شعبان، وصل الأمير قتلغ شاه إلى أسد آباد همذان قادما من ناحية مورغان. وبعد ذلك قدم من ناحية لرى الأمير جويان وبولادقيا. ثم صدر الأمر بأن يسير بولادقيا إلى خراسان لاعتقال نوروز، ويلحق بهورقوداق والأمير سوتاي.

وبعد يومين سير أيضا الأمير قتلغ شاه. وفى إثره أرسل قتلغيا كذلك. وفى أوائل شعبان اعتقل فى بلاد الروم سولاميش وعرب بالو بن تنجى بسبب ثمردهما، وأحضرهما إلى تبريز. ثم تحرك سلطان الإسلام من أسد آباد قاصدا مصيف آلتاغ، وسير من حدود "كره رود" خريسته ابن ملك العالم للمحافظة على بلاد خراسان. وعندما وصل غازان إلى "نوشهر" جاءت الرسل بالباشارة من قبل قتلغ شاه. وهم يقولون: إن "نوروز" اشترك فى القتال وانهزم وأحضر يولج أيضا طوغان جوق فى الرضاعة.

ومؤدى هذه القصة أنه عندما وصل الأمير قتلغ شاه إلى دامغان وجد أن هورقوداق وسوتاي كانا قد قتلا شمن نوروز الفهن كانوا فى لرى ورامين وخوار وسمنان ودامغان وبسطام [ص ٣١٩].

ولما بلغ فواد غازان اسفراين، سار معهم أبناء "بوقا تيمور آقو" للأخذ بقصاص دم أبيهم من نوروز. وفى تلك الأيام أعلن المدعو دانشمند قلاك إحدى فرق نوروز المكونة من ألف جندي، أعلن خضوعه ودخوله فى الطاعة؛ فسيره قتلغ شاه فى الطلبة. ثم ذهب لاورتاتاي قران إلى نيسابور، وأعطى "نوروز" بوصول جيش غازان، فرحل من هناك. وفى إحدى محطات البريد، واجه جيش دانشمند بهادر، فتحارب الفريقان. ورغم أن جيش دانشمند كان قليل العدد، انهزم نوروز وهرب مع نفر قليل. وفى الصباح وقعت أمتهته

وخزائنه غنيمة في يد خصومه. ثم تقبته بسرعة فائقة هورقوداق وأبناء بوقاي يارغوجي مع عشرة آلاف جندي. وفي الليل وصل نوروز إلى ولاية جام حيث توجد قطعان خيوله ونزل بينها، وأمر الخدم بإعداد كمين خلف الجدران. وفي منتصف الليل وصل جنود غازان وأرادوا أن يسوقوا الخيول، فتفتح نوروز وعنده الكمين، وأحضروا أوتار القسي، وأطلقوا السهام، فقتل خلق، وصار الباقون مشردين. وبهذا انهزم نوروز، وخرج جيش هذا الطرف (أي جيش غازان) فالتزم متصرا. وكان نوروز يسير على غير هدى، وهو منهزم؛ حتى إذا وصل إلى باب هراة دعاه حاكمها فخر الدين بن شمس الدين كرت إلى داخل المدينة ففكر في ذلك الأمر. ولكن أمرامه بابكر وساربان وسلوم قالوا: أيها الأمراء إن قلوبنا لا تطمن إلى كلام هذا الرجل. وللصلحة تقضى أن نسر بسلام من وراء هذا الجدار، ولا نتمد على وعده. فقال نوروز: لقد فاتني أن تؤدي صلاة الفرائض ثلاثة أيام، وأنا أريد قضائها. فمضى الأمراء ونجوا بأنفسهم. ودخل نوروز مدينة هراة مع أربعمائة فارس وصعد القلعة. [ص ٣٢٠] أما الأمير قتلغ شاه الذي كان يتقبه، فإنه عندما وصل إلى مشهد طوس، زار القبر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد وتضرع إلى الله قائلا: "يا إلهي! إنني لا أدري أعصيب أنا أم عخطي في هذا الأمر؟.. فكلنا الخصمين مسلم والسلطان مسلم. وأنت يا رب عالم الأسرار. فإذا كنت تعرف أن "نوروز" مذنب، وعلى باطل، وعالف غازان وعصاه، فاجعله على يدي أسيرا مخلولا".

ثم سار من هناك حتى إذا بلغ هراة، حاصر الجنود المدينة، وشرع الجانبان في القتال. وكان الأميران نورغاي وججاي يماريان بشدة. وكان الطقس حارا جدا، فقالت جماعة من جنود قتلغ شاه: إن المصلحة تقضى بأن نعود لأن سور هراة حصين جدا، ولن يكون من السهل القضاء على الحصم نوروز فتكبر الأمير قتلغ شاه إلى أقصى حد، وقال: لقد صار الحصم ضيفا ذليلا، وبقي خلف الجدار بلا أعوان وانصار، فكيف نعود، وما العذر الذي نقسمه إلى الحضرة؟! لا بد أن نصمم على الاستمرار في هذا الأمر، ونسعى في سبيل هذا الهدف حتى يتحقق الفتح المبين بفضل التأييد الرباني. ثم كلف شيخ الإسلام "جام" فجأة - الذي كان في صحبة الأمير - بأن يكتب رسالة إلى صورة الملك فخر الدين، يقول فيها على لسان قتلغ شاه: ينبغي أن تتدبر هذا الأمر جيدا والإقباين مدينة هراة، وكل بلاد

خراسان سوف تروح ضحية لهذه القضية. وقد ذبل قطع شاه هذه الرسالة بوجيعه. ثم أرسلت إلى المدينة على يد أحد الجواسيس. فلما قرأها الملك حملها إلى نوروز، فقال هذا للمقربين إليه: إنه يتضح من هذه القضية أن قلب الملك معي في غاية الصدق والإخلاص. عندئذ قال حاجي رمضان لنوروز في السر: إن المصلحة تقتضي [ص ٣٢١] أن نعتقل الملك فخر الدين ونقيده حتى نهاية المركبة؛ فإذا كان النصر لنا، فإننا نكرمته ونراه ونطلق سراحه، وإلا فسيعرف الجميع غدره وخيانتته. وبهذا نكون قد راعينا شروط البقطة والاحتياط. ولكن "نوروز" لم يقبل هذا الكلام. وكان هناك رجل سحري قد استرق السمع، فمضى على الفور، وأبلغ الملك كل ما سمع، فعاف الملك، وتشاور مع عظماء المدينة وأعيانها، وقال: إن جنود غازان سوف يستولون على هذه المدينة ويأسرون نساءنا وأبنائنا، وتسقط أسرتنا العريقة منذ المقدم. ثم إن "نوروز" سبق أن أقسم لغازان بالإيمان المخلصة أنه لن يخلفه أبدا. وقد خالفه أبدا. واذن فمصلحتنا في أن نسقيه ونعتقه بالمكر والحيلة ونعلن الخضوع والاطاعة. وعلينا أن نأخذ عهدا بالأمان من الأمير قطع، ونسلمه له. فقال أهالي المدينة: إن رأى الملك هو الأعلى، فهو يرم كل ما يعرفه صوابا.

بعد ذلك ذهب الملك إلى نوروز بعد إجراء هذه المقدمة. وقال له: إن جنودنا المرويين والفوريين يترسون في القتال. قال رأى أن ترسل رجلين من رجالك على رأس كل عشرة من جنودنا كي يمرضوهم على القتال، ولا يسمحوا لهم بالتراحي. وبناء على نصيحة الملك وزع نوروز جميع جنوده على تلك الجماعة، فشتتوا وتفرقوا، وبقي هو وحده في القلعة. ثم أوعز الملك إلى جنوده بأن يحتلوا جميع أتباع نوروز، ويقيدوهم. ثم صعد القلعة هو نفسه مع عدة رجال من الفوريين الشجعان، واعتقل نوروز، وأحكم وثاقه، وقال له: إن فرمان يقضى بتسليمك للأمر قطع شاه.

ومن عجائب الأمور أن الملك فخر الدين كان في عهد أبيه شمس الدين كرت عالقا إلى أقصى حد، وعيننا متردا ومشاغبا. ولما قُبده أبوه الملك شمس الدين، وسجنه في قلعة "نيسابور". وبعد أن وصل نوروز إلى هناك، التمس إلى أبيه أن يطلق سراحه، فقال شمس الدين: أنا أعرفه جيدا، أعرف كيف أن له نفسا مجردة من الوفاء. ومن حيث إنه لم يكن وفيا لأبيه، فلن يكون وفيا لك أنت أيضا. ورغم هذا صار نوروز يباليخ وبلخ في الشفاعة

له. وأخيرا قال الملك: إني أطلق سراحه بشرط أن تعطيني تعهدا ينص على أن كل عمل يصدر عنه من الآن فصاعدا، يكون الأمير مسئولاً عنه؛ فأعطاه نوروز تعهدا بذلك. وعلى هذا فك الملك شمس الدين قيوده وأطلق سراحه.

وعندما كان الملك فخر الدين يقوم باعتقال نوروز، قال له: إني لم أسع إليك حتى تنكث العهد وتسفك دمي. وإذا كان لا مفر من الغدر، فأعطيني جوادى الكميث وسيفي حتى أركب الجواد بدون سرج وأعرض المعركة وسط هذا الجيش، فأقتل في الحرب كى أكون غازيا وشهيدا في آن واحد. فرد عليه الملك قائلا: منذ الآن سوف ترى الحصان والسيف تحت أقدام الآخرين. وفي قبضة أيديهم. وبمجرد أن اعتقل نوروز، قطع فخر الدين رأس حاجي رمضان، وأرسله على يد رسول إلى الأمير قطع شاه، يبلغه نبأ اعتقال نوروز وإخوته وأتباعه. ثم طلب منه عهدا بالأمان حتى يكون ذلك شفعا له، وحتى لا يؤاخذ غازان باسم المرويين، وأن يتمس على ذلك بالأيمان المطلقة. ثم لقي الرسول رأس حاجي أمام قطع شاه، وقال له: إن الملك يقدم الخضوع والطاعة، ويقول: لقد نهيا نصر كبير بسعادة الأمير وإياله، ولسر نوروز وأتباعه وكيلا جميعا بالأصفاد.

ولما رأى الأمير رأس حاجي رمضان، عرف أن كلام فخر الدين صدق، قال: بناء على التماس المرويين، كتب علاء الدين نصر الخطاطي كتاب الأمان المؤكد، وذكر في مقدمته أيمانا مغلظة. ثم أرسل الأمير قطع شاه إلى المدينة الأمير بولا دقبا وخواجه علاء الدين وشيخ الإسلام "جام" حامل هذا المکتوب بعنوان الرسالة، فتلقى الملك مقدمهم بالترحيب والتكريم، وأعادهم معززين قائلًا لهم: سوف أرسل نوروز ليلا مقبدا إلى حضرة الأمير.

بعد ذلك عاد الرسل على هذا النحو، وأطلعوا الأمير على ما حدث. وفي الليل أرسل الملك "نوروز" مقبدا، وفي حراسة طائفة من الضباط النوريين؛ فسر قطع شاه بذلك الفتح سرورا بالغا. ثم سأل نوروز: لم فعلت هذا؟ فرد عليه بقوله: إن غازان يستطيع محاكمتي لا أنت. وكلما سأله بعد هذا، لم يجب عن أسئلتهم، وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنبا قط، وأنه لا إثم عليه. ثم أمر قطع شاه بإزالة، وشقوه نصفين، وأرسل رأسه إلى الحضرة. ومن هناك أرسل إلى بغداد، وهل في باب الثوبى عدة سنوات معلقا على رأس عمود من الخشب. كذلك قتل هناك أخواه أرغون حاجي وبولوق. وكان ذلك في الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م. والسلام.

حكاية

ارتفاع شأن صدر الدين الترمذاني، وازدهار عمله

قتل الأمير نوروز، ووصول الرايات

السلطانية من ألتاغ إلي تبريز

ووضع أساس القبة العالية

في شم تبريز

بعد قتل نوروز رحل الأمير قتلغ شاه من ظاهر هراة، ونزل في مرج شوران (مرغزار شوران). كذلك قضى على قواد نوروز؛ بوراجر والبهجاى وتوكال قرا وطائفة أخرى. [ص ٣٢٤]. أما فراسون فقد لاذ بالفرار، وكان في خدمة الأمير قتلغ شاه. كذلك رحل سلطان الإسلام من ألتاغ. وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعدة وصل إلى تبريز. وفي اليوم التالي قتل يلكو وابنه في ميدان تبريز.

وعلى إثر قتل نوروز، ارتفع شأن صدر الدين، وشبهه السلطان برعايته، ومنحه الختم الأحمر (التمغا). وفي غرة ذى الحجة قدم سلطان الإسلام من شم إلى تبريز، وذهب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، وتصدق على الفقراء والمساكين بأموال طائلة. وكذلك فعل في الجمعة التالية. وفي يوم السبت السادس عشر من ذى الحجة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وضع أساس قبة عالية وسط حديقة المعادلية بموضع "شم". وقد شغف شغفا كبيرا بهذا الأمر، وكان يتردد دائما على هذا المكان ليفقد أعمال البنائين والعمال. ولما رفعوا بناء سرداب القبة على وجه الأرض، سأله المهندسون عن عدد ما ينبغي أن يفتحوا من منافذ للإتارة. فسألهم: لماذا؟ فأجابوا: كى يكون السرداب منيرا، فأجاب هو نفسه على هذا السؤال: ينبغي ليصال النور من هنا إل هناك، وإلا فلا فائدة للمرء من ضوء الشمس غير الثابت. وفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجة وصل قتلغ شاه نوبان من خراسان. وفي منتصف المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وضع غازان العصاة على رأسه هو وكافة الأمراء. وفي اليوم التالي أقموا الولائم والحفلات. وبعد أداء الصلاة في يوم الجمعة العشرين من المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م غادر غازان تبريز قاصدا مشى أران. وفي ذلك الوقت كانت

تذاع أنباء عن وقوع اضطرابات في جورجيا^(١١)، فأرسل الأمير قتلغ شاه وهو في الطريق إلى هناك كى يتفحص شئون هذه الولاية، فقام بمهمته، وعاد سرهما مصطحبا معه أخا الملك داود "وختانگ" فوجدا الرعاية والتكرام.

بعد ذلك تحركت المراهات السلطانية إلى ناحية باكو [ص ٢٢٩] وغادرت هذا الموضع بعد عدة أيام. وفي يوم الجمعة التاسع من ربيع الآخر سنة ١٢٩٧هـ/١٢٩٧م توفى الأمير النجل "ختای اغول" في "دالان ناوور". وفي هذا البلد أيضا ولد الأمير النجل "النجو" في التاسع من جمادى الأولى سنة ١٢٩٧هـ/١٢٩٧م، وصار الجميع منتهكين في إقامة الولايات والاحتفالات والأخذ بأسباب النهو والتمتع والسلام.

(١١) تسمى أيضا جورجستان. يسكنها جبل من الناس يعرفون باسم الكرج (المهراج)، وهم نصارى. ضلعها تيمور في تمام ثلاثة أثمان (الرابعة عشرة) وتجلس قسبة جورجيا، وتقع في أعمال نهر الكر، وأرضها خصبة كثيرة المحراث. (انظر معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٤٦ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٦).

حكاية

اختلال أحوال صدر الدين الزنجاني وإعدامه

في يوم الجمعة الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م جنا على ركبته السيد قطب الدين الشيرازي^(١) ومعين الدين الخراساني، وعرضا على غازان موضوع خيانة صدر الدين الزنجاني وتلاجه في أموال البلاد.

وفي أغلب الأوقات كان بين مؤلف هذا الكتاب رشيد الطبيب وبين صدر الدين صداقة ومودة. وقد حاولت طائفة من أصحاب الديوان تكدير صفو العلاقات بين الصديقين وصاروا ينقلون الكلام من كل نوع للإيقاع بيننا. ولكني لم أكن ألتفت إلى مثل هذه المحاولات. ولما يتسوا مني، مضوا إلى صدر الدين، وكبوه على تخطيطهم وتوهمهم وتلقينهم؛ غير أنني لم أكن أعيأ كثيرا بمثل هذه الأمور. وفي يوم الأحد منتصف جمادى الآخرة، ركب صدر الدين على ركبته في حضرة السلطان، وحاول إهانتني بطريق الفمز واللمز فشغلت بالرد عليه. ولكن نهره السلطان وقال له: إنه لم يتأولك بسوء مطلقا.

(١) هو العلامة قطب الدين محمود بن مسعود بن مصعب الكازروني شيرازي. ولد سنة ٦٣٤هـ. وكان أبوه طبيا. درس مقدمات علم الطب على يد والده وعنه. كذلك برع في الحكمة والفقه، واستكمل دراساته وسفره بعد أن اتصل بالخواجه نصير الدين الطوسي وشاركه في الأعمال الطبية التي يقوم بها في مرصد براند. وكان يتمتع بذكاء نادر وعقلية مستنيرة. بعد ذلك رحل إلى بلاد فرود، وشغل منصب قاضي سيواس ومطية. ثم سافر إلى الشام والقى بالصفوي الكبير جلال الدين الرومي، وتزى بزي أهل الصوف ثم عاد إلى تبريز، وكان معروفا مكرما لدى السلطان أوقطايو. وفي مدينة تبريز كانت وفاته في سنة ٧١٠هـ.

بعد العلامة قطب الدين الشيرازي أحد العلماء الراسخين في الطب. ولد عرف عنه أنه رجل مرح، يتمتع بظرف وطرף، ويحب لب الشطرنج والفرد على الركب. وهناك حكايات تروى عن روحه المرحة ومطباته العديدة. له مؤلفات عديدة باللغتين العربية والفارسية منها شرح كتاب القانون في الطب لابن سينا وشرح حكمة الإشراق لشهاب الدين السهروردي القننولي، وشرح مفاتيح العلوم للسكاكي، وكتاب درة الفناج لشجرة الدنيا. وهو بالفارسية، ويتأول علومنا عظيمة. انظر عباس القبال: تاريخ متصل ليران في استعلاي مقول لنا اعلان مشروطيت جلد اول في حلة چنگيز لتأسيس دولت نيسوري، ص ٢١٢، ٥٠٦، ٥٠٧. طهران ١٣١٢هـ. ش؛ مجموعة مقالات عباس القبال آخرياني شامل يكساويك مثالا با مقدمه ونصحيح آقای دکتر محمد دير سبانی بعنوان علامه قطب الدين شيرازي ومطالبات اول، ص ٢٩٠، ٢٩٦، تهران ١٣٥٠هـ. ش؛ الشرق الإسلامي، ص ٣٥٥.

وعندئذ شرعت في الكلام؛ غير أن السلطان قال لي: لا تلوث لساتك بلرد عليه، وحافظ على سيرتك ومسلكك. ولما اتضحت برائتي، استاء صدر الدين من تلك الجماعة استياء شديدا؛ لأنها هي التي قامت بالسعاية والهدس لإفساد العلاقات بيننا.

وفي يوم الأحد سلع جمادى الآخرة، قبض على طاجور أغول وأصحابه [ص ٣٢٦] وذلك بسبب إثارتهم الفتنة. كما قبض على الشيخ الذي رافقه، والذي وعده بتقليده الحكم. وفجأة أبلغ السلطان تلك القضية. وفي الثاني من شهر رجب قتل طاجور أغول مع أربعة من أتباعه على ضفة النهر الذي كانوا قد شقوه في منطقة "دالان ناوور". وقد صير السلطان النهر، ونزل في المعسكرات في موضع "جوى نو" وعندما كان السلطان في "دالان ناوور"، وكان الأمير قطع شاه قد عاد من جورجيا (جرجستان) أخذ السلطان يعاتب صدر الدين بخصوص الأموال التي نجسي من هناك، فحافه صدر الدين، وعرض قائلا: إن أتباع قطع شاه عربوا ولاية جورجيا. ولهذا السبب صار السلطان يعاتب الأمير في صحوه وسكره. فما كان من الأمير إلا أن سأل صدر الدين قائلا: ألا تعلم من شكاني إلى حضرة غازان حتى صار يعاتبني؟!

فأجاب صدر الدين: إنه رشيد الدين.

وفي يوم "توروز"^(١)، خرج الأمير قطع شاه من لندن حضرة غازان، وتصادف أن قابلني، فقال لي: لقد كنا سويا في حلشيه واحدة ولم يحدث بيننا شيء قط يعكر صفو علاقتنا وبسبب الأذى. وإذن فكيف أسأت إلي في حضرة السلطان؟!.. فرددت عليه قائلا: الحقيقة أنه لم يلحقني ضرر منك مطلقا؛ بحيث أسىء إليك.. ينبغي أن تصرح لي باسم الشخص الذي قال لك هذا الكلام، وإلا فسوف أعرض الموضوع على حضرة السلطان. فلما لم يذكر اسم هذا الشخص، عرضت هذا الكلام على غازان. خان في موضع الصيد. فاستدعى السلطان الأمير قطع شاه، وقال له: تلبية لرغبي الشديدة، أصدرني القول: من قال لك هذا الكلام؟! أجاب صدر الدين: فتضايق سلطان الإسلام ضيقا شديدا، وقال: مهما حاولت أن يترك هذا الرجل الحقد والتمويه وإثارة الفتن، كان ذلك دون جنوى؛ لأن طبيعته تجرى على هذا النمط.. [ص ٣٢٧].

(١) للتعرف على تفصيلات من توروز نظر كتاب توروز واقره في الأدب العربي، تأليف الدكتور غزاه عبد المنعم الصياد، بيروت ١٩٧٢م.

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من رجب صدر الأمر باعتقال صدر الدين، وأخيه قطب الدين أيضا. وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رجب شرعوا في محاكمة صدر الدين، فكان يرد على المحققين بإجابات جريئة ودون مهالاة، ولم يكن يكثر بالتقصاة. ولو أنه أعطى فرصة الكلام لخلص نفسه من تلك المورطة المفاولة، غير أن السلطان أمر بأن ينهى قتلغ شاه حياة صدر الدين.

وفي يوم الأحد الحادى والعشرين من رجب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وفي وقت الضحى وفي موضع "جوى جماندار" أسسك الأمير سوتاي بإحدى يدي صدر الدين، وأمسك الإهلوان ملك غورى بيده الأخرى. ثم قده الأمير قتلغ شاه نصفين^(١).

تعالى الله، فإن صدر الدين قد بذل من السعى والاجتهاد الشيء الكثير بحيث إنه في كل وقت، كان يهدف إلى ازدهار شأنه. وإن كل الفتن والفتائل التي أثارها، كانت في سبيل تحقيق هذا الغرض. ولكن كانت عاقبة أمره، أن عندما وصل إلى غايته، لم يجمع بما حصل عليه، ولم ينل بغيته.

بعد ذلك تحركت الربايات السلطانية من هنالك إلى "ييلسولر" ووصل غازان بخان ومن معه الرحلة تلو الرحلة حتى يوم السبت الثاني عشر من شعبان عندما وصلوا إلى دار الملك تبريز. وفي يوم الإثنين الحادى والعشرين من شعبان قتل القاضى قطب الدين وابن عمه قوام الملك على باب بوابة "ورجونة" بتبريز. أما القاضى زين الدين الذى كان من أقاربهما، فقد هرب ليلا من سجن تبريز وسار ناحية گيلان، وعاد بعد سنتين أو ثلاث سنوات ثم هرب ثانية. وأخيرا اعتقل وقتل.

(١) يقول عنه ابن التومطى في أحداثك سنة ٦٩٧هـ: فيها أسر السلطان غازان بقتل صدر الدين أحمد بن عبد الرزاق الحادى صاحب ديوان الملك لما ظهر من سوء حركاته. وكان غير محمود السيرة فلما أظهر الجلو، وفر الناس على التامنا به، فأخبرهم، وبطلت محاسنهم وتطلعت أمورهم إلى أن لطف الله تعالى، وألهم السلطان (غياثى) إبطاك ثم ضاعف الحراج كما قيل حال الدين المستعرجى. وبالغ في التصامير والثقلات. فلما قتل أسر بقتل أخيه قطب الدين قتل، وطلب أمره زين الدين الذى كان قاضى القضاة بشفاعة، فهرب، ولحق بصاحب جيلان فسأل من السلطان الصفوح عنه. فأجاب سؤله فسأل أن يناد إلى القضاء بالفرار، فأخذ وحس بتبريز فهرب من الخس، فأفرك وأهد إليه وقتل. (المؤبدات الجامعة والتجارب الثامنة في المائة السابعة، تحقيق الأستاذ مصطفى جولاد، ص ٤٩٥ - ٤٩٦، بغداد ١٣٥١هـ).

وفى يوم الأحد العاشر من شوال سنة ١٢٩٧/هـ ١٢٩٧م أنار عوام تبريز الشعب، وخرّبوا
بألى الكنائس، فغضب عليهم سلطان الإسلام، وعوقب بعض هؤلاء المشاعيين من مشيرى
الفتنة. وفى يوم الإثنين التاسع من ذى القعدة توفى ساربان بن سونجقاي نوبان فى تبريز.
وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة توفى "بورلنای أقول" من ذرية جوجى قسار.
والسلام.

حكاية

توجه الرايات السلطانية من دار الملك تبريز إلى مشتى بفسداد، وتفويض منصب الوزارة إلى الخواجه سعد الدين، ووصول خبر تمرد سولايمش، وذهب الجيش للقضاء عليه

في يوم الخميس الثالث من ذي الحجة سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م سار سلطان الإسلام من دار الملك تبريز جنوب لوجان^(١)، قاصدا مشتى بفسداد وفوض منصب الوزارة إلى الصاحب الأعظم الخواجه سعد الدين الذي كان قد أكد سوابق حقوق التأيد بلواحق أنواع الوفاء وقام بشروط ومراسم اللازمة، والمرافقة في السراء والضراء، وفي الخل والترحال. ثم أرسل السلطان الأمير "تورين" من دربند إلى أران للمحافظة على الأمن. وفي يوم الجمعة الثاني من المحرم سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م نزل في مرج زك (مرغزار زك) على حدود همذان.

وفي شهر المحرم أيضا توفي إيسن بوقا غوركان بن نوقاي يارغوجي. ثم رحل السلطان في الثامن من المحرم من براهان. وفي منطقة يروجرد أعدم أبو بكر داد قابادي الذي كان واليا على همذان بعد ثبوت إدانته.

بعد ذلك سار إلى ناحية جبل الأكراد. وفي يوم السبت الثاني والعشرين من صفر، نزل في مرج جوقين (مرغزار جوقين) من أعمال واسط. ومن هناك مر ببطائح شيب، ودخل واسط. وفي تلك الأيام كانت تصل نبأها أنباء تمرد سولايمش في ولاية الروم.

وتتلخص تلك الحكاية في أنه بعد قتل بالثو، عهد سلطان الإسلام بإسارة الروم إلى الأسراء باننجار وبوجقور ودفوز تيمور. وكان سولايمش نفسه أمير أسراء جيش الروم

(١) لوجان أو أجان: مدينة تقع على بعد عشرة فراسخ من تبريز في طريق ميانه. وقد وصف بلقوت أجان فقال عنها إنها مدينة عليها سور وبها سوق. إلا أن الخراب حل بها. ولكن بعد عصر بلقوت أجاد خازن بانجاها وقام فيها زنا، وأطلق عليها نسبا جنمها هو "شهر إسلام" أي مدينة الإسلام. وكانت تواسيها للمرة الأخيرة، يكثر فيها النطن والفسح والفراكة. (مجموع البلدان، ج ١٤، ص ١١٠٠. نزعة القلوب، ص ١٩١. بلرتولد: تذكرة جغرافياي تاريخي إيران، ترجمة حمزه سرदारور، ص ٢٧٣ طهران ١٣٠٨هـ:ش. بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٩٨).

[ص ٣٢٩]. ولما عزل السلطان مسعود بتهمة انتمائه لبياتو عهدوا بالسلطنة إلى ابن أخيه علاء الدين كيقباد بن فرامرز فذهب مع الأمراء المذكورين إلى الروم. وفي ذلك الشتاء كان البرد شديدا جدا في تلك المناطق، وتساقت ثلوج كثيرة سدت الطرق، فانقطعت الأخبار. وقد شاعت أنباء تفهد بأن أحوال للعسكر قد ساءت واضطربت.

وقد اغتنم سولاميش هذه الفرصة، فاتفق مع قبائل وطاشتمور وطائفة أخرى، وفجأة ألقى القبض على يانينجار وبوجقور وقتلها، وشرع سولاميش في العصفان والمخالفة. ثم استدعى الجنود من أطراف الشام ونواحيها، وأدخل في طاعته الجنود الذين كانوا يقيمون في ولاية دانشتند، واستقروا في صحراء "قازاده". ثم جمع عددا كبيرا لا يحصى من الصعاليك والرعاع. وكان يندق على الجنود أموال الولايات وأملاكها حتى اجتمع حوله ما يقرب من خمسين ألف فارس، وكفلت قبل السوربون أن يمدوه بعشرين ألف جندي وأطلق اسم الأمراء على طائفة منهم، وأعطاهم الأعلام والعتيول. وقد اشتدت جبراته لأن الطريق كان مسدودا، ولا يصل الرسل والسعاة من هذه الناحية.

فلما وصلت تلك الأنباء إلى السمع المبارك لسلطان الإسلام غازان، أمر بأن يسير الأمير قتلغ شاه على رأس جيش في يوم الأحد الثماني عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م عن طريق ديار بكر قاصدا بلاد الروم للقضاء على سولاميش، وأسرع الأمير چويان بهادر، فسار في القفمة، وفي إثره الأمير قتلغ شاه. أما الأمير سوتاي فقد سار على رأس جيش آخر. وفي فصل الربيع تقابل الجيشان في صحراء آقشهر التابعة لأرزنجان. وقد دارت الحرب في الربيع والعشرين من رجب سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. وبعد أن انهزم سولاميش، توجه إلى ديار الشام، فقبض عليه الأمراء وأحضروه [ص ٣٣٠].

بعد ذلك رحل سلطان الإسلام من جوقين قاصدا بغداد. وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى توجه من مدينة نيل (شهر نيل) إلى مشهد أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) فزاره، وشمل بعطفه ورعائه القيمين والجارين للمشهد المقدس وخصهم بالإنعامات والصلفات.

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، قدم جمع من أسراء الشام ومصر وهم سيف الدين قبچاق وسيف الدين بيكيمور والبيكي وعزلو الذين كانوا قد انقلبوا على

حاكم مصر لاجين بسبب تألهم منه. وكان معهم ثلاثمائة فارس. وفي رأس العين سمعوا خبر وفاة لاجين، فضعوا. ولكن لم تكن هناك حملة أخرى. وقد تحنثوا إلى غازان خان بأنواع من الكلام الفث والسمين. وفي الثالث من جمادى الآخرة، نزل سلطان الإسلام في بغداد. وفي يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور، ركب السلطان من بغداد واتجه إلى الميدان. ومن حملة المصريين الذين دخلوا في الطاعة "بوزلار" الذي فر مع طائفة أخرى فتعقبهم الجيش المصري، وقتل أغلب السوريين، وأسر سبعة أشخاص، وفر بوزلار وحده ونجا.

وفي أوائل شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م هرب فوج من القراوناس، ومقدمهم المدعو بوقا، وهؤلاء كانوا يقيمون في ضواحي طارم، وساروا عن طريق العراق، واجتازوا حدود يزد وكرمان. وفي الطريق صاروا بخيرون وبنهبون، ثم انضموا إلى النكودريين^(١١) في "بيني كاو". [ص ٢٣١] وفي يوم السبت الرابع عشر من شعبان وصل بالبشارة من الروم بفلانكو سكورجي معلنا أن الأمير چوپان وباشفرقد قد هزما سولاميش، ولكنه هرب مع نفر قليل. غير أن جميع الجنود الذين كانوا تحت إمرته دخلوا في الطاعة، وقتل ألفو أخو ايلجيداي قوشجي الذي كان قد ذهب معه. كذلك اعتقل إقبال بن أورقو من ايلكاي توبان وطاشتمور الخطائي، وجاؤوا بهما.

بعد ذلك نزل سلطان الإسلام في قوچين الكبرى (قوچين بزرگ) من منطقة سفورلوق ووصل "تورين آقا" إلى "قرين شيره" عائلا من أران. وفي الخامس والعشرين من شعبان نزلت الرايات السلطانية في أوجان. كذلك وصل الأمير النجل خرينده من منطقة خراسان فاستبشر الأخوان بلقاء الواحد منهما الآخر وصارا أكثر تعاونا وتآزرا. ثم شرع السلطان

(١١) عرف النكودريون بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم "نكودر" وهو من سلالة چنگيز خان. وقد التحق أول الأمر بجمعة هولاقو خان، ثم ثار عليه، وحاجر مع قبيلته واتباعه إلى أراضي أفغانستان الحالية. وانقلب هؤلاء النكودريين هم الذين كونوا قبيلة "مزاره" هناك، وكانوا ينسب الإغارة على خراسان وسجستان وكرمان وفارس. وعلى أيدمهم دمردت فارس عام ٦٧٧هـ. بعد أن نجح من غزوات للتلول عند ضمهم لإيران. هذا، وقد ظل النكودريون بخيرون على حدود إيران وخطمون ودمرون. كذلك أقاموا على يرد في عهد مبارز الدين محمد المظفري، وظل يحاربهم إلى أن استسلم شيخهم (عطر بارلوكد) لذكورة جنرالهاي تاتاريي إيران، ترجمة حمزه سردافور "طلب زاده" ص ١٢٤، چاپ لوله طهران، ١٣٠٨هـ. ش. شرف خان البلباسي: شرقنامه ج ٢، ص ١٢٧.

وأعوانه في عقد مجلس الشورى (القروريلتاي)، وأقاموا الولائم والمنفلات. ولما فرغوا من المشاورات والمداولات في مجلس الشورى، قتلوا "بئبال" في الثامن من شعبان. وفي يوم الأربعاء والرابع والعشرين من رمضان قتل أمراء الروم: كرز، وجركس، وابسن الذين كانوا متحدين مع سولاميش. وفي يوم الخميس السادس عشر من شوال سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م تزوج سلطان الإسلام من كرامون خاتون ابنة قلفضمور بن أباناي نوبان، ودفع مهرها لها ستين لوماناً عن القدم والمؤخر، وأقام حفل الزفاف، وأنزها في المعسكر الأعظم في مكان "دوقوز خاتون". وفي أوائل ذي الحجة أمر بأن يعود الأمير النجل "خربنده" إلى خراسان وأن يحفظ ذلك الإقليم من الاضطرابات.

وفي يوم الجمعة الرابع عشر من ذي الحجة نزلت الرايات السلطانية [ص ٢٣٢] في العاصمة تبريز. وأخيراً قبض على "سولاميش"، وأحضر من الروم. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذي الحجة، قتل في ميدان تبريز بصورة بشعة ثم أحرقت جثته، وذروا رمادها في الهواء. وعلى أثر ذلك شعر سلطان الإسلام بتعب بسبب رمذ أسبابه، فصار الناس يحرقون الحرمل (نوع من البخور) لدفع إصابة العين عنه. وكانوا يدعون الله، ملتجئين له الشفاء والسلام.

حكاية

توجه سلطان الإسلام إلي ناحية الشام ومصر ومهاجرتهم المصريين وهميهمهم وفتح ولاية الشام

في تلك الأيام التي قدم فيها سلطان الإسلام باليمن والإقبال إلى تبريز، كان الرسل يصلون متتابعين من ناحية الروم وديار بكر وبلغون أن السوريين زحفوا إلى حدود تلك الولاية مهاجمين ويطعمون الطريق ويحرقون الفلات ويمشون على المسلمين. وقد حاصروا هاردين، وأسروا الكثيرين من المسلمين. وفي شهر رمضان هتكوا أعراض بنات المسلمين وشرب بعضهم الخمر كذلك. ولكن سلمت قلعة هاردين وحدها من شرهم، إلا أنهم اغاروا على بقية المدينة والولاية. ثم مضوا من هناك إلى ديسر^(١)، وارتكبوا هذه المنكرات وأرادوا تكرارها في "رأس العين"^(٢) أيضا. ولكن الناس هناك كانوا جنودا شجعان التحموا بالمعتدين في معركة في الأتفة الضيقة بالمدينة، فعضروا عن اقتطاب عليهم؛ غير أنهم نهوا كل ما وجدوه خارج المدينة من الدواب وغيرها. وفي حلب صاروا يبعون - على سبيل الشكر والامتنان - أسرى المسلمين بأغلى الأثمان.

فلما بلغت هذه الأخبار السمع المبارك لسلطان الإسلام، تميز غيظا لشدة غيظه على الدين وحمة الإسلام [ص ٣٣٢]، ورأى لزما عليه المبادرة بالقضاء على شر أولئك الطغاة. وبعد أن استفتى أئمة الدين وعلماء الإسلام، أفتوه جميعا أن دفع شرهم عن ممالك المسلمين

(١) ديسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب هاردين، بينهما فرسانا. ولما اسم أسير هو "قوج حصار". ولما بالوت وهو صبي ولد حاصرت قريب، ثم ولما بعد ذلك نحو ثلاثين سنة. وقد حاصرت مصرا لا تظهر لها كبرا وكثرة لعل وعظم أسواق. ليس بها نهر جار إلنا يشرب الأمان من آبار عذبة طيبة، وهو لها صحيح. (تقوم البلدان، ج ٢، ص ٤٧٨).

(٢) رأس العين هي من الجزيرة على مسيرة يومين من حران، وتشتهر بكثرة عيونها التي تبلغ ٣٦٠ عينا تنصب في نهر الخابور، وتنبثق هذه العيون لتسقي بساتينها وتبعلها كأنها بستان واحد. وتنتبع رأس العين بطنين جميل جدا، ويكثر بها الفطن والقمح والكرام. (تقوم البلدان، ص ٤٧٩) نزهة القلوب، ص ١٢٢ بلدان الحلاله الشرقية، ص ١٢٥).

الذين هم في ذمة همة السلطنة؛ فأمر بحشد الجيوش وسير حسب ما تقتضيه المصلحة -
الأمرام من اليمن واليسار.

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من المحرم سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م تحركت الرايات من دار
الملك تبريز نحو الشام. وفي اليوم التالي رحل من ظاهر مدينة مراغة، واستدعى "تورين آقا"
من دهخوارگان كي يسير إلى أران، وعبر نهر الزاب في العاشر من صفر، وعسكر في
مقابل قلعة كشاف. وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من صفر تحرك بالطالع المبارك لبرج
الحوت، وودع الحوتين اللاتي كن قد سرن من الموصل لتودعه، ثم عدن من حيث أتين.
وفي يوم السبت الخامس والعشرين من صفر، وصل إلى حدود نصيبين^(١)، واستعرض
الجيوش، وفي يوم الإثنين السابع والعشرين من صفر سير قتلخ شاه نوبان في المقدمة على
رأس جيش. وفي يوم الثلاثاء الثامن عشر من ربيع الأول، عبر باليمن والبركة نهر الفرات
في عازدة قلعة جعير وصتين، ووصلت أنباء حسنة فزيد أن خلافا قد وقع بين الأعداء^(٢).

وفي يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول. وصلت الرايات السلطانية إلى مدينة
حلب، ثم رحلت من هناك. وفي الطريق صادف جنود غازان المروج والحقول، فابتهجوا
برؤيتها قائلين: سوف نطعم الغلات. عندئذ لوى السلطان العنان، وخرج من جانب الزرع
وصرح قائلًا: إن كل مخلوق يمد يده إلى هذه الغلال أو الغلال الأخرى [ص ٣٣٤] التي
سوف نصل إليها، ويتاولها أو يطعمها غيره، سوف يقتل على الفور؛ لأنه ليس مستأفا أن
نطعم الدواب غذاء الإنسان.

وفي يوم الثلاثاء التاسع عشر من ربيع الأول نزلوا بمنطقة "سرمين"^(٣)، وفر مغولكاي
أجاسي مع أتباع فيجاق. وفي يوم الإثنين الخامس والعشرين من ربيع الأول اجتاز مدينة
حماة ونزل بجوار مدينة سلمية. وهناك ظهر يرك^(٤) الأعداء.

(١) نصيبين: من أعظم مدن الجزيرة شامًا، وهي خصوبة بالورد الأبيض ولا توجد فيها ورود حمراء. وتقع شمال
سجلار. وجبل نصيبين هو الجودي. وهو الذي يقال إن سفينة نوح استقرت عليه. وتسمى نصيبين بكثرة غلاتها من
الحبوب والقمح والشعر. (تقوم القلعة، ص ١٢٨٤ بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٢٤).

(٢) القصد للإشارة الخطيرة التي دبرها زعماء قبيلة الأورقبة (البربرية) بالتعاون مع الأمراء الناصريين؛ وذلك بقصد
القبال السلطان وإعادة صاحبهم كتبنا إلى عرش مصر. وبالرغم من أن هذه الأامرة قد أبطئت، كانت سببا في
تأخر زحف الجيش المصري، وإضعاف الروح المعنوية للجنود. (الفريرى: السلوك، ج ١، ص ٣١٥ - ٨٨٣ - ٨٨٤).

(٣) سرمين: تلح جنوى حلب. وهي على منتصف الطريق بين ليرة وحلب. وتسمى سرمين بأنها ذات أشجار كثيرة
من زهون وغيره. وليس لها ماء إلا ما يقع من الأمطار في الصيف. (تقوم القلعة، ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٤) يرك: ويس القسي، ومن يرالب من مضي فدمه. (أخبار الحاسن: ابن تيمرى برضى: الهجوم الزعفرى، ص ١٧٣).

وعندما رأى سلطان الإسلام جنوده كأنهم في غفلة، ذاهلين عن التأهب للحرب، سار باليمن والإقبال مع طائفة من الأبطال الشجعان كي يتخذ الحديقة في تحديد مكان المعركة وليطلع على أحوال الأعداء. ثم لم ير بأن يتأدى في للمسكر أن الأعداء قد وصلوا. عندئذ استعد جنود المغول لخوض المعركة، وشغل الجميع بإعداد أسلحتهم، وصاروا متأهبين للقتال. بعد ذلك عاد الأمير چوپان وقال: ليس هناك أثر لجيش الأعداء. وكان الفرض من إذاعة هذا النبأ على حد قول السلطان: أن تنبه إلى أننا قد اقتربنا من الأعداء، فعليك أن تكونوا يقظين متنبهين، وأن تقفوا مستعدين متحفزين. وكان غازان قد احتاط للأمر وعرف أن المصريين قد نزلوا في نفس الموضع الذي كان قد احتشد فيه الجنود في عهد "منكوتسور"، وأنهم قد احتلوا المكان الأفضل وحتى يكون المكان الرديء لجنده هذا الطرف (أى جند غازان)، ففكر في إفساد مخططهم، ورأى من المصلحة عدم مواجهتهم فعال بمسيرته التي تقابل ميمنة الأعداء.

وفي يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول، نزل غازان على ضفاف نهر صغير على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة حمص وأمر جنوده بأن يأخذوا كفاتهم من الماء لمدة ثلاثة أيام، وأن يسلكوا طريق الصحراء، ويتبعوا الأعداء حتى يجروههم بالضرورة إلى التوجه إلى تلك الناحية، فيتطل بذلك مخططهم التي وضعوها. وقد شغل الناس بأخذ حاجتهم من الماء، وظن المصريون أن جنود المغول قد اتجهوا إلى اليسار لتوقعهم القزمية. وكان من المقرر أن يحاربوا في يوم الخميس. ولإيهام الأعداء بالقزمية، ركبوا دفعة واحدة في يوم الأربعاء [ص ٣٣٥] وتقابلوا وجها لوجه.

ولما علم سلطان الإسلام غازان بوصول الأعداء، صلى ركعتين بنية صادقة مع جميع الجنود، ثم ركب، وجاء في مواجهة الأعداء مع من كان حاضرا معه من الجنود. وكان الأمير "مولاي" على رأس الميمنة، وبإيه الأمير زاده ساتلميش، وبإيه الأمير قتلغ شاه ومن بعدهم "يمين" و"مرتد"، كل مع فرقة المكونة من عشرة آلاف جندي (تومان). أما سلطان الإسلام فقد وقف في القلب كأنه جبل شامخ. وكان في مقدمة القلب الأمراء: چوپان و"سلطان چوپان" على اليمين، وسلطان على اليسار. وكان على ميمنة القلب طغرلجيه بن آجو سكورجي، وخلف القلب وزير السلطان من قوى المرتبة السامية. وبعد

المعروف للجميع أن حكم هؤلاء القوم آل إليهم اتفاقا وليس استحفاقا، فكلهم كانوا عبيدا لأسرة جد سلطان الإسلام المشهور. ثم قال لهم سلطان الإسلام [ص ٣٣٧]: ليس هناك خير من وجودكم أحياء، ولكن يوجد في الموتى من أسلافكم كثير من الخير والبركة. وبني لأخطركم بأنني سوف أصفح عنكم أنتم الجهال إكراما لهؤلاء الموتى. فاستبشر بذلك أهالي دمشق إلى أقصى حد، وقويت عزائمهم، ودعوا للدولة كثيرا.

وفي الثاني من ربيع الآخر ذهب إلى ميدان الحصا للترضج. وعندما وجد زرها ناضرا للغاية، رأى من الواجب صيافته والمحافظة عليه. ثم عين جماعة من الحراس على بوابة "باب توما" حتى لا يدعوا الجنود يشقون على سكان المدينة، وأمر بإغلاق البوابات السبع الأخرى. وبألا يتجول الجنود في البساتين، ولا يخربوها. ثم ولي "تجحاقي" إمارة دمشق؛ إذ إنه كان من قبل أميراً هناك، وبذلك دخل في الطاعة. وعين قتلغيا شحنة على المدينة، وقرر أن يعهد بالتصرف في الأموال والمحافظة عليها إلى فخر الدين أمين الشرجي وسيد زين الدين كما كان الوضع سابقا، وكلفهما بالتصرف حسب القواعد اليهودية والمعتادة. وإذا عرض لهما أمر هام، فإن عليهما أن يعرضاه على وزيرى الحضرة. وهناك طائفة من ملازمى السلطان الذين كانوا هناك مثل كتاب الخزانة والجيش وغيرهم، وهؤلاء جميعا شملهم برعايته، وقرر أن يستمروا في أداء أعمالهم.

بعد ذلك عرض الأمراء وأهمل على غازان قائلين: "حيث إن أهل القلعة لا يدخلون في طاعتنا، لا يمكن أن نخلص لنا سكان المدينة. وإذا فالصلحة تقضى بأن نغير على المدينة. ولقد اتفق جميع الأمراء على هذا الرأي. ولهذا استولى القلق والرعب على أهل المدينة إلى أقصى حد. ولكن سلطان الإسلام رقى لحافهم، ولم يقبل هذا الرأي، وأصدر فرمانا يقضى بالألا يشق أى مخلوق على أهل المدينة، ولا يتعرض لهم بسوء، وأن يمنع منعاً باتاً كل واحد من الأمراء والجنود يريد أن يدخل المدينة، ما لم يكن لديه تصريح خاص من الديوان.

وفي يوم الثلاثاء الثامن عشر من الشهر تنفيذا للأمر الذى كان قد صدر بخصوص السماح بارتداد الخدائق، وقطع الأعداء الملائمة للمتجنين [ص ٣٣٨] بقصد الاستيلاء على القلعة، ألقى جمع من سياس الخيول والأرمن والكرج والأنباغ بأنفسهم فى ساحة الصالحية وقاموا بالقتل والنهب والأسر؛ فغضب سلطان الإسلام من ذلك التصرف. وعلى

الغور أمر أرغى بن فرغى بن كيتويوقا بالذهاب إلى هناك وحماية الناس، وقتل الأشخاص الذين شنوا الغارات، واغتصبوا أموال الناس. فلما وصل هذا القائد تفرقت جموع الجند الذين كانوا قد عاثوا فسادا. وأخذ جنود أرغى يبحثون عن دهار الكرج والأرمن واستعادوا منهم الأسرى، وأطلقوا سراحهم.

وفي يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الآخر عام مولاي الذي كان قد تعقب المنهزمين حتى غزة. وحيث أن الجور كان قد مال إلى الحرارة، لم يهتم السلطان غازان بأهل القلعة الذين كانوا قد خرجوا على طاعة مصر.

وفي يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى عام من دمشق، وترك الأمير قتلغ شاه والأمير جويهان للمحافظة على استتباب الأمن هناك على أن يعودا إذا ما حل الربيع. ثم كلف الأمير مولاي بأن يقيم هناك على رأس جيش كبير، وعين ناصر الدين بجي ليكون في خدمة قهچاق وأستد عملا مناسباً لكل من ييكبمور واهليكي اللذين كانا قد قتما إلى الحضرة. ولكنهما وكذلك قهچاق نسوا حق نعمة سلطان الإسلام ورعايته لهم. وكانوا يشيعون الإشاعات المختلفة مما كان سببا في عودة الأمير مولاي والجماعة.

وصفوة القول أن سلطان الإسلام عبر نهر الفرات في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى في معاذة قلعة جعير على جسر كان قد اقترح إقامته، وهو مصنوع من حزم القصب، ومربوط بحبال من لياف الأشجار. وفي ذلك اليوم أيضا لحق بمضارب الخيام ووصل "سلطان يساول" الذي كان قد سار إلى غزة. وعلى حدود مستجار لحق السلطان بالحقوتين. كذلك وصل رسل كرماني، وعرضوا على غازان نيا سرد محمود شاه وأشباهه، وقتل علامة العالم مولانا فخر الدين [ص ٣٣٩] فاضى هراة وأولاده بسبب الفتن التي أثاروها.

وفي يوم الثلاثاء الخامس عشر من جمادى الآخرة، وصل السلطان إلى الموصل. وفي يوم الأحد الخامس من رجب، قدم قتلغ شاه نوبان من الشام، وأخبر غازان بمخالفة قهچاق وأتباعه. وفي غرة شعبان عبر سلطان الإسلام نهر دجلة. وفي السابع عشر من شعبان وصل الأمير مولاي من دمشق. وفي التاسع عشر من شعبان سعد بشراف لقاء الحضرة - في منطقة دربند زنكي الأمير نورين وجيجاك وطوغان اللذين كانوا قد عادوا من أران، وفي

يوم السبت الخامس عشر من رمضان، نزلت الرهبات السلطانية في مراغة وذهب في اليوم التالي لمشاهدة المرصد، ورأى كل أعماله وأجهزته، وتفحصها بأكملها بشأن تام، واستفسر عن كيفية استعمال كل منها. ورغم وجود معضلات دقيقة تتعلق بها، فهم أكثرها. ثم أمر بأن يقام مرصد آخر بجوار القبة العالية ومواقع أبواب البر في "شم"، على أن تقتصر بعدة أعمال شرحها كلها بوضوح، لدرجة أن الحاضرين من الحكماء قد أعجبوا لحسن استنباطه إذ إنهم لم يقيموا مثل هذا العمل في أي عهد من العهود. وقد بين الحكماء لغازان أن إقامة هذا المرصد أمر متعذر للغاية؛ فلمهم ولرشدهم، وشرعوا في إقامة هذا المرصد على سبيل التجربة والاختبار، وأنصوه حسب تعليمات السلطان. وهم جميع المهندسين المهرة مجتمعين على أن أحدا لم يقم مثل هذا المرصد، ولم يعرف له نظيرا. ثم رحل غازان من هناك، وقدم إلى لوجان.

وفي يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال، شرعوا في عقد مجلس الشورى (القوريلتاي). وبعد أن انفض المجلس توفي الأمير التجل آلبو في يوم السبت الثالث من ذي الحجة سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م في لوجان، وحمل جثمانه إلى القبة العالية بتبريز. وفي السادس من ذي الحجة استأذن الأمير التجل غرينده في العودة إلى خراسان. أما غازان فكان نفسه فقد عزم على الرحيل باليمن والإقبال إلى دار الملك تبريز وكان يذهب كل يوم للإشراف على تشييد القبة العالية. والسلام.

حكاية توجه سلطان الإسلام إلى الشام ومصر للمرة الثانية

لما دخل فصل الحريف عقد غازان خان عزمه على السير مرة ثانية إلى ديار الشام. وفي يوم الإثنين غرة المحرم سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م سير الأمير قتلغ شاه في المقدمة على رأس جيش كبير.

وفي الخامس عشر من الشهر المذكور غادرت الرايات السلطانية تبريز، وهي على هذا العزم. وفي الثالث من صفر أعاد نورين تلقا من "جفاتو" كسى يمشى إلى أران. وفي الرابع من ربيع الأول وصل باليمن والإقبال إلى مدينة الموصل، وأمضى يومين أو ثلاثة في الأُس والسُرور. ثم سار إلى منطقة "أبو ميرى" بناء على اختيار الجنود وسير الأميرين جوهان ومولاي في المقدمة.

وفي ذلك الوقت توليت طغانشاه عثاقون بنت مبار كشاه في منطقة سنجار. وفي السادس من ربيع الآخر عادت الحواريين اللاتسي قدامن من رأس العين لتوديع غازان. وفي الثاني عشر من ربيع الآخر وصل "شينقا" من قبل الجيش، وأخبر قائلا إن يزكسا (رئيس عسنا) داهم بعدة فرسان، "كوشلوك" طلحة جيش الأعداء، وقتل منهم أميرا.

وفي السابع من صفر عبر سلطان الإسلام الفرات بمحافظة جعبر وصفين. وفي يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من صفر نزل في أعلى "حبول" على مفرجة من حلب. ثم وصل "قبرنو بهادر"، ومعهُ العديد من السوريين الذين كان قد أسرهم. وفي السابع والعشرين شاعت الأراجيف عن وصول الأعداء، فهب الجيش كله دفعة واحدة. ولكن اتضح بعد التحقيق أن هذه الأخبار ملفقة فتخلوا عن حالة التأهب القصوى. وفي الخامس من جمادى الأولى اجتازوا حلب، ونزلوا في رباط "وصيحي" على ضفاف نهر "توق" الذى هو عبارة عن وادى نهر مدينة حلب. وفي السابع من الشهر حلوا بمحاذة قنشرين.

ولما لم تكن هناك أخبار عن الأعداء، ولم يخرج سلطان مصر خوفا ورعبا، رأى سلطان الإسلام بيلاذ للمسلمين، ولم يتقدم أبعد من ذلك، وأمر بأن يربط قتلغ شاه مع جيشه في

"سرمين". وكان المطر غزيراً في ذلك الشتاء. [ص ٣٤١] وقد اتفق أن نزل في موضع ردى الأمير سوتاي مع بعض من جنود الأمير "شباوجي" الذين قدموا من الروم. وفجأة هطل مطر غزير^(١)، واشتد البرد، وظهر وحل كثيراً بحيث إنه لم يستطع الأسيران أن يتصل أحدهما بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. ولهذا أرسل السلطان غازان الأمير مولاي مع تومان من الجنود (عشرة آلاف جندي) حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقلوا أنفسهم بألف حيلة (بصعوبة بالغة).

وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى عاد السلطان، واجتاز الجسر الذي كان قد أقيم بمحاذاة مدينة الرقة، وزار قبر عمار بن ياسر وشهداء صفين (رضى الله عنهم). وفي يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخرة لحق بالحوادث والجنود في موضع "جهار طاق" أدنى سنجار. وفي سلخ ربيع الآخر توفي الأمير سائلمش بن بورالفي من أقارب "التاجر آقا" على جنود كشاف، فحزن السلطان حزناً شديداً لنبأ وفاته. وفي يوم الخميس الحادي عشر من رجب وصل من الشام "سلطان يساول". وفي منتصف رجب عاد أيضاً الأمير قتلغ شاه، وأمضى مع مرافقيه عدة أيام في تلك المنطقة في الأُس واللمعة والصيد.

وذاث يوم كان سلطان الإسلام يدعو وراء أحد الغزلان ورماه سهم. وبدا كأن السهم لم يصبه. ولكن سقط الغزال فجأة فاحتاط أتباع السلطان للأمر غير أنه اتضح أن الغزال أصيب من ذلك السهم بسبعة جروح. وقد شاهد هنا المنظر عامة الخلق، وتبين لهم كيف حدثت تلك الجروح السبعة؛ وذلك أن سهماً يسميه للمقول "تونه" فصله له ثلاث ريشات حادة إلى أقصى حد قد أصاب الغزال عند وثوبه في الهواء، فتقاربت بناه ورجلاه، فأصاب السهم قوائم الأربعة وجرحها، ومرق منها، فأصاب صدره وبطنه، ونجت أذنه كذلك. وقد أحدثت كل ريشة من النصل جرحاً طويلاً. وعندئذ وصل تأثير السهم إلى عطف وحلقه [ص ٣٤٢]، فجرحه جرحين آخرين؛ بحيث إنه قد ظهرت فيه بالتحديد على هذه الصورة تسعة جروح.

(١) انظر تفصيلات عن هذا الحدث في كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الطبيعة، ج ٩ ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

بهذه الرواية تكون قد محبت عموماً تماماً حكاية "بهرام جور" (١) الذي رمى بمهارته غزالياً فربط ظلفه بأذنه، تلك الحكاية التي أعجب بها الناس كثيراً. وعلى مدى ألف وخمسمائة عام ظلوا ينقشونها على الجدران، وبصورتها في الكتب. ولقد شاهد هذا الحادث ما يزيد على ألفي شخص.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شعبان، وصل رسل توتقاي ملك الوس جوجي وتشرفوا بلقاء الخضر ثم عادوا سريعاً. وفي يوم الأربعاء سلخ شعبان عبر غازان خان نهر دجلة، وأمر وهو في الطريق باعتقال الأكراد الذين كانوا يرتكبون كل أنواع الجرائم ويمشون في الأرض فساداً، وقُتل منهم الكثيرون. وفي الرابع والعشرين من رمضان نزل غازان خان في أوجان. والسلام.

(١) تكتبه المصادر العربية، "بهرام جور" وللصود به بهرام الخامس بن بزجرد الأول المعروف ببزجرد الأحم أحد ملوك الساسانيين. تولى بهرام عرش إيران بمساعدة المسلمين بن الظفر ملك الحيرة. حكم من سنة ٤٦٠ - ٤٧٨ م. كان بهرام مثلاً أعلى للشجاعة والفروسية. ونظراً لولته بعبد حمار الوحش (جور) أطلق عليه "بهرام جور". كان يظلم الشعب بالفارسية والعربية. أسبه الإيرانيون لبله إلى الفنزو والفتح والانتصار على الأعداء، وللتعريف عن الرحمة إذ أباح لهم أن يأخذوا بصيغهم من الذهب والفضة إلى أقصى حد. وقد اشتهرت سيرته بولمه بالصيد وعشقه النساء.

حكاية

تكريم الخواجه سعد الدين صاحب الديوان

وقتل حسده

بعد أن عاد سلطان الإسلام باليمن والبركة والإقبال من رحلته بالشام، نزل بمدينة الإسلام "أوجان". وفي السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م كرم الخواجه "سعد الدين"^(١)، وشمله برعايته إلى أقصى حد، ومنحه "الختم الأحمر" "الصفحة"^(٢) وفوض إليه شئون صاحب الديوان. وفي غرة ذي الحجة كان زفاف قتلخ شاه نوبان على "أهل قتلخ" ابنة جهاتو.

وفي ذلك المصيف كان جماعة من المقربين وأصحاب الديوان مثل صابن القاضي والشيخ محمود والسيد قطب الدين ابنجو الشيرازي وغيرهم من الأتباع قد عقدوا جلسة للمشاورة بقصد إقضاء السادة من كبار موظفي الدولة.

[ص ٣٤٣] وفي المجلس الذي كان "يحتسى فيه السلطان الشراب"، صار يذكر الأمراء. وكان السيد قطب الدين الشيرازي حاضراً، فقال: "إن باسمي كان رجلاً حسن السيرة فقال السلطان: أنت تتحدث عن حسن سيرته لأنك ذهبت معه إلى شيراز، وكان أداة لكسبك، وجلب المنفعة لك، وحصلنا على أموال طائلة من هناك. ثم أضاف السلطان قائلاً: إنك وأمثالك تسعون دائماً إلى الفتنة والشر. فرد قطب الدين تحت وطأة السكر: إن السلطان يظهر الكرامات كأنه كان معنا أثناء المشاورة. فأدرك السلطان بحسده وفراسته ما دار بين المتأمرين. وفي تلك الليلة أيضاً أمر باعتقال الشيخ محمود. وفي الصباح قبض على

(١) انظر تفصيلات عن هذا الوزير في كتاب مؤرخ للثول الكبير، تكليف الدكتور نواد عبد المظني الصباه، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

(٢) كلمة مقولية مركبة من آل بمعنى أحمر صفاً يعني حتم، أي الختم الأحمر. وأحياناً يكتب هذا اللفظ "صفحة" آل. وكان هذا الختم كؤل الأمر مريح الشكل، والختم به للشهورات والقرارات والأسكهم، وذلك بلفظ الأحمر. وبناء على طلب نوروز أمير السلطان خزان أمره بأن يفر هذا الختم، فحضر مستعداً بدلاً من أن يكون مرتباً وذلك بقصد هيبته والبركة والفضول (انظر الجوهري: تاريخ جهانگشاى، ج ١ ص ٦٥ من للقدماء مؤرخ للثول ص ٧٧).

صاين القاضى والسيد قطب الدين ومعين الدين الخراسانى وأمين الدين الإيماجى وسعد الدين حبش، وشرح المحققون فى استجوابهم. وبعد سبعة أيام أطلقوا سراح أمين الدين. وبعد عشرة أيام أطلقوا أيضاً سراح سعد الدين حبش لأن كلا الاثنين لم يرتكب ذنباً. وفى يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة قتل صاين القاضى والسيد قطب الدين ومعين الدين فى موضع "دول". وفى يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ١٣٠١/٨٧٠١م أطلق سراح الشيخ محمود بشفاة بلوغان خاتون.

كان سلطان الإسلام غازان رحيم القلب إلى أقصى حد، ولا يميز إيلاده أى مخلوق لدرجة أنه إذا سقطت ذهابة فى الطعام فإنه كان يترجها بيده المباركة بحيث لا ينكسر جناحها ويدعها تستعيد قوتها، ثم يطورها. مع هذا كان يصرح بقوله: "إن قتل بعوضة بريئة أشق على من قتل إنسان ملذبة؛ لأن ترك الإنسان الكثير للفتنة حياً يؤدى إلى خلل كبير لا سيما فى شئون المملكة والسلطنة".

**توجه سلطان الإسلام غازان خان إلى الأتابغ
ثم تحركه هناك عن طريق نخجوان
إلى مشنى أران، ووصول الرسل
الذين كانوا قد ذهبوا إلى مصر**

في يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م توجهت الرايات السلطانية إلى الأتابغ. وفي الحادي والعشرين من الشهر المذكور سار قطغ شاه نوبان على رأس جيش فاصدا ديار بكر عن طريق مرافقه. وفي يوم الخميس الثاني من صفر، نزل سلطان الإسلام في قصر آتابغ. وفي يوم الأحد الثاني من ربيع الأول تحرك من الأتابغ فاصدا أران عن طريق نخجوان. ثم صدر الأمر بعودة الأمير قطغ شاه إلى ديار بكر. وفي يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الآخر وصل كمال الدين الموصلى وعلى خواجه اللذان كانا قد سارا برسالة إلى مصر. ولأن الجيوش عسكرت في منطقة قراباغ، لم يمكث سلطان الإسلام هناك طويلاً، وسار للصيد في جبال شروان ولكرستان حيث مارس الصيد عدة أيام. ومن هناك توجه إلى ناحية غاوباري للصيد الإوز. كما اشتغل هناك مدة بصيد الطيور والأسماك. ثم نزل بموضع "خليزى" التي سماها السلطان "قوش قيون"، وهي التي تقع على شاطئ البحر، وتنتد إلى حدود برمكى، وصر بها كافة أنواع الكركى والطيور المائية التي تعود من المشنى إلى المصيف. ولما حلت الأتربة السلطانية بتلك المنطقة على مقربة من "دربند"، انهزم ملك الألبوس، كما انهزم [ص ٣٤٥] أسرلاه الذين كانوا على مقربة من هذه الناحية ظانين أن الأتربة الغازية متوجهة إليهم، وأن الجنود عبروا الأنهار. وبعد مدة عرفوا أن الأمر على خلاف ظنهم، فعاد التجار إلى التنقل مرة أخرى. وقد دخل في الطاعة جميع أسراء لكرستان الذين كانوا قد أعلنوا العصيان والتسرد منذ مدة طويلة، واعتباراً في الجبال المنبعا فتوجهوا إلى الحضرة عن إخلاص ورضا وسسكوا بالعروة الوثقى طامنين متقادين. وقد اعتقل جماعة اللصوص والرعاع الذين كانوا قد قدموا من ولاية آذربيجان واعتصموا بالجبال. وكانوا يمارسون أعمال اللصوصية وقطع الطرق فقتلوا جميعاً. ثم عاد غازان خان

من تلك الجهات، ونزل في المعسكرات في بيلسولر و"همه شهرة". بعد ذلك خرج محترماً الصيد في المناطق الواقعة على طريق تالشان واسيهيد. ثم أمر بإقامة جدارين من الخشب والحسك وسط تلك الجبال، وذلك في مدة ما يقرب من يوم واحد؛ بحيث كانت الفتحة الخارجية الواقعة بين الجدارين بقدر مسيرة يوم واحد تقريباً. وكانت تضيق شيئاً فشيئاً على شكل مخروطي حتى تصير الفاصلة بينهما خمسين ذراعاً. وفي قاعها أقاموا - من الخشب - ما يشبه الحظيرة. وبعد ذلك أعد الجنود خندقاً دائرياً، وأخذ الصيادون يسوقون الصيد^(١) بين الجدارين، حتى جمعوا الحيوانات كلها في تلك الحظيرة. وكان من بينها البقرة الجبلية وحمار الوحشي والغزال وابن أوى والثعلب والذئب والذئب وغير ذلك من أنواع وأصناف الوحوش والسيباع.

ولما كانت هذه الحيوانات محصورة بين الجدارين وليس لها مخرج كان لا مفر لها من الدخول في الحظيرة. وكان سلطان الإسلام يجلس مع بولوغان خاتون في عريشة صنعت من الخشب، وأقيمت وسط تلك الساحة، فكانا يشاهدان تلك الحيوانات. وقد اصطادا بعضها، وأطلقا بعضها الآخر. ثم رحلا من هناك، وكانا يتجولان ويتقلان من مكان إلى آخر إلى أن وصلا إلى دار الملك تيريز. فصار أهل ولاية آذربيجان من رجال ونساء وكبار وصغار يسطون أيديهم بالدعاء عن طوعه وإذلاله. كما هجرت ألسنتهم بالثناء على حضرة السلطان. ثم خرج جميع أهل تيريز مع علماء الإسلام بنظام وترتيب تام، وقاموا بمراسم الاستقبال، فأظهر لهم سلطان الإسلام كل عطف ورحمة، وأعفاهم من التكاليف والمؤن غير الملائمة. والسلام.

(١) جرى على عادة آباءه وأجداده الذين كانوا يهتدون بالصيد اقتسماً كبيراً، ويصون فيه رياضتهم الحسية ويحفظونه وسيلة للإعتماد والتدريب إذا ما جد الجهد، ودعوا إلى حمل السلاح وحوض شرف المعارك فهم في حلبات الصيد يتصرفون على ما سيظهره وقت الحرب (انتظر الجورني: تاريخ جهانگشاى، ج ١ ص ١٩ - ٢٠ د. السامى عبد السامى: عفا ملك الجورني وكتابه جهان گشا ص ٢٣١ - ٢٣٢، القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩١م للقول في التاريخ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤).

مكايبة

الاحتفال العام الذي أقيم بأمر سلطان الإسلام في المعسكر الذهبى بموضع حديقة أوجان وهتم القرآن وهذل العطايا والصدقات

كان سلطان الإسلام قد أمر الصناع البارعين والمهندسين المهرة بإقامة سرداق منسوج مخيوط ذهبية، وعرش مطلى بماء الذهب. وكان هذا السرداق مزوداً بالآلات والأدوات المناسبة. وقد ظلت مجموعة كبيرة من الصناع، تعمل مدة ثلاث سنوات فى إعداد ذلك السرداق. وما أن حل غازان بدار الملك تبريز فى هذا الوقت حتى كان السرداق قد تم.

وفى أواخر ذى القعدة سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م سار غازان خان من تبريز إلى أوجان. وهناك كانوا قد أقاموا سوراً حول مرج ناضر بهيج للغاية، أعد لتزوله المبارك حيث تجرى الأنهار والينابيع. وقد أقيمت الأحواض والبحيرات العظيمة، فاختلفتها أنواع الطيور ماوى لها، وقسم ذلك المربع المتساوى الأضلاع إلى أقسام متساوية، وعلى جاتى كل ممر منها غرست أشجار الصفصاف والخور ليمر الناس من تلك الممرات، ولا يسير أى مخلوق وسط المرج. وقد عيّن طريق لكل طائفة لتعرف من أين تدخل، ومن أين تخرج. ثم أمر بإنشاء الجواسق والأبراج والحمامات والعمارات العالية، [ص ٣٤٧] وبأن يقام كذلك السرداق المرمرى مخيوط ذهبية وسط تلك الحديقة، وكذلك للمخيم السلطاني والظلمات الخاصة به. وقد احتشد جميع العمال والمهندسين، واستطاعوا إقامة المخيم فى مدة شهر. وكان غاية فى الفخامة. ثم وضعوا العرش المرصع بالجوهر والياقوت.

وتعظيماً للإسلام بادر غازان خان قبل إقامة الحفيل بدعوة السادات والأئمة والشايخ والقضاة والمصلحين. وبالتبعية دعا أهل الأمم من الطوائف الأخرى. ثم توجه إلى الجميع، وعاطبهم بلسان فصيح وبیان عذب، وساق على لسانه حديثاً دقيقاً فى باب الحكمة والمعرفة. وكان ينصح طبقات الناس ويعظهم، وصار يشكر النعم والآلاء الإلهية. وخلال حديثه قال: إني أنا الصمد الضعيف أعترف ولقر بالعجز والقصور وكثرة الذنوب وبأنى لست جديراً بهذا العطاء، ولا لائقاً لهذه الموهبة؛ غير أن فيض الرحمة والرأفة الإلهية

وأثار لطف وكرم البارئ عز وعلًا عظمة في حق عباده إلى أقصى حد. ولا شك أن نعمه من الكثرة بحيث لا يستطيع ابن آدم، ولا جميع الخلائق أن يوفوها حقها من الشكر ولست غافلاً عن أن شكرها واجب ولازم بمائة ألف لسان؛ إذ إن الله - فضلاً وإحساناً منه - قد أدخل جميع خلائق إيران الذين هم ودائع الحضرة الإلهية في دائرة طاعته. ولست أجدع بمرور الملك السريع الزوال، والذي انتزع من عدة آلاف من الأشخاص، ومن بين أصناف النعم التي من الله بها على أنه منحني ما لم يمنحه للثوك الآخرين. وقد حقق لي آمالي أسلافِي. وإن أفضليها أن عباده قد آمنوا بطبشي [ص ٣٤٨]، وهم راضون بحكمي وراغبون فيه.

وبناء على هذه المعاني والمقدمات لم أشأ أن أدخل هذا السرداق والمخيم بالجماه والجبروت. وينبغي في هذا الزمان أن نؤدى شكر هذه النعمة العظمى نحن وأنتم أي الحاكم والمحكومون؛ وذلك يكون بالتضامن، ودون تفارق ورياء، ونقلب من الله غفران ذنوبنا مخلصين متضرعين.

والآن نبدأ حفلنا بتلاوة للقرآن الكريم، ونؤدى الطاعة والعبادة، ثم نشغل باللهو والطرب.

هكذا نطق غازان بهذه الكلمات للهدية، وذكر اسم الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم بالتعظيم. ثم وضع قدمه المبارك في السرداق وأسند ظهره إلى مسند التوفيق والنجاح. ثم أمر بإحضار ما لا يعد ولا يحصى من قطع الذهب والفضة، وتصديق بها كلها بعد إطعام الناس بأصناف الأطعمة المختلفة شكراً لله؛ بحيث نالت كافة الطوائف نصيبها منها. بعد ذلك استغلت كل طائفة على طريقتها مدة ثلاثة أيام بلياليها بتحمم القرآن، وأداء فروض العبادة.

وفي يوم الاحتفال وضع غازان على رأسه تاجاً مرصعاً بالجواهر لم ير أحد مثله، وشنطق بمنطقة مناسبة له، ولبس الثياب للزر كثة الثمن للثبابة، وأمر أيضاً بتزين الخواتين وجميع الأمراء الأتجال والأمراء والمقرنين بكل أنواع الزينة. وكان الجميع يمتطون الجياد التي لا نظير لها، وصاروا ينجولون.

وبعد انتهاء الحفل انصرف إلى ضبط شئون المملكة، وتدير مصالح السلطنة والترفيه عن الرعايا، ورعاية كافية البرايا. وكان قد تشاور مع أمراء الدولة وأعيان الحضرة، فاستقر

الرأى على أن يقم الأمير خربنده فى مازندران وما جاورها خلال الشتاء، ويمضى الصيف فى نواحي طوس وأبيورد ومرو وسرخس ومنطقة بادغيس. وأما الأمير نورين فيسكن فى أران مع جنوده المعينين، وذلك طبقاً للقرار السابق على أن يظل مقبلاً هناك. [ص ٣٤٩]

أما الأمير قلفشاه، فيتوجه إلى ناحية جورجيا، ويسير بعضاً من جنود الكرج إلى ناحية ديار بكر، وينضمون إلى كتية الأمير مولاي المكونة من عشرة آلاف جندي ليكونوا على أهبة الاستعداد للسفر إلى الشام. وأما كتية هولاجو فترحل إلى فارس وكرمان؛ حتى إذا دعت الحاجة فإن عليهم أن ينضموا إلى الأمير ساداق وسلطان كرمان.

وهكذا نُظمت الأمور وفق هذا الترتيب، ونفذ الجميع ما أشار به السلطان. والسلام.

مكايمة

توجه الرايات السلطانية من مدينة الإسلام أوجان إلى بغداد، والأهدات التي حدثت في الطريق ثم الوصول إلى واسط والعتة وعقد النية على السير إلى الشام

في غرة المحرم سنة ١٣٠٢/٥٧٠٢م توجه سلطان الإسلام من مدينة الإسلام "أوجان" إلى ناحية همدان عانقاً العزم على السفر إلى الشام. وفي تلك الأيام تقرر أن يسير الأمير "نورين" إلى أران لقضاء الشتاء والمحافظة على تلك الجهات.

وقبل أن يستأذن من الحضرة توجه نحو "هشترود". وقد ليس للسواد أبناء شرف الدين عبد الرحمن الذي كان حاكماً على تبريز مدة من الزمان ثم سار بعد ذلك ليكون مستوفياً على ممالك الروم، ولجأ هؤلاء الأبناء إلى عدالة حضرة السلطنة قائلين: إن نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه قد أضر بقتل والدهم. وعندما بلغت الرايات السلطانية هشترود نال الأمير نورين الإعزاز والشكر. ثم عاد متوجهاً إلى أران (ص ٣٥٠). وفي يوم عاشوراء قتلوا نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه ودوكشاه بن أبي بكر داد قابادي بتاحية بوز آفاج وهشترود. كما قتلوا في اليوم التالي عربشاه حفيد السلطان "حجاج كرمان". ومن هناك دخل السلطان همدان، ونزل في الحانقاه المبارك الذي أنشأه في قرية بوزنجرد، وأوقف عليه أوقافاً كثيرة. وكان بناء فخماً وعالياً إلى أقصى حد. ثم سار من هناك إلى "جفان ناوور فراهان" حيث أقام عدة أيام. ثم سلك طريق نهاوند فاصداً جهجال.

وفي ناحية بيستون دخل في طاعة غازان ثلاثة من أمراء الشام كان مقدمهم على سير فأكرمهم سلطان الإسلام، وأنصم عليهم. ووقت فتنه نوروز، واعتقال إخوته وأتباعه في ناحية كرمانشاهان كان السلطان يقيم مع جماعة من الأقربين إليه في العراء في الصحراء دون عيمة تزويهم. وقد ناموا وسط جبل كان قد نبت أمامه شجرة وارفة الظلال. ولأن لكرى لم يكن قد قبض عليه، ولم يكن مصرير نوروز قد علم، كان الحفاطر المبارك لغازان مشتتاً بعض الشيء. وبخصوص ذلك الأمر، صار يفكر في ذلك الموضوع، فظهر من عالم

الغيب فتح وفرج. وعندما وصل إلى هناك وكانت الآمال قد تحققت تذكر ذلك الموضع وتلك الشجرة؛ فذهب فاصداً زهرة تلك الناحية، وبصحته جميع الخواتين والأمراء، فبكى وتذكر تلك العزيمة والضرعة والدعوات [ص ٢٥١] التي توجه بها في ذلك الوقت فأدى واجبات الشكر على ما ناله من ظفر ونصر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد وتشموع تام، طلب من حضرة الحق تعالى النصر في جميع الأحوال، ثم رفع رأسه، وأخذ ينصح الجمع قائلاً: استعينوا بالحق جل وعلا في السراء والضراء، ولا تيأسوا من رحمة بأى حال ولا تقمروا ولا تغتروا بأى شيء. وثيقنوا أنه لن ينهب الله عنكم طرفه عين، ولا تتخذوا بقوتكم وقدرتكم، واعشوا البطش الإلهي. ثم للمتمس غازان حاجاته من الحق تعالى، ونوى نوايا طيبة من كل نوع؛ خصوصاً فيما يتعلق بتحقيق العدل والإنصاف على نطاق واسع. بعد ذلك ربط جميع الحاضرين علامات على تلك الشجرة، وأصبحت مزاركاً لهم.

بعد ذلك عرف المطربون بعض العزف، ورضى الأمراء. وكان الأمير يولاد چينگسانگ حاضراً، فقال: إن "قوله فآن" عم جد سلطان الإسلام، كان في عهده ملكاً على عدة أقوام. وكان بطلاً في غاية الشجاعة حتى كانوا يضربون به النبل في البطولة، ونظّموا فيه شعراً كثيراً، وكان صوته جهورياً مرعباً؛ بحيث إنه كان يصل إلى السامع على بعد سبعة نلال. وتصادف أنه سار ذات يوم مخاربة للمركيت^(١). وفي الطريق وحصل إلى إحدى الأشجارا فنزل عندها، وناجى الله الأزل، وطلب منه النصر، ونذر قائلاً: إني إذا انتصرت على العدو، فسوف أجعل هذه الشجرة مزارك، وأزينها بالأقمشة الملونة الجميلة، فنصره الحق تعالى جلي علوه. ولما عاد بعد الفتح، وتقدم إلى تلك الشجرة، وقى بمنذره وزينها، وشكر الحائقي عز وعلا ثم أخذ في الرقص مع جنوده تحت تلك الشجرة، ودقوا الأرض

(١) قوم مركيت، يطلق عليهم اسم "مركيت"، وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد التركيت على جري نهر سندجا وجنوب بحيرة بايكال، وكان لهم جيش قوى فو بأس شديد في الحروب، ويعتدون أصلاً من جنس المغول، ولكنهم قاموا بعدة حروب ضد چينگيز خان وفونك خان. وقد عرف عن هؤلاء قلوبهم ميل إلى الشغب والثورة الفتن. ولهذا عن عليهم چينگيز خان حرباً شراً مستصلاً نفس ما عرف عن المغول من قسوة وحدة. (انظر رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد اول از آمل بهمهش ليايل منول نايابان دورة تيمور شاه، ص ٧١ - ٧٢، بكوشش دكتور بهمن كرمي، تهران ١٣٣٨ هـ.ش.).

بأرجلهم دقاً عتياً إلى حد أن هبط ما حولها بقدر خراج، وأحدث حفرة عميقة. فأعجب سلطان الإسلام بذلك الكلام إلى أقصى حد، وقال: لو لم يكن لأجدادنا هذه النية والإخلاص، لما صيرهم الله سادة ملوك العالم، ولما بلغت أسرتهن هذه المنازل الرفيعة والدرجات العالية. [ص ٣٥٢] ثم مكث ساعة في حالة من الفرح والسرور مصغياً إلى المطربين.

بعد ذلك سار السلطان غازان عقب الجيوش، وفجأة وصل الرسل من قبل الأمير قتلغ شاه، ومعهم أمراء الشام الذين كانوا قد فروا من هناك، ودخلوا في الطاعة، وعلى رأسهم "علاء الدين"، فشملمهم السلطان بعطفه وطيب خاطرهم بالعود الطيبة. وعند تلك الحدود أيضاً وفد رسل فاسيليوس ملك القسطنطينية يحملون التحف والهدايا، وأبلغوا غازان أن فاسيليوس يريد أن يكون في ظل حماية سلطان الإسلام، وأن يرسل إليه ابنته لتكون عظيمة له، فشملمهم السلطان بعطفه. ومن هناك رحل إلى "بندنجين". وبعد إقامة ثلاثة أيام، أرسل الخواتين والأسرى إلى بغداد. وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الآخر، ركب من بندنجين قاصداً الصيد في جوقين. كذلك شغل بالصيد عدة أيام في نواحي شيب وواسط ومشهد سيدي أبي الوفاء رحمه الله. ثم ذهب لزبارة المشهد، وخص الجوارين بالصدقات والإنعامات، وأمر بإقامة عمارات على شاطئ النهر الذي كانوا قد أجروه من نهر الفرات إلى تلك الصحراء القاحلة، ولذلك السب صار ذلك المشهد كأنه مدينة. وبعد ذلك قدم غازان من هناك إلى الخلة، ونزل في المعسكرات. وفي الخلة وصل إلى الحضرة القاضي نصير الدين التبريزي والقاضي كمال الدين الموصلى اللذان كانا قد أرسلهما غازان من أران برسالة إلى مصر^(١)، ثم عادا من هناك، ومعهما رسل مصر، فقدموا الرد على الرسائل وكان بيناهم الصواب. كذلك قدم رسل توتقا البالغ عددهم ثلاثمائة فارس.

وفي يوم الأحد غرة جمادى الآخرة الذي كان على رأس السنة التركية أتيتمت الولايم والاحتفالات. وفي ذلك اليوم تشرف بلقاء غازان رسل مصر وكذلك توتقا، فخصه برعايته الفاتحة. ثم أرسل المصريين [ص ٣٥٢] إلى تبريز، وأطلق عليهم أبواب المدينة حتى لا يهادروها.

(١) انظر نص الرسالة في كتاب رتبة الفكرة في تاريخ المبروء ج ٩ ص ٣٣٦ ٣٣٧.

وفي يوم الإثنين التاسع من جمادى الآخرة اجتاز غازان خان جسر الحلة فاصك ديار الشام. وفي يوم الإثنين السادس عشر من الشهر المذكور زار مشهد أمير المؤمنين الحسين (رضي الله عنه)، وعلّق عليه الستار الفاخرة التي كان قد أمر بإعدادها للمقام هناك، ومنع المجاورين والمناظرين صنفات لا حصر لها. ومن حاصلات النهر الغازاني الذي كان قد حُقِر في تلك المنطقة، والذي كانت مياهه تجري إلى "مشهد" عين ثلاثة آلاف من من الخبز، تقدم يومياً للسادات المقيمين هناك. وفي ذلك اليوم وصل "لرمسي بلا" من خراسان وأبلغ أن ثلاثة أو أربعة آلاف من المترددين قد قُتروا، فداهمهم الجنود المنصورون وأنهكهم وقتوهم عن آخرهم؛ فسر السلطان غاية السرور، وزاد حبه وشغفته نحو أخيه^(١).

وفي يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ١٣٠٢/٥٧٠٢ م وصل رسول أبلغ السلطان أن الأمير "نورين آقا" قد تولى في مثنى لران في أوائل جمادى الآخرة؛ فحزن سلطان الإسلام بسبب تلك الواقعة. بعد ذلك شرع يتناز الفرات من شاطئي إلى آخر. فلما بلغ "حدبة"^(٢) أمر أغلب الخواتين وكل أفراد الأُسر بعبور نهر الفرات والذهاب إلى ناحية سنجار، والإقامة هناك. ثم توجه بنفسه على رأس جيشه إلى عانة^(٣). وكان برفقته بعض الخواتين الأخرى بات بقصد توديعه. وفي يوم السبت الثاني عشر من رجب نزل بمدينة عانة. وفي الحقيقة أنه لا يوجد مكان في العالم أكثر روثاً وجمالاً من هذا المكان؛ إذ إن المدينة تقع على جزيرة وسط الفرات، وقد أحاطت بها الحدائق والبساتين الزراعية بالأشجار والرياحين؛ وذلك بعرض فرسخ، بحيث إن ضوء الشمس لا يقع من جوانبها على الأرض. وهناك أنشأوا الجواسق والأبنية العالية المنحوتة من الرخام. وقد شيّخوا بناؤها من أحساك الأرض، وفتحوا في جوانبها النوافذ التي تطل على الفرات، والحدائق الشبيهة بالجنات.

(١) المنصور أسره أوجاجو، وكان قد عين من قبله حاكمًا على خراسان.

(٢) الحدبة عرشان: أحدهما ماء الحدبة التي هي من بلاد الجزيرة، وتقع على الفرات أمت عتاء، وفوق الأبار. والثانية حدبة للوصل. والحدبة بلد على بعد فراسخ من الأبار في وسط الفرات، وثلاث محيط بها، ويقال لها حدبة الثورة (تقويم البلدان، ص ٢٨٧).

(٣) عانة: بلدة صغيرة على جزيرة في وسط الفرات. وهي على مقربة من للحدبة. وتشتهر بعمرها الذي يتردد صداه في الأشعار (تقويم البلدان، ص ٢٨٧).

[ص ٣٥٤] وهكذا فإن بهجة تلك البساتين ونضرتها ومزارع التخييل لما يفوق حد الوصف. وعلى هذا النمط الذى ذكره، تعدد عمارات توابع الفرات إلى مسافة تسعين فرسًا ابتداءً من "سكر فلوجه" الواقعة على حدود الأنبار حتى نهاية سروج^(١) وحران^(٢). وهذه العمارات يتصل بعضها بعضاً على امتداد هذا الطول المذكور، ويعرض فرسخ أو أكثر على شاطئ الفرات؛ بحيث لا تحسر قطعاً ظلال الأشجار عن أية بقعة. وتظل السدود مغلقة على اللوام، ودواليب السواقي تدور بالمياه على الجانبين ليلاً ونهاراً، والجواسق والأبنية العالية متلاصقة.

وصفوة القول فإن بلوغان خاتون ودعت زوجها غازان خان، ثم عبرت النهر وتوجهت إلى سنجار. أما الرايات السلطانية فقد قصدت مع الجيش المظفر إلى رحبة الشام. وقبل وصول الرايات السلطانية إليها أشيع أن العدو قد ظهر في أطراف الشام.

ورغم أن الإشاعة كانت كاذبة فإن السلطان أمر باستعراض الجنود، وتفقد أحوالهم تبعثه الجيش وإعداد الأسلحة والدروع.

وفي اليوم الثامن والعشرين من رجب ساروا حتى ظهر الرحبة. وكان الأهالي هناك قد هياؤوا العجلات الحربية، وانفقوا للاستعدادات الأخرى. ولكن غازان لم يعبأ بذلك، وغادر معسكره ليلاً، وصار على مقربة من القلعة. وكان الأمير علم الدين التتسمى وأهل الرحبة قد تحصنوا بالقلعة؛ فأمر سلطان الإسلام في آخر رجب بأن يذهب الأمراء الكبار وكفلك أصحاب الديوان إلى مكان قريب من القلعة. وهؤلاء هم: سوناي ولسطان ومؤلف هذا الكتاب: رشيد الدين الطبيب^(٣) والخواجه سعد الدين صاحب الديوان ليدعوا الأهالي إلى

(١) سروج: مدينة مواسى حران من بلاد الجزيرة، وبينها وبين حران مسيرة يوم. وهي كثيرة المياه والبساتين. وبها فرمان النضل والكبرى والخوخ والسرجل. وهي أيضاً على مسافة يوم من البصرة في جهة الشرق والشمال منها (الترجم البغدادي، ص ٢٧٧).

(٢) حران: مدينة مشهورة تعد من ديار مصر. بها قلعة مصلى للصائين بظلمونه، وينسب إلى إبراهيم. وهي لليلة لواء والشجر. والجبل منها في سمت المغرب والشرق على فرسخين. وأرضها حراء. وشرق أهلها من قلا تجرى من هون خارج المدينة ومن الأهر (الترجم البغدادي، ص ٢٧٧).

(٣) يعر هذا رشيد الدين على تقليبه نفسه بقلب رشيد الطبيب مع أنه كان وزيراً لغازان خان منذ سنة ٦٩٧ هـ. يشارك زميله سعد الدين محمد السجسي في منصب الوزارة. وليس من اليسور أن نكتف عن الطفل والأسباب =

الخضوع والدخول في الطاعة، فقدموا حسب الأوامر إلى أسفل القلعة [ص ٣٥٥] وأشاروا بكتابة منشور بعبارة عربية جاء فيه: "إن سبب مجيئنا هو تصرفات المصريين غير الصالحة التي درجوا عليها منذ مدة. وقد أرسلنا الرسل مراراً يحملون إليهم المواعظ والنصائح فلم ينتصحوها، وردوا علينا بحدود تمل على عدم أكثرات، فحملت ذلك على سبيل جهالتهم، وعدم ممارستهم الأمور العظيمة. وحيث إن هذه الأساليب قد تجاوزت حدها، زحف جيشنا المظفر بقصد الانتقام. وكان لا مفر من عبور هذه الدنار؛ وإلا فليس لنا غرض في إلحاق الضرر بكم أنتم أيها السوريون فعليكم أيضاً أن تتدبروا هذا الأمر، وأن ترفعوا مصالحكم وتحفظوا دماءكم، وتحفظوا أموالكم، وتقدموا إلينا طالعين متقادين. وحيث إنكم تدركون أن الحق في جانبنا، كان عليكم ألا تعاندوا، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

وهكذا حرر المنشور بهذه الصورة، وختم بالخطم، ثم أرسل إلى داخل القلعة، فأعدوا حامله قائلين: حيث إن عبارات المنشور في غاية الفصاحة والبلاغة، نطلب مهلة هذه الليلة كي نسير غور معانيه، وتقديم الرد غداً نهاراً. وفي اليوم التالي الخميس غرة شعبان، لوفدوا جمال الدين الإسكندري والشيخ شرف الدين من مريدي سيدي أحمد الكبير بملازم الرد على ذلك المنشور ومضمونه: "إننا مطيعون ومتقانون لأمر سلطان الإسلام؛ فسلطهما غازان خان بعطفه وأعداهما. وفي اليوم التالي نزل حسام الدين لاجين نائب علم الدين الغنمي الذي كان قائد القلعة وأظهر الخضوع والطاعة؛ فوجد العطف والرعاية ثم عاد. وفي اليوم التالي نزل هو وسيف الدين قليج، الابن الأكبر للغنمي^(١) والفاضل نجم الدين وطائفة من أعيان الرحبة، وقدموا فروض بإنعام الطاعة وتشرفوا بلقاء الحضرة. وقد حررت لهم عهدود أمان محكمة باللجنة العربية بتصرف اختصاصات الغنمي وأعماله، وما يتعلق بأبنائه ونوابه، وكذلك القاضي وجمهور [ص ٣٥٦] أصحاب الأعمال هناك، وتأمين أهل المدينة والقلعة والولاية. وقد زعرت هذه الكتب والعهود بالأختام المباركة، وسلمت لهم.

- التي جعلت رشيد الدين يكتفى بالانصب إلى مهته الأول دون أن يكشف عن شخصيته كوزير مسؤل يدرك مع سعد الدين في إدارة شؤون الدولة. (انظر سؤرح لشور الكبير رشيد الدين فضل الله اللباني، ص ١٢٥ - ١٢٦).

(١) انظر زبدة الحكمة، ج ٩، ص ٣٥٢.

وفي يوم الثلاثاء السادس من شعبان غادر غازان خان قلعة الرحبة، وجاءت البشري من ناحية خراسان تنبئ أن جيش قايغو قد انهزم وهلك، وجرح "دوا". وفي هذا الوقت كان الأمير قتلغ شاه وچويان ومولاي قد عبروا مع جنودهم نهر الفرات إلى الرقة. ثم وصلوا إلى حلب. أما سلطان الإسلام فقد نزل بأعلى "دير بدير" على ضفاف نهر الفرات، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم سار جميع الأمراء مع جنودهم كي يلاحقوا بالأمير قتلغ شاه والآخرين. ولما حل الربيع، وزادت المياه وصار للبحر حاراً، عبر غازان الفرات قاصداً سنجار والموصل في اليوم الثالث عشر من شعبان. ثم عبر نهر الخابور في مدينة ماكسين، وشمل برعايته رسول خراسان: ساهبان وقونجى آتاجى، ثم أذن لهما بالعودة. وكان بدير في تلك البرية المليئة بأزهار اللعل والأقحوان، وهو يتزه ويصطاد.

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان لحق بالخوانين اللامى كن قد أتى لاستقباله في موضع "جهار طاق" مما يلي سنجار، وأقام يومين أو ثلاثة. وفي غرة رمضان نزل في المعسكرات في موضع تلعفر، وفوض السلطان نجم الدين ملردين حكم ديار بكر كلها وديار ربيعة، ولقبه بلقب الملك المنصور. ثم عبر نهر دجلة، ونزل بصحراء كشاف. ولما كانت شكوى أهل الموصل قد بلغت الفلك السابع بسبب ظلم فخر الدين النصراني، صدر الأمر بأن يقضى عليه السلطان نجم الدين عند مسيره إلى الموصل، فخذعه هذا السلطان متظاهراً بأنه سوف يجعله نائباً هناك، ثم قضى عليه بعد عدة أيام.

مكايبة

التحام قتلغشاه نويان بجيش مصر ثم رجوعه من هناك، ومودة الرايات السلطانية إلى أوجان

ظل سلطان الإسلام في كشاف يترقب وصول الأمراء والجنود الذين كانوا بالشام. وهؤلاء عندما بلغوا حمص، شرعوا في النهب والقتل العام. فلما اقتربوا من دمشق، وسمعوا أن العدو قد اقترب في صباح السبت غرة رمضان، ركبوا دقعة واحدة، وتقدموا إلى ما يقرب من خمسة فراسخ، واجتازوا المياه والأرجال الكثيرة؛ فأدركوا العدو في موضع "مرج الصفر"^(١)، وتحاربوا. وكان ذلك في اليوم الثالث من رمضان؛ فهزمت ميسرة جيشنا مبعثهم، وقتل منهم ثلاثة عشر أميراً من أمرائهم الكبار، من جملههم حسام الدين "أستاذ الدار". كما قتل جمع غفير. أما الباقون فقد صاروا منهوكين مجروحين، وتقهقروا منهزمين فتعقبهم جمع من أبطالنا، وطاردوهم عدة فراسخ.

أما قتلغ شاه نويان فقد انحرف من القلب إلى اليسرة بقصد المدد. عتلت دقيقت اليمين منعزلة وحيدة، فهزمتها ميسرة المصريين، وتقهقر الجنود لأنهم كانوا قليلين. وعندما عاد الأمير قتلغ شاه إلى اليسرة كان الجنود قد فرغوا من الحرب. فلما دخل الليل، اعتلى الأمير ربوة، وقف عليها، فأنجبه جنودنا نحوه. وقد بات الجميع تلك الليلة حتى الصباح على ظهور جيادهم، واخذت الظلمة بالناس والدواب. وقد طوق للمصريون تلك الربوة. فلما حل الصباح قاتلهم جند الأمير بولادنيا وأتباع تكاتيمور ابن الأمير انجيل، وأتباع ناصر الدين بيسي وكاتوا يقفون في مواجهتهم. كذلك قال الأمير قتلغ شاه لثيتاق وترسا: أنتم لم تقانلا

(١) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه الواقعة الخامسة التي تم فيها النصر الين للمصريين والسوريين في المصادر والرايع الأتية: زبدة الفكرة في تاريخ مصر، ج ٩ ص ٣٥٥ وما بعدها؛ أبو بكر بن عبد الله بن ليك الشولقاري: كنز الدرر وجامع فنون، ج ٩ تحقيق هانس روبرت روهبر، ص ٨٦ وما بعدها؛ رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣٩، دار صادر، بيروت ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م للقرمزي؛ السلوك، ج ١ ص ٢٥، ص ١٩٣٧ الشرق الإسلامي في عهد الإلمانيين، ص ٢٩٦ وما بعدها.

بالأمس، فلذها اليوم لشجدة زملاتكما. فتقدم الاثنان نحوهم متمسكين متضامنين واشتركا في الحرب، فتخلى السوريون والمصريون عن المنطقة المحيطة بالريوة وتوجهوا إلى جنود المغول دفعة واحدة. ولما كان هؤلاء قد اعتل نظامهم منذ اليوم السابق، وانفصل الألاف منهم عن بعضهم، وتشتت أفواجهم، ولم يتيسر ضبطهم وتنظيمهم، وقفوا عاجزين حتى صلاة الظهر، ثم عادوا بعد ذلك. وفي الطريق كان الماء والوحل كثيرين إلى أقصى حد فبقى كثير من الخيول في الوحل وتفرق الجند، واختفى تائبناك وترسا.

وفي التاسع عشر من رمضان، مثل أمام حضرة سلطان الإسلام الأمير قتلغ شاه وتكاتبور في صحراء كشاف. وفي اليوم التالي تحركت الرهائن السلطانية، ونزلت في الحديقة بظاهر أربيل، ثم ارتحلت من هناك، وخرجت إلى طريق دريند زنگي. وبعد ذلك غادرت المنطقة الجبلية للأكراد. وقد احتفل الحاضرون بعيد الفطر في ضواحي دريند زنگي. وفي يوم السبت السابع عشر من شوال كان الأمير جويان قد توقف بسبب الجنود الذين ظلوا مترجلين بدون جياد، فضعفهم بالرعاية، وواساهم، وكان يسير بهم على مهل من طريق بنداد حتى وصل إلى الحضرة حيث حظي بالرعاية التامة. ولما بلغوا موضع "بيل سرخ" في منطقة مراغه، سَير السلطان الخواتين والأسر إلى أوجان عن طريق "سه كئبد" و"بوز آناج"، وذهب هو نفسه بمفرده إلى جبل سهنت حيث مارس الصيد أسبوعًا. وفي يوم الخميس العاشر من ذي القعدة سنة ١٣٠٢/٧٠٢م نزل بمدينة الإسلام أوجان.

حكاية

محاكمة الأمراء والجنود الذين كانوا قد عادوا من الشام، ثم عقد مجلس الشورى بموضع أوجان، وتشرّف الأمراء ببقاء فازان

بعد أن وصلت الرمايات السلطانية إلى مدينة الإسلام أوجان شرعوا في التحقيق مع
الأمراء والجنود، وكان ذلك في اليوم الثاني لوصولهم الموافق الثاني عشر من ذي القعدة.
ومع أن المتهقين كانوا يسألون المتهمين أسئلة دقيقة، فإن سلطان الإسلام كان يستدرك
عليهم عدة ملاحظات تنسم بالفطنة، وذلك عندما كان يمرض عليه سجل الاتهام؛ فكان
المحققون يستجوبون المتهمين مرة أخرى مراعين تلك الملاحظات الدقيقة.

وعاقبة الأمر فإن التحقيقات قد انتهت في غرة ذي الحجة وأعدم آغوتاي ترخان بن
جيك ترخان، وطوغان تيمور من قبيلة منكقوت، وطيقت قواعد "الياسا الكبرى"^(١) في
كل الشئون الحربية. وفي يوم الخميس الثاني من ذي الحجة شرعوا في الاحتفال بعقد
الغوريان وتشرّف الأمراء ببقاء الحضرة.

(١) المقصود الياسا التي وضعها جنكيز خان، وذلك مقصور على الترامس الحربية لأن خازن خان بعد أن اعتنق
الإسلام، وأعلن الإسلام بها رسماً، وضع نظاماً وقواعد جديدة وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وذلك بدلاً من
أحكام الياسا الجورقة.

حكايه

إصابة سلطان الإسلام بالرمه، إصابتهم الأمراء خراسان ثم توجه الرايات السلطانية إلى بغداد، والنزول في هولان موران

في يوم الخميس الخامس والعشرين من المحرم سنة ١٣٠٣/٥٧٠٣م وصلت الرايات السلطانية إلى دار الملك تبريز، ونزلت في القلعة. ثم أشر السلطان بإعداد الجيش والأسلحة. ولكن أصابه الرمد بعد عدة أيام؛ فاشتغل الأطباء والحكماء بمعالجته ومدوا له. ولقد طال مدة المرض، فضاقت وقت العزم على الرحيل إلى المشتى. [ص ٣٦٠].

وفي يوم الإثنين الرابع من صفر وصلت من خراسان الخاتون المعظمة "البتوزميش" مع الأميرين بسطام وأبى يزيد، فابتهج سلطان الإسلام، وسر كثيرًا بوصولهم، وشرح ابنته لؤلؤجاي خاتون للزواج من الأمير بسطام، وكان يجلسهما دائمًا إلى جواره ويرعاهما ويتودد إليهما.

وفي أواخر أيام مقامه في تبريز في يوم الأحد السابع من ربيع الأول، كوى موضعين في جسده المبارك، عملاً برأى أطباء الخطا. وفي يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول عزم على مغادرة مدينة تبريز. ولما كانوا قد أحضروا القيلة إلى الحضرة من الهند، أمر بأن يضعوا عرشًا على ظهر القيل حسب القاعدة المثبتة، وامتطاه أول خروجه من المدينة، وساقه حتى الميدان. ومن الضحى إلى العصر صار مشتغلًا بمشاهدة القيلة وقيادتها. وكان أهالي المدينة رجالهم ونسأؤهم محتشين لمشاهدة هذا المنظر، وهم يدعون مخلصين للسلطان. وكان قد نزل في تلك الليلة في حديقة تبريز. ثم غادر المدينة في اليوم التالي عن طريق أوجان. ولما كانت بطه قد تضررت بسبب الكى، واعتراه الضعف، لم يستطع أن يتماسك على صهوة جواده؛ فكان يجلس في الخفة أكثر الوقت. ولهذا كانوا يقطعون مرحلة قصيرة في كل يوم. وفي آخر ربيع الأول عاد الأمير قتلغ شاه من "بوز آفاج" كى يذهب إلى مشتى آران، ويحافظ على تلك الجهات. وفي يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الآخر وصل السلطان إلى حدود سراي جومه جوركان. وكان الجليد قد نزل بغزلة في سفورلوق

ومنطقة همدان، واشتد البرد إلى أقصى حد. ولم يكن طريق بغداد يسمح بالعبور. ولهذا السبب عدل السلطان عن الذهاب إلى بغداد، ونزل على ضفاف "هولان موران" لأنه بعد أيضاً من حملة الشتاء. والحقيقة أنه موضع جيد جداً لتضية الشتاء. وكان السكان هناك يجلبون نعماً كثيرة من مختلف الأرجاء. ثم إن الحطب موجود بكثرة لا حد لها. أما الناس فقد اعتكفوا جميعاً في بيوتهم، وتفرغوا للقيام بمهام الأمور، وتصريف المصالح.

وقد اتفق أن سلطان الإسلام أراد أن يعلم عشرة مساكين ويكسوهم ككفارة صغيرة. وكان يرغب في أن يمنحهم تلك الصدقات بيده المباركة؛ فأمر بإحضار عشرة من المساكين وتفتيتاً لأمر غازان أحضر إليه مهتر نجيب الدين فرانش - الذي كان من جملة خواصه والمقرين إليه عشرة مساكين، وقدم لهم الطعام بحضور السلطان. ثم أمر بإحضار عشرة أبواب من الخزانة، وأمنع فيها النظر. ثم أعطى ثمانية أشخاص كل واحد منهم ثوباً وسلم مهتر نجيب الدين الثوبين الباقين قائلاً له: اخرج وأحضر مسكيتين أخريين كي أعطيهما الثوبين الباقين؛ لأن هذين الاثنين مسيحيان. فقال لهما نجيب الدين: ألم تقولوا إنكما مسلمان؟! فأجابا: بلى. لقد قلنا لك هذا بسبب الطمع. ولكن الآن لا يمكن الكذب على سلطان الإسلام؛ إذ إن رأيه المبارك صائب؛ فنحن الاثنان نعتق الدين المسيحي.

ولا شك أن هذه التكلفة دليل واضح على أن غازان كان وثياً من أوليائه الحق - عز وعلا رحمه الله رحمة واسعة. والسلام.

مكاتب

اعتكاف سلطان الإسلام في مفتى هولان موران والكشف ■ تأمر ألفتريك وتمرده والقضاء على جماعة المتأمرين

كان سلطان الإسلام بنوي الاعتكاف في ذلك الشئى عدة أيام تبلغ الأربعين (جهله) فأمر بإقامة منزل خارج السرادق، وأقام فيه وحده، ولم يسمح لأى مخلوق بأن يدخل عليه سوى أمير الدار (خواجه سراي) والحارس الخاص (كزيكثاني). وكان يقنع كل يوم بقليل من الطعام.

وفي أثناء ذلك حدثت حالة عجيبة مؤداها أن جمعًا من المشايخ المناقنين في مقدمتهم "بهر يعقوب الباغباني"، كانوا قد دعوا إلى مدينة تبريز الأمير النجل "الأفترانك" لتوليته الحكم، وذلك بدافع جهم الجاه والغال، وتوعدوا أن يظهروا الكرامات التي ليست فيهم. وخلال تلك الأيام، أرسلوا إلى المعسكر مريدًا اسمه محمود [ص ٣٦٢] كى تتحد معه طائفة من المقرين فألقى ذلك الرجل السر جهلاً منه، وقال: إن شخصًا طوله أربعون ذراعًا وعرضه خمسة أذرع يجرى، من جبال "مرند وأيقان" إلى الشيخ يعقوب ليرشده، ويكشف له الأسرار. والآن قد منح الأمير النجل "الأفترانك" السلطنة؛ إذ إنها تتول إليه طوعًا أو كرهًا. وقد وهبه الزهاد هذه المنحة.

فلما بلغ هذا الكلام مسامع الخواجه سعد الدين صاحب الديوان، اعتقل ذلك الشخص وكبله بالأصفاد، وعرض ما حدث على حضرة سلطان الإسلام، فأرسل جابى الأختاچى إلى تبريز لإحضار المقدسين مشرى الفتنة، فعاد بعد عشرة أيام ومعه كل من بهر يعقوب وناصر الدين اهلجى قائم والشيخ حبيب الذى كان خليفة رشيد البلغارى والسيد كمال الدين. وكان الشيخ رشيد شيخنا لصدر الدين فرنجباني، والسيد كمال الدين من ملازميه أيضًا. والعجيب في الأمر أن سلطان الإسلام عندما رآهم، قال: "إن نفسى تحدثنى أن هؤلاء المتأمرين من أتباع صدر الدين فرنجباني". فلما تحروا الحقيقة، اتضح أن الأمر كان على هذا المنوال. عندئذ قال السلطان: يبدو أن لثيت ما زال يجر الثقتن. وعلى أثر ذلك صار يتفحص

الأمر بنفسه، وذلك بحضور الأمراء والقرمين إليه. وكانت تلك الطائفة من الجهال يرددون هذا النوع من الكلام العبث. ولما تنحسوا الأمر جيلاً تين أن معضدات هؤلاء الأشخاص هي نفس عقائد مزدك وأنهم يقصدون نشر ذلك للذهب بين الناس. فلما ثبت إدانتهم قال يعقوب: "سوف نمنظفنا شيوخنا". فرد عليه سلطان الإسلام قائلاً: "إن شيوخى هم الله والمصطفى والمرضى. فلتنظر من الأقوى؟ أنت أم هم؟ ثم أمر بأن يلقوا به من أعلى الجبل هناك. كذلك قُتل أصحابه. أما الأمير الأفرنج فقد عفا عنه السلطان. فما كان منه إلا أن صرح بالحقيقة قائلاً: "ما دام السلطان قد شملنى بعطفه ورعايته، فإنى سوف أنصح عن حقيقة ما حدث لقد صحبوني مرتين أو ثلاث مرات إلى الشيخ يعقوب في تبريز؛ بحجة أننا سوف نذهب لممارسة الصيد [ص ٤٦٣]. وكان هو ومرهبوه يتحدثون عن حالة السماع وغيرها من هنا القليل من الكرامات، وصاروا يفروننى بالملك. ولكنى بسبب الخوف لم أستطع أن أبوح بذلك، وكنت أعفى هذا السر. كذلك استجبوا بتميش نائب تاباتا وقتلوه لأنه أقر أيضاً بذنبه. أما تقيوقا بن تاباتا فقد كان له دخل في هذه المؤامرة، وكان من أخطأ ذلك المعجون خصوصاً وأن الأفرنج قال عنه: إن كل ذلك داخل في جريمته. ولكن حيث إنه كان شاباً وحدثاً، وأبلى والده بلاء حسناً في حرب الشام، ووقع أسيراً في يد الأعداء عفا عنه سلطان الإسلام، واكتفى بأن زج به في السجن. والسلام.

حكاية

الاحتفال بعيد ميلاد الأمير أبي يزيد في معسكر ايلتوزميش خاتون، وفروج السلطان الامتكاف الأربهيني

في يوم الأحد غرة جمادى الآخرة أقيم احتفال في معسكر ايلتوزميش بمناسبة عيد ميلاد الأمير أبي يزيد جريماً على المعتاد. وقد حضر الحفل سلطان الإسلام وجميع الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء وقدموا مراسم التهئة والابتهاج، وبالغوا في الطرب والمتعة. وقد اختص سلطان الإسلام الأمراء والخواتين وأتباعهم بأنواع العطف والرعاية والتكريم. وبعد ذلك خرج سلطان الإسلام من خلوته، واعتنى بدبير الملكة، وضبط مصالح السلطنة. وكان مزاجه قد صح، وصار يمشى أوقاته سعيداً مسروراً. وكان جمهور أركان الدولة مستبشرين فرحين لكشف مكر وخداع الشيخ وأتباعه.

حكاية

تكريم سلطان الإسلام الفواجه سعد الدين صاحب الديوان لما أبداه من إخلاص في قضية أفرنك

نظراً لأن الفواجه سعد الدين صاحب الديوان ألقى القبض في الحال على رسول بهر
مقبوب الذي كان قد قدم إلى المعسكر لجذب القلوب إليه، وأرسل إلى كل شخص الرسائل
التي عندهم بالوعود الحسنة عرض صاحب الديوان على الفور تلك النية المبيتة على
حضرة السلطان، فشملة بعطفه، ووثق به إلى أقصى حد، وأيقن أن الاعتماد المطلق عليه في
جميع الشؤون إنما كان في موضعه، وأن صدقه وإخلاصه للحضرة وثقانيه في الولاء لما
وتنقله لأداء واجبه نحوها، إنما هي خدمات على درجة يستحق من أجلها أن يشمله
السلطان برعايته كل يوم مائة مرة، ويكون ذلك لائقاً له وجديراً به، ومن قبيل وضع
الشيء في موضعه. ولهذا أراد السلطان أن يكرم وزيره بطريقة تزيد في مرتبته ومنزله
وحتى تبلغ حشمته وعظمته درجة أكبر.

ولما كان زمام الأمور حلها وعقلها، وعنان قبض مصالح السلطنة وبسطها قد وضعها في
كف يدي ذات كفاية، وبكيفية لا يتصور المزيد عليها قط، أكرمه السلطان بطريقة لا نظير
لها؛ إذ فوض إليه إمرة ألف جندي مغول، ومنحه الطوق والعليل، وأمر جميع الأمراء بتقديم
التهنئة له.

والحقيقة أن تلك الذات الملائكية الصفات، والتي هي مجمع للفضائل النفسانية، ومنبع
للكمالات الإنسانية سبب راحة الناس رفيعهم ووضيعهم وخواصهم وعوامهم، ولازمة
لرئسة الملك والدولة والإيمان والإسلام. ليمتصه الحق تعالى بالجواهر العريضة والحشمة
المستفضة. والسلام.

حكاية

وفاة كرمون خاتون، ونقل جثمانها إلى تبريز وذكر بعض الكلمات الحكيمة التي فنوه بها سلطان الإسلام في أهوال الخلق

في وقت السحر من يوم الثلاثاء الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م توفيت فجأة "كرمون خاتون" ابنة قتلغيمور من آهائاي نوبان التي كانت زوجة سلطان الإسلام، وكانت وفاتها في مشي منطقة "سراي جومه"، ثم نقل جثمانها بمراسيم مهيبه للغاية. ولما كانت في ريعان الشباب، ولم تمتع بالدنيا طويلاً، كان وقع موتها شديداً إلى أقصى حد على سلطان الإسلام، فتألم كثيراً لحسوث تلك الواقعة. وبعد وفاتها حضر السلطان إلى مجيها، وبكى كثيراً، وأمر بأن يعد لها كل ما يجب من الترتيبات والمراسم. وبعد أن تم نقل نعشها، كانت عينه تلمع كلما تذكرها.

وذاث يوم كان جمهور أركان الدولة حاضرين، فسألهم: أى أمر لا يوجد ما هو أشق منه وأصعب؟! فأجاب الأمراء هو أن يقع الإنسان أسيراً في يد عدوه، ويصبح ذليلاً لحصمه. وقالت طائفة: إنه الفقر. وقالت مجموعة: إنه الموت. عندئذ قال لهم السلطان: إن أصعب أمر هو أن يولد الإنسان ويجيء إلى الدنيا؛ ذلك أن جملة العناء والبلاء والتعب والشقاء تكمن في الحياة. ولو لم يكن الوجود ما وجدت أمة مشقة.

وليس لإنسان راحة في الدنيا مطلقاً إلا بالموت. والدليل على ذلك أنه إذا سار شخصان؛ أحدهما يجرى والآخر يمشى الموقنى؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: الذى يمشى الموقنى. عندئذ سألتهم: إذا سار أحدهما الموقنى، وجلس الآخر. فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: ذلك الذى يكون جالماً. فسألهم: إذا جلس أحدهما، وتام الآخر؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: النائم. فقال لهم: إذن على هذا القياس، وطبقاً للقاعدة الصحيحة [ص ٣٦٦] يكون الميت أكثر راحة من النائم، إذ أن فلاح النفوس، والفائدة النامة إنما يكونان في الخلاص من ضيق الحياة. وليس هناك قيد ولا سجن ولا جحيم ولا عذاب أشد من الجهل وحب الدنيا؛ ذلك أن الدنيا جحيم عباد الله، والآخرة جنتهم.

ومصدق هنا حديث النبي المصطفى عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات: "الدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر"^(١). وبالتقطع فإن الجاهل لا يرغب في التخلص من سجن الحياة. ومن شدة جهلة بحسب أن لميت يموت بالرُوح، وإن ألمى بحسب بالبدن، وهو لا يدري أن الحال على خلاف ذلك، إذ إنه يتعمر ويتعاضد بأنواع الجهل والحماقة، وهو لا يعلم أن الموت حالة مستحبة، وأنه محض العدل. ولو لم يمت الآباء، فكيف كانت تتول إلى الأبناء المناصب والأموال والجاه والأبهة والملئكة؟! ولو أن موت الآباء صعب ومؤلم، إلا أنه مستحب بسبب دور آخر. وليس هناك فائدة في طول العمر إلا لشخص ينشد الكمال، وتقبل روحه الارتفاع والارتقاء يوماً بعد يوم.

إذن فالأولى أن يرضى البشر بقسمة الحن، لأنهم إذا عاشوا أكثر من شائين عاماً، فإن أعضائهم تعجز عن العمل، وتختل حواسهم وتتعطل، ويصبحون في نظر الناس أذلاء محقرين، وينظر منهم الأقارب والأباعد. وحيث إن الكمال هو شرة العمر، فإنه بعد الحصول عليه، يمكن أن يتول إلى تقصير مهمًا يمكن العمر. وإذن فليس هناك فائدة من طول العمر وعلى هذا المتوال تقوى غازان خان بكلام دقيق كله محض حكمه.

وفي أواخر شعبان سنة ١٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م رحل من مقر "هولان موران" الذي سماه "الولجياتو" (بونوق)، وترك الخواتين والفراد الأسرة في منطقة قلعة "جوق" التي تبعد مرحلة واحدة عن "سراي جومه"، وتوجه فريق من جنده مع أركان الدولة وأنعيان الحضرة إلى ناحية "مراق". أما السلطان غازان فقد قضى بضعة أيام في الجبال الواقعة على حدود خرقان ومزدقان. ثم نزل بمدينة سلوه. وهناك أقام الصحاب الخواجه سعد الدين حلاً عاماً [ص ٢٦٧] دعا إليه سلطان الإسلام وجميع الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء، ورحب بهم. وقد وجد من حضرة السلطنة ضروب الإعزاز والتكريم. كذلك فعل الصدر المعظم الخواجه شهاب الدين مباركشاه الذي كان منشئ المملكه، ومن حملة أركان الدولة القاهرة. ولما كان منزله القديم في سلوه، وكان والده الخواجه شرف الدين سعدان بهتل

(١) حديث حسن صحيح ورد في سنن الدرر المنجدة ج ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ قلعة بدون تاريخ، انظر أيضاً كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأهل على لغة الناس، لعرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش، ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٥، حلب بدون تاريخ.

بقية أكابر إيران، وكان لا يزال مقيماً وحاكماً هناك لتمام هو الآخر حفلاً عاماً، وقدم هدايا مناسبة لحضرة السلطنة، وعموم الخواتين والأمراء الأتجال والأمراء، وأرسل الهدايا كذلك إلى جمهور الأصحاب. كذلك منح بقية الخدم والحشم كثيراً من الثياب والديناتير والدراهم.

وبعد ثلاثة أيام سارت الزيارات السلطانية، صوب الري. وكانت صحة غازان المباركة قد تحسنت خلال هذه المدة التي غادر فيها مقره الشتوي؛ بحيث إنه كان يمتطي جواده ويقطع المسافات النائية والطويلة. وكان يتناول كل أنواع الأطعمة. غير أنه بمجرد أن غادر ساوه أصيب بنكسة في الطريق واعتزله المرض مرة أخرى. وصار ينفر من الطعام. ورغم هذا كان يظهر التجلد على سبيل الإصرار والتحدى. وهكذا ظل يركب جرباً على العادة ويخرج. ثم أقام في منطقة الري. ولكن عندما اشتد عليه المرض في منطقة "سبيل بزرگ" من أعمال الري، أرسل رسولاً إلى أسرته، واستدعى زوجته العظيمة "بولوغان خاتون" على عجل وبسرعة فائقة. وعندما وصلت كان السلطان قد غادر "سبيل بزرگ"، وظل هو ومراقبوه يسرون سيراً قليلاً كل يوم حتى وصلوا إلى ناحية قزوین. وفي أواخر شهر رمضان عندما وصلت الخاتون، أقام الجميع هناك. ولما دخلت على زوجها السلطان غازان تصادف أن وجدته على تلك الحال، فبكت وبكى الحاضرون، وسكبوا من أعينهم الدموع الحارة.

بعد ذلك استدعى السلطان غازان جميع الأمراء والخوادم والمقربين وأركان الدولة وأعيان الحضرة، ونصح كلا منهم نصيحة لائقة ومناسبة لحاله. [ص ٣٦٨] ثم جدد البيعة بولاية العهد لأخيه الجليل خلد سلطانه وكان قد أمر بذلك قبل خمس سنوات، وكرره وأكدته مرات ومرات في مجالس مختلفة. وبعد ذلك كتب وصية في غاية اللطف والتهديب وحث الأتقان بالاحاح على مراعاتها والحفاظة على ما جاء بها من مسائل دقيقة. ولما فرغ من وصيته، كان يؤثر الخلوة في أكثر الأوقات. ورغم أن وطأة المرض قد اشتدت عليه شيئاً، كان يبدو متمسكاً، وكأنه في تمام قوته. كذلك كان دائماً مرهف الحواس فصيح اللسان.

ولكن لما كانت أيام عمره قد أخذت بالانتهاء بموجب قوله تعالى: ﴿فلما جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾^(١) انتقلت روحه الطاهرة من دار الغرور إلى دار السرور

(١) وردت هذه الآية في سورة الأعراف، لآ ٣٤. ووردت أيضاً في سورة النحل، لآ ٦١.

وقت غروب شمس يوم الأحد الحادى عشر من شوال سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فحلت بالعالم الطامة الكبرى بسبب تلك الواقعة العظمى، وليست الأفلاك لباس الحداد الزرقاء، وبكت بمائة ألف عين، وجرت أنهار الدم من أعين سكان المربع المسكون على مشال النبل وجبحون. وبعد إقامة مراسم القتل والتكفين حلوا جثمانه الشريف على مراكب خاصة ونعمه الأمراء والخواتين، وكسان الرجال والنساء يترجون من المدن والقرى حاسرى الرؤوس، حفاة الأقدام. وقد لبسوا الثياب البالية. وكاتبوا يهبلون التراب على رؤوسهم وهم يكون ويتوحون.

(شعر فارسى فى الأصل ترجمته:)

على نمش ذلك الملك العادل التضى
 اتعخب الزمان، ويسكت الأرض
 وكان كل شخص يقول: وا أسفاه وا أسفاه
 لقد غابت شمس الدنيا وراء السحاب.

وفى كل المدن ببلاد إيران، لبسوا للذن ملابس الحداد، واندفعوا إلى الشوارع والميادين كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساءهم بثياب ممزقة وبالية، وأقاموا ماتم التحزية سبعة أيام. ولما أوصلوا جثمانه الشريف على بعد مرحلة واحدة من دار الملك [ص ٣٦٩] تبرزه، خرج أهل المدينة برحمتهم: رجالهم ونساءهم كبيرهم وصغيرهم. ولمجزهم وقرهم لبسوا ملابس الحداد الزرقاء.

(بيت من الشعر الفارسى فى الأصل ترجمته:)

هـام الجميح على وجوههم فى الصحراء
 ضارين صلورهم بالأحجار بسبب جزعهم وقلقهم

وكان الجنود والحشم والرحمة والمقدم يطوفون حول الجثمان الشريف باكين متحين إلى أن أوصلوه إلى موضع شمس حيث القبة التى أنشأها وأحدثها، ودفعوه هناك. (كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) (١).

(١) الآية باكستيا: «ولا تدع مع الله شيئا يعمر ولا لله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» (سورة القصص، ٨٨).

أنفرك الحق تعالى ذلك السلطان السعيد في بحر رحمة الذي لا ساحل له، وجعل سلطان
سلامين الإسلام السلطان أوجايتو وارث أعماره، وأبلغه منتهى أماله. إنه وليّ الإجابة.
وصلّى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

القسم الثالث

من تاريخ سلطان الإسلام فلزان خان

خلد سلطان ونام عدله

في أخلاقه الكريمة وسيره الحميدة، وأثار عدله وإحسانه وعيراته وميراثه، وضون آدابه وجبل عاداته، وكلماته التي تنمو بها في كل مناسبة على وجه التحقيق، وعلى سبيل التلخيص، وحيكته المحكمة وأواسره المرمية المتمثلة على رعاية مصاخر كافة الخلائق، والتي قام بتنفيذها في كل شأن من الشؤون، وكذلك نواتر الحكاميات والأحوال مما لم يدخل في القسمين السابقين. وهما موضوعان:

بُورب أحدهما، ويتضمن أربعين حكاية، والآخر ما يسجله القلم متفرقاً حسب القضايا والحوادث المختلفة.

وبموجب هذا الفهرست نذكر بالتفصيل ما هو ميرب، وهو عبارة عن أربعين حكاية في غاية الجودة، وبياتها كالآتي:

الأولى في فنون كمالات وعلوم سلطان الإسلام خلد ملكه ومعرضه الصناعات والحرف المختلفة.

[ص ٣٧٠] الثانية في عصمة وطهارة سلطان الإسلام خلد سلطانه من الخصال المرفولة.

الثالثة في فصاحته وبلاغته وحسن سؤاله وجوابه، واتباعه هذا السلوك مع البعيد والقريب والترك والتأنيك.

الرابعة في صبره وثباته وصدق عهده وميثاقه.

الخامسة في أنه في أكثر الأوقات كان يتحرى صدق كل كلام يجرى على لسانه المبارك.

السادسة في بذله وعطائه ولطفه وسخائه على وجه مستحسن.

السابعة في إعطال عبادة الأصنام، وتخريب معاهد الوثنيين تخريباً تاماً.

الثامنة فى حبة لأسرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإعزازه للسادات العظام.
التاسعة فى سخائه، وإعداد الجند لغرض المعارك وجلبه فى الحروب.
العاشرة فى إسداله النصح إلى القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى.
الحادية عشرة فى منعه طائفة الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر.
الثانية عشرة فى مهله إلى العمران، وحث الناس على ذلك.
الثالثة عشرة فى أبواب البر بتريز وهندان، والتفوز التى نفعها فى الولايات.
الرابعة عشرة فى القضاء على التزوير والمدعاوى الباطلة وعيانة الخونة.
(ص ٣٧١) الخامسة عشرة: فى إبطال تخرير المستندات غير القانونية، وكذلك الخجج
القديمة.

السادسة عشرة فى إبطال الحكر والقضاء على أنواع الكسب غير المشروع.
السابعة عشرة فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم، ورفع الظلم والمشقة عنهم.
الثامنة عشرة - فى إبطال السخرة، ومنع الرسل الزائدين عن الحاجة فى البلاد.
التاسعة عشرة فى القضاء على اللصوص وقطاع الطرق، وحماية الطرق فى البلاد من
شرهم.

العشرون فى تخليص عيار الذهب والفضة على وجه لم يوجد من قبل على الإطلاق
وليس من الممكن أن يكون أفضل منه.
الحادية والعشرون فى إصلاح أوزان الذهب والموازين والمقاييس والمكاييل والتقسيم
والتنقار.

الثانية والعشرون فى تنظيم شئون المراسم واليازيات التى صنع للناس.
الثالث والعشرون فى استرداد المراسم واليازيات المكررة التى كانت فى أهدى الناس.
الرابعة والعشرون فى منح الإقطاعات لجند المغول فى كل ولاية.
الخامسة والعشرون فى تقرير كيفية إعداد جيش على حدة للمعاصرة السلطانية.
السادسة والعشرون فى منع التعامل بالربا والمعاملات بالأرباح الفاحشة.
السابعة والعشرون فى منح الزواج بالمهر الفال غلاء فاحشاً، وتخليصه بتسعة عشر
ديناراً ونصف.

[ص ٣٧٧] الثامنة والعشرون في تشييد الحملات والمساجد في القرى وللواضع في كل البلاد.

- التاسعة والعشرون في منع الناس من احشاء الحمر وللسكرات المنكرة الأخرى.
- الثلاثون في إعداد أصناف الطعام الخاص والشراب للمخيم المعظم.
- الحادية والثلاثون في إعداد أصناف الطعام للخواتم وعيانتهم.
- الثانية والثلاثون في ضبط شئون المصانع وإعداد مهاتها ورعاية مصالحها.
- الثالثة والثلاثون في تدبير شئون المؤسسات ودور السلاح.
- الرابعة والثلاثون - في تنظيم شئون الثواب الخاقانية.
- الخامسة والثلاثون في ترتيب شئون حاملي القصور ومعهدى النهود.
- السادسة والثلاثون في ترتيب شئون العاملين في كل البلاد.
- السابعة والثلاثون في ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضي البور.
- الثامنة والثلاثون في تشييد بيوت خاصة بالرسل في البلاد وإصدار الأوامر إلى الشحن بفتح الرسل من التزول في ديار الناس.
- التاسعة والثلاثون في منع المكابن والجمالين وسعة البريد من إيذاء الناس.
- الأربعون في منع إكراه الجولوى على الإقامة في دور البغاء.

في فنون كمالات سلطان الإسلام خلد ملكه وعلومه ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة ووقوفه على أسرار تلك الصناعات

لا يخفى على العالمين أن سلطان الإسلام خلد ملكه عندما كان في سن الطفولة كان جده أباقاخان يريه عنده ويرعاه ويحافظ عليه. وقد صير الكهنة الوثنيين ملازمين له ومعلمين. وعلى هذا النحو رسخت الوثنية في ذهنه؛ خصوصاً أن هذا اللهب كان عقيدة لأبائه. وكانوا يسرون وفق تعاليمه.

ومنذ بداية الإسلام، كانت عبادة الأصنام قد زالت نهائياً من كل الديار؛ إلا أنها عادت إلى الظهور في عهد المنور وقوى حال طائفة الوثنيين، فاستدعوا أصناف الكهنة الوثنيين من بلاد الهند وكشمير والخطا والأوتور وصابروا معززين مكرمين. وأقاموا في كل موضع معابد للأصنام وصرفوا الأموال الطائلة. وقد ارتفع شأن متعبدتهم حتى وصل إلى العيوق^(١). وكان سلطان الإسلام يلازم ذلكم الكهنة في معابد الأصنام، ويتابع تلك الطريقة، ويوماً بعد يوم كان يزداد ميله إليها فيستحکم اعتقاده فيها.

وبعد أن توفي أباقاخان، أرسله أبوه أوغون خان إلى خراسان للحكم وإمارة الجيش فأقام هناك معابد فضحة للأصنام في مدينة خيروشان. وفي تلك المعابد كان يمضي أكثر أوقاته في التحدث مع الكهنة وتناول الطعام والشراب. وهكذا صار له اعتقاد راسخ في تلك الطريقة الوثنية كما كان حرصه على عبادة الأصنام يفوق حد الوصف. وقد استمر الحال على هذا الوضع، حتى ذلك الوقت الذي استولى فيه باهيو على الملكة وبندر غازان بالمصل على انتزاعه منه.

(١) نجم البحر مشي، في طرف الجزيرة الأيمن، يطل غرباً لا يتقدمها، ويطلع نيل الجزيرة. (المعجم الوسيط، الجزء الثاني ص ٦٣٧).

[ص ٣٧٤] ولما كان الحق تعالى قد قدر لفتازان أن يتولى الملك والسلطنة، وأن يظهر بمدد التأييد والتوفيق للرباني آثار العدل والإنصاف في العالم، وأن يعيد الصلاح إلى الأعمال التي أصابها الخلل، وأن يعمر البلاد التي آكل إليها الخراب، وأن يجعل على يده تقوية الذهن الإسلامي، وتيسير أمور الشريعة والأحكام الخاصة بها. بعد أن كان هو نفسه وكذلك أهل العالم غافلين عن كل ذلك. وفضاءً في الوقت المعلوم، وبغض اللطف الإلهي حل نور الهداية بصدرة الطاهرا فوضع قدمه المباركة في ساحة الإسلام، وتثبت بالجلل المثين للإيمان، فأمر بإبطال شعار الأديان الباطلة.

وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه يرجع إلى ترغيب بعض الأراء والمشايع وحتمه له على ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بي أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب، لا يعفو الله عنها أكبرها أن يسجد شخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطع به أن الله لن يعفر ذلك الذنب، وأن المساكين من الناس اللبطين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضاً كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبني النور والعلم، فنجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية حضرة الحق تعالى.

وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شيء قط يعمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج منه. فكيف يستخ العقل السجود أمام جامد؟! . إن هذا الإقدام دليل على الجهل الخفى. وأمر آخر هو أن أصل الفكرة في عبادة الأصنام أن يكون الإنسان شخصاً كاملاً قضي عليه. ونحن نعد صورته، ونضعها للذكرى ثم نطلب المدد من همة ذلك العظيم ونلجئ إلى الصورة ونبتدعها ونسجد لها. ونحن في هذا غافلون عن أن هذا الشخص أثناء حياته التي هي خلاصة الإنسان كان متحفاً مع بدنه الأصلي، ولم يطلب مطلقاً، ولم يحز **[ص ٣٧٥]** أن يسجد له أحد حتى ينسى في نفسه تكبر وعجب.

وحيث إن عبادته والسجود له هما لاستمداد الهمة منه والاتجاه إليه، كيف ترضى نفسه عن هذه الجماعة التي تسجد لشيء يشبهه؟! وإذا طمع الساجدون فيما له في نفسه من همة عالية، وإذا تصورنا أن أتراك تلك الهمة لا يزال موجوداً فإنه من المؤكد أن تكون همة رديئة ونسفة، وليست همة عالية منتهجة. وأمر آخر هو أن الإنسان ينبغي أن يعرف

الحقيقة، وأن يدرك أنه ليس للجسد أية أهمية، فينسى أيضًا حبه له، ويعلم أن ما يفارق البدن إنما هو خلاصته، وأن يفكر في ماهية ما يفارقه ويتساءل: أى شيء هو؟.. وأين يذهب؟ . وكيف يكون باقيًا وثابتًا حتى يمتص ذلك الشيء، وذلك للموضع وتلك الحالات. ثم يتبع ذلك إلى أن يدركه. وأنا ما اعتقد في الصورة التي صنعت على هيئة البدن، وسجد أمامها، فإنه يعجز عن إدراك هذه الفكرة، وهذا الطلب الذى هو خلاصة الجنة بعينها. وعكس ذلك هو محض جهنم والدرك الأسفل منها.

ولو يفكر المرء في أن الصنم يصلح لصنع عبدة يطؤها الناس بأندامهم في ذهابهم وإيابهم؛ حتى تظن تلك النفس أن ذلك شبه بدنها، فيكون الإنسان راضيا عنهما؛ إذ إنه يتصور قاتلا لنفسه: إننى ما دمت حيا فى الدنيا صرت كاملا بالتواضع. وبعد الممات يكون أيضا لشبه البدن نفس الخالقة. وأسر آخر هو أنه يفكر فى أن النفس التى لها ذلك الكمال، قد صار بدنها ترابا شيئا يبدنه، وجدبها أيضا بأن يكون عبدة تطؤها الأقدام. ونحن الذين نعتد الكمال نتساءل: أية قيمة تكون لبدننا؟

وبناء على هذا تنقطع علاقة الناس بالبدن انقطاعا تاما، فيتجهون [ص ٣٧٦] إلى التفكير فى الآخرة، ومنازل الأطهار وأحوال الأرواح للقدسة. وعليهم أن يلاحظوا دائما تلك الحالات حتى يتألموا شيئا مما هو حق، وأن تكون لهم فائدة من عيبتهم إلى الدنيا ويلغوا الكمال؛ إذ إن الغرض من وجود الخلق هو أن يتوجهوا من عالم الظلام إلى عالم النور.

ولما شرح السلطان هذه الحقائق وفق هذا الترتيب بعبارة جيدة ومعمان دقيقة، ظهر بوضوح تام نور باطنه وصدقته وصفائه. وبعد ذلك صار يسوق دائما حكايات من هذا القبيل، وبذكر كلاما عميقا فى باب العرفان والتحقيق مما لم يسمع مثله قط من حكميم وعارفين.

ولما تربع على عرش السلطنة عامين أو ثلاثة، كان يزيد يوما بعد يوم فى تقوية دين الإسلام، وراح فى صدق وإخلاص يهتم لاعتناء تامة بشؤون هذا الدين.

وقد ثبت وتحقق لجميع الناس أن سبب إسلامه لم يكن بتأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان يهتدى من الله، إذ إنه من المجرّب أن المسلمين إذا أجبروا لقتل الناس شأنًا على أن يكون ملكا أو حاكما عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فإذا وجد الفرصة سانحة

في تلك الولاية أو في ولاية أخرى فإنه يرجع إلى عقيدته الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، ليطأش القوي إلى الاضطرار إلى كلام شخص من الأشخاص في مثل هذا الأمر الخطير، فتحول عن مذهبه أو يختار ديناً آخر مكرهاً لا سيما وأن آباءه قد استولوا على كل ممالك العالم في زمن كفرهم؟^{١٢}

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون في هذا الأمر مثل أجر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه فقد أدرك منذ البداية - بفضل نور الهداية الربانية - خلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه، وعرف الله بآياته الوجداني. كذلك كان إسلام السلطان على هذا النوال، ورغم عظيمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام، واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التي كانت في بلاد إيران، وبحرب تحريماً تاماً كل بيوت الأوثان وهجم المعابد غير الشرعية [ص ٣٧٧]، وأدخل في الإسلام جميع عابدي الأصنام والكفار الذين كانوا يزيدون على عدد الرمال، بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أي مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة في الأجر.

هذه المعاني التي سبق ذكرها إنما هي دلائل واضحة على كمال علمه ومعرفته وحكمته. وهناك دليل آخر هو أن الشباب عندما يشغلون بالطرب واللهو واحتساء الشراب، يتحذرون لأهوائهم ويستترقون في الكلام العيب وأنواع اللغو. أما سلطان الإسلام فإنه عندما كان يصير متبهاً قليلاً، يستترق في تفحص أحداث أهل الحكمة وتحقيق الحكايات والمباحث الدقيقة العميقة مما لا يتركه فهم كل حكيم وعالم. وكان يحب صحة جماعة الحكماء والعقلاء المتأخرين. وإذا رأى من يتصف بالحكمة، وله عقل وصيبر وأدب ولكن لا قدرة له على احتمال هذا العبء، فإن السلطان لا يعجب به. وكل من يتصل به يعرف قدره في الحال. ولا يوجد مجال لأي عتال ومزور أن يتحدث في حضرته بكلام فيه سخاخ ورياء. وإذا تكلم فلن يستطيع القول أكثر من مرة، لأنه يعرفه. ومن ثم فإنه لا يسمح له بمعاودة الكرة. وإذا قابل حكيمًا ثرثاراً أبله، فإنه يسير غوره في الحال. ونحن هنا نورد حكاية لتوضيح هذا المعنى.

كان هناك شخص في غراسان، قدم من تركستان اسمه "هبة الله"^(١)، وكان حسن الخلق، لطيف الخضر، قد أخذ من كل علم نصيباً وكان يعرف اللغتين السريانية والتركية

(١) انظر تفصيلات من هذا الرجل في كتاب رجال حبيب السيرة، محمد تهرتة عبد الحسين نوهي، ص ٢٣ - ٢٤ طهران، ترمه ١٣٢٤ هـ.ش.

ويحفظ أمثالا كثيرة. وكان يقول كلاما حسنا على طريقة المشايخ. وكان السلطان والأمراء يتفون بكلامه. وقد ظل مدة يلازم حضرة السلطان خلد ملكه ولما تبرع على سرير الملك باليمن والبركة، أرسل إليه رسولا يستدعيه، وأعزه وقربه إليه، ومنحه الذهب وأغدق عليه الخلع، وفرر له المراثيات الكافية، وعهد به إلى أنا العبد المطيع للدولة، وقال لي: عامله معاملة حسنة، فنفذت ما أشار به السلطان. وكان دائما يجيء إلى الحضرة. [ص ٣٧٨]. فكان الحديث يتناول كلاما عميقا يتعلق بموضوعات الحكمة والعرفان. ومع أنه كان رجلا مطلقا، إلا أنه كان هناك تفاوت كبير بين كلامه وكلام سلطان الإسلام - خلد ملكه - وكنت أتعجب وأقول في نفسي: إذا كان السلطان لا يعلم الفرق بين علمه وعلم هذا الرجل فإن هذا أمر مستبعد. وإذا كان يعلم، فلماذا كمال الاعتقاد في "هبة الله" هذا؟! .. ولما كان الظن أيضا في حق هذا الرجل أمرا غير مناسب، وكان السؤال عن هذا الموضوع متعلما أيضا بقيت متحيرا في هذا الأمر إلى أن تفوه السلطان ذات يوم بكلام عميق قال فيه: إنه حديث لا يخفى لكل شخص أن يخوض فيه؛ فأكثر الناس يعرفون قشوره وظاهره ولا ينفون إلى معانيه؛ إذ أنه ليس في وسع كل شخص أن يدخل خزائن الملوك التي هي مفتوحة للخاصة وحدهم. أما الآخرون فيظنون في الخارج مثل الشيخ هبة الله الذي سيبله هو أن يبقى خارج الخزانة، ويدرك فقط ما يكون ظاهرا؛ إذ إنه لا يعرف طريق الدخول إلى الخزانة والإحاطة بتفاصيل ما تحتويه. عندئذ تقدمت قائلا: طالما أردت أن أسأل مولاي عن هذا الموضوع؛ لكن الفرصة لم تكن مواتية. والآن قد تحققت أن السلطان يعرف قدر الجميع، لكنه يعزهم كلهم. فقال السلطان: إني لا أعجب من أنه أو غيره لا يعرف هذه الأسرار؛ غير أنني أسر كثيرا بكل ما يعرفونه، ولربما أن أتذكر كل ما حيايتي به الله حين أحاورهم؛ فحجر المسن مع كونه أكثر ليونة ونعومة من السيف إلا أنه يشحذه. وسبب ذلك أن جوهر التولاذ يزداد بالهجرة؛ إذ إن الحدة موجودة في جوهره ولكنها تزداد بلين حجر المسن.

وفي المجالس والجماعات التي حضرها مختلف أصناف الناس، تعجب الجميع من الأسطة التي وجهها إلى العلماء والحكماء. ومع أنه كان يتكلم بمصطلحات المنقول، وكل شخص لا يدركها بسرعة، لكن لأنه كان يمدد ويكرر ويشرح كان يتبينه البعض، ولا يفهمه أغلبهم. وهكذا كانت طرق حكمته ومعرفته الله على هذا الوجه الذي قررناه. [ص ٣٧٩].

وأما عن أحوال المذاهب المختلفة ومعتقدات كل طائفة فإنه كان يعرفها واحدة واحدة على انفرادا بحيث إنه عندما يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، لا يعرفون الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم.

وأما عن اللغات المختلفة، فقد كانت للقبولية لغة الأم. كما كان يعرف طرقاً من العربية والفارسية والهندية والكشميرية والتبتية والخطافية والفرنجية وسائر اللغات.

وأما عن السلاطين والملوك المتضمنين ولتساعرين، فقد كان يعلم بالتفصيل آدابهم وعاداتهم ونظمهم، ويقف كذلك على عادات كل منهم في الحفلات والحروب والأفراح والأفراح والطعام واللباس والركوب وغير ذلك من الحالات والأشياء. كيف كانت وعلى أي نحو صارت في هذا الزمان؟ ... ويشرحها لكل طائفة منهم، فيمتلكهم الإعجاب.

وأما عن معرفة تواريخ المفلول وحكاياتهم التي كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة إليهم وكذلك أسماء الآباء والأجداد والأقارب نساً ورجالاً، وكذلك أمراء المفلول قديماً وحديثاً ممن كانوا في البلاد أو لا يزالون فيها، فقد كان يعرف بالتفصيل شجب نسل كل منهم باستثناء هؤلاء ألقا، إذ إنه لا يوجد من أقوام المفلول شخص آخر مثله يسيط بهذا التاريخ والجميع يعلمون منه. وإن تاريخ المفلول هذا الذي كتبه، استغدت أكثره من حضرته وبذلك أصبح ميسراً. ويوجد كثير من أسرار المفلول وحكاياتهم يعرفها هو نفسه، ولم تسجل في هذا التاريخ.

كذلك يعرف السلطان غازان لأغلب تواريخ ملوك العجم والأتراك والهند وكشمير والخطا والأقوام الأخرى على اختلاف طبقاتهم ويقول ذلك أمام كل قوم، فيصيرون متحيرين.

وأما شجاعته ووقوفه على نظم الحرب والإعداد لها، فإن ذلك يبلغ غاية الكمال. وسوف نقره فصلاً على حدة في هذا الموضوع.

وأما عن الحرف المختلفة، فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها يده، وذلك من قبيل الصياغة والحلادة والنجارة والنقش وصب المعادن والحراطة والصناعات الأخرى؛ وذلك على نحو أفضل [من ٢٨٠] مما يصنع جميع الأساتذة المهرة، ولأنه يمارس صنعها بنفسه كان يرشدهم. وكل أستاذ مهندس يريد أن يصنع آلة منقطعة النظر لا يعرفها المهندسون الآخرون، كان يرشده ويعلمه حتى يعلم.

وأما صنعة الكيمياء التي هي أعمد الصناعات فقد أولع بها، ووقف على طريقتها في مدة وجيزة. ولما كان يعرف حق المعرفة أن هذا العمل لا يستطيع كل شخص أن يحققه

على الوجه الأكمل، استدعى تلك الطائفة التي تدعى معرفة هذه الصنعة، ولم يتسح لهم الجبال كي ينتفخوا عليها شيئا على النحو الذي كان مألوفا، وهو أن تصرف لهم أموال كثيرة على تلك الحرفة، وذلك بناء على كلامهم. لكنه أمرهم بصناعة عدة صناعات يعرفونها ويحبونها وما يلزمها من الآلات والأدوات، وذلك مثل صنعة المناء وحل الطلق وصهر البلور وعمل الزنجفر، وصهر المواد الصلبة بواسطة تسخينها وتكثيف البخار المنبعث منها وصنع شيء يشبه الذهب والفضة، بالإضافة إلى صناعات أخرى صنعها أمامه حتى اطلع عليها وعرفها، وقال: إنني لا أريد أن أتعلمها كي أصنع ذهابا وفضة؛ إذ إنني أعلم أن ذلك أمر معتدل لكنني أريد أن أحيط أيضا علما بالصناعات الدقيقة النظرية وأصنعها كذلك لأن ذلك كمال في العلم الذي لا يقف عند حد. ولكن ينبغي التقدم والترقي من عمل إلى آخر.

أما علم الطب وطرقه للنبذة عند التازيك والخطا والمنقول والمهند وكشمير فقد اطلع على كليات كل منها، وعلم وجهة نظر كل طائفة. كما عرف كل الأدوية، ووقف على أكثر خواصها، والأطباء في هذه البلاد يعرفونها على الأكثر في دكاكين العطارين. أما هو فقد اكتشف في الصحراء الأعشاب الطيبة عند كل طائفة ووقف عليها. كذلك يعرف [ص ٢٨١] ما يسمى الآن "بنج دارو" (الأدوية الخمسة)، وذلك من ورقها، وإذا ما تعاطاها، ظهر أنها هي بعينها. وهناك كثير من الأدوية، كانت تنسب إلى بلاد التركستان والخطا والمهند، وكان التجار يجلبونها للمتاجرة فيها ويبيعها في هذا البلد بثمن باعظ فاكتشف السلطان غازان وجودها في هذه البلاد. وبالتجربة وقف بنفسه على خصائصها.

وكان هناك في الولايات بعض علماء المقاتير المشهورة من الترك والتازيك، فاستدعاهم السلطان، وكان يصطحبهم معه في أوقات الصيد وغيره في الجبال والصحاري، وكان يستفسر منهم عن كل ما يريد معرفته حتى وقف على تلك الطريقة؛ حيث إنه في هذا الزمان لم يكن هناك بين جميع علماء المقاتير والأطباء شخص مثله يعرف هذه الأوصاف. كذلك أحاط علما بكل ما كان من الأدوية المفردة المعروفة عند أهلها بالترهاتي وهي جربة وبعدها أربعة وعشرون دواء مفردا، كان كل منها ترهاتا مطلقا. ثم أضاف إليها الترهات الفاروقى، وجرب ذلك الترهات، فظهر نفعه للغاية، وصار اسمه "الترهات الفاروقى".

وأما عن علم المعادن، فنظرا لكثرة تفحصه وتباحثه مع علماء ذلك العلم، صار يعرف ما يحويه كل موضع من الجبال والصحارى التي يراها، ثم يحدد المعدن الذى يوجد فى ذلك الموضع. وعندما يتحرى للتخصصون حقيقة ذلك، يكون هو الذى ذكره. كما أنه يعرف طريقة استخراج كل نوع من المعادن وصهرها بواسطة الآلات والأدوات. وقد صنعها كلها وجربها.

وأما التعاويذ، فإنه يعرف منها ما يقرأ لكل نكفة.

وأما معرفة خواص أشكال الأدميين والدواب، وما تدل عليه فإنه يقف بالتفصيل على كل ما يتصل بها على نحو ما ذكر فى الكتب.

وأما علم النجوم والفلك فقد ذهب عدة مرات إلى مرصد مراغة واستفسر باستغاضة عما يشتمل عليه من آلات وعن كيفية تشغيلها. ولهذا استفاد وتعلم، واطلع على تفاصيل تلك الآلات والأجهزة؛ بحيث إنه مال إلى تشييد عمارة لمرصد جديد [ص ٣٨٢] حسب ما تراهى له هو نفسه، فلقبهم هذا المرصد. كما بنى قبة من تصميمه بقصد تعيين دوران الشمس، وتناقش المتجمين فى ذلك، فأجبع هؤلاء قائلين: "على الرغم من أننا لم نر قط مثل هذه الآلة، فإن ذلك أمر مقبول. وفى المرصد المجاور لأبواب البر فى تبريز أقيم بناء على شكل قبة نحوى تلك المعلنات على النحو المشاهد.

بهذا كله يكون السلطان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور، ولم يمنع الحق تعالى عنه أى كمال، وزينه بالأخلاق الحميدة كما سوف نذكر فى القفصول الأخرى القادمة. ولهذا السبب لم يتطرق إليه المعبى بنفسه مطلقا. وهو يصرح بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات.

أما الإحاطة بالعلوم والاصناعات الأخرى فهى التى يمكن أن يطلق عليه اسم الكمال لأن من لا يعرفونها، يكون ذلك نقصانا فيهم. وقياسا على هذا ينبغي أن يعرف الشخص من كل شيء شيئا حتى لا يكون ناقصا. وإلا فماذا كنت أنعمل هذه المشقات...؟ " وإلى الآن ما زال غازان يحان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وهكذا ذكرنا شطرا مما يتعلق بعلوم وآداب سلطان الإسلام غازان خان - خلد ملكه -
وأمل هذا المهد والقصون على تلك الحقائق وهم شهود على أن الحال يجرى على هذا
المثال؛ وذلك حتى لا يظن القراء في كلامي فيما بعد قتالين؛ لقد حدثت مبالغة فيما
كُتبت.

اللهم امنح غازان فضيلة جديدة كل يوم.

المكايبة الثانية

فى عفة سلطان الإسلام وعصمته

يقرر الذين كانوا قبل هذا مقربين إلى الحضرة أن سلطان الإسلام -- خلد ملكه -- لم يقدم على حرام قط. وإذا ما اتفق له النظر إلى أحد، فإنه لم يكن يجيز مطلقاً أن يرتكب إثماً.

وفى الوقت الذى ظل فيه زمناً طويلاً بعيداً عن داره، يقود الجيش ويقوم بالفتوحات [ص ٢٨٣] كان القواد كلما حصلوا على البنات الحسنات نتيجة الغارات، يتخارون أكثرهن جمالاً ويأتون بهن إلى الحضرة. ومع أن من عادات المفلول أن يحتفظن بمثل أولئك الإماء السريات حتى يتفادوا بهن، ويكون طرفتهم فى الغزو مزدهراً وميسراً، فإن سلطان الإسلام لم يكن يميل إليهن مطلقاً، ويقول فى هذا الصدد: كيف ألوث جسدى بهن وكيف أتعرف عليهن فجأة؟ .. وعلى هذا لم يكثر بهن ولم يتسلهن.

بعد ذلك خلال هذه الفترات، وحسب ما اتضح لم تصدر من حضرته محاولة مطلقاً هيأت له طريق الزنا واللواط والفسق، ولم ينظر إلى نساء الناس بالخيانة والإثم. وفى كل مرة أثناء فتح الشام، كانت فى دمشق بنات المفلول وغيرهن، فلم يلتفت إليهن على الرغم من ابتعاده مدة طويلة عن دياره ونسائه. وقد استطاع أن يحافظ على نفسه وبصاير. كذلك لم تجز نفسه الشريفة مطلقاً لشخص آخر أن يجرد بجبالاً لارتكاب اللواط والفسق والفجور. وكان دائماً يبلغ فى منع هذه التناقض بإصدار الفرمانات. وقد عاقب وفق قواعد الشرع والياساق عدة أشخاص معينين بسبب ارتكابهم تلك الأثام.

وإخلاصة أن طهارة نفس السلطان غازان الشريفة مثل المذهب الإبريز.

فليحفظ الحق تعالى، وليحرس تلك الذات الشريفة من نكبات الزمن، وأن يوجه عين الكمال إلى ساحته المباركة بحق النبى وآله.

المحاكمة الثالثة

في نصيحة سلطان الإسلام وبلاغته وحسن سؤاله وإجابته في أحاديثه مع البعيد والقريب والعرك والتزريك

قبل هنا المهدي، كان الأمراء والوزراء يصرفون أكثر المهمات ومصالح الدولة. كما كانوا هم أنفسهم يديرون شئون الملك. وكان السلطان فارغ البال من تلك الأمور. وكان يضي أكثر أوقاته منهمكا في الصيد واللهو. وعلى هذا يمكن إدراك [ص ٣٨٤] كيف يكون تدبير الأمراء والوزراء المختلفي الأثوال والأهواء؟

وفي كل وقت كان يقد رسول من قبل الملوك البعيدين والقربين، يتفاوض الأمراء = ويردون عليه. أما سلطان الإسلام غازان خان فقد أصلح كل شئون الملك التي كان الأمراء والوزراء قد ألحقوا بها الضرر مدة سنوات وعرضوا قواعدها للخلل، وذلك بأفكاره العاصية، وآرائه الثابتة. وقد أمر على تنفيذ أوامره، ولم يدع سيلا لأى أمير أو وزير كى يعترض أو يتحدث عن شأن من الشؤون، ولم يقم وزنا أو معتبرا لأى واحد يعرض فكرا أو رأيا، بل يظل الجميع منتظرين ومترقبين لإشارته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالا لمخلوق قط كى يسأله حتى عن يوم الرحيل. وقد اتخذ بقوة عزمته طريقة تجعل الجميع من شب وشبان وعقلاء وجهلاء يراعون رأيه وتدبيره وإشارته.

وفي الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص منهم، لأنهم جميعا شاهدوا أن نفسه هي الأكمل، ورأيه هو الأصوب من كل الوجوه. وكذلك حركته وسكاته مرتبة إلى أقصى حد؛ فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شيء بالمقاس إلى كفاءته.

ورغم حداثة سن السلطان، فإنه يذكر عدة أمثال متخبة وتواريخ وحكايات لطيفة تجعل المستمعين ينفون حيازي متعجبين. وكلما وصل إليه رسول من إحدى الجهات، كان يجيبه إجابة صائبة دون الرجوع إلى أركان الدولة ولعل الفكر والمشورة. ومن المسلم به أن الملوك المعظم يرسلون إلى الملوك الآخرين رسلا في غاية الذكاء والدعاء بالإضافة إلى أنهم علماء

وفصحاء ومحنكون. وإن طائفة الرسل الذين وفعوا حتى الآن، وكذلك الحكماء والأطباء المشهورون الذين قدموا من الأطراف إلى بلاط غازان قد تعجبوا جميعاً من فصاحته وبلاغته وحسن محاورته ومخادشته وكمال أخلاقه. [ص ٢٨٥] وكان يتحدث معهم عن أكثر الحكايات والحوادث التي تتعلق ببلادهم، ويشرح بالتفصيل معتقدات كل طائفة نقد إليه. وعن طريق الحكاية يبين رسوم وعادات كل ملك وكل قوم من اللطغمن والمشاعرين؛ فلا غرو أن ذاع صيته وشاع في كل بلاد الصين والهند الصينية والهند وتركستان وكشمير ودشت القهجال والأوروس والفرنج ومصر والشام؛ بحيث إن الجميع حسبوا له حساباً تاماً فيما يتعلق بهيبته وسياسته وكفايته وكناسته؛ وذلك في كل الأهباب والأحوال، فشغلوا بمدحه والثناء عليه.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام هذا، صفوة خلق الله وأعقل وأكمل أبناء الزمان، وأبقاه حتى الأبد على رأس العالمين بحق حقه. والسلام.

الحكاية الرابعة

في صبر سلطان الإسلام وثباته وصدق عهده وميثاقه

بين الآن عدة ظواهر من الصبر والتحمل والثبات وصدق القول والحفاظ على العهد والميثاق. تلك الصفات التي هي مركزة في ذات السلطان غازان؛ لأن شرح ذلك كله يؤدي إلى الإطراب فلقد غرر به نوروز مع أنه عهد من عبيد الحضرة، فصد المخيمات واندرج فجأة في زمرة الأتباع كما هو مذكور في التاريخ، ولكنه عهد إلى الحيانة عدة مرات. وكان هو السبب في غراب خراسان، واضطراب الجنود وتشتتهم هناك. ثم انضم إلى جيش "قايدو" واشتغل بتخريب للملك مدة طويلة. ولما شعر بمجزه، أرسل إلى الحضرة يطلب الأمان والميثاق. ثم جاء طامعا مختاراً. ورغم كلى تلك المساوئ التي لا يستطيع شخص عملها عفا عنه السلطان وتجاوز عن سيئاته، وفوضه حكم كل البلاد.

ولكن لما كانت لنوروز نفس عجيبة [ص ٣٨٦] وبمدت على ناصيته علامات الفجر وكان يقول أيضاً كلاماً غير لائق. ولما كان الأمر كذلك، قال الأمرء مراراً للسلطان: لقد ارتكب نوروز كثيراً من الأعمال المستهجنة، وصدرت عنه أنواع الجرائم، فيتبغى القضاء عليه. لكن سلطان الإسلام علم ملكه لم يمرض بذلك وقال: الحق معكم لكنني لا أستطيع أن أنكث عهدي وميثاقني. ومهما كانت تصدر عنه حركات وأفعال سيئة كان السلطان يتحمل ويصبر إلى أن ذهب إلى خراسان وشرع في إثارة الفتنة وإعلان العصيان وأراد أن يستولى على تلك القواصي بالإضافة إلى شيراز وكerman. وكانت البلاد على وشك أن تخرب على يديه مرة أخرى. وهكذا كانت تلك التصرفات ظاهرة وواضحة؛ فأشار السلطان بتدارك الموقف. وهنا قال الأمرء: لقد قلنا مراراً إنه يضرر هذه الثواب في قلبه. فقال غازان: إني أيضاً كنت أعلم ذلك ولكنني أردت أن يكون هو الياقوت بالعنوان لا أنا. كذلك كانت هناك طائفة أخرى من كبار الشخصيات، قتل السلطان بعضهم، وليس هناك داعٍ لذكر أسماؤهم بالتفصيل، ولا يكون ذلك مناسباً. وأثناء محاكمتهم قال السلطان

للأمر: إننى مطلع على قبح سيرتهم وسريرتهم منذ خمس سنوات، وأعلم عنهم كل شىء، ولكنى صبرت عليهم. ولقد قال بعضهم مرات عديدة كلاما غير لائق ينسب فى خراب البلاد. ولو كنت ألفت وأستمع إلى أنواع الخيل التى يذكرونها، لترتب على ما يقولون تلك الفتن التى لا تنتهى، ولا أريد أن أذكر بعضها، ومنذ فترة وجيزة ذكرت لها لم فى الحلوة. ولقد عرفت لأول وهلة أن أقولهم التى ذكروها إنسا هى محض احتمال وخداع، فاستكرتها. ولكنهم رغم ذلك لم يستحووا، وظلوا يعيدونها مدة خمس سنوات ويعرضونها بصور مختلفة. والعجيب أنهم كانوا يرون أنى لا أسئتها [ص ٢٨٧] ولا أعمل بها. ومع ذلك صاروا يكررونها. وقد أراد هؤلاء الجهال الحمقى أن يستجلبونى ويقتربونى فى حبالهم. ولما تجاوز الأمر الحد، وظهرت نوابهم، اعترفوا هم أنفسهم. وعندئذ أعلنت ذلك على الملأ قبي للناس من صورة الأحوال واقضابها أن ما حدث كان على النحو الذى ذكرت. ومنذ مدة كانوا يتفوهون بملك الكلام ويقولون جميعا متصحين: كيف استطاع السلطان الصير على هذه المخالفات؟! . ولقد زاد عجبهم لأنهم ذكروها بنصها، ولكنهم تأكلوا من أن أى مخلوق وحى بالناس فى حضرة السلطان وعمد إلى التزوير والتطليس، عرفه السلطان فى الحال، واستاء منه، ولكنه بصيره لم يصجل فى إظهار غضبه، ولم يفظن ذلك للرجل إلى أن السلطان يعلم ذلك وبصير عليه، ولكنه كان يصير على خطه، فكانت عاقبته الإعدام.

ولقد كانت تلك الجماعة كثيرين من بينهم قاضى سنان الذى كان يدعى "القاضى صاين"، وكان أكثر خلق الله شرا. وفى الحقيقة كان أكثر شرا من إبليس. ومن هؤلاء أيضا الصاحب الأصفهائى وعدة أشخاص آخرين ممن لا يستحقون الذكر. ولقد طعن السلطان إلى أفعالهم جميعا. وبعد أن صبر عليهم مدة، أمر بقتل بعضهم بناء على أقوال شهود النفس والإببات، وطرد بعضهم من خدمته.

وعلى العكس فإن الأشخاص الذين عرفوا طبيعته، وكفوا عن الملهاة وإثارة الفتن وقالوا دائما الكلام المقبول المنبذ المر عن حقيقة شعورهم، هؤلاء الأشخاص قدرهم حق قدرهم، يميزان عقله الكامل، وأنى عليهم ووثق بهم. ولما كان ضميره الثير مطالعا على أحوالهم،

لم يستمع إلى أقوال الآخرين إذا راحوا يظنون في حقهم، ويتهمونهم على سبيل الحسد والعداء. وكان يتأني، ويطلق يد هؤلاء المخلصين في الأمور التي كانوا مكلفين بأدائها وذلك حتى تسير تلك الشؤون بجدة وإحكام، ولا يتطرق إليها أي خلل. وكان يكرر قوله: ليس هناك في العالم شيء قط أشرف ولا أنفس من إنسان نفة مستقيم [ص ٢٨٨].

فلا غرو أن يكون الصادقون الثقة معززين محترمين. ولكن السلطان كان يقضى على كل مفسد وسارق ومسيء العمل. وإذا حلف المظلمون على بواطن الأمور بالأيمان المفظفة أن سلطان الإسلام عُدل ملكه لم يقتل أحدا مطلقا إلا ذلك الشخص السيء الخلق وبازم القضاء عليه، وأن وجود هؤلاء الأشرلر هو عين الضرر للعالمين - كانت أيمانهم صحيحة لا تستزم الكفارة. ومن المتيقن أنه إذا تقرب إليه مفسد آخر فإنه يأمر بقتله أيضا لأن طبيعة نفسه الشريفة بخصوص المتسلين لها خاصية الزمرد والأقمي. أما من بقى من المفسدين فإنهم تلك الزمردة التي لم يرها ولم يعرفها؛ إلا بيان نفسه الشريفة كانت كالجوهري الذي يميز البلور من البياقيت، فيعرف هؤلاء الأشخاص في الخيال. ومع هذا فإنه لا يتجمل في أي أمر إلا في صل الخير أو ما يوشك على النسيان، ولقد نصح الأمراء والقضاة والوزراء كرات ومرات قائلا: لا تقبلوا على الفور كلام طائفة تشكو حاكما أو موظفا؛ إذ من الممكن أنهم من قبل لم يكونوا قد سدحوا ما عليهم من ضرائب، وحملوا مسئوليتهم على غيرهم، فاضطروهم ذلك الحاكم إلى تسديد الضريبة. ومثل هؤلاء الناس لا بد أن يشكوا. وإذا صلحت أقوالهم أيضا، فإن جماعة أخرى يترون متذرعين بنفس الأسباب. ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة من الراغبين في تولي المناصب ويريدون أن يتفردوا من المشكو منه وظيفته، كي تفوض إليهم ويمكن أن يجيء جماعة ممن كانوا أعداءه سابقا، أو أنهم تربطهم صداقة بأحد الأشخاص، فيشتروا على الحاكم. فاحتاطوا لكل هذه الأمور ونحروا أحوال كافة الرعايا ممن يسدحون الضرائب، وتأكدوا من أن حاكمهم ظالم أو لا وأنهم يريدونه أو لا؟ حتى تبين حقيقة أمره [ص ٢٨٩]؛ إذ إنه من الممكن أن يكون كلام الكثرة من الناس خاليا من الغرض والغوى. وأن كلام أصحاب الغرض والقلبة من الناس ليس له أهمية تذكر، وأن الأشخاص الذين ترضى عنهم الرعية، وتقبل طبيعتهم إلى العدل قليلا ما يعثر عليهم. وإن الحاكم الذي يؤخذ عليه عيب أو عيبان، وله فضائل أخرى

كثيرة، لا سيما قلة الطمع وحسن السياسة والصدق والاستقامة مثله لا يمكن عزله من عمله.

وعلى هذا النهج الذي استقر في خاطر السلطان المبارك، صار يحتاط دائما، ويرشد الأمراء والوزراء أيضا، ولا تفوته - في أية قضية - قيد شرة من الكياسة وبعد النظر. فلهتمع الله تعالى سلطان الإسلام هنا بسنوات عديدة من العمر والسلطة بحق النبي وآله.

الحكاية الخامسة

في أن كل كلمة تجري على اللسان المبارك

لسلطان الإسلام تكون مطبقة

للواقع في أكثر الأوقات

يقرر المقربون الذين كانوا ملازمين للحضرة منذ عهد طفولة سلطان الإسلام - حلد ملكه - أنه في كل وقت تحدث فيه عن قضية أو قص حكاية، جاء حديثه مطابقا للواقع. وقد ثبت خلال هذه الأعوام أنه كلما تنوه بكلام على سبيل الجدل أو المنزول بتحقيق. كان يقول مثلا: لقد اتفق هذه السنة للشخص الفلاني ما اتفق له في الأمر الفلاني، أو إن رسولا يصل من أحد الأماكن بهذا الشكل والمتنظر، أو أن أسيرا يحضرونه بهذه الهيئة، أو أنه سوف يصل بحر سار. ومع أن مثل هذه الأمور لم تكن بعيدة عن أغلب الملوك ذوي الشأن العظيم الذين وهب لهم الحق تعالى هنا الملك وهذه السعادة، ولكنهم حتى الآن لم يحكوا عن أي ملك ما يحكونه عن سلطان الإسلام، كما أنهم لم يشاهدوا مثل أفعاله التي أثرت عنه.

ولما كان كذلك شديد الولوع بكل العلوم، أساط يعلم الرمل وقراءة الكف وأسنان الخيل وغير ذلك من الدلائل التي يختبرون بها السوء والحسن على نحو ما جاء في الكتب. كما أنه تتبع كل أنواع التخميم التي اسطرح عليها كل قوم، [ص ٣٩٠] وكل ولاية، ودرسها جيدا. وكان يصدر أيضا أحكاما بشأنها.

لما النجوم من سيطرة وثوابته، والتي هي مشهورة لدى المنجمين، فإنه يعرف أغلبها وهو مطلع على طلوعها وغروبها وخواص كل منها؛ بحيث إنه يشير العجب لدى مستمعيه. كذلك يعرف بدقة خواص الأشكال لكل الحيوانات المستأنسة والوحشية وذلك على تباين أصنافها واختلاف أنواعها، كما أنه يعرف عادة وحركة وسكون وموطن كل منها في الصيف والشتاء. وكل هنا لا يتأتى إلا بقوة الفراسة. والله أعلم.

المحاكمة السادسة

في بطل سلطان الإسلام وعطائه **■** وصفاته

على الوجه المستحسن القائم

على أساس المعرفة

عندما تربع سلطان الإسلام على سرير السلطنة كانت خزائن آباءه وأجداده خالية من الأموال، والولايات خربة مختلة إلى أقصى حد، وأسواق الدهبوان عرضة للنهب والتلف، وتحصيل الضرائب أمر متعذر. وبسبب سوء تدبير الوزراء والحكام السابقين طمع عمال الولايات في الأموال؛ فكان يلزم من مرور فترة من الزمن كي يمكن ضبط مصالح البلاد، وضمان وصول المال إلى الخزانة بعد ذلك.

هذا الخلل يتضح فيما يلي:

أولاً: الخزائن التي كان هولاءكو خان قد أحضرها من بغداد وبلاد الملاحدة والشام والولايات الأخرى، وأودعها قلعتي تله^(١) وشامه^(٢) هذه الخزائن كان الخزانة تهبونها بالشره، وكانوا يبيعون للتجار بالبشات^(٣) الذهب الأحمر والمرصعات. ولما كان كل منهم مطلقاً على ما يعلمه الآخر، لم يكن أي منهم يوح بشيء عنها. وقد اتفق أن تهدم برج من الأبراج المطلة على البحر فبحجة أن الباشات والمرصعات قد سقطت في البحر، اختلس الخزانة مبالغ أخرى.

(١) يكتبها أبو الفداء "تلا" ويذكر أن حمرة "تلا" هي حمرة لرمية. وبحيرة المذكورة بين مرارة وبين سلباس غربي مرارة وغربي سلباس. وهي وسطها جزيرة فيها قلعة تسمى للغة تلا على جبل منقطع في هذه الجزيرة. وكان "تلاوون" (هولاءكو) قد جعل لمرارة فيها لخصتها. (تقويم البلدان، ص ٩٩. تصحيح وطبع رينود والبارون ساك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ م. ص ٩٩).

(٢) خاما: قلعة جديدة هولاءكو. ووضع فيها أمواله بما نهبه من بلاد وأقاليم الخلافة. ثم صارت هذه القلعة مديناً له. وكانت تعرف بالفارسية "كورد قلعة" أي "قلعة الكورد". (بلدان الخلافة العثمانية، ترجمة العربية، ص ١٩٥. بغداد ١٣٧٣/١٩٥٤ م.).

(٣) الباشات جمع باش. والباش عبارة عن حسيطة مقلد من الذهب أو الفضة (انظر كتاب تاريخ جهاتگشاي، جلد اول، تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزويني، ص ١٧٧. حاشية ٢، لندن ١٣٢٩/١٩١١ م.).

ثانيا: السلطان أحمد "مكودار" كان يريد أن يجذب إليه الجند، ويستخلص الملك لنفسه وعمارب أرغون؛ فأعطى الجند جملة ما تبقى. ولم يكن قد بقي هناك شيء أكثر من هذا. وقيل إن ما بقي في الخزانة لم يكن يبلغ مائة وخمسين تومانا. (ص ٣٩١).

ثالثا: ما جمعه أرغون في "سوغورلوق" من كل نوع ولودعه الخزانة، سرق بعض منه وأتلف بعضه الآخر. وبعد ذلك فإن ما كان أرغون قد حصله في عهد توليه الحكم وزع وأتلف أيضا. وعندما فكر الأمراء والمقربون في الفقر به وعائلته ومحاولة قتله، قسم بعض الأمراء والمقربين محتويات تلك الخزانة فيما بينهم وقال بعضهم: إننا سوف نوزعها على الجند، ولكنهم بددوها. ولم ينل جيخاتر نفسه شيئا منها. وإذا كانت هناك بقية قد توافرت من خزانة أرغون، فإنه قد منحها للناس.

هذه الأسباب لم يكن قد بقي هناك شيء قط من تلك الأموال السالفة عند جلوس غازان المبارك. ثم إن الجيود الذين كانوا معه عندما قدموا من غراسان، انتهب الأعداء الفرصة، وجاءوا إلى هنا الإقليم ونهبوا ديار الجند وقطعتهم. وكلما حاول سلطان الإسلام خلد ملكه أن يمنح جنوده شيئا، لم يجد في الخزانة مالا قط. كما أن أسواق الولايات لم تكن تصل إلى الخزانة العامة.

ولقد ظل نوروز مدة يدير شؤون الملك والمال. وبسبب سلوكه طريقتة السابقة، لم يتوافر شيء. وبعد ذلك أخذ شرف الدين السمناني وصدر الدين يديران الشؤون، فلم يحدث أيضا شيء يذكر. ثم إن القوات الاحتياطية كانت في حاجة إلى المال. وإذا وفد رسول من الولايات البعيدة والقريبة، وأرادوا منحه خلعة أو عطاء، لم يكن يوجد في الخزانة ما يليق بمنزلته. كذلك لم يكن الناس يصفقون أن الخزانة غالبة إلى هذا الحد فكانوا ينسيون التهاون والإهمال إلى سلطان الإسلام إلى حد أنه كانت تصل الشكاوى من كل شخص بخصوص هذا الموضوع.

وعندما بلغ ذلك سمعه الأشرف كرر قوله على رأس جمع من الأمراء والمقربين: إنكم تظنون عندما يصل عدد الإبل والبغال الأحملة بالصناديق، أنها تحمل أموالا إلى الخزانة؛ ولكن الحقيقة هي أنني أحب الصناعة، وأشغل دائما بتقطع أنواع الأخشاب وتصنيعها؛ فكل ما يحمل إلى هنا ليس أكثر من أخشاب، وأصناف الأدوات والآلات الخاصة بكل صناعة.

[ص ٣٩٢] بالإضافة إلى بعض قطع من الأسلحة. وهذا لا معنى عليكم. والخزنة مطلقون على تلك الحقيقة، فكيف أحب الشيء الذى لا وجود له؟ إنه لم تظهر لى خزنة ورثتها عن الآباء، ولم يحضروا إلى مالا من الولايات. وعلى هذا جئت على رأس بلد غرب. فعليكم أنتم أن تجمعوا أموال الولايات واحضروها لى. وعندئذ إننا لم أعطها لهماكم، وسوف يكون التفسير من جانبى. ومن هذا الكلام الصريح ثبت للجميع أن الحق بجانب السلطان.

وبعد عامين عندما فرغ من ترتيب شئون المملكة وتبديرها وأحكم شئون الأطراف والثغور، وقضى على الخوارج والأشخاص الذين كانوا قد دلبوا على إثارة الفتن والعصيان أو أنه عنفهم وزجرهم اشتغل بتبدير شئون الولايات وترتيب الأمور المتعلقة ب ضبط الأموال وتحصيل الضرائب. وكان يجلس بنفسه كل يوم من الصباح الباكر حتى المساء يصحح بقلمه المبارك المسودات الجديرة بالتسجيل. كذلك أوجد نسفاً لأمر البلاد، ووضع لها قانوناً، وبين على أى نظام يسير كل عمل.

أما الولايات التى يقطعونها فقد قرر أن تعطى أناساً أقوياء ولا تسترد منهم مدة ثلاث سنوات، وألا يشتتوا إلى أى شخص وضيق عيسى. وبين سبل تحصيل الأموال، وكيف يكون ذلك. وعين أيضاً الأموال التى يجب تحصيلها من كل البلاد. كما عين وجوه الصرف فى كل باب على الوجه الذى سوف يبيء شرحه فى الفصول التالية.

بذلك انتظمت أمور الولايات، وأخذت الأموال تصل إلى الخزنة يوماً بعد يوم، وصار الدخل يزداد سنة بعد أخرى. ولما نسيج المصانع الذى لم يكن يسد نفقاته قبل ذلك، ولم يكن الثوب يساوى دانتين من السعر المقرر، فقد وصل الإنتاج كله إلى حد الكمال. ولما حصل السلطان على المال، شغل بالعبادة وقال للأمرء وأركان الدولة فى هذا الصدد: ليس فى العالم أمر أصعب من بلل المال. وإن كنت غير عال كان يصرح: ليس هناك عمل أسوأ من إعطاء المال، وأيضاً من عدم الإعطاء. ومن المؤكد أن من لا يعطى يكون يئسلاً.

[ص ٣٩٣] وأى شيء يكون أسوأ من البخل؟ وأما فى حالة الإعطاء فإنهم إن منحوا أحداً قليلاً، وآخر كثيراً، أو أنهم أعطوا أحداً ومنعوا آخر، أو أن الشخص الذى ينبغي أن يسرعوا فى إعطائه أبطأوا فى تنفيذ ذلك، فهنا التصرف يكون على الناس أسمى من الموت ويعيرهم أعناء، وقليل من يستطيع مراعاة هذه النقاط، ويتاح له هذا التفكير. ولا يتيسر فهم هذا المعنى لكل شخص. والآن يجب علينا أن نراعى هذه القاعدة بقدر المستطاع.

والتفق أن وصلت عمدة خزائن أول الأمر. وكان كل منها يحتوى على مائتي تومان أو ثلاثمائة، حولها إلى الأمراء والنواب، وقال: إني لا أتصك بما أتوا به، ولن أودعه الخزانة وأشار بأن يضعوا على حدة ما حصلوه من الولايات حتى يقوم الأمراء بتوزيعه. وبعد ذلك بين لهم أي قوم يعطون، وما المبلغ الذي يعطى لكل طائفة. وكان الأمراء يعطون أيضا طبقا لهذه القاعدة.

بعد ذلك في هذه السنوات الأخيرة صرح قائلًا ذات مرة: لقد وزع جماعة من الأمراء الأموال، وإني أرغب من كل قلبي أن أمتنع شيئا بنفسى. وعند انعقاد مجلس الشورى (القرورلنتاي) في أوجان أمر بإقامة عظيم ملكي كبير حيث جمع الخزانة التي أحضروها من أطراف البلاد، وجلس بنفسه مع بعض الأمراء المشهورين، فأعطى مبلغا كبيرا من كانوا أرفع درجة، وهؤلاء الذين أدوا خدمات جليلة. وكذلك من مهدوا الطرق المستحسنة خصص لهم منحا أزيد. وقد عبر عن تلك الزيادة بقوله: على هذا النحو أعطى هذه الجماعة أكثر من غيرهم. والمقصود من هذا أن يجد الآخرون أيضا في تصعيد الطرق، وتأدية الخدمات الجليلة ويسعون سعيا حثيثا ويجتهدون اجتهادا تاما. وهكذا كان يتكلم على هذا النحو، وهو يمتنهم العطاء.

وبعد ذلك كان يقدم طائفة الآباء الذين لهم أبناء ثم يعطى قواد المينة والميسرة على حسب القاعدة للمعهودة. كذلك أمر بوضع أنواع الثياب مرتبة صنفا صنفا وبها بها. ثم وزن كل أكياس الذهب الإبريز والفضة كلا على حدة، وكتب عليها مقدار ما تحويه واسم الطائفة التي تستحقها، وذلك على حسب استمدادها وأحققتها. وكان ينادى واحدا فواحدا، [ص ٣٩٤] ويأمر بتسليم كل منهم نصيبه بحضوره. وظل على هذا النحو يمنح الأموال مدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما؛ فتمنح مبلغ ثلاثمائة تومان نقدا ذهبيا وعشرين ألف ثوب وخمسين حزاما مرصعا وثلاثمائة حزام ذهبي ومائة باليش من الذهب الأحمر. وبعد ذلك ظل دائما وعلى التوالي يمنح العطايا من الخزانة من النقود الذهبية، ولم يتحول على الولاية مطلقا حوالة يدفع بموجبها لأحد باسم العطاء ذاتي من الذهب أو قطعة من الثياب. وكل ما طلبه الأمراء والوزراء لم يكن حوالاته. وإنما أعطاهم المبالغ تقدا.

على هذا النحو ظل السلطان يعطي، لكنه كان يراعى قدر الشخص ومنصبه وظروف العطاء؛ بحيث لا يعطي القليل من كان أهلا للكثير، ولا يعطي الكثير من ينهى أن يعطي القليل. ولم تفرغ عزائمه مطلقا من الذهب والثياب. ومهما أعطى الكثير منحه الحق تعالى بركة بسبب عدله وحسن تدبيره. ولم تغل عزائمه قط من الثياب والذهب، ولا يكاد يمضي يوم إلا ويصرف من عزائمه عشرة آلاف وعشرين ألف دينار من الذهب ومائة ومائتين وثلاثمائة ثوب من الثياب الجميزة. وهكذا يكون السخاء والبذل والعطاء .

بعد ذلك قال بحضور الأمراء وعظماء الدولة: إن أفضل الأعمال التي يؤديها الإنسان هي أن يتخلق بأخلاق الله، لا سيما الملوك. وإن الجود والسخاء هما من صفات الله. لكن جوده وسخاؤه لا يتقصان. ولا ينفدان مهما أعطى الكثير، وأمر بهما المستحقين. وإن ما يفعله الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى لا يكون إلا كقطرة بالنسبة إلى البحر. لكن الشئ خلق بخلق الله بقدر استطاع أمر واجب. أما الملوك وجميع الناس، فيجب عليهم أن يتفوقوا أمورهم على هذا النحو؛ بحيث يكونون دائما قادرين على ذلك حتى يمكنهم الإنفاق دائما؛ فإنهم إن أنفقوا ما لهم في بضعة أيام دون ضبط أو روية، ثم يكونون بعد ذلك عاجزين عن الإعطاء ولا يستطيعون من ما لهم. فما الفائدة التي تعود على الشخص إذا لم يستطع الإنفاق بعد ذلك؛ والأمر الذي لا شك فيه أن من يمنحون أشخاصا معلودين كل ما عندهم ويحرمون الآخرين حرمانا تاما، يكونون غشطين أيضا، ولا يكون تصرفهم هذا مرضيا لله ولا متفقا مع صفته. [ص ٣٩٥].

والملك ينبغي أن يكون مثل الشمس، تصل أشعتها إلى جميع الأشخاص. والإنفاق حق عام للخلائق أجمعين، وخصوصا أولئك المستحقين والمحتاجين، والذين يعملون أعمالا مجيدة. ومن بين هؤلاء أيضا الجنود. فكيف يجوز أن يمنح لذلك كل ما عنده عدة أشخاص، ثم يجلس بعد ذلك على الرفاه ولا يعطي شخصا آخر شيئا، لأنه عاجز عن العطاء. وإذا فما الذي يعود على الناس من ذلك الشخص؟ وأية لذة وهبة يمكن أن يستمتع بهما ملك في تلك الحالة؟

إن سخاء الملوك وجودهم يجب أن يكونا مثل ماء البئر والعين لا يتضب معينهما مهما أخذ الناس منهما. وهذا الأمر لا يتيسر إلا بتدبير الملك وإقامة العمران وتوخي العدل

وحسن السياسة. ولا بد أيضا من مراعاة الاعتدال في كل عمل؛ بحيث إن ذلك القدر الذي يعطونه يصل عوضه تباعا وإلا:

بيت من الشعر الفارسي ترجمته:

إنك إذا أخذت من الجبل، ولم تضع شيئا مكان ما أخذت

فإن العاقبة أن يزول الجبل من موضعه نهائيا

وإذا كان لنا ولكم ميل إلى المال والسخاء والمعطاء، فإنه ينبغي أن نعدل ونصدق؛ لأن خاصية العدل هي التي نجعلنا نعرف من أين هذا المال. وعندئذ نتطوع الخزانة. ومنها منحت وأعطيت فإن الخزانة لا يتضب معها. ومن الأفضل أن تكون قادرين على هذا دائما. وإلا فكيف يصلح ملك يكون قادرا يوما وعاجزا يوما، وثريا وقتا وفقيرا وقتا آخر؟! إن هذا الأمر لا يليق بالملك. ولو يكون هناك ملك بهذه الصفة فإنه يضطر إلى أن يعيش دائما في غم وحزن، ويحرم الخلق مواهبه، ويصرون في غنى سلطانه.

فينبغي أن تراعى هذه القاعدة، وأن تعمل على أن تعطى كل ما يجيء إلينا من مال، لا أن ندعه يتراكم بعضه فوق بعض، ولا أن نصير أيضا دفعة واحدة خيال الوفاض مفلسين. [ص ٢٩٦] والمال القليل يجب أن يكون دائما مستمرا؛ لأن خاصية المال هي أنه إذا كان قليلا؛ فإنه سرعان ما ينمو ويأخذ في الزيادة مثل الصياد إذا لم يكن لديه طائر يضعه على شبكته كي تنجذب إليه الطيور التي من جنسه؛ فإنه لا يستطيع أن يصطاد طائرا قط. أما إذا كان هناك طائر واحد هو كل ثروته، فإنه بواسطة يصطاد عدة آلاف من الطيور في سنة واحدة.

فأثنى الأمراء وأركان الدولة على كلام سلطان الإسلام ودعوا له، وصاروا جميعا متبهجين. ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن، ويسير السلطان الأمور دائما على هذا النمط.

ولا بد أن الناس يحملون هذا الكلام على سبيل المبالغة ويقولون من الذي رأى الملك السابقين، ومن وقف على نواضع عزائهم حتى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد الصادق على هذه الأمور هي سجلات الدخل والخرج لخزائن السابقين، وكلها محفوظة في دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجودا حتى الآن. فأى شهادة في هذه الدنيا تكون أكثر عدلا وصدقا من السجلات والدفاتر التي لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟ ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقال أو كذبه.

فليق الحق تعالى هذا العدل والمعطاء والإتقان والإحسان أبد الدهر بمنه وجوده. والسلام.

المكايبة السابقة

فى إبطال التديانة الوثنية، وتقريب معاهد الوثنيين وتعطيم كل الأصنام

حينما دخل فى الإسلام سلطان الإسلام غازان خان - خلد سلطانه بالتوفيق والهداية الإلهية كما سبق ذكره أمر بتعطيم كل الأصنام وتغريب كافة معابدها وهدم بيوت النار [ص ٢٩٧] والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودها شرعا فى بلاد المسلمين. كذلك أدخلوا أكثر جماعة الكهنة عباد الأصنام فى الإسلام. ولكن لما لم يهب لهم الله تعالى إيماناً قوياً، كانوا يتظاهرون مضطربين بالإسلام. هذا على حين أنه تبدو على سمنهم آثار الكفر والضلال. وبعد مدة أدرك سلطان الإسلام خلد ملكه بنفاقهم، فقال لهم: كل من يريد منكم أن يرحل إلى بلاد الهند وكشمير والتبت وموطنه الأصلي فليرحل. أما الذين يقون هنا فعليهم ألا يتناقضوا ويظنوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمايرهم، وألا يلوثوا الدين الإسلامى الحنيف بنفاقهم. لكن إذا علمت أنهم يقيمون معابد النار أو بيوت الأصنام فسوف أجعلهم دون حماية طعمة للسير. ومع هذا فقد استمر بعضهم فى النفاق واشتغل بعضهم بأنكارهم المستهجن. كذلك صرح سلطان الإسلام قائلا: إن أبى كان وثنياً، ومات على هذه العقيدة. وقد أقام لنفسه بيتاً للأصنام ومعبداً، ولوقف عليهما وقفاً باسم تلك الجماعة من عباد الأصنام. وقد خربت ذلك المعبد. فذهبوا إلى هناك وأقيموا وعيشوا على الصلقات. وقد انتهز الأمراء والخواتين تلك الفرصة، وقالوا: إن أباك قد أقام معبداً ونقش صورته على جدراته. وحيث إن المعبد صار الآن خراباً، يسقط الثلج والمطر على صور أبىك، وقد كان وثنياً، فإذا عمروا هذا المكان، فإن ذلك يكون مؤدياً لاستقرار روح أبىك وحسن سمته. لكن غازان لم يستحسن هذا رأى، ولم يعره اهتماماً. فأضافوا قائلين: ليجعلوه على هيئة قصر. فلم يرفقه ذلك أيضاً، وقال: إذا كان فى نيتي تشييد قصر حيث تحفظ صورة أبى؛ فإنه لا يجوز إقامته هناك، لأن هذا المكان كان معبداً وموضعا للوثنيين. وإذا كان من اللازم تشييد هنا القصره فليشيده فى مكان آخر. وكانت هناك حكايات وقضايا كثيرة من هذا النوع يطول شرحها.

وصفة القول أنه قال للكهنة [ص ٣٩٨] إني أعلم أنكم لستم على علم. ولكن يجب على الملوك أن يراعوا كافة أصناف الخلق من رعاياهم. ولهذا السبب عليهم أن يحافظوا على الجميع ويرعاهم ويمنوا بهم؛ حتى البهائم التي لا إدراك لها ولا عقل؛ فإن الملوك وأهل الإسلام وكافة الناس يعطون عليها ويهتمون بها، ويفرون لها احتياجاتها. وأنتم أيضا تسرون في نفس هذا الطريق، وتستمعون بهذه الزايا. ولكن ينبغي ألا يبدو منكم أدنى أثر حتى ولو بقيد شعرة للوثنية والتعصب والثرابية. وإلا فسوف أجعلكم طعمة للسيف.

وفي وقتنا هذا فإن الطائفة القليلة منهم التي بقيت في إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم أو مذهبهم، وذلك مثل أتوام الجموس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم. لكنهم يخفون معتقداتهم.

أدام الخن تعالى سلطان الإسلام هنا، وأبقاه بمنه ولطفه وكرمه.

المكايبة الثامنة

فى مهبة سلطان الإسلام لكل الرسول عليه السلام

راى سلطان الإسلام خلد ملكه فى المنام مرتين جمال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات. وقد أبهده الرسول عليه الصلاة والسلام، وقوى عزيمته بالوعود العلية، ودلرت بينهما محاورات طويلة. وكان أمير المؤمنين على والحسن والحسين رضى الله عنهم بصحبة النبى صلوات الله عليه، ففرطهم به قائلا: يجب أن تكونوا [ص ٣٩٩] إخوة. ثم أمر سلطان الإسلام بمعاقبتهم؛ فقبل الجانبان هذه الإخوة. ومنذ ذلك الوقت تسرت لسلطان الإسلام انتصارات وفروحات؛ كان أعظمها هذه الخيرات كلها، وضبط الأمور وترتيبها، وتوخى العدل وحسن السياسة تلك المبادئ التى أذاعها فى العالم؛ فنهيا له التوفيق فى الحصول على السمعة الطيبة، وحصل لنفسه ذخيرة من دعوات الخلق العديدة له بالخير. فأبه سعادة يمكن أن تكون أعظم من هذه؟!

ومنذ ذلك التاريخ ازداد حبه لأهل بيت النبوة رضى الله عنهم، وصار يمد الحجاج دائما بإعاناته، ويمزور قبور أسرة الرسول، وينثر النور ويرسلها إلى مستحقها، ويعز السادات ويأمرهم بالصفتات والإدراوات.

ولما كان يقم فى كل موضع الخواص والمدارس والمساجد وأبواب البر الأخرى ويخصص لها الأوقاف، ويقرر الوظائف والمرتبات لكل طائفة. قال: كيف يكون للفقهاء والمتصوفة والطوائف الأخرى أوقاف خاصة بهم، ولا يكون ذلك أيضا للسادات؟! إنه لو اوجب أن يكون ذلك للطوبىين كذلك. وأمر بإقامة دور السيادة فى تبريز، وفى أمهات المدن الأخرى فى كل البلاد الهامة مثل أصفهان وشيراز وبغداد وأمثالها كى ينزل فيها السادات. كما عين لهم مرتبات ينفقونها فى أداء مصالحهم على النحو الذى رآه عبقريا لهذا الغرض، وحسب ما نعت عليه حجج الأوقاف؛ وذلك حتى يكون هؤلاء أيضا نصيب من خيراته. وكان دائما يصرح بقوله: لست منكرا أى شخص، وإنى لمعترف بعظمة الصحابة. ولكن بعد أن رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام [ص ٤٠٠] وقد أعنى بينى وبين أبائكم، ومنحنى صداقتهم. لا بد أن أزيد فى حبى لأهل البيت، وإلا فمعاذ الله أن أنكر الصحابة. كذلك أمر بحفر نهر لإيصال الماء إلى مشهد الحسين عليه السلام، كما يحىء شرح ذلك. وكان دائما يأمر بمدح أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون تعصب لأنه يحمد الله ومنه حكيم وكامل. فليق الحق تعالى هذا السلطان العادل الكامل بين العالمين سنوات لا نهاية لها.

المكايبة التاسعة

في شجاعة سلطان الإسلام، وإعداد الجند للحرب وجلده في غوص المعارك

كان سلطان الإسلام خلد ملكه يعيش منذ عهد الطفولة في نهر خراسان الذي كان يمد أعطر الثغور وأعظمها شانا. ومن قديم العهد حتى الآن كانت الجيوش الأجنبية تزحف إلى تلك المنطقة. فكان لا بد من اتخاذ الحيلة والحفر، فلا تكاد تتر سنة دون أن يسير غازان بقواته الاحتياطية. ولحقا حارب الأعداء كرات ومرات واشتبك معهم في حروب طاحنة، وتحمل كثيرا من الصاعب والمشقات ووقف وقفا تاما على دقائق تلك الأمور، ومهر في معالجتها إلى أقصى حد، وقوى قلبه إلى حد أنه لم يشعر بخوف من الأحداث الخطيرة، ولم يتطرق التردد إلى مخاطره المبارك. ورغم أنه يعلم أن الموقف صعب والعدو قوى كان يظهر للمصابرة والتجلف، ولا يدع أثرا يبدو عليه من التفكير في هذه الأمور، وكان يصرح بقوله: لم تنأت من الخوف أية فائقة بل تكون نتيجة العجز عن التدبير، فيقوى حال الخصم.

شاهد الملازمون للحضرة هذه المواقف عدة مرات في خراسان. وإن شرح ذلك يطول. أما ما اتفق وقوعه في هذه الديار، فواحدة من ذلك هي قضيته مع باهلو، فقد أسرع كالبرق الحافظ من خراسان، [ص ٤٠٩] وداهم باهلو وأتباعه وصار مع نفر قليل من جنده. بعد ذلك رأى من المصلحة أن يتقابل مع خصمه في الخلوة، ومعه نفر من أتباعه. وأثناء اللقاء ضربه باهلو على سبيل اللعابة ضربة قوية على ظهره؛ بحيث إنه تألم، ولكن باهلو عرف أن غازان لا يعبأ به، وبقي الخوف مسيطرا عليه.

بعد ذلك عبأ غازان جنده، واستغل الفرصة، فداهم باهلو ومعه نفر ضئيل من جنده وأسره دون أن يلحق أي ضرر أو مشقة بالبلاد والجيوش. وفي ذلك الوقت احتقل الأسماء الذين كانوا يثرون الفتن في عهد أبيه وعمه. ورغم أنه كان لهم حماية الثوباء، إلا أنه اتبع الرأي الصائب مدفوعا بقوة عزمته، ولم يأبه بشفاقة أي أحد منهم، بل قضى عليهم جميعا. ثم نظم شؤون الملك.

وموقف آخر وهو موقفه في قضية "سوكاي" الذي ثار عليه. وكذلك في عودة "أرسلان" بجيش مجهز وهجومه عليه. وكان السلطان يسمع ذلك الخبر تباعا. وقد تبين له أنه إذا ما وصل العدو فإنه لن يستطيع مقاومته لعدم وجود الجند. ومع هذا لم يكن منفعلا على الإطلاق، واستمر يزول أعماله جرما على عادته كل يوم. ولما اقترب "أرسلان" أرسل إليه الجنود الذين كانوا حاضرين وكانهم في رحلة للصيد، ولم يتحرك هو بنفسه، ولم يطلع أيضا كل شخص على ذلك الأمر، وظل كالعادة يصرح ويلعب، ويمرر مختلف الحكايات، ويدعو الأطباء والمنجمين ويقول لهم: لربما أن أتناول مسهلا، فهبطوا لي هذا النوع من الأدوية، واختاروا لي يوما مناسباً لتناولها. ولم يبد اهتماما بأمر ذلك التمرد؛ غير أن خاطره كان قلقا بصورة لا يمكن وصفها. ولكن بسبب ما أبداه من تجلبد ومصابرة لم يطرأ خلل قط؛ إذ لم يصل نبأ نبئ عن خطورة الموقف، وبقي الناس هادئين. [ص ٤٠٢]

ولو ظهر على السلطان أقل تغير، حتى ولو بقيد شعرة، لاضطربت كل الأمور؛ وخصوصا وإن الأمر كان في بدايته. ولم يكن لذلك والجند قد استقروا. أما الجنود فكانوا قد شاهدوا الاضطرابات السابقة، واعتادوا عليها. وكانوا حريصين ومولعين بشن الفسارات. فمثل هذه الأمور كانت تبدو لهم لعبة من اللعب. ومع كل هذا صح ذلك الأمر، وزال الخطر بتأييد الخالق عز وعلما وبين مصابرة وتجلبد سلطان الإسلام خلد ملكه لم تصبه عين السوء بأي وجه.

موقف آخر في قضية الحرب ضد مصر والشام؛ فقد ظن الناس أن السلطان سوف يتف في ركن من الأركان؛ بحيث لا يعرفه أحد لكنه على خلاف ذلك اقتحم الميدان بجسارة نادرة، ونظم كل جنوده ووقف في مقدمتهم، وصار يحمل على أعدائه تباعا كالأسد المفصود. ولو لم يسكوا بهتان فرسه، لما كان يتوقف عن القتال. ورغم أن القرييين منه كانوا يمنونه، اخترق صفوف الأعداء عدة مرات وتجول بينهم، وصار يطاردهم، وقتل بعضا منهم، ثم عاد. وفضة انهزم الجند أيضا الذين كانوا على مقربة منه. ولم يعلم بعض من في الأطراف شيئا عن الاشتباكات، ولم يصل بعضهم إلى ميدان القتال وبقيت مسيرة سلطان الإسلام وميمته خاليتين. أما هو فقد ثبت مع نفر قليل صمدوا في مواجهة الخصم. ونظرا لأن الهزيمة الأولى قد لحقت بقلب الجيش، اجتمع الجند عن الميدان ووقفوا عاجزين لا يتحركون على الإطلاق، ظانين أنه أثناء حملة العدو لن يصل مدد قط. هذا في حين أن العدو كان يواصل هجماته الشديدة دون انقطاع. لكن السلطان ثابر على القتال في

شجاعة كأنه أسد حضور أمام ذلك الخشد الكبير، وذلك من وقت الظهيرة حتى صلاة العصر يصد هجسات العدو بمفرده ويقاوم بحسن التدبير ولطائف الخيل مثل هذا الخشد الكبير. فأى محارب شجاع له مثل هذه القوة والقدرة؟!؟

وعاقبة الأمر أن جنود المسيرة الذين كانوا يتفنون بعيدا منتهزين الفرصة ومستعدين للنتهقر، عندما شاهدوا ذلك الموقف البطولي، توجهوا إلى الأعداء، [ص ٤٠٣] وتبعهم بعض الجنود من اليمين. فعجز الأعداء عن مقاومتهم ومحاربة سلطان الإسلام -عند ملكه- واضطروا إلى الفرار منهزمين.

وهكذا فإن مثل هذه الحكايات كثير. وقد اقتصرنا على ذكر هذا القدر من المواقف كشاهد على صدق ما نقول. وكان دائما يقدم النصيح والإرشاد للجنود المظفرين، فيقول لهم: "إن الموت لا بد أن يدرك كل من حل أجله حيثما يكون؛ سواء أكان في المنزل أم في الطريق أم في الحرب أم في الصيد. فما الداعي إذن إلى الخوف من العدو الذي يقف في مواجهة؟!؟ وحيث إن الموت حتمي لا مفر منه، فالأولى أن يرى الإنسان دمه؛ لأن الدم المخطى في البدن يمتفن، ولا يؤدي إلا إلى الضوينة. وكما تكون حمرة الوجه زينة النساء يكون الدم زينة الرجال، وتبقى السمعة الطيبة في الدنيا لمثل هؤلاء الأشخاص، ويدخلون الجنة في الآخرة. وكل من يموت في المنزل، مثل زوجته وأولاده طول مرضه ورعايته ويصبر محتقرا ومهفوضا لدى الأعداء الآخرين. أما إذا مات في الحرب، فإنه يكون بعيدا عن هذه الأمور، ويكفى عليه الأجياب بحرقه وتفججه، ويمز سلطان العصر أعقابه ويواسيهم ويربي أولاده ويرعاهم، فيزداد بذلك إسلاح شأنهم.

وقال لهم أيضا: عندما يهزم الجيش على شن هجوم على الأعداء ينبغي أن يحرص على إخفاء الخبر عنهم، حتى لا ينسرب إليهم، وأن يعد الخيول، ويواصل سيره لئلا تنهارا بحيث يصل فجأة كى بشتيك بالعدو، ويحسم أمره معه. وإذا كان على الجنود أن يشتوا حملة كل سنة، فإنه ينبغي عليهم أن يحرصوا على السر في أوقات مختلفة، وإلا فإنهم لو حددوا موعدا معيناً، فإن العدو يتخذ حثره ويشارك أمره. وكذلك ينبغي بذل الجهود في أن يسلكوا طريقا مغائرا في كل مرة، حتى لا يحيط العدو علما به. ولكن ينبغي أن يكون الأدلاء والمرشدون من الثقات. وإذا سار جيش كبير، فإنه كلما أشاعوا عنه لمخبارا أكثر، فإن ذلك

يكون أفضل. وينبغي أن يطمح الجنود في الحرب؛ لأن الجيش الكبير لا يستطيع الزحف بسرعة. ومن المسلم به أن العدو إذا علم بحركاتنا، فإنه يشغل بتدبير جيشه وإعداده منتظرا لمواجهة. ولا يجوز الاعتماد على كثرة الجنود أو قتلهم حتى يسرعوا لأن النصر لا يمكن التنبؤ به. أما إذا تأتوا في السر، ولناهرو الأعباء المروعة؛ فإن الأعداء يفرعون منها، ويقع الاضطراب بينهم، ويذب الخلاف في صفوفهم [ص: ٤٠] أو يناديهم العدو من ناحية أخرى، أو تسرى بينهم إشاعة مفرضة، أو أنهم يعجزون عن مواصلة القتال لنفاد العلف والموتنة. وعند التصميم على مثل هذه العزيمة ينبغي أن يبتاط الجنود قبل إذاعة الأعباء وذلك بتوفير الماء والعلف وتناج الصيد، وأن يتوقفوا في مثل هذه الأماكن التي تتوفر فيها هذه الأمور، وألا يؤكل العلف الذي أعد ليوم الحاجة في المواضع الجديدة. وينبغي إرسال الجواسيس بصفة مستمرة للاطلاع على أحوال العدو. وبعد الاطلاع توضع كل الأفكار والحفظ والأعمال على أساس سليم؛ لأن التصرف الذي لا يقوم على أساس من الاطلاع والمعرفة يكون كالملاكمة في الظلام.

ثم توجه إلى جنوده قائلا: بعد الاحباط لتمام ينبغي أن يكون إما الدخول في المعركة أو الانصراف عنها، وذلك يكون مرتبطا باختياركم لا باختيار العدو؛ لأنكم إذا كنتم مجبرين وتعجزتم الأمر دون توقف أو روية، فإن العدو يصل فجأة ويغتكم فيسوء موقفكم. وعندئذ يتحتم عليكم خوض المعركة والقتال مضطرين. أما العدو فيكون في موقف أفضل وصقوة القول أن العامل الأساسي هو تنظيم الجيش، وعدم السماح لأي جندي بالتحرك من مكانه دون إذن؛ لأنه قد ثبت بالتجربة أن العدو يتنهر الفرصة، ويأخذ زمام المبادرة فيقلب عليكم. والشروط المهم هو ألا يدع القائد أحدا بصورة قاطعة يسير حسب هواه إلى القرى والمواضع المأهولة، ويسلب منها شيئا؛ لأن الجنود إذا تعودوا على ذلك؛ فإنه لا يمكن منع أفراد الجيوش المأهولة، ويعلم التنظيم والتنسيق. ولهذا السبب يشغل الجنود وقت الحرب بجمع الأسلاب والفتائم في وقت غير مناسب ولا يمكن منعهم. وكل السفن التي أصابت الجيوش، إنما كان أكثرها راجعا إلى الاستيلاء على الفتائم عندما تنتهي المعركة. وإذن فعلى القائد أن يعرف جيدا أين تنهب الأسلاب والفتائم. ولا ينبغي التراجع عن توقيع العقوبة ولا التردد عن القتل والسفك؛ لأن القواد إذا امتنعوا عن قتل

شخصين أو ثلاثة، فسوف يهلك عشرة آلاف وعشرون ألف رجل في مقابل هذه القلعة ويتبع ذلك ضياع الملك أيضا.

وفي حالة مفارقة الجنود قواعدهم، ينبغي أن توجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشغلوا بذكر الله تعالى، وأن يظهرُوا أنفسهم، فلا يرتكبوا أعمالا سيئة، وأن يكونوا عيين لمواطنيهم ووطنهم، وألا يظلموا أحدا حتى يثق الناس بهم، ويذلوا همهم الطيبة في سبيلهم ويدعوا لهم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجنود ذخيرة [ص ٤٠٥] قط أفضل من دعاء الخير والهمة الطيبة. وينبغي ألا يبالغوا في القول، وألا يدعوا سبيلا إلى الكبر والزهو بأنفسهم وألا يحضروا العدو، ولكن لا يتشوهه أيضا، وأن يمدوا أنفسهم ضعفاء، وأن يعظموا الله تعالى ويتشوهه حتى يصبح تفكيرهم وتنظيم أمورهم، ويتأكدوا من أن كل من يقول كلاما فيه كبرياء واستعلاء، ويفكر على هذا الأساس، فإن الحق تعالى يعطو عليه بكبريائه؛ لأن العظمة خليقة بالله وحده، وهو يريد أن يتساوى مع الله. وكل من يتساوى مع الله، يخذله الله ويمد الآخرين بعونه، وبهينه هو. وهذا أمر يسير على قفرة الله تعالى، فيقهره بصورة لا تخاطر على بال أي بطل عادل كفو.

وعلى هذا المتوال كان السلطان ينصح دائما جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لم يبق في الذاكرة، ولربما يؤدي ذلك أيضا إلى التطويل لو رحنا نشرح ما قاله. وحيث إن المقصود هو إيراد شواهد وأمثال، يكون هذا القدر كافيا. وإن الزوائد والإضافات معلومة ومحقة لدى الجميع.

أدام الحق تعالى أهد الدهر هذا الخلد لسيد العالمين وراعي الرعايا والجنود.

المكايبة المباشرة

في نصيح سلطان الإسلام القضاة والمشايع والزهاد وأهل العلم والتقوى

في كل وقت كانت تعبل الطوائف المذكورة إلى الحضرة، كان السلطان يسدى إليهم مختلف النصائح. لكنه عندما حضر المظاء وكبار الشخصيات، مجلس الشورى (القرورباتاي)، وظلوا بين يديه، قال لهم: أنتم ارتديتم لباس الرياء، وهذه مسألة خطيرة لأنكم بهذا الظاهر قد لا تخادعون الخلق، وإنما تخادعون الله، ويمكن أن يسلم الخلق بأفعالكم وريئائكم عدة أيام [ص ٤٠٦]؛ لأنهم لا يكونون مطمئنين على حقيقة ما تضرعون. لكن الله تعالى مطلع على ضمائركم، ولا يؤثر فيه التزوير والتليس، وبغضب عليكم، ويجازيكم أيضا في الدنيا. ولما في الآخرة فإنه من المقرر والمؤكد أن كل من يرتدى لباس الرياء لو التليس يكشف الله عيوبه بين الخلق، وتسوء سمعته ويصير خجلا من الناس، ويدنو بينهم حقيرا وممتهنا، ويكون دائما أضحوكة للخراس والعوام.

أما أولئك الذين لا يرتدون لباس الرياء، ويمسكون سلوكا أمينًا وصادقًا، ولا يميزون أنفسهم عن الآخرين، وليس لديهم تفكير في السيطرة والرياسة، ولا يدعون الزهد والتواضع؛ فإنه ليس لأحد اعتراض عليهم، ولا يتوقع أحد منهم حياة لا تتناسب مع ظاهرهم.

وأما قولنا: إنكم ارتديتم زي المدلاة، فإن معنى ذلك أنكم مثل غيركم من البشر، ولكن بواسطة هذا الزي اكتسبتم اسما عظيما. ونمت هذا الاسم هناك عدة معان خاصة لا توجد في الآخرين، وأنتم أنفسكم قبلتم هذا الاسم والمعنى، وتعهدهم وتكفتمم بأداء الحقوق وتقولون: نحن كنا كنا، وسوف نعمل كنا كنا. والآن فكروا جيدا فيما أقول: إذا كنتم تستطيعون عدم الخروج من عهدته هذا العهد واليثاق والمدلاة التي تلازم هذا اللباس، وأن تكونوا عند كلمتكم، فإن هذا يكون حسنا جيدا وممدوحا، وتسوم منزلتكم، وتكونون أفضل من الآخرين عند الخلق والخلق. وإلا فسوف تؤدي النتيجة إلى الخجل من الله والخلق، وبمحض اختياركم لو رغم أنفسكم تكونون قد جلبتم على أنفسكم تلك المشايب

والمشقات. وتأكدوا من أن الحق تعالى قد وهب لي الملك بسبب ذلك، وفوض إلى رئاسة الخلق، كى أدير أمورهم، وأقسم بينهم العدل والمساواة. وقد لوجب على أن أقول الحق وأصبل به، وأن أجازى المجرمين جزاء وفاء. [ص ٣٠٧] وقد اقتضى حكم الله منذ الأزل أن يكون عقاب الخاصة أزيد وأعنف. ولهذا السبب لا تؤاخذ البيهاتم على جرائمها.

وبناء على هذا يجب على الملوك أن يبادروا بمعاينة العظماء وكبار القوم، وأن يعملوا هذه القاعدة دستوراً لهم ينظّمون به شؤون الملك. ولهذا فأنا أيضاً سوف أسرع إلى معاقبتكم على ما ارتكبتموه من جرائم دون أن تأخذنى شفقة بكم، ولا تظنوا أنني سوف أنظر إلى لباسكم، بل إلى أفعالكم. وإذن فعليكم باتباع سلوك سنة الرسول عليه وعلى آله السلام فى كافة أعمالكم، ومراعاة ما هو واجب عليكم، ولأن ترشدوا الآخرين إلى سواء السبيل واحذروا الفساد والفضول، ولا تجيزوا على سبيل التأويل ما لا يكون فى أصل الشرع وتعاملوا بالصدق والصفاء، وابتلوا الهمة وأحسنوا الظن؛ حتى يفتى ببركة ذلك العالم كله ونحن أيضاً آمنين مطمئنين، ولا تعصب الواحد منكم ضد الآخر، ولا تعصبوا أنفسنا أيضاً ضد الأقوام الأخرى؛ ذلك التعصب الذى لم يأمر به الله ورسوله؛ لأن التعصب فى هذه الحالة يكون طلباً لحسن السمعة والشفقة وخدمة الناس بأكثر مما يطلبه الله والرسول فلا يكون من ورائه إلا سوء السمعة وضعف السمعة. وأنا لو كنت أعمل شيئاً خلاف الشرع والعقل، فإن عليكم أن تبهونى، وتعرفونى الحقيقة؛ لأن كلامكم عندما يؤثر فى، يصير مقبولاً ومسموعاً؛ إذ إنكم عندئذ تقرنون القول بالعمل؛ ولأنكم فى ذلك الوقت تقولون كلاماً صادراً عن الصدق والصفاء وقررة النفس. ولا بد أن يؤثر فى هذا القول. وإن اتباع الحق بناء على كلامكم يجلب لى ولكم الثواب والثناء. وبذلك نعم الخلق بهما بالراحة والهنوء. وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو فلن يؤثر فى كلامكم وعندئذ تشتغل بيران غضى عليكم. ولهذا السبب بعينا الضرر أنا وأنتم وكافة الخلق.

ولقد أردت أن أذكر حكايات أخرى ونكتاً دقيقة، وهى كثيرة ومتعددة فى هذا الموضوع. ولكنى أكفى الآن بذكر هذا المقدار على سبيل الإجمال. فإذا وقعت منكم موقع الاستحسان وقبلتموها فإنها تفيدنى وتفيدكم. [ص ٤٠٨]، ويكون لكلامى وقع حسن فى نفوسكم، وتترطد عبنى لى فلو يكتم. وإلا فسوف ينقل كلامى عليكم، وتستقر عنادتى

في أفتدنتكم، فبطلع فؤادي على ما يحول بظلمتكم، وتكونون مفوضين عندي. ومن هنا يظهر الخلل في الدين والدنيا. ونحن نقصر اليوم على ذكر هذا القدر. ولو حالفنا التوفيق فسوف نذكر حكايات معنوية دقيقة.

على هذا النحو نصح السلطان جماعة كبار الشخصيات ومشاهير القضاة والفقهاء والمشايخ والعلماء الذين مثلوا أمام الحضرة، فصحبوا جهما، وصاروا متحيرين، ورفعوا أكتهم بالدعاء للحضرة والثناء عليها. وفي أوقات أخرى ألقى أمثال هذه النصائح في المجالس المختلفة، وقال كلاما مفيدا يطول شرحه وتماده.

فليسط الله تعالى ظل دولة سلطان الإسلام هنا، وليدم عهده، وليقه أهد الدهر على رأس طبقات أصناف العالمين. إنه سميع مجيب.

الحكاية الطيبة عشرة

في منع سلطان الإسلام للجنود وغيرهم من التفتوه بكلمات الكفر

لما سمع سلطان الإسلام محمد ملكه أن بعض الجنود وغيرهم كانوا يباهون عندما يسرون إلى ميادين القتال، ويتبرهن لهم الفتح والنصر، فيقولون: نحن فعلنا هذا وفعلنا ذلك. وقد تيسر تدبير المهام العظيمة بواسطة فلان، وأن الشخص الفلاني أبدى ضروبا من الشجاعة والبطولة، وأن الصفو هزم بسمى فلان. وعلى هذا النحو يرحمون الأسور إلى كفاهتهم وشجاعتهم وبطولتهم. كما كانوا يتحدثون بكلام خطير، ويظهرون المعجب والخيلاء. وكانوا أحيانا يعدون على المكس من ذلك بخاسرين غير موفقين، فيقولون: كان ذلك قضاء الله؛ وإلا فقد سمينا [ص ٤٠٩] وبفلا الجهود الجبارة. وكثيرا ما كان يدور هذا الكلام على ألسنة الخلق. وعلى هذا النمط كان تحدث أيضا الغول والتنازيك في كل الشئون الجزئية؛ فوصلت هذه الحكايات مرات إلى السمع الأشرف، فلم يستغها وراح يذمها غيرته على الدين يقول: إن هذا الكلام كفر محض، وإن أكثر أعمالنا، وما يتعلق بشئون الجند وكافة الناس إنما تصاب بالخلل نتيجة شؤم مثل هذا الكلام، فيجب أن يترك الجميع أن كل خير يصل إلينا وإلى الجند والمخلائق الآخرين إنما هو مرتبط برحمة الحق تعالى وشفقته، وأن كل سوء وإخفاق إنما هو نتيجة ذنوبهم وسيئاتهم. وإذن فلا ينبغي أن يتكلموا بأي وجه من الوجوه بكلام يتعلق بالمعجب والكبر. وللحيلولة دون الوقوع في هذا الخطأ أمر بأن يكتب في هذا الشأن مرسوم يبلغ أرسله إلى كل البلاد حيث جماهير الغول والتنازيك، نص فيه على أن كل شخص يعتقد - منذ الآن إلى ما بعد - في الكلام السابق ويظفوه به، يكون مذمبا. وفي الآخرة يكون مثواه النار. وينبغي أن يتق أن الحسنة من فضل الله، وأن السيئة إنما هي نتيجة لفعله المستهجن^(١).

(١) مصدقا لقوله تعالى: ﴿أما أسألك من حسن فسن الله وما أسألك من سيئة فمن تنسك ولرسلك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾. (سورة النساء آية ٧٩).

ويجب على أصحاب البيوت أن يطعموا مما عندهم - كل شخص يقصد ديارهم ويملوا
له هذا الطعام سواء قتل أو كثر، وأن يسلكوا معه طريق المروءة، وأن يعاشروا الناس جميعاً
بالتواضع.

ويعتضى هذا الرسوم الذي أصدرناه، كان على الذين يقصدون بيوت الناس ألا
يتخذوا هذا الأمر ذريعة لمطالبتهم بما يشاؤون؛ إذ إن ذلك متروك لمروءة أصحاب البيوت.
وإذن فليس لهم أن يطلبوا أو يطلبوا أن أحداً مكلف بتقديم شيء لهم، بل إن ذلك الأمر
يتعلق بما يتصفون به من مروءة. وقد أرسل المرسوم بهذا المعنى، وأمر بأن يتنادوا به في كل
البلاد.

وهكذا في عهد سلطان الإسلام المبارك، عمته بركاته كافة الشعوب. ويعون الله تعالى
تكون في ازدياد بيمته وكرمه.

المحاكاة الثامنة عشرة

في هب سلطان الإسلام للعمران وهنه الناس على ذلك

قبل هذا كان سلاطين المغول، وبعض آباء وأجداد سلطان الإسلام خلد سلطانه شفوقين بالعمران. وقد شرعوا في ذلك. ولكن قل منهم من أتم شيئا يذكر كما هو مشاهد. وحيثما أقاموا بيتانا أنفقوا عليه أموالا طائلة. وكانوا يرسلون من الولايات ما يجيى من الضرائب الاستثنائية، وكذلك كان أكثر هذه العمارات معرضا للتلف. وكان الأشخاص الذين يشرفون على هذه الأعمال يتشون أن تنور عليهم دائرة السوء، فتضيع الأموال دون أن يتسر إضافة للزهد من المياني، وما شيعوه بالفعل لم يكن متقنا، وخرب في مدة قصيرة.

لكن سلطان الإسلام أقر نظاما بشأن البناء والعمران لم يكن من الممكن أن يوجد أحسن منه. وحيثما يوجد سيد يوثق به أو معاون يتصف بالشرف واختاره وعينه للإشراف على كل عمارة، وحول إليه الأموال المطلوبة. كما نصب السادة المشهورين والكتاب المخلصين والمهندسين المعماريين، فاستخدموا جميع الآلات بأسعار مقبولة وأجور مناسبة، وذلك في نظير استعمال الفدر المطلوب منها؛ بحيث أنهم إذا قصروا في التنفيذ فإن نقصان الضرر يعودان عليهم. وكان المشرفون يحصون الآلات والمواد المستخدمة في البناء. وبناء على هذا يحاسبون كل متعهد كلف بهذا العمل وهكذا سارت العملية بمتى التفتة؛ بحيث إنهم لو أرادوا حتى بعد مائة سنة أخرى [ص ٤١٩] أن يراجعوا المبالغ والتفقات والاعتمادات المالية على حسابات الكتاب والآلات التي استخدمت لاتضح على الفور الحق من الباطل وقطعا لن تكون هناك زيادة أو نقصان في تلك الحسابات. ولن يوجد مجال لأى نمام للظن في أعمال هؤلاء السادة والمهندسين. ولتنفيذ كل مشروع نصب مشرفين أمناء حتى لا يجيزوا استخدام آلات غير صالحة، أو ينقص العمال شيئا من الجحص والأسمنت ويخلطوهما بالرمال. وهذا التفتيق والاحتياط إنما يكون في دائرة اختصاصهم وضمن عهدتهم. وهناك مسألة أخرى هي أن كل المعدات من الحديد والحديد، سلمت للمفاوضين ضمن حدود. كما قررت جملة أنواعها والمطلوب استعماله منها.

وهكلا راح السلطان بأمر بتشييد المصارف في كل مدينة وولاية وحصار يشق الأنهار والقنوات، ويجريها بالمياه. ومن جعلتها وأعظمها نهر يمثل فيه الخير لتمام والنفع العام. وهو نهر كبير للغاية، أجراه السلطان في ولاية الخلة وأطلق عليه اسم "النهر الفازاني الأعلى" وأوصل ذلك النهر إلى المشهد للمقدس لأمر المؤمنين الحسين (رضى الله عنه)، وأجرى عذب الفرات إلى كل صحارى سهل كربلاء التي كانت قاحلة، ولم يكن في المشهد ماء عذب للشرب. ونتيجة لهذا صارت كل المناطق حول المشهد مزروعة في هذا الزمان. كما أنهم أنشأوا الحدائق والبساتين وتستطيع السفن القادمة من بغداد والمدن الأخرى الواقعة على ضفاف الفرات ودجلة الإبحار إلى المشهد، ويبلغ محصولها ما يقرب من مائة ألف "تفاز"^(١). وهناك تنمو الحبوب وأنواع الخضراوات مما تنمو في أي مكان من أعمال بغداد. ونتيجة هذه الإصلاحات صار السادات المقيمون في المشهد مرفهين الخيال جدا. ولما كان هؤلاء أناسا فقراء، وعددهم كبيرا، وهم في أمس الحاجة إلى الموتة، أمر بأن تكون لهم إدرارات تصرف ستوبا.

وفي منطقة مشهد سيدي أبي الوفاء رحمة الله عليه [ص ٤١٢] كانت هناك أيضا صحراء قاحلة، ولا يوجد في المشهد ماء عذب للشرب، فصادف أن سلطان الإسلام خلد ملكه ذهب في إحدى السفن قاصدا للصيد في تلك الصحراء، فلم يجد مرافقوه ماء للدواب، فهزلت جدا، كما ضحقت حمر الوحش والغزلان بسبب عدم وجود الماء والعلف فأمر بأن يشقوا نهرا من الفرات يجري إلى هناك كي يتوافر الماء، وبكثير الزرع في ذلك المشهد أيضا، وتستريح الحيوانات الصحراوية كذلك. وبالإضافة إلى هذا لا يعترى الدواب التعب والمشقة لعدم وجود الماء إذا ساروا بها في تلك الصحراء، ويتوافر العلف من الشحير والطين. وفي مدة وجيزة شق السلطان نهرا كبيرا يجري إلى هناك أطلق عليه اسم "النهر الفازاني الأسفل". وبعد ذلك أجهري من الجانب الغربي نهرا آخر على حدود تلك الصحراء، سماه أيضا "النهر الفازاني"، وأوقف من الماء والأرض عدة أفدنة على ذلك

(١) وحدة من وحدات الوزن يستعمل أكثر للتلال ويسوى مائة من تيريزي (٢٩٥ كيلو جرام). وتأتي هذه الكلمة أيضا بمعنى الضراب القوية التي تصل من الرخاء، وتلق على العلف الخاص بالخيول "تنوكة" (انظر تحرير تاريخ وصاف به نام عبد الحميد آبي، ص ٣٧٨، تهران ١٣٤٦ هـ.ش).

للمشهد، واشترى ما تبقى من كل المواضع التي عمرها، واستغلها لنفسه. ثم أوقفها كلها على أبواب البر التي بناها في تبريز. والآن في هذا الزمن أنشئت في مشهد سيدي أبي الوفاء الخندانق والبساتين، وظهر الماء العذب وأنواع الخضروات التي لم تتوفر مطلقاً للسكان من قبل. ولما كان هذا المشهد يقع بعيداً عن الممران، ويعرض الجوارون له لأذى المغيرين من الأعراب أمر بإقامة سور حوله على نمط ما بنى حول مدينة من المدن. وهناك شيدوا حماماً وعمارات جديدة. وعما قريب تحوّل هذه المنطقة إلى مدينة أيضاً.

كذلك أقام السلطان ويقم العمارات في أكثر الولايات، ويجرى فيها الأنهار والقنوات. وإذا شرعنا في تفصيل ذلك، فسوف يؤدي هذا إلى التطويل. وإن ما أمر به بموجب أحكام الأوامر، وشروط الأوقاف، وبمشاركة وكلاء الديوان من استصلاح الأملاك الأميرية وتشديد الأمانة ليس له حد.

وفي عهده المبارك، ونتيجة لعنقه الشامل، سارعت الآلاف المؤلفة من الناس إلى مشاركته، وشغلوا تشييد المباني، حتى أن ما تقامه هم أنفسهم يزيد مائة مرة على ما أقامه السلطان بنفسه. وكل بستان أو دار، كان شته قبل هذا مائة دينار، أصبح في الوقت الحالي يساوي ألف دينار. وهذا على حين أنهم قبل هذا [ص ٤١٣] كانوا يعملون إلى التخريب أكثر مما يعملون في التعمير. وفي الحقيقة إن العمارات التي تنشأ الآن في البلاد، لم ينشئ مثلها ملك قط بعد عهد الأكاسرة. ومن العجيب أنه إذا كان الناس في عهد الأكاسرة قد شغلوا أيضاً بالتعمير بهذا القدر فإن البلاد كانت عامرة تماماً في ذلك الوقت. ومع هذا عمرت خلال سنوات عديدة. وحيث إنه أيضاً في ذلك الوقت، لم يكن موجوداً مثل هذا الخراب الموجود حالياً، فأى عمارات إذن كانوا مشغولين بتشيدتها في تلك الأيام؟

أما مدينة تبريز التي هي الآن عاصمة البلاد، فقد كان لها سور صغير اندرس أيضاً وتوجد خارج المدينة منازل وعمارات كثيرة، فقال السلطان: كيف يجوز أن مدينة يسكنها الآلاف العديدة من الناس، وهي في الوقت نفسه دار للملك، ولا يبنى لها سور؟ وعلى الفور أشار بأخذ الإجراءات حتى يمكن تجديد المكان والكيفية التي يبنى بها السور.

ولما كانت الخندانق والبساتين تتصل بالمدينة، كان من الضروري أن يقع بناء السور بين أملاك الناس المعمورة. وهنا عرض مستشارو السلطان قائلاً: حيث إن السكان في تبريز من الغبراء وللقهين الذين لا حصر لهم، وأكثرهم من الأثرماء، يقسم السور إلى أقسام حتى

مرتبات	وظيفة
الحفم والطهارة والعمال الآخرين الذين يقيمون هناك.	مرتب المشرف الذى يقوم بمهمات دار السيادة، والذى يؤدى الخدمة للسيدات بمقتضى شرط الرائق.

(٦) المرصد

معاينات	إضافات
المرتزة من مدرسى العلوم الدينية والمعبدن والتعلمين والخزنة والساولين وسائر العمال.	الفرش والتخطيط، وشن الشمع للذباب والهدور والعطر.

إصلاح

وترميم الآلات وأدوات الساعات والمرصد، وتلك التى تصلح للاستعمال.

(٧) دار لشفاء

[ص ٤١٩]

مصالح	إضافات
الأدوية والأشربة والمعاجين والمرامم والكحل والحساء الخفيف وثياب النوم وملابس المرضى.	الفرش والتخطيط، وشن الشمع للذباب والهدور والعطر والآلات الخزنية.
تجهيز	مرتبات
الأموات الذين يتوفون هناك.	المرتزة من الأطباء والكحسائين والجراحين والخزنة والحفم وسائر العمال.

(٨) دار الكتب

مصالح	إضافات
إصلاح الكتب وترميمها، وسداد شن الكتب الضرورية.	الفرش والتخطيط، وشن الشمع المناب.

(٩) دار القضاء

مصالح	إضافات
نفقات إعداد القوانين ونسخها وتجديدها.	الفرش والتخطيط، وشن الشمع للمناب والبنور.

(١٠) بيت المتولي

مرتب خصص لأحد البوابين حسب ما هو مقرر.

(١١) دورة للمياه

[ص ٤٢٠]

جراية	مصالح
مخصصة لفراش واحد قائم بالخدمة.	الشمع المناب والبنور والمطر والأباريق والجرار والأباريق والدنان والأكواز.

(١٢) حمام السبيل

جرايات	مصالح
العمال من الحماسي والدلاك وحارس اللباس والوقاد.	المآزر والدلاء والمطر والمصابيح والمساحات والمجارف والحطب ووقود موقد الحمام.

حرف

(١٣) ما ينكر من ملحقات وتوزيع أبواب البر

مصالح

الطعام الخارجى فى جوسق العادلية الذى يقدم إلى أمراء القبول والتأزيك والأشخاص الذين يبيتون إلى هناك إذ إنهم عند زيارتهم يقصدون ذلك الجوسق، وبأكلون هذا الطعام.
ما يحتاج إليه الطعام الذى يصرف كل يوم، وإضافة القرش والتخطيط وأدوات المطبخ ولوازم دار الشراب وشن الشمع اللذاب.

مصالح

الوليمة التى يقيمها الوائف شكر الله سبحانه كل سنة فى اليوم الذى يحدده بشرط أن يجتمع الجوارون فى البقاع المذكورة والأئمة والأعيان والمستحقون فى تبريز وغيرهم ممن يبيتون إلى هنا ويحتمسون القصرآن ويتناولون الطعام ويمطون الصدقات المخصصة لذلك اليوم.

[ص ٤٢١] جزيات

العمال من الطهارة والمتصدين بشراء ما يحتاج إليه، والسقاة والحزنة وبقية فئات العمال هناك.

مصالح

الحلوى التى تقدم فى ليال الجمعة يرسم أهل المسجد والخانقاه والمدارس وملاجئ الأيتام، بالإضافة إلى ما تعين صرفه على حدة فى القبة العالية بمقتضى التفصيلات المنصوص عليها فى السجل.

ما يحتاج إليه صدقة

الطعام المذكور الذى يصرف فى هذا اليوم.

(١٤) نفلت العدين

والأليم والتبلى للمباركة من عشوراء ويلة للندر وغيرها مدرسة

الأيتام البالغ عددهم دائما مائة يتيم يدرس لهم القرآن

هدية

مائة مصحف جديد تشتري كل سنة.

وجوه الإنفاق

السبوية، وتقديم العديبة مائة طفل
يكونون قد حفظوا القرآن الكريم،
ويصلون بالسنة، ثم يحضرون بدلا
منهم أشخاصا آخرين.

إضافات

القرش وإعداد للكتب، وما تدعو
الحاجة إليه.

مراتب

خمسة معلمين وخمسة رقباء يلازمون
الأطفال، وخمس من النسوة يقمن على
رعايتهم.

[ص ٤٢٢]

(١٥) للمستحقين

شراء ألئين من فراء الكتف المصنوع من فرو الحروف وذلك كل سنة، وتقديمها إلى
المستحقين.

(١٦) الإشراف على تربية

الأطفال اللقطاء الذين يلقى بهم في الطريق، فهؤلاء يؤخذون وتدفع أجور الممرضات
وما يحتاجن إليه حتى يبلغ هؤلاء الأطفال سن الرشد.

(١٧) تجهيز

وهدن الفراء الذين يموتون في تبره، ولم يكونوا يملكون تركة نفى بلغتهم.

(١٨) الحبوب

التي تلتقطها أنواع الطيور في أشهر الشتاء الستة عندما تشتد البرودة ويمتد الثلج، فينثر القمح والجاورس (الذخن) مناصفة على الأسطح ولا يصطاد أحد هذه الطيور. وكل من يتصدعها بسوء، تحمل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه. وعلى المتولى وسكان تلك البقاع أن يستعوا المعتدين ويردعوهم، وإلا يكونوا أشين.

(١٩) للأرامل

الفقيرات اللاتي يصرف من القطن كل سنة، ليكون رأس مالهن؛ على أن صنع كل واحدة من الأرمال البالغ عددهن بمسألة أرملة، أربعة أمثال من القطن المحلوج.

(٢٠) عوض

الأوتى النخارية والكيزان التي يكرها النلمان والجبولرى والأطفال فينصب متول أمين في مدينة تبريز، حتى إذا ما أرادت تلك الفئة نقل الماء، وانكسرت أوانيهم، ويخشون عقاب ساداتهم؛ فإن ذلك المتولى يعرضهم عنها بعد أن يتحرى الحقيقة.

(٢١) بخصوص

[ص ٤٢٣]

تنظيف الطرق من الأحجار، وإقامة القناطر على النهرات اجشاء من مدينة تبريز إلى مسافة ثانية فراسخ من المناطق والجزائب المحيطة بها وذلك على النحو المنفصل في السجل.

(٢٢) مرتبات

النواب وعمال ديوان أوقاف البر المذكورة والمسماة "الأوقاف الخاصة" وذلك بموجب شرط الواقف خارج أعمال الولايات واللواضع.

(٢٣) نفقات

عمارة القبة العالية وأبواب البر بأضلاعها الأثني عشرة، وكذلك جوسق العادلية الذي أنشاه أرغون خان بموجب شروط الواقف المنصوص عليها في الوثيقة المباركة.

(٢٤) نفلت عمارة

أملاك الأوفاف، والتي أسبل زرعها من الضباع، والقطار والأراضي المستغلة المنقطة بأبواب البر المذكورة في كل ولايات المملك، حشما وجد شيء منها بمقتضى شرط الواقف.

وحيث إن الفضة المباركة قد اقتضت أن يستفيد أكثر أصناف الخلق من هذه الخيرات ومن أبواب البر كذلك حسب الشروط المعينة أوقف غازان على هذا كله ما كان يمتلكه شرعا؛ فهو حقه المطلق وملكه المطلق بطريقة لا يمكن أن تتيح مجالاً لأي طاعن للاعتراض عليها. وقد قطع بصحتها جميع المفتين وثقات العلماء الكبار وفضاة الإسلام. ثم أمر بكتابة سبع نسخ من تلك الوافية، وتسجيلها كلها؛ بحيث تكون واحدة منها في يد المتولي والثانية في الكعبة والثالثة [ص ٤٢٤] في دار القضاء بدار الملك تبريز والرابعة في دار القضاء بمدينة السلام بغداد. أما الخامسة والسادسة والسابعة فحفظت في السجلات. وبعد كل مدة يجدد الشهادة عليها قضاة بغداد وتبريز. وعلى كل قاض يتقلد منصب القضاء أن يبادر بتسجيلها فور جلوسه على مسند القضاء. ثم أمر بأن يسكن ويتوطن أبواب البر المذكورة الجماعة الذين هم أفضل وأكمل أهل العصر، وأن يظلوا ملازمين لها.

كذلك شيد السلطان "خانقاه" كبيرة في ولاية همدان على حدود سفيدكوه في قرية بوزنجرد، وأوقف عليها لوقفا كثيرة؛ بحيث إنه صار المقادرون تلك الخانقاه أو القادمون إليها في راحة تامة بسبب شتمهم بتلك الخيرات كما يشاهد الجميع.

مأثرة أخرى للسلطان هي أنه في كل ولاية حل بها، وراوده أمر، وعن له مراد، ومسته حاجة مسترة، لجأ في الحال إلى حضرة الحق، وأنقضى إليه سره، والترم نلرا، وأدى صدقة. وعندما هزم جيش مصر، وجلس على عرش السلطنة في دمشق، وفي بعدة نلور كان قد نلرها إبان زحفه على تلك البلاد، بعضها في هذه الممالك، وبعضها في تلك الممالك (أي ممالك إيران). وأحد هذه النلور كان لقب سيف الله خالد بن الوليد - رضي الله عنه - حيث دارت المعركة في تلك المنطقة وكان هذا النلر عبارة عن فناديل ذهبية ومعدلات ومفروشات سلمها أيضا إلى المشرفين على القصرة. كذلك نلر نلرا آخر وذلك بأن وقف عدة قرى من أعمال دمشق على بيت المقدس ومشهد إبراهيم الخليل صلوات الله عليه.

وقد لاحظ أن ملوك مصر والشام كانوا ينفقون ريع الأوقاف المحرمين وسبيل الحاج في أغراض تتعلق بتصريف مصالح الجيش والدمويان وكانوا يجزون صرفها بفتاوى تأويلية، ولم يكن ذلك بجائر في الحقيقة. ولهذا نذر أيضا أن تصرف أموال هذه الأوقاف في الأغراض التي خصصت لها، وقال في هذا الشأن: حيث إن الحق تعالى وهب لي هذا الملك، ينبغي أن يصرف ريع كل تلك الأوقاف والأراضي التي أسبل زرعها في وجهها الصحيح، وألا يصرف قطعا في الإنفاق على الجيش والدمويان. ثم صرح قائلا: إن هذه المملكة تحت تصرفنا الآن، وعندما نعود [ص ٤٢٥] سوف نترك جيشا مجهزا صاما للمحافظة عليها. وإن نية الخير التي كتبت قد أقممت عليها، يجب أن تخرج إلى حيز التنفيذ.

ثم أصدر فرمانا فيما يتعلق بأبواب البر هذه. وقد نذر في هذه البلاد أن يصرف مبلغ عشرين تومانا من الأموال من ريع أملاكه الخاصة، وذلك على سبيل الإدرار والوقف والصدقة والإنعام على جماعة من الأمراء والرعايا والشرفاء والأثرياء والفقراء والجنود الذين يجتمعون كل عام في مجلس الشورى (التوريتاي).

وبعد عودته وفي بذلك الفتر، وخلع على كل طائفة وجماعة - على قدر مراتبهم - خلعا كانت عبارة عن أحزمة مرصعة وغير مرصعة وملابس متنوعة. ونذر أيضا عشرين تومانا ذهبيا على سبيل الإدرارات والصدقات. ولا تزال هذه الصدقات تصرف حتى الآن وتنفذ في كل ولاية سنة بعد أخرى. فضلا عن ذلك أمر بأن يستقطع من كل الأموال التي يؤتى بها إلى الخزانة دينار واحد من كل عشرة دنانير، وثوب من كل عشرة أبواب وعشر من كل صنف من الأصناف الأخرى. ثم نودع هذه الأموال لدى المشرفين على القصر الذي يعين لهذه المهمة، وليكون خازنا لتلك الأموال، ويتولى توصيلها دائما إلى الفقراء والمستحقين. أما الشخص غير المستحق، فلا يعطيه شيئا منها، وتعاد إلى الخزانة الأصلية. وأمر أيضا بأن ترسل في كل عام الستائر والشعمانات والقناديل إلى الأضرحة المباركة. وكان السلطان يمر دائما إلى الحق تعالى بحاجته، وهو متأكد - دون أدنى شك - من أن حاجاته مقضية لدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والنفوس. ولا يضيع أجر ذلك أبدا. ولا شك أن أي مخلوق لم ير في أي عصر، ومن أي سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والمبرات والإنعامات والإدرارات والصدقات الجارية.

فليمنح الحق جل وعلا هذا السلطان العادل الكريم مزيدا من التوفيق على هذه الخيرات وليوصل بركاتهما وثمراتهما إلى إمامه المبارك.

الحكاية الرابعة عشرة

في القضاء على الوثائق المزورة والدموى الباطلة ودفع^(١) خيانة من لا أمنة لهم وفجر المتحدين

إن سلطان الإسلام خلد سلطانه لكمال عدله، لزال أنواع الوثائق المزورة والإدعاعات الباطلة، ومنع طاقة القضاة والخطباء الذين لم يكونوا على علم تام بالعلوم الشرعية من تحرير القبالات والوثائق، وكلف جميع القضاة بأن يحرروا القبالات بطريقة واحدة؛ بحيث ترضى جملة الدقائق الشرعية، حتى تفتح أبواب المنازعات بين الناس. وحيث إن شرح تلك الأمور مدون بوضوح تام ضمن الأحكام والقواعد نكتب نصوص تلك المراسيم كي تعلم المقصود منها، ولا نكرر الكلام عنها.

تلك الأحكام والقوانين تفصلها فيما يأتي:

مرسوم بخصوص تفويض القضاة النظر في شئون القضاء.

مرسوم بخصوص عدم إعادة النظر في القضايا التي قضى عليها ثلاثون عاما.

مرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع.

مرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتهديد الشروط اللاحقة.

مرسوم بخصوص قانون الوثائق الذي اتفق عليه جميع أئمة العصر.

ومضمون كل مرسوم من المراسيم المذكورة، يكون على هذا النمط الذي نكتبه فيما

يلي:

(١) دفع الشيء: نجاه وإزالته بقوة. يقول الله تعالى: (ولولا دفع الله للناس بعضهم بعضا لقد اتسدت الأرض).

(نظر للمجموع الوسيط، ج ١٦، ص ٢٨٩).

مضمون المرسوم بشأن تفويض القضاة

بسم الله الرحمن الرحيم

مرسوم السلطان محمود غزلان

[ص ٤٢٧]

ألا فليعلم الحكام والملوك والأشخاص الذين كانوا حكاما في الولايات الغلانية قبلنا، أننا قد عينا فلانا قاضيا لتلك الولاية وتوابعها، حتى تعرض عليه كل قضية أو أمر أو مهمة ليحكم ويقطع فيها برأى، وبمناظرة جهنا على أموال الناس والمائنين. ومحظور على أى مخلوق كائنا من كان أن يتدخل فى عمله. والشخص الذى يزوج به فى السجن الشرعى لا يطلق سراحه أى مخلوق، ولا يخالفه الجماعة التى يمهدها إليها بالتهمة والمشتبهون الشرعية.

ولما كان حكم الرسوم الأعظم بلنكيغز خان يقضى بأن القضاة والعلماء والمعلمين لا يدفعون الرسوم والضرائب، أمرنا بأن يقضى هؤلاء بناء على هذا من دفع الضرائب، وألا يأخذ الحكام منهم شيولا أو ذواب البريد، ولا يتزلوا فى منازلهم، ولا يسمحوا للرسول بدخولها، وأن يدفعوا لهم مستحقاتهم دون تقصير. وستة سنة. وكذلك معاشاتهم طبقا لما ورد فى التوصيات والسجلات. وقد أمرنا شحنة الولاية بأن يجازى كل من يتفوه بكلام عنيف أو يجيب إجابة غير لائقة أمام القاضى، أو يحاول أن يتقص من حرمة.

مسألة أخرى هى أنه لا ينبغي أن يطلب أى مخلوق القاضى بالحضور عنده. وإذا بت القاضى فى أمر من أمور الشريعة بناء على ما قدمه من دلائل ومستندات، فإن عليه ألا يتقاضى [ص ٤٢٨] شيئا من أى مخلوق فى مقابل ذلك مهما كانت الأعدار والمطل. وإذا كتب وثائق جديدة، فإن عليه طبقا لحكم الرسوم الذى أصدرناه على حدة أن يحضر الوثائق القديمة إلى "طاس العدل"^{١٣}، ويرمى فيها حتى يحرقها، وتزول كتابتها، ولا يستمع للدعاوى القديمة التى لم يبت فيها منذ ثلاثين سنة، ولا يهتم كذلك بالوثائق القديمة التى دونت قبل ثلاثين سنة، وذلك بمقتضى حكم الرسوم والشرط الذى نصصنا عليه على

(١) طاس العدل عبارة عن وعاء كبير ملوه بالماء لطفى فيه الوثائق المحطية كى تحرق وتلف.

حدة في هذا الباب. وعندما يحضرون إليه مثل هذه التباينات القديمة لا يعطيها الخصوم والمتنازعين، بل يفلسها في طاس العدل.

مسألة أخرى هي ألا يستمع لقضية المزور المدلس. والشخص الذي يقدم على ذلك تخلف لحيته، ويحمل على ثور، ويطاف به في المدينة، ويحز تحزير^(١) تاما. وبعد هذا لا يكون له محضر. وإذا دون لا يؤخذ به، ولا يلتفت إليه.

ومسألة أخرى وهي أنه إذا مثل خصمان أمام القاضي، وجاء كلاهما في حماية أحد الأشخاص، أو أنهما أحضرا معهما إلى دار القضاء جماعة من ذوى النفوذ بقصد الوقوف إلى جانب الخصمين أو أحدهما، ومحاولة الضنط والتأثير على القاضي، فإنه في هذه الحالة لا يستمع لقضيتهما، ما لم ينادر هؤلاء قاعة المحكمة. وقطعا لا ينظر القاضي في القضايا الشرعية ما دام حماة الخصوم حاضرين.

مسألة أخرى بخصوص الدعوى بين اثنين من القول أو بين مقول ومسلم. وتخصص القضايا التي يصعب القطع والفصل فيها قال السلطان: لقد أمرنا بأن يجتمع يومين في كل شهرين الشحن والملوك والكتاب والقضاة والعلويون والطماء في المسجد الجامع بديوان المطالعة حيث يستمعون إلى الدعاوى ويتعمقون في فحصها. ثم يفصلون فيها طبقا لأحكام الشريعة، ويكون محضرا، ويدونونه في السجلات. ثم يوقعون بشهادتهم على صحة ما كتبوه؛ [ص ٤٢٩] حتى لا يكون بعد ذلك مجال لظن أى مخلوق، ولا يستطيع إبطال ما أبرم.

مسألة أخرى تتعلق بالعقار الذي يدور حوله كلام وادعاء وينشب شجار وتزاع، فإنه لا تتدخل بشأنه أسهات الأحماد ولا الخواتين والأبناء والبنات والأصهار، وأسراء التومان والمزاره والصدده والدمه (أى فواد الكتاب للكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة)

(١) يقول القاردي عن التحزير: التحزير تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود. ولما صفة الضرب في التحزير فيجوز أن يكون بالمصا وبالسوط. ويجوز في تكال التحزير أن يحد من تهاه إلا لغير ما يستر عورته ويظهر في الناس وينادي عليه بلذنه إذا تكرر منه ولم ينج. ويجوز أن يحد شره ولا يجوز أن يحد لحيته. واحتلف في جواز تسويه ووجههم فيصروه الأكثرون، ومنع منه الأقلون (الأحكام السلطانية ص ٢٣٦ - ٢٣٩ بيروت ١٣٢٨ هـ ١٩٧٨ م).

وكذلك المغول الكثيرون وكتاب الديمويان الكبار والقضاة والعلويون والعلماء والشيوخ والرؤساء، فلا يشترط هذا العقار. وطبقا للمرسوم الذي أصدرناه يختص القاضي الفلاني احتياطا بليغا، فلا يحرر قبالة باسم هذه الجماعات المذكورة، وذلك في حالة كل عقار أو معاملة تكون محل خلاف ونزاع. وإذا رأى شخصا آخر يحرر هذه القبالة، فإن عليه أن يسنه.

مسألة أخرى بخصوص الصداق (المهر) الذي يؤخذ عند الزواج قال السلطان: "لقد قررنا قبل هذا أن يكون الصداق تسعة عشر ديناراً ونصف ديناراً^(١)، ولا يؤخذ أزيد من هذا الصداق.

مسألة أخرى تتعلق بالولاية التي تباع للقاضي فلان، وينظر في قضايها. تبحث هذه القضايا فما كان منها بعيداً عن المدينة في هذه الولاية، ومن المناسب أن ينصب لها قاض للنظر فيها، وبين قاض ثقة هذه المدينة، ويؤخذ منه الحكم على النحو المذكور. وعليه في كل شهر أن يتخذ سبيل الاحتياط عند النظر في شؤون المتقاضين كي يحافظ على طريق الشريعة ويحرى الصداق، وذلك بموجب الرسوم الذي أصدرناه حتى لا يكون غافلاً عن ذلك، وأن يأذن بتحرير القبالات، وينفذ حكم المشرع، وترسل إليه نسخة في كل شهر. أما النواحي الداخلة في نطاق القرى، وينصب لها قاض، فإنه ليس له حق النظر في الدعاوى والقضايا، ولا يحكم فيها، ولا يدون سجلات المقارنات. [ص ٤٣٠] كذلك لا يحرر ورقة أخرى قط فيما عدا ما يتعلق بقراءة الخطبة، وصكوك الفروض ووثيقة الصداق. وإذا تصادف أن وجدت قضية معقدة أو دعوى خطيرة، فعلى القاضي أن يأتى إلى المدينة ويعرضها على قاضها كي يفعل فيها.

مسألة أخرى: ينبغي أن يبين رجل ثقة متدين ليحرر تاريخ الوثائق، ويكون له سجل وعليه أن يختص احتياطاً تاماً عندما يحاول شخص آخر أن يفعل ذلك. وهذا الشخص المخالف تخلى لحيته ثم يظاف به في أسماء المدينة. كذلك إذا عرف مسجل التاريخ شيئاً من هذه القضايا وفهمه، لكنه أخفى الحقيقة، فإنه يكون أشأ، ويستحق الإعدام.

تحريراً في التاريخ الفلاني. والسلام.

(١) اختلف أهل العلم في المهر قال بعضهم: مهر على ما نزلوا عليه وهو قول سفيان الثوري والقاضي وأحمد وإسحاق. وقال مالك ابن أنس: لا يكون المهر أقل من عشرة دراهم. (انظر سنن الترمذي، ج ٢، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ص ٣٩٠، المدينة المنورة، بدون تاريخ).

نص المرسوم المتعلق بعدم النظر في القضايا التي مضى عليها ثلاثون عاماً

بسم الله الرحمن الرحيم

بقرّة الله تعالى وبإيمان الملة المحمدية
فرمان السلطان محمود شاهان

فليعلم قضاة البلاد أن كل همّتا مصروفة ومقصورة على أن نرفع عن الخلق الظلم
والتعدي والادعيات الباطلة والخلافات والتنازعات وأن يمضى العالم والعالمين وقتهم، وهم
فارغو البهال، قارغو الحال، وأن تصل آثار عدكنا إلى الخاص والعام والبعيد والقريب، وتصير
عمامة شاملة، وأن يقضى على مواد الخلاف والتزاع من بين جمهور الخلاق وأن توضع
الحقوق في موضعها، وتفلق نهائياً أبواب التزوير والتصويه والاحتيال. وهذا السبب أرسلنا
مراراً المراسيم إلى جمهور القضاة والعلماء الذين تقلعوا الأمور الشرعية، وتصلوا للأشغال
الدنية حتى يفصلوا في الدعاوى، ويقضوا على الخصومات بين كافة الخلق على نحو يكون
متفقاً مع مقتضى قواعد الشريعة، وموجباً لقوانين العدل. ويمكن أن يكون خائباً من
الشواذب والتزوير والمداينة [ص ٤٣١] والهيل والشوى. ومن بين ما هو أهم وأجدر أن
يمعنا النظر في المحاضر المزورة والصكوك والسجلات الموهمة، ويقصوا حقائق الأمور
والأحوال ويصلوا إلى غورها.

وإذا ما بدت على تلك الحجج مظاهر قدم المهدي، ولم يراع ذلك جيداً القضاة والحكام
السابقون فإن على القضاة الحاليين الحذر التام؛ بحيث لا يتهاونون دقيقة واحدة في اتخاذ
شروط الاحتيال. وكذلك فيما يتعلق بالحجج التي مضى عليها ثلاثون سنة ولم يست فيها
واعبرها كل مزور ومغرض سنكاً وحقاً مكتسباً، وصار يتعب الناس، ويشق عليهم، ولم
يستطع القضاة تدارك ذلك رغم الشروط المنصوص عليها. وكذلك قبل هذا في عهد
السلطين السابقين ذكر في كل الفرائد والمراسيم، ألا يستمع إلى الدعاوى التي مر عليها

ثلاثون عامًا. ورغم هذا فإنه حتى الآن لم يتخذ هذا الشرط، ولم يصلوا إلى كنه الموضوع ولم يتداركوا ذلك تداركًا كليًا. أما في هذا العهد فقد تفحصنا هذا الأمر من قضاة الإسلام فعرضوا علينا بالحق والصدق حقيقة الأمر. وحيث إننا أردنا أن نحكم تلك الأمور بين المتخاصمين وبين القضاة من جهة أخرى، حتى لا يستطيع أحد قط أن يصر على الباطل ولا يستطيع أن يقنن الجميع القسمة الباطلة التي مضى عليها ثلاثون سنة. ولتلافى هذا أشرنا على قضاة الإسلام بأن ينظروا في الوثيقة التي تناسب الشرع والصدق. وحتى لا يهين شخص قط عن الحق، ولا يستطيع أيضًا جماعة الأتوماء المستبدين الإلحاح والتأثير عليهم؛ وذلك بأن يسألوا أسئلة مضلة وغير مشروعة، ولا يستطيعون أن يشقوا على القضاة والأئمة. ولقد كلفنا المرحوم السيد القاضي فخر الدين المرآسي بأن يدون صورة الحجية وأن يكتب على ظهرها ذلك الرسوم؛ بحيث لا تطرأ زيادة أو نقصان على ما هو مقرر. ثم تحضر هذه النسخة إلى الخزانة لتكون نصب أمين للمسئولين. والغرض من هذا فرمان وتلك الوثيقة المسطر على ظهرها الرسوم أن تكون دليلًا للشخص والعام، فيخشى الجميع التحريف والتبديل، ولا يستطيع الأتوماء المستبدون الإلحاح على القضاة كي يتركوا الدعاوى الباطلة والتنازع عليها، ولا يحوموا حول كل ما هو خارج عن هذا الحكم وتلك الحجية المنصوص عليها في ظهر الوثيقة. وإذا خالف القضاة ذلك عزلوا من مناصب القضاء ويكونون أميين إلى أن يعرفوا الحقيقة. وأنا لن أستمع إلى أي عذر منهم. وإذا أخط عليهم شخص قوى مستبد، وأصر على رأيه، ولم يراع [ص ٤٣٧] القضاة هذه التعليمات المدونة على ظهر الحجية ولا يحكمون بموجبها، فعلى المسئولين أن يكتبوا أسماء هؤلاء المستبدين ويرسلوها إلينا كي نعتبر هؤلاء الأشخاص مذنبين ونعاقبهم ليكونوا عبرة للعالمين.

كتب في الثالث من رجب الأصب في سنة تسع وتسعين وستمائة (٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م) في موضع "كشاف".

نص الوثيقة التي كتبت على ظهر المرسوم المذكور

لما كانت الحمة العالية والرأى السيد للملك العالم والعالمين وملك ملوك الإسلام والمسلمين، المخصوص بعناية الرحمن، غلزان خان لا زالت دولته الحالية متمتعاً بالدوام أخذت في الزيادة، غير بالغة النهاية. ومنذ بدء ظهور دولته، وهنته مفسورة ومصروفة إلى أعمال الخير والبر، وعنان عنايته وعاطفته موقوفة ومعطوفة نحو إصلاح حال الرعية؛ بحيث إنه في عهد دولته وزمان حكمه وسيطرته، يمضي العالم والعالمين أمامهم، وهم فارغو البال مرفهو الحال. وإن أثار كمال عدله ومخايل وفوره عاطفته ومرحمته لتشمل الخواص والعموم والبعيد والقريب والترك والتازيك. كذلك تتحسم بل تزول مواد الخلاف والتزاع من بين جمهور الخلق في كل المعاملات، وتستقر الحقوق في مواضعها، وتسد أبواب التزوير والمكر والاحتيال سداً نهائياً.

ولهذا السبب توجه السلطان بمخاطبة جمهور القضاة والعلماء الذين يتقلدون الأمور الشرعية، ويتصلون للأشغال الدينية، وذلك في مضامين الراسم السلطانية وملولاتها والمختومة بالأختام المباركة لا زالت نافذة في مشارق الأرض ومغاربها. فالسلطان في حديثه إلى هؤلاء يحثهم على أن يفصلوا في القضايا، وينهوا الخصومات بين عامة الخلق حسب ما تقتضيه قواعد الشريعة، وتوجه قوانين العدل والإنصاف، حتى يمكن أن يكون حكمهم مقدماً وبعيداً عن شوائب التزوير والتمويه والميل والموى والمناهنة. ومن جملة ذلك أيضاً عليهم أن يمتروا النظر في المحاضر المزورة والصكوك والسجلات الموهمة، ويكشفوا عن حقيقتها ويصلوا إلى غور الأمور بقدر الاستطاعة والقدرة [ص ٤٣٣].

وإذا ما بدأ على تلك الحجج مظهر قدم المهدي، فإن على القضاة الحاليين - على سبيل حسن الظن بالقضاة والحكام السابقين - ألا يهملوا دققة قط من شروط الاحتياط وبراسمه، والتحقيق والتفتيش. فلا يعولوا على تلك الحجج؛ إذ إن كثيراً ما يحدث أن يبتلع شخص عقاراً أنشأه أو أحدثه أو أنه آل إليه عن شخص آخر. وقد دونت وثائق وحجج شرعية تدل على ملكيته واستحقاقه. وبناء على حكم القضاة وحكم الشرع صار

العقار مؤكناً ومسجلاً. وبعد مدة مديدة انتقل منه إلى غيره بناء على حكم شرعي، ثم انتقل من ذلك الشخص إلى آخر، وهلم جرا. هنا على حين أن تلك الحجج بقيت في منزل المالك الأول. ثم مضت إلى أهدى عدد من الورثة. وبعد مدة طويلة وعهد متكامل ينتهز أحد الورثة هذه الفرصة، ويظهر تلك الحجج ويمنح بها قائلًا إنه في التاريخ الفلاني، كان هذا العقار ملكًا لجدي، واليوم آل إلى بحكم الإرث. ثم تشهد جماعة بتأثير جماعة أخرى على صحة استحقاقه. وبذلك تطول بينهم المنازعات والمجادلات، الأمر الذي يترتب عليه أن بعض القضاة في بعض الولايات ممن لم يكن لهم قدم واسعة ونصاب كامل من الدين والتقوى وعلم الفقه والنوى لا يصلون إلى غور الأمور، ولا يميزون بين الحق والباطل. ويمكن أن يصدروا حكمًا يؤدي إلى ضياع حقوق المستحقين.

بناء على هذه اللقدمات فإنه قبل هذا، حكم السلاطين السابقون - سقى الله تراهم وجعل الجنة مثراهم - متجنبين أمثال هذه الاحتمالات بحيث إنهم لا يسمعون ولا يهتمون على القضايا التي مضت عليها مدة ثلاثين سنة، وهي التي يطلقون عليها "جيلًا واحدًا" ولا يصدرون حكمًا قبل اتخاذ الخيطه والتحرى. ومن بعد هؤلاء السلاطين صدر مرسوم الإلهخان الأعظم أرغون خان، يقضى بتنفيذ تلك الأحكام.

وحيث إنه كان يرجع في هذا الخصوص إلى أقوال الأئمة واجتهاد العلماء، علم أن جمعًا صغيرًا وأخر كبيرًا من الأئمة والعلماء [ص ٤٣٤] قد اتفقوا وانحدوا في الرأي على أنه إذا كان هناك شخصان في مكان واحد، وكان أحدهما متصرفًا في عدة ضياع. وكان يوجد في ذلك الموضع حاكم عادل وقاض نافذ الحكم، ولم يكن هناك مانع أو وازع آخر من إقامة الدعوى وإظهار الاستحقاق، ومضى على ذلك ثلاثون سنة كاملة، ولم يدع أحدهما على الذي كان متصرفًا وواضعًا يده على المقار، ولم يتمكن بعد ذلك من إقامة الدعوى فإن القاضى في هذه الحالة لا يستمع لدعواه ولا يقبلها. وقد نص على هذا صراحة بقوله: "والآن أنا القاضى فلان، وحاكم الشرع سى الولاية الفلانية قد حررت هذه الوثيقة، وتعمدت بأن أنفذ من بعد هذا التاريخ كل ما هو مسطور في هذه الرقعة وألا أتجاوز ولا أحمى عن الاستماع إلى الدعوى، والفصل في المرافعات والبيت في الخصومات بما يقتضيه الشرع المحمدي، وإن أجد وأجهد بقدر المستطاع والإمكان، وبذل أقصى

الغاية والنهائية في تحرير الدعاوى وتنقيحها، وتفقيش الحجج والوثائق الشرعية وتحقيقتها ولا أسمع أى شكوى تعرض بعد مدة ثلاثين سنة بتلك الأرصاف التي سبق ذكرها، ولا أعيرها الثغائر، ولا أهتم بها. وإذا ما خالفت شرطاً من هذه الشروط، فإني أصير مستوجِباً الجزع والتأنيب، ومستحقاً للضرب والمزل. وقد أشهدت على هذا جماعة من العلول والثقات، وذلك في تاريخ كذا.

نحن المرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى ومولانا المنة للمحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم الحكام والملوك والقضاة والكتّاب والنواب والأئمة والأعيان والسراة والوكلاء وجمهور رعايا الولايات أنه بموجب نص قوله تعالى: ﴿يَا دُلُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(١)، وقول المصطفى صلوات الرحمن عليه: "عدل ساعة خير من عبادة أربعين سنة"^(٢)، تكون كل همتا وعزيمتا [ص ٤٣٥] ورأينا السلطان مصروفاً إلى رفاهية عموم الخلق. وإن إرادتنا هي أن ينتشر في العالم عدلنا وإتصافنا، وألا يستطيع أى قوى أن يظلم ضعيفاً ويضطهده، ولا يعطل حتى أى مستحق بطريق الاحتيال وأنواع التليس والتموه، وأن تزول أنواع المنازعات من بين الخلق.

(١) الآية بأكملها: ﴿يَا دُلُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الظَّالِمِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَهُم عَذَابٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (سورة ص، آية ٢٦).

(٢) وردت صيغة هذا الحديث على هذا النحو: "عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة". رواه الترمذي عن أبي هريرة، وأسنده من طريق أبي نعيم بنسب: "عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة". (انظر كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشهر من الأحاديث على لسان المفسر الحديث الشيخ إسماعيل بن محمد المصطوفى الجرجاني، ج ٢، ص ٥٨، تاريخها التراث العربي، بيروت ١٣٥٢هـ).

ولا كنا تفكر في شئون الإدارة والإعداد والترتيب ووضع قاعدة لكل أمر، تبين لنا أن واحداً من جملة معظمت الأمور وأنواع المنازعات والخصومات بين العاملين هو الإدهاء الباطل بسبب القبالات القديمة والصكوك والأملك الأصلية المخالصة المكررة التي تبقى في يد كل شخص. وتوضح ذلك أن شخصاً يمتلك عقاراً. ومصطلحه أعد قبالة من نسختين أو أنه يمتلك أملاكاً كثيرة، هياً لها وثيقة جامعة جعلها من نسختين؛ بحيث يمكن بعد ذلك أن تقسم التركة بين ورثة ذلك شخص، ثم تنتقل تلك الأملاك إلى أناس آخرين عظمين عن طريق البيع والانتقال. ثم يمر عليها زمن، وتبقى تلك المجموعة من القبالات والصكوك والأملاك المخالصة الأصلية أو بعض منها في يد البائع أو ورثته. ولكن بعد مدة لعدم أمانة هذا البائع راح يدهي أنه لا زال يمتلك هذه العقارات. ولا شك أنه فكر في هذا الأمر طويلاً، وعرف على أي نحو يقيم دعواه، وكيف يمرض الشهود على إثبات أحقيته. ولقد مهر في ذلك وأحكم خطته وانتقل ألف شعرة وحيلة. ومن المحتمل أن يكون قد غلط الشهود وموه عليهم الحقيقة، أو استشهد بجمع من لا أمانة لهم ولا دين. وإذا لم يقم البائع أيضاً بإقامة تلك الدعوى، فإن ورثته يجدون تلك المجمع في منزله، ولا يعرفون على وجه التحقيق أن أملاكه قد انتقلت إلى غيره، فيدعون ملكيتهم لها حسب ما ذكر. وحيث أن القبالات المسجلة محكوم بأنها للشخص الحي. وقد تعرض على القاضى مع الشهود، فثبت صحتها عنده؛ لأنه يعرف أنها انتقلت إلى الغير بطريق شرعى. ومن المشهور أن القاضى يعجز بشهادة شاهدين. وإذا ما اعتمد عدد من القضاة المظنمين الثقات المشهورين تلك الصكوك وسجلوها وكان الشهود العلول المشار إليهم أحياء وحاضرين، ولكنهم غافلون عن أنه قد حدث بيع بعد ذلك، وانتقل [ص ٤٣٦] ذلك العقار وبقيت تلك الصكوك المكررة أو غير المكررة في يد البائع، ولم تسلم للمشتري، فيدلون بشهادتهم بالضرورة فيسجلها القاضى ويحكم بصحتها. ثم يذهب المدعى. واستأنك إلى معاون الأتوماء المشتهين، وبموجب القبالة التي حكم بصحتها حديثاً وتم تسجيلها بتصرف فيها، أو أنه يبعها إلى هؤلاء الأتوماء فيتضرر المشتري بسبب ذلك. ونتيجة لهذه الأوضاع ينشب النزاع ويطول الخصام بين هؤلاء الأطراف.

وحيث إن صكوك الملكية تثبت بشهادة الشهود العلول، يكون تصرف المالك مراعى صامًا في الشرع، وتطرأ لأن الصكوك كثيرًا ما تتكرر وتبطل في يد كل شخص، بصير الاعتماد عليها أمرًا مشكوكًا فيه ومبهمًا. ولما كان بعض قوى النفوس يميلون إلى النزوير ويمارسونه فإن أفضل الوجوه أن يمثل أمام القاضى البائع منهم والمشتري وذلك عند بيع العقارات، وعليهما أن يحضرا الشهود العلول مع الصكوك التي تكون في حوزتهما، فيثبت البائع ملكيته، ويشهد الشهود العلول الثابت صدقهم على أن ذلك العقار خاص بالبائع وتحت تصرفه، ويقولون: إننا لم نسمع ولم نعلم أن لأى شخص دعوى شرعية بالنسبة إلى ذلك العقار. ثم تنسل تلك الصكوك في الماء. وإذا لم يكن لدى البائع والمشتري صكوك فإن على الشهود أن يشهدوا طبقًا لما هو مذكور، ويقرروا أن هذا العقار كان تحت تصرف البائع أو المشتري قديمًا أو حديثًا، ويقر البائع بأنه ليس لديه صكوك. وإذا ظهرت بعد ذلك تكون باطله. ثم يسجل العقار له، وتكتب شهادة الشهود، ويسجلها القاضى وبمحكم بصحتها. وبعد ذلك ينص على ثبوت الملكية أسفل حجة البابعة. وإذا أقر أحد بحق في النقل الشرعى، فإنهم يعترفون به أيضًا. وإذا ظهرت بعد ذلك بعض الصكوك لذلك العقار أو الملك الخالص أو للتقسيم بين البائع وأولاده أو أقربه أو الآخرين، كل واحد منهم كائنًا من كان، [ص ٤٣٧] فإن أى قاض من قضاة الإسلام لا يعبرها لعناتًا. وعندما يراها فى يد أحد يأخذها منه بإلحاح وعنف ويمسحها. وإذا كان لأمثال هؤلاء سند قوى، أو كانوا فى حماية بعض الأشخاص، ولم يسمعوا كلام القضاة، فإن عليهم أن يبلغوا شحنة تلك المدينة كى يأخذها منهم بالنف والزجر، ثم تنسل فى دار القضاء. وإذا قصرُوا فى ذلك فإنهم يكونون مدانين. وينهى أن يقوم كتاب دار القضاء وحدهم لا غيرهم بكتابة الحجج والقبالات الخاصة ببيع العقارات. وعندما يجلس القاضى للحكم فى دار القضاء، فإنه من الضروري أن يحضر طائفة مملوكة بالماء موضوعًا على كرسى، أسميناه "طاس العدل". ثم تطلب صكوك كل مباحة ودعوى يتم البت فيها وتفسل بالماء. وإذا باع البائع جزءًا من أملاكه الخاصة الخالصة، وأبقى بعضها فى حيازته، فإن ذلك الجزء الذى قد تم بيعه، يكتب على ظهر الحجة بحضور القضاة والعدول، وبين فيها أنه قد بيعت هذه المساحة من هذه العقارات المذكورة فى الحجة إلى الشخص الفلانى فى التاريخ الفلانى، حتى تكون تلك

الحجة ثابتة في يد المشتري. كذلك ينص في حجة للمشتري أن للبائع عدة أملاك، وأنه قد بيع بعض منها إلى هذا الشخص، وبطل يملك البعض الآخر. ولما السبب يقى في يد البائع صك غير محمو (غير مفصول).

مسألة أخرى: هي أنه إذا أدى شخص شهادة أو حرر كتابة تتعلق بمبايعة لو رهن. ثم أقام ذلك الشاهد في وقت آخر دعوى على ذلك المشتري أو المرهون، فإنه لا يستمع له، وتخلق لحيته، ويركب حماره، ثم يطاف به في أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقاراً لآخر كان قد رهنه قبل هذا، أو أنه أمر بحق شخص آخر فيه أو باعه فإن هذا التصرف يعتبر حالة من حالات التزوير، وإقراراً بالفسخ، فلا يستمع له، وتخلق لحية الشخص المدعى كلها ويركب حماراً ثم يطاف به في أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقاراً لو رهنه ثم عاد ذلك الشخص نفسه مرة أخرى، وباعه لآخر لو رهنه فيكشف هذا التزوير، وتؤكد من ذلك فإن أمثال هؤلاء الأشخاص يعدمون.

[ص ٤٣٨] موضوع آخر هو أننا قررنا ألا يتوقع القضاة أن يأخذوا من أحد دافعاً واحداً نظير قيامهم بالتسجيل والنظر في الدعوى حسب العادة المعهودة، وأن يقتعوا بالمرتب الذي قررناه لهم، وأن يأخذ الكاتب الذي يمرر الجميع درهماً واحداً عن كل حجة تبلغ قيمتها مائة دينار. أما ما يزيد على مائة دينار فإنه يتقاضى عنها مبلغاً يصل إلى دينار واحد، ولا يأخذ ما يزيد على ذلك أبداً. ويتقاضى المدير الذي يقوم بمهمة الإشهاد نصف دينار عن كل حجة يتم تسجيل الشهادة عليها. ويكون هذا الرسم من النقد المتداول. ومهما تكررت الدعوى، فإنه يتقنع بهذا المبلغ. وكل عمال^(١) يأخذ شيئاً من كلا الطرفين يعز أولاً ثم تخلق لحيته، ويعزل من الوكالة.

مسألة أخرى بخصوص للقضايا المجددة بفترة ثلاثين عاماً، أوردنا لها مرسومًا خاصاً، وبيننا شروطها، فينبى مباشرة الصل بموجبها. وكل قاضي يحكم بخلاف المراسيم والأحكام التي أصدرناها بمقاب ويعزل. وأمرنا الحكام والثلوك في كل الممالك والمدن بأن يحضروا القضاة في هذه المناطق، ويستردوا منهم الوثائق بموجب الرسوم التي أرسلنا صورة منه، ثم يعيلونها.

(١) للتصديق الذي تليه المحكمة للتفاح عن قاضيها

والآن ينبغي استدعاء فلان وفلان من القضية هناك وبمقتضى نص المرسوم المرسل تسترد
منهما الوثائق، وترسل إلينا بصحبة هؤلاء الرسل.
كتب في شهر كذا وسنة كذا.

نص المرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتمهيد الشروط اللاحقة

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وبإيمان الأمة المحمدية

أمرنا السلطان محمود غازان

[ص ٤٣٩]

ليعلم قضاة البلاد أننا عندما أدرنا أن استقام حال العالم والعالمين منوط بالتزام الأمور الشرعية، أرسلنا قبل هذا مرسوماً إلى كل الأطراف والجهات من البلاد ابتداء من نهر جيحون إلى حدود مصر بخصوص تترك الخلل الذي يقع عند الفصل في القضايا بحتم على القضاة التأني والاحتياط التام في تحقيق وتدقيق الأحكام الشرعية، وبتبهم إلى ضرورة مراعاة اللوازم والشروط فيما يتعلق بفحص شئون المحاضر والحجج والوثائق والسجلات. وعند تنفيذ أحكام القضايا بتدريج مما قد يشوبها من التزوير والتزوير والغش والتفويض وأنواع الخيل الأخرى، وأتهمهم وجوب عدم الالتفات إلى مجرد قدم الحجج أو إلى أحكام القضاة السابقين؛ إذ ربما لم تكن تخلو من تساهل أو تحيز، ولزعمهم العمل - بقدر المستطاع - بالتزام الضوابط والدقائق الضرورية لسلامة البدن والنجاة في الآخرة وصيانة العرض. وفرر هذه القواعد في كل البلاد على رموس الأشهاد مرة كل شهر؛ حتى ترسم وتتولد بالترتيب في الأذهان، ويتزجر أصحاب الادعاءات الباطلة من تلقاء أنفسهم ويسلكون طريق السلامة، ولا يبقى أيضاً مطمع للأقوياء ذوي النفوذ في أن يحملوا القضاة على إصدار حكم بعيد عن جادة الصواب؛ خصوصاً بعد أن أكدنا ذلك بالحكم. وأمر السلطان كذلك بأن تؤخذ خطوط كافة القضاة، حتى لا ينظروا بعد هذا إلى رغبة أي مخلوق، ولا يراعوا جانباً قط غير جانب الحق جل وعلا وأن يبدلوا أقصى الغاية في تحقيق الدعاوى وفحص الحجج والوثائق حتى يكونوا بمنجاة من فتن التزوير والتبليس، وألا يتعرضوا للنظر في كل دعوى مر عليها ثلاثون عاماً رغم تمكن المدعى، وبشرط عدم

للموانع التي تعترضها. وإنما قدمت دعوى بعد انقضاء تلك للعة، فلا يستمع لها بتأثم، ولا يحكم فيها؛ لأن فساد مثل هذا الإدعاء ظاهر وواضح، وسماعها أمر مستهجن.

وقبل هذا واجه سلاطين السلاجقة هذا الأمر. وبعون اجتهاد أئمة الوقت منع سماع مثل هذه الدعاوى وبعد ذلك كتب الأئمة والقضاة وعلماة الإسلام رسائل مستقلة في هذا الشأن [ص ٤٠٤]، وأكدوا تلك الأحكام. كما أن نسخها منتشرة في الأطراف. كذلك صدرت مراسيم أباننا في هذا الشأن، ويجرى العمل بها لفرضين:

الفرض الأول: تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرضاء من شدة عنايتنا واهتمامنا باستقامة أمور الدين، وتزول من النفوس نقيصة التساهل والتهاون في شئون الشرع، وتعمل محلها فضيلة الصلابة وثبات القدم.

وليعلم الجميع على وجه التحقيق أن كل من يجرد عن هذه التعليمات سوف يعامل بنفس المعاملة التي عومل بها قاضي أردبيل، فإنه لما لم يحترز في تنفيذ القضايا المزورة الموهمة، أجهزوا عليه بالسيف على أشنع صورة، وأشنع حالة.

الفرض الثاني: حيث إن خاطرنا متصرف ومهم دائماً باستقامة أمور العالم وانتظامها وموجه إلى تحصيل وتكميل أسباب ذلك لردنا أن نلتحق بالأحكام السابقة عدة أمور ضرورية تبلغها قضاة البلاد ونحتم على وجوب العمل بها، حتى يسروا بمقتضاها، ولا يتجاوزوها.

فأولاً وقبل أي اعتبار آخر ينبغي تأكيد الاحتياط بخصوص الاستماع للشهادة^(١) التي يتوقف عليها مدار أكثر القضايا؛ إذ تبين أن القضاة يفتنون تساهلاً في هذا الشأن، ولا يتجهتون في تحري اللعة فيصدرون حكمهم بناء على هذه الشهادة دون توقف، أو دون أن يتطرقا لمطمان إلى نفوسهم، أو يطلب الظن وبطنى الشك على صحة الشهادة وسلامتها ويتمسكون بذلك، ويقفون عاجزين أمام شاهدين، ولا يخشون مقبة هذا الإهمال. وقد

(١) الشاهد يعاون القضاء على أداء رسالته الاجتماعية، فمن غير السكّن أن يضل في دعوى على الوجه السليم ما لم يدل الشاهد بشهادته وبني ذلك أن الشاهد يحق مصلحة اجتماعية ترجح على من تستد إليه الرافعة في الشرف والاعتبار. وانظر المرجع في قانون الضمانات: القسم الخاص بكلف الدكتور محمود نجيب حسني. ص ٥٧٢ القاهرة ١٩٩٣م.

يتفق أن تكون القضية في ذاتها خطيرة. ولكن لأنهم لا يعرفون الحقيقة ولا يحافظون بصبرهم على هذا النحو، فيقتضون بذلك على طائفة من الناس الوجهاء الأثرياء. ونتيجة لهذا يشتد ساعد المدعين؛ ذلك أن ثبوت الحق شرعاً، ولو أنه متوقف على شاهدين^(١) [ص ٤٤٤]، إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا يتوافر إلا في أفراد البشر، وعلى سبيل التدقيق إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. وإذن على القاضي أن يفكر دائماً في أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس، أو انهزام إلى إحدى الجهات أو مراعاة جانب شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن يتخدد بهرد أن الشاهد يبدو في سست وصفة الرجال الصالحين، ويؤمن ظاهره بزخرف القول. وينبغي أن يستعمل سلامة التفكير ولطائف الحيل وصفاء الفهن في استنباط حقيقة الحال واستخلاص ما في باطن القضية. وفي هذا الإطار ينبغي أن يوضح كيفية الحال وإزالة الإبهام والإشكال. ولما كانت حكمة الباري عز اسمه في خلق الكون قد اقتضت أن الباطل مهما خفى أمره في الباطن، فإن آثاره تبدو في الظاهر من فحوى ألفاظ القائل كما قال أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) "كل ما يكون مستتراً في باطن الأحق يتضح من كلمات لسانه". وإذن فنكل من يتعرض للفتوى في أعماق شخص من الأشخاص بنهن سليم، يستطيع أن يستشف الحقيقة من كلامه.

وبناء على هذه المقدمات، أمرنا بأن يتبع القضاة سبيل الاحتياط في استماع كل شهادة تتألف الحاضر ريب في قبولها. وينبغي أن يسأل كل من الشاهدين على انفراد كي يتبين التناقض في أقوالهما لأن التثبت بتحقيق الأمور متوقف على تناقض أقوال المتكلمين. وبناء على هذا يسأل كل شاهد عدة مرات في المجالس المختلفة، وتكشف الأحوال من زوائد الكلام، ثم توضع الأسس بنهية الوصول إلى النكات التي تكون في الأسئلة الملهية مثل التعرض للأزمة والأمكنة وكمية المقادير وكيفية أحوال القضية، ولطائف الأسئلة التي يكون في تحقيقاتها والوصول إليها مدخل لتحقيق الهدف، وحتى يظهر من هذا الاجتهاد أحد الفرضين المطلوبين، إما الصحة التي يمكن إصدار الحكم بموجبها. ويمكن الاعتماد

(١) يقول الله تعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهادة من تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يألف الشهادة إلا ما دعوا﴾ (سورة البقرة: آية ٢٨٢).

عليها. وإما الشبهة التي توجب التوقف عن إصدار الحكم، ويكون ذلك سبباً في النجاة من ورطة [ص ٤٤٢] الحكم بالباطل. ولما كان أكثر الخلل الذي يحدث في القضايا يقع بسبب تركية المزكين الذين هم أنفسهم يفتقدون التركيبة بنفي اتخاذ المزيد من الاحتياط في هذا الأمر. كذلك يلزم الرجوع إلى الفصل الذي كتب خصيصاً لشئون التركيبة.

مسألة أخرى تنطق بضرورة التأمين والتروى في إبرام الأمور بشأن إصدار الأحكام وعرضها إذ إنه تقع شبه كثيرة في هذا القسم. وأكثر القضايا التي تنفذ في دولها ومناطقها، يقوم أصحابها بإثباتها لدى قضاة الولايات الأخرى. ونظراً لأنه في تلك المناطق الفريدة، لا يقع اطلاع دقيق على أسباب تلك القضايا وظروفها، وينتهي على القضاة صحتها وسقمها، إذ يختصون الوثائق دون غيرها، ويرسلونها إلى القضاة الآخرين ليتمتعوا ويصلحوا عليها، ويحكموا بصحتها. وبذلك يروج الباطل في صورة الحق. ولا شك أن طريق الخلاص من هذه الورطة هو أنه في حالة عدم اطلاع القضاة على ماهية القضية، وضرورة رفعها في موضع قريب، ولم يحيطوا بظروفها إحاطة تامة، لا يسجلونها ولا يثبتونها. وعلى الذي يفتح وثيقة الحكم، ألا يسارع بفتحها، وإصدار الحكم بشأنها، ما لم يعرف ضرورة الحكم لدى ذلك القاضي الذي عزم الورقة بحتمه.

موضوع آخر يتضمن الاحتياط في الأمور التي تتعلق بتحرير الحجج والوثائق وأنواع الكتب وأصناف التصديق على الأحكام والسجلات لأن ما يمر في أكثر الأحوال لا يخلو من خلل. كما أن سريان ضرر عدم الاحتياط يؤدي إلى إثبات الأباطيل وإبطال الحقوق. وهذا الخلل إنما يرجع إلى جهل الكعبة بدوازم الكتابة وشروطها. أو إلى تحكّم للميول الشخصية أو مهادنة جانب وترجيحه على جانب آخر. ولما كان من الواجب تدارك مثل هذه الأمور تداركاً تاماً، أمرنا جميعاً من القضاة والأئمة والعلماء الذين كانوا متصلين بنقطة النظر بأن يقوموا متضامنين بمصر [ص ٤٤٣] لعدد أنواع المكتوبات التي تكتب على سبيل الإجمال في المحكمة؛ فحروا نسخة لكل نوع وجمعوا الطلاب كلها في مجلد واحد يكون كامل الشروط، جامع الدقائق بعيداً عن مواقع الطعن، واحتمال المعارضة، موشحاً بتمهيد مناسب ينطوي على فوائد كثيرة. ثم اعتمد هذا المجلد كبار الشخصيات وأهليان العلماء بتوقيعاتهم، وشهدوا على صحة تلك المقاصد. وعندما تمّ هذا الغرض استسخروا من

ذلك نسخًا كثيرة، وأرسلوها إلى أطراف البلاد، حتى إذا ما دعت الحاجة إلى تحرير أى نوع من الفتاوى والأحكام والوثائق، تقدموا على كتابتها على تلك الصورة، وذلك بعد صدور حكم المحاكم، وبناء على إشارته. ويجب على قضاة البلاد أن يمتنعوا النظر فيها أولاً على سبيل الاحتياط. وعندما يرونها مطابقة للمقصود، وتستقيم مع جادة الشرع المطهر يهتمونها ويصادقون عليها بتوقيعاتهم، ويلتزمون بتنفيذ شروطها؛ حتى لا يتجاوزوا - فى المستقبل - ما نص عليه فى كل باب منها، ويكتبوها حرفاً حرفاً. وحيث إن هذا الأمر قد تأكد سابقاً، وهو أنه عندما ينص على أن حكم المحاكم قد صدر بتحرير هذه الأحكام، لا تقوم الكتبة بذلك بناء على التكليف الصادر إليهم، بل يشعرون أيضاً بأنهم فى مثل تلك الأمور إنما يحققون بعض الرحمة.

مسألة أخرى: فكما هو معلوم أن تساهل بعض القضاة وتراخيهم وعدم نزاهتهم قد بلغ حدًا خطيرًا؛ بحيث إنهم راحوا يصدرون حكمين متناقضين فى قضية واحدة بين خصمين كلاهما مسجل، ولم يفكر هؤلاء القضاة فى قبح ما يقدمون عليه، ولم يمتزوا من اكتشاف أمرهم. ولئلا يفتقد ذلك أمرنا بالأسيراء فى المستقبل على هذا المنوال، لأى سبب أو تصريح وأن يهنأوا بتلافى ما حدث. وإذا ما وقع مثل هذا الأمر فى محضر أى قاض فإن عليه أن يحضر الحكيم، ويحدِّث فى الاحتياط لحرى الحقيقة فى كل ما يتعلق بالقضية. وإذا كان محتاجاً إلى معاونة الأئمة، فليقتد اجتماعاً لتوضيح الأمر وفق القانون الصحيح، ويمكن أى طرف يتضح ويلوح الحق إلى جانب، وينسل الحكم الآخر فى طاس المدل. وإذا لم يفصل فى تلك القضية فى حينها، ولم يصدر قرار حاسم بشأنها تودع على سبيل الودعة **[ص ٤٤٤]** لدى أمين المحكمة، ولا تسلّم بنائاً للخصمين، بل توقف حتى يفصل فيها؛ إذ إن ترك أمثال هذه الوثائق بيد الخصوم، لا يترتب عليه شيء نكس سوى الفساد والفتنة والاختلال. وليس هناك شك فى أن كل خصم لو ورثته سوف يظهرون تلك الوثيقة عندما يجلسون مجالاً للشبهة والالتباس فى وقت من الأوقات، ويبادرون بإقامة الدعوى. وربما لا تتوفر لدى القاضى الجديد الدلائل والشواهد على تلك القضية، فيحكم بالباطل. أما إذا احتفظوا بالوثيقتين، وتحقق الخصمان من أنهما لن تعادا إليهما، فإنهما سوف يحضران بالضرورة للمقاضاة، ويفصل فى الدعوى على النحو المقرر على وجه التحقيق. وبهذا يستقر الحق فى نصابه.

مسألة أخرى: سبق أن حكم السلطان ملكشاه بناء على اتفاق أئمة العصر واجتهادهم واستصوابهم، ودون ذلك من أجل مصلحة الناس. وقد نص على أن كل من وقف وقفًا خفيًا، أو كتب إقرارًا بملك أحد سرًا، وأخطى ذلك. ثم باع هو نفسه أو ورثته ذلك العقار المنصوص عليه في الوقفية أو المذكور في الإقرار. وبعد مدة أظهر هو أو ورثته تلك الوقفية أو ذلك الإقرار مدعيًا أنه قد اشترى ذلك العقار، فإن على نضاة البلاد ألا يستمعوا لتلك الدعوى، ويطلبوا الوقفية والإقرار. كذلك يجب عليهم تأديب المدعى وتزويره، وعليهم أن يقرروا الملكية للمشتري.

وبعد أن اجتمع جماعة من مشايخ الأئمة فترة من الوقت في قزوین سجلوا بالاجتهاد مسائل الإصلاح التي أعدوها، والشرط بها صلاح الخلق فوجب على القضاة العمل بها. ومن جعلها أن كل عقار يكون شرعًا في يد أحد الملائك لا يسترده، [ص ٤٤٥] بسبب ظهور عقد مخالف له، بل يقوته في يده.

ونحن أيضًا قد أمرنا قضاة البلاد بأن يسروا على هذا النوال، وألا يتجاوزوا هذا الحكم الذي اتفقوا عليه، وطلبوا بواسطة إقرار الخلق.

مسألة أخرى: تلخص في أننا سمعنا أن بعض قضاة النظر الذين تتول إليهم الأوقاف بشرط الواقف، يبيعون حق توليتهم إلى شخص آخر، ويفوضونه بسبب خديعة بعض الطامعين، فينشأ عن ذلك إلحاق الخراب والضرر بالواقف واختلال حاله. ولتلافى ذلك أمرنا بأن من يكون قد فوض إليه وقف بشبهة تتخذ وسائل الاحتيال في مثل هذه الحالات، وذلك بالرجوع إلى شرط الواقف. فإذا كان الواقف متضمنًا إذن التفويض، فلا يتعرض لمن فوض إليه هذا الواقف، وإلا فإن على المسئولين أن يطلبوا هذا التفويض وأن يمسكوا وثيقة التفويض في طاس العدل. وبعد هذا لا يعطون أى مخلوق مجال التفويض الذي لا يتضمن شرط الواقف فيه جواز ذلك. وجميع الذين يتالفون هذا سواء أكانوا مفوضين أم قابلين للتفويض أم محررين يؤاخذون ويعزرون.

موضوع آخر نقول فيه: إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق جل وعلا وتقوية الشرع الإسلامي لا زال معظمًا وانتشار

الحق والعدل وراحة الرعية. كما أن هدفنا من التنبه هو أن يتضى القضاة آثار الحق والعدل، كما أن هدفنا من التنبه هو أن يتضى القضاة آثار الحق والعدل، وغرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأولى أن يستمعوا لهذه التعليمات طائمين، وأن يتشعروا بما جاء فيها، وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها، ويرجع جانب الحق، ويعصون منصب الشرع الشريف من حين التظيس، ويتخذ الاحتياط التام في الفصل في القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل والذكر الجميل.

[ص ٤٤٦] أما كل من لم يؤثر فيه العديد من البلاغات والبيانات والتأكيدات والتنشيدات؛ فإننا لن نهتم بعد هذا بتجديد الرسوم بخصوص هذه الأمور. وسوف نتبع مع المخالفين طريقة "السيف أصلق أتباء من الكتب" لتصريف الأعمال حتى يعرف الجميع الحقيقة. وفي ذلك كفاية لمن يحسب. فعلى الأمير الفلاني والحكام الذين يصل إليهم هذا الرسوم مع نسخة من الدستور أن يسلموها للقضاة، وبأخذوا بهما إيصالاً. ثم ينسخون صوراً من كل منهما، ويسجلون عليها صحة المقارنة، ويرسلونها إلى الولاية والأكابر وقضاة الولايات. ثم تودع لديهم ليطلعوا عليها ويقيّموا الحجة على المنصب، ويسيروا في المستقبل على هذا المنوال. وهكذا يعملون حتى تتحقق هذه الأمور، وتتضح لدى الجميع.

الحكاية الخامسة عشرة

في منع تعيير القبائل غير المشروعة وإبطال المصع القديمة

قبل هذا في عهد الخلفاء والسلاطين - أنار الله براهينهم - كان المستولون يذلون كل ما في مقدورهم بخصوص ازدهار شؤون القضاء وقوانين الشريعة ويحتاطون احتياطاً تاماً في هذه الأمور، ويختارون الرجال المتدينين من الطماء والفضلاء من أهل الثقة الجديرين بتقلد منصب القضاء. وكان هؤلاء أيضاً يدورهم بمحسون على أن يجعلوا المتدينين الشرفاء من العلماء المشهورين يلازمون دار القضاء. فلا غرو أن كانت الأمور الشرعية والقضايا الدينية تبرم ونقاً لأوامر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق في مواضعها، وأغلقت صاناً أبواب الظلم والحق.

وعلى هذا لم يعد هناك مجال للأعساء والمارقين الطامعين والمفضولين الزورين كسي يجموا بأى وجه حول أمثال هذه الأعمال الخطيرة متفرعين بأنواع الخيل والتليس. وعلى هذا لم يكن لمثل هؤلاء الأشخاص قدرة على التردد على الجماع والجالس، ولم يلفت إليهم أى مخلوق.

ورغم ذلك الضبط والترتيب الذي كان متبعاً في عهد السلطان السعيد ملكشاه - طاب ثراه فإنه لا يزال في أيدي الناس كما هو الحال الآن أيضاً كثير من القبالات القديمة المكررة والحالصة الملكية فكانوا يحملونها إلى القضاة، ويحاجون إلى الخيل [ص ٤٤٧] التي تلزم القضاة بضرورة الاستماع إليها والنظر فيها. وعن طريق تقديم بعض الهدايا^(١) المتواضعة يستطيعون ترويح الباطل في صورة الحق. ولما كانت لتعصب شمل بالناس لهذا السبب، ثم يتضح بعد ذلك أن تلك الدعاوى كانت باطلة، وأن الوثائق ومستندات الأملاك

(١) يقول الماوردي: "ليس من تملك القضاء أن يتبل هدية من محصم ولا من أحد من أهل عمله، وإن لم يكن له محصم لأنه قد يستدعيه فيما يله". (الأحكام السلطانية، ص ٢٥).

القديمة والحالصة الملكية قد انتقلت من قبل إلى الآخرين، بلغت تلك الدعاوى والشكاوى مرات ومرات مسمع السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك، فأتوا أن التريمة التي يمسك بها هؤلاء المزورون إنما هي القبالات القديمة المكررة والحالصة الملكية التي بقيت بعد أصحابها الأول في يد الملك أو ورثته. وبتصادى الأيام، لم يقف على أحوالها أحد. وفجأة يبرز أحد أبناء المالك تلك القبالة، فيقيم الدعوى. ويمكن أن يشتري تلك الأسلاك أو ورثته لم يروا تلك القبالات، أو تكون قد فقدت، أو أنها نهب أثناء الغارات، أو أنها أيضاً تكون قد سرقت من أيها المشتري وسلمت للبلع. وهؤلاء لعلمهم أن القبالة المتفلة الشرعية ليست في أيديهم ومع هذا يقيمون الدعوى بقبالتهم القديمة، ويتشون بها أحقيتهم زوراً. وهكذا فإن أمثال هذه الحالات كثيرة ومتعددة.

وقصارى القول فإن السلطان ملكشاه والوزير "نظام الملك"^(١١) عندما وقفا على تلك الأوضاع، كتبوا منشوراً حسب ما يقتضيه الشرع. وقد صرح السلطان بأنه ليس لأحد أن يقيم الدعوى، ولا أن يُسمع دعواه استناداً إلى القبالات القديمة التي مر عليها ثلاثون عاماً. ثم سلم ذلك المنشور إلى جميع مفتي عراسان والعراق وبتداد؛ فأتوا فيه وفقاً لأحكام الشريعة. بعد ذلك أرسله إلى دار الخلافة لتوقيعه ولا زال ذلك المنشور موجوداً حتى الآن ونسخه منتشرة في الأطراف. ولما كان القضية وأصحاب دار القضاء على هذا النحو الذي ذكرناه فإن مثل هؤلاء التفتة المتدينين الثقات والسلطان والوزير تحمروا من أفعال هؤلاء الأشرار، فاضطروا إلى إصدار مثل هذا المرسوم.

(١١) للحصول على تفاصيل عن الحواجة نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة الكبير انظر: للذوخ الإيراني الكبير ثبات الدين خواجه نصير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربي أمين سليمان ص ٢٤٥ - ٢٦٧ مجلة المصرية العامة للكتاب، العدد ١٩٨٠م. الوزارة في عهد السلاجقة تأليف عباس إقبال وترجمة الدكتور أحمد كمال الدين حليم، ص ٦٩ - ٨٣ مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٠م سياسته أو سر الملوك، تأليف نظام الملك الطوسي وترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، مجلة الدكتور فلاح حسين يوسف بعنوان: تصدير: السياسي الصيرور، ص ١٣ - ٤٢، العدد ١٤٠٧-٨. مجلة الدراسات الأدبية في الثقافة العربية والفارسية: مجلة بعنوان للدراسة النظامية في بغداد للأستاذ سعيدة نفيسي، ص ٦٧ - ٩٢، الجامعة اللبنانية: قسم اللغة الفارسية وآدابها، السنة الخامسة، العددان ٢٠٤ الربيع والصيف ١٩٦٧م.

وقد اتفق أنه في عهد المغول علم بالتدريج أن القضاة والعلماء يُعرفون بمجرد ليسهم العمامة والدراعة^(١). ولكن من الملتطوح = [ص ٤٤٨] أن المغول لم يكونوا يعرفون كيف يميزون هذه الطبقة من غيرهم. ولهذا السبب ارتدى الجهال والسفهاء الدراعة والعمامة بكل وقاحة وراحوا يلازمون المغول. وسرعان ما نالوا شهرة لديهم، وذلك بأنواع التملق والتزلف والرشوة. وقد تدخلوا في شئون القضاء وتقلدوا المناصب الشرعية، وحصلوا على الرسوم في هذا المجال.

ولما استمر الحال مدة على هذا النحو كلف العلماء الكبار المتدينون ذوو الشرف أيديهم عن تلك الأشغال والأعمال؛ إذ كيف يوافق الرجال الكبار على أن يضموا أنفسهم في محيط هؤلاء الأشخاص غير أن الوزراء والحكام التنازك لم يكونوا يتخلون عن طائفة العلماء الكبار الشرفاء، والذين كانوا في قمة الشهرة، فصاروا يشون عليهم دائماً، ويسعون كل شخص مفسد يحاول أن ينال منهم. ولهذا السبب بقي بعض القضاة الكبار المشهورين في مناصبهم. وكانت أحوال الكثيرين منهم على النحو الذي شرحناه.

ولما كان الجهال والسفهاء الذين يدون في صورة العلماء كثيرين في البلاد وكانوا يرون أن أمثال هؤلاء يتقلدون مناصب كبيرة، طفقوا يعارض بعضهم بعضاً. وقد لفت نظر المغول كثرة نزاعهم ومجادلاتهم. كما اتضحت وقاحتهم للجميع؛ فظن المغول أن جميع العلماء على هذا النحو، وبذلك ضاعت حرمة وهيبة كبار الشخصيات بل زالت كرامة أمة الإسلام بسبب هؤلاء الجهال، وصار الجميع سيئى السمة لئذلاء محقرين. وكان كل أمر وعظيم يعمى واحداً من هؤلاء الأشرار. وفي كل فترة ينصب أحدهم قاضياً، ويعزل آخر. وقد بلغ الأمر بعضهم أنهم كانوا يتقلدون منصب الفقهاء بالضمآن، ويجب على القاضى أن يحكم بشفاة هذا الأمر أو ذلك، وبناء على إلحاحه، ولا يأخذ شيئاً من أحد.

ولما كان منصب القضاء يؤخذ بالضمآن والمقاولة، فإننا يمكن أن نعرف كيف كانت الأمور تجري على أى وجه. وقد وضع هنا في عهد گيغاتو خان الذى كان وزيره صدر الدين، ولقب نفسه بصدرجهان (صدر العالم) هنا على حين أن أخاه نصب قاضياً للقضاة

(١) الدراعة: ثوب من صوف. وجبة مشقوفة للثمن. (انظر التاجم الرسيط، ج ١ ص ٢٨٠).

ولقب بلقب "قطب جهان" (قطب العالم). وتقلد الشيخ محمود منصب شيخ المشايخ وأسد إليه النظر في بعض الشئون الدينية، فبلغت غاية الكمال. كذلك كانوا يمهّدون بالأعمال الشرعية إلى أشخاص عن طريق المقاتلة. وهذه الأسباب أدّى الأمر في السنوات الماضية إلى فتح طريق الدعاوى الباطلة [ص ٤٤٩] وكل مخلوق امتلك أو حاز عقاراً، صار وبالأحرص عليه. وكان أسوأ وأعظم من مائة عدو؛ لأنّ للفسدين المختلفين الجباع كانوا يستغلون دائماً القبالات القديمة وشهود الزور، ويلجأون إلى أنواع الحيل والتليس التي لا نهاية لها ويشقون على جماعة الرؤساء قوى المناصب والجاه ويفضحونهم.

ولما كان القضاء بالضمآن والمقاتلة صارت تلك الأمور ملازمة لطبع القضاة والمشرّفين على دار القضاء، فكانوا يهرون المدعين ويخدعونهم بالوعود، ويهملون القضايا، ويؤجلون الحكم فيها شهوراً بل سنوات. وخلال تلك الفترة، كانوا يحنون شرّة هذا التسوية ويحاولون بغيتهم من الجانبين. وهكذا تستمر الدعاوى والمنازعات، ويقتل كثير من الأملاك موضع خلاف ونزاع لعدة سنوات. وكانت دار القضاء تنفق كل سنة مبالغ أكثر من العوائد التي تحصلها. وكان كل شخص يروده الأمل، ويقول في نفسه: إن دعوى لا تزال قائمة فعلى أن أدفع مبلغاً آخر حتى أتال بعض حقوقى عن طريق الوساطة والرشوة. ومن بين هؤلاء المتضفين كان التسولون يحصلون على هبات الخدمة ويتألمون الشهرة الزيفة. وحيث إنهم كانوا يرون أمثالهم قد صاروا في مصاف العظماء عن طريق الدعاوى الباطلة، وأن كبار القوم يضحونهم شيئاً لصيانة أراضهم، ولا يذهبون إلى دار القضاء. وهناك أيضاً جماعة يذهبون إلى دار القضاء مضطربين، فيأخذون شيئاً. ولقد فكر هؤلاء في أنفسهم أيضاً قائلين: حيث إننا لا نستطيع أن نحصل درهماً واحداً في كل يوم مع ما نستعمله من حيل كثيرة ومشتقات بالغة، ليس هناك أفضل من هذه المهنة وهذه الصنعة. وبناء على هذا سلك الجميع هذا المسلك، فاحتفظ بعضهم بقبالاتهم القديمة، وصار البعض الآخر يفسد إلى جانب غيره يؤيده بالرفاحة والسفاهة، وأغروا بتفقون مع شخص يستطيع تقليد أنواع الخطوط لشابهة لخطوط الآخرين ويمررون القبالات المسجلة، ويعاون أحدهم الآخر في هذا السبيل. هنا على حين أن هناك طائفة أخرى راحت تقلد المنشورات الصادرة عن السلاطين السالفين، وكذلك القبالات القديمة المكتوبة بخطوط مجهولة، والتي مر عليها مائة وخمسون سنة. ولو لم يكن للقبالة شاهد عدل، فإن كل واحد [ص ٤٥٠] من هذه

الجماعة، كان يذهب إلى المحكمة في حماية رجل مقبول أو واحد من أصحاب النفوذ ويهازع الناس. وإذا لم يصدر القضاة حكمهم في مثل هذه القضايا، فإنهم يلزمون الصمت مراعاة لمصلحتهم الشخصية، ولا يتلقون بكلمة الحق، ويلفونهم الحكم سرا على لسان أعوان المجلس قائلين: إن هذه الجماعة باطشة أيديهم، ولا نستطيع أن نجيب إجابة صريحة. وهكذا كانوا يمشون يومهم بهذه الطريقة. وفي مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئا. وإذن فهذه القضية كانت مثل الطاحون كلما زاد دورانها تصير أحمق وأقوى. وقد وصل الأمر إلى حد أن ظهرت في البلاد دعاوى كثيرة باطلة لا تعد ولا تحصى.

وعندما كان المدعى بالباطل يحمى بأحد أصحاب الأيدي القوية فإن المدعى عليه المسكين والمالك الحقيقي للعقار يضطر إلى الاستماتة بحماية رجل آخر من ذوى السلطان خوفاً على ماله وعرضه، فيستجيب ذلك بالضرورة أن ينشب النزاع وتسد المحصورة بين الشخصين القويين. وهذه طبيعة الزمان منذ قدم الأهم أن يستعمل السيف من أجل المحافظة على الملك. وقد بلغ الشؤم بهؤلاء القوم إلى حد أن أكثر ذوى النفوذ شرعوا هم الآخرون يهازع الواحد منهم الآخر، ونشبت بينهم الخصومات مما يؤدي إلى استعمال السيف. وكان أكثر تلك المنازعات يحدث بوجه محاصر إذا ما باع المقتصب القرية - التي يعادل شأنها عشرة آلاف دينار وهي ملك لصاحبها الحقيقي - لأحد ذوى النفوذ بثلاثين أو مائة دينار ذهب. وقد استقر في ذهنه أن هذه القرية كانت ملكاً له. وهي الآن على حد قوله "في حيازتي". كذلك راح بعض خطباء القري وغيرهم يؤيدونه جهلاً ومروراً، ويقولون: "إن هذا البيع صحيح والقرية ملك خاص لك".

وحيث إن المفعول على خلاف ما كانوا عليه في العهود السابقة قد ظهرت فيهم رغبة اقتناء الأملاك، واشتد سعيهم في هذا السبيل فأدى الأمر إلى أن برزت مشكلة الأملاك دفعة واحدة، وصارت في مقدمة القضايا المقلقة، وأصبح جميع الناس غير أمنين على أعراضهم وأرواحهم، وعجز القضاة المتدينون من أعمال تلك الفئة من لتفسدين المزورين ولم تكن لهم قدرة على تدارك تلك الأوضاع. فصاروا دائماً يلتصمون بالخلاص [ص ٤٥١] من حضرة الحق تعالى.

فلما وصل المهدي المبارك لسلطان الإسلام غلظت سلطانه وشاهد ذلك الأسلوب المذموم، فكر في تداركه، فأصدر فرمائه، وكلف نقلة الأعبار الثقافات بأن يذهبوا إلى كل

ولاية أينما يوجد أى مزور، يظهر فيها تزويره، ولا يدعون الآخرين يعملون على إخفاء هؤلاء المزورين أو حمايتهم، وطلب فى الحال استدعاء هؤلاء الذين انتضحت أمورهم فعاقبهم بعد ثبوت جرهم.

وبهذه الطريقة اكتشف كثير من محاولات التزوير والتبالات الكاذبة التى كانوا قد حرروها، وأعدم هؤلاء المزورون طبقاً لعدل وإنصاف سلطان العالم غازان خان عند سلطانه. وهذا هو معنى الحكاية التى كتبها عن السلطان ملكشاه، ومضمونها هو عدم الاستماع للدعاوى التى مر عليها ثلاثون عاماً.

وفى عهد هولوكو خان شرح له الوزراء التازيك هذا الوضع. وبناء على ذلك صدر مرسوم فى هذا الشأن. ولقد استمر العمل بهذا المرسوم فى عهود أباالقاسم وأرغون خان وجيخانو خان. ولكن لم يظهر أثر بخصوص تنفيذه، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن هناك شروطاً كثيرة شرعية وعقلية وعرفية لها أهميتها فى هذا الشأن لم تذكر فى تلك الأحكام. وحيث إنهم بخصوص التبالات القديمة نصوا - بصورة مطلقة - على عدم سماع الدعاوى التى مر عليها ثلاثون سنة، فإن ذلك لم يكن أسراً مشروعاً بقى مهملًا.

السبب الثانى: هو أن أحكام المرسوم ينهى أن يتقلها الحكام والأئمة ولما كان أغلبهم يريدون شراء أملاك كثيرة بأسعار زهيدة، لم يكن يتسنى لهم ذلك إلا بهذه الطريقة. وإذا فكيف كان يمكنهم تنفيذ نص ذلك المرسوم؟ لقد كان من الطبيعي أن يهملوا هذه الأحكام رغم أنهم أتروها.

وعندما أراد سلطان الإسلام عند ملكه أن يوقع ذلك المرسوم أمر بتحرير صورة منه باتفاق ومشورة القضاة الكبار والعلماء الفطاحل ذوى الكفاءة. ولقد كتب نص ذلك المرسوم المرحوم مولانا فخر الدين قاضى هراة القزى كان من فحول العلماء والفضلاء المشهورين فى عصره، [ص ٤٥٢] والذى كان يتحلّى بفنون الكمالات، والمشار إليه بالبنان وقاضى لفضاة عصره، ووحيد دهره فى الإنشاء. كتب هذا العالم صورة ذلك المرسوم؛ بحيث يكون مشتملاً على عدة قيود وشروط ينهى مراعاتها فى هذا الباب. ولقد نفذ المرسوم على هذا النحو.

كذلك صدر الأمر بأن يتخذ منصب القضاء في كافة البلاد من يتفق الوضیع والشريف على أحتیته واستعداده لمباشرة هذا العمل الخطير. كذلك قرر لؤلؤ القضاة مرتبات مجزية كي یقنعوا بها ولا يأخذوا شيئاً قط من أحد لأى سبب من الأسباب، وأصدر السلطان مرسوماً شمل كل باب من أنواع الاحتیاطات ثم أرسل إلى الجهات المختصة بمجموعة القوانين التي اتفق الأئمة على صحتها. وإن كل نصوص تلك المجموعة من القوانين بالإضافة إلى نص ذلك المرسوم كُتبت فی الفصل السابق، وليست هناك حاجة تدعو إلى تكرارها.

المكايبة السادسة عشرة

فى إبطال الميأزة والغصب وإزالة أنواع المصادر

حكايات عن وقائع الأفعال وقلم حكام الولايات

نذكر هنا على سبيل الإجمال بعضاً من الحكايات والأحوال، ونبين كيف أن الجباة فى كل ولاية كانوا يحصلون أموال الديوان ومستحقته وما أكثر أنواعها. كما نذكر طرفاً من سوء تدبير الوزراء، وفنون الظلم والجور التى كانوا يتخذونها وسيلة لتخريب البلاد، وإفقار الرعايا كى يشتتوا ويفرقوا، ولين نبأغ فى هذا الموضوع؛ لأن القراء يعرفون أن المظالم كانت تجرى أضعافاً مضاعفة عما كانت عليه من قبل. ولكن الناس فيما بعد سوف يتصورون بالرفاهية والراحة بسبب عدل وإنصاف سلطان الإسلام عند سلطانه وينسون أيضاً تلك المنصب والمشقات. أما الأطفال والأشخاص الذين يأتون بعد هذا، ولم يكونوا قد رأوا ذلك الظلم والجور، فلا يد أنهم يتصورون أن تلك الأمور قد كتبت على سبيل المبالغة والتوهيل. ولهذا السبب نوجز حديثنا عن هذا الموضوع فيما يلى:

[ص ٤٥٣] لقد وقف سلطان العالم على أحوال العراق المعجمى وأذربيجان والولايات التى كانت نجى منها الضرائب، وتسد حقوق الديوان. ونحن نبين هنا كيف كان الخلل قد تطرق قبل هذا إلى هذا النظام، وعلى أى نحو تداركه السلطان وأصلحه.

وتفصيل ذلك أنهم كانوا يُقِطعون الحكام هذه الولايات، ويربطون على كل واحد منهم مبلغاً معيناً، يحصلونه منه. فكان الحكام يستغل هذه الفرصة، ويحصل الضرائب من الرعية عشر مرات فى سنة واحدة. وفى بعض المواضع عشرين وثلاثين مرة. وقرار الحكام فى هذا الشأن هو أن يخصى الضرائب التى دخلت فى حوزته. وعندما يهيم رسول إلى الولاية من أجل إنجاز مهمة كلف بها أو للمطالبة بمال أو الحصول على ما يلزم، كان يتخذ ذلك ذريعة، ويتنزهها فرصة. وكلما كان الرسل يصلون بكثرة، وكانت نفقاتهم وطلباتهم لا حد لها، كان الحكام يفرح بوصولهم، ويأخذ فى تقسيم الضرائب وتحصيلها وفق هواه فمرة باسم إنجازات المهمات، ومرة باسم العلف واللؤن وسداد النفقات، ومرة باسم

التعهدات وإجابة اللتزمات وكان يتفق بعضها في إنجاز المصالح، ويعطى الشحن والكتاب بعضاً آخر، ليصيروا أحوالاً وشهود زور له. ورغم المبالغ الكبيرة التي كانوا يأخذونها من الرعية، لا يرسلون قسماً منها مطلقاً إلى الخزانة.

على هذا النحو صارت أسواق الولايات تبده، وتضيق باسم النفقات المقررة وبعض الخوالات. وفي خراسان كان قد بقي من تلك الخوالات شان أو عشر. وكان الرسل وأصحاب الخوالات يلجأون إلى اللديوان، وفي أيديهم الخوالات، فيجيبهم المستولون: "إن المال موجود في الولايات، فكيف لا يسلم إلى أصحابه؟" ثم يؤكفون ذلك بضم الخوالات مجدداً بالمختم الأحمر (لكنمناً) كي تصرف لهم حقوقهم بسرعة، فيذهب هؤلاء إلى الحاكم مرة ثانية، ويترتب على ذلك تحمل نفقات أخرى، فيخطئ الحاكم من ذلك ذريعة، ويغرض على الرعية ضرائب جديدة. وكان الحاكم يقول للرعابا: "أنتم ترون أن رسلاً عديدين قدموا إلى هنا. وإذا لم تكن هناك نفقات ولوازم معدة لهم، فإنه لا يمكن إجابتهم إلى مطالبهم. ولم يكن أي مخلوق يجرؤ على أن يقول له: ينبغي أن تعطينا أموالهم [ص 454]. لو أن يقول: إنك قد أخذت أول العام ضرائب مضاعفة وهديتها، إذ وزعت أربعة أسداس منها فيما بينكم، وأقيمت سدسين لتنفقات الرسل. وفي النهاية يعودون يخفي حنين. وهكذا ظلوا يترددون مرات عديدة إلى أن صارت تلك الخوالات في أيديهم أوزقاً بالية. وأخيراً ينقطع الأمل في صرف قيمتها، وتظل سنوات عديدة في محافظتهم وحفظهم.

وجرباً على المعتاد لم يكن أي مخلوق يعرف على الإطلاق ما هي حقيقة المبالغ التي تدفعها كل ولاية، ولا الجهة التي يمكن تحرير الخوالات إليها حتى يحصل قيمتها. وكانوا يمررون الخوالات المتتامة إلى الأطراف حسب الطلب.

ولما كان الوزراء والنواب يعلمون علم اليقين أن المبالغ لن تصل، ظلوا يماطلون ويمسكون، ويمنون الناس بقصد جذب ظواهرهم قائلين: إننا نكتب هذه الخوالات مراعاة لحاظكم. وبهذه الألاعيب كانوا يصرفونهم راضين مسرورين. ولم يسفر هذا الوضع عن نتيجة سوى خراب الولاية. وخلال ذلك يجد النائب والوزير ميرواً لاستغلال الموصف فيعرضان على حضرة السلطان قائلين: إن الجباة كثيرون في الولاية. ويجب أن يزودوا

الخرانة بتسقط من الأموال. وفي الحال يستصفون مرسومًا مضمونه أنه على كافة أرباب الخوالات ألا يدفعوا شيئًا إلا كنا وكنا من النفقات، وتلك المبالغ للمعدودة التي تخصص لتقديم هبات وعطايا للوزير والنائب، وهما للحكام. وهذه بنهي وصولها.

بعد ذلك كان الحاكم يكتب رسالة يقول فيها: حيث إننا منعنا الجباة من التصرف في الأموال، بنهي أن تصل النفقات الخاصة بسرعة من الولاية. وبهذه الحيلة كان يأخذ تلك الهدايا نقدًا. وكذلك كان الوزير يتواطأ مع حكام الولايات. وإذا لم ير الحاكم التأشير على الخوالة أو الرسالة، فإنه يمتنع عن دفع تلك الأموال. ومرة ثانية كان الرسل والجباة يعودون حيارى. ومرة ثالثة كان الوزير يمن عليهم وعلى الأمراء [٤٥٥]، ويكتب من جديد رسالة بين خلال سطورها أن مصلحة الوزير قد أُنجزت وأن غرضه قد تحقّق.

وأما حكام الولايات فنتيجة لتواطئهم مع الوزير ومراعاة لحظاته تجرّلوها واشتد بطشهم وضادوا في ممارسة أنواع الظلم والفلو في الاعتناء. وكان يضيع هدرًا كل سنة جزءان أو ثلاثة من مجموع الضرائب ورسوم التمتع في المدينة لسد نفقات الرسل والوفاء بالتزاماتهم. وكان للناس يتعجبون لهذا التصرف ويقولون: لماذا يمتنع الحاكم عن صرف رسوم الدفعة النقدية لمستحقيها، هنا على حين أنه يتفقا في مثل هذا الحراء؟! ولكنهم في غفلة عن هذا الأمر وهو أن الحاكم قد اختار تلك الطريقة بسبب سوء فعله، ولكن يستطيع بهذه الحجة أن يأخذ أضعاف تلك النفقات ويسليها. وعند تصفية الحساب يوفد اثنين أو ثلاثة من المتدوين من أجل نفقات الرسل. وبهذه الحجة لا تصل حقوق الدهوان. وفي الحقيقة لم يكن يصل على الإطلاق من تلك الولايات إلى الخزانة دنانير ذهبى واحد. وكذلك الحال بالنسبة إلى النفقات المقررة التي أنفقت من أصل الخوالات، فإنهم لم يدفعوا منها دينارين من عشرة دنانير. ولم يكن أحد مطلقًا يرى التمتع^(١) ياشتر عمله؛ لأنه كان دائمًا هاربًا، أو أنه وقع أسيرًا في أيدي الجباة يُضرب بالعصا. ولهذا كان يقدر ما يستطيع يرسل أشخاصًا في الخفاء، يذهبون ليلاً إلى منازل الرعايا كالتنقابين ليستوفوا رسوم الدفعة من الناس.

(١) التمتع للكلف بوضع الدفعة.

وبمكّم الضرورة كان يرضى بأن يحصل منهم نصف الرسوم المقررة يقدمونه له خفية. ولهذا السبب كانت رسوم الدفعة تهبط وتتناقص، وما كان يحصل منها يصرف لسد نفقات الملف لدواب الرسل. هذا على حين أن علمهم كانوا ملازمين لهم كظلمهم وبمصلون منهم على نصيبهم. وحيث إن التهود لم تكن تصل إلى الجميع، كان هؤلاء الخدم يتشاجرون فيما بينهم فمن كان أكثر قوة، فاز بالنصيب الأكبر. وأما أجور العمال والنفقات المقررة للولاية مما يمكن أن يتوقف عليه عمراتها، وبدونها لا يسير شؤون الملك، فإنه بسبب تأمر الحكام كان يزيد أغلبها على أصل المال المقرر، ورضم هذا لم يعطوا مخلوقاً قط دانقاً واحداً.

وفي أول العام يحتاجون بأنهم ينادون بإعفاء أموال الخزانة. ولكنهم بعد ذلك كانوا يقولون [ص ٤٥٦] إننا سنقطعها وقت الرخاء. ولما كان الرسل والمصلون الكثيرون الذين لم تكن أمورهم قد أتجرت بعد، محضرون دائماً، كان الحكام ينتحل الأعذار ويقول: إن أفواجاً عديدة من الرسل ملازمون لي، ويتبقى إنجاز مهامهم قبل غيرهم. أما أرباب الأجرور والرسوم والصدقات وغيرهم، فإنهم يقضون الوقت من أول السنة إلى آخرها في المساطلة من جانب المسؤولين والتسوية إلى اليوم والند. وهكذا كان هؤلاء الضحايا يجلسون عرايا جياحاً. أما الأشخاص الأكثر نشاطاً فقد لتجلبوا إلى نواب الحكام. وبمزيد من الإلحاح والتوسط يبيحون نصيبهم الواحد بنصف شته. وفي المقابل يشترون البضائع بضعفى شتهها بحيث إن حقوقهم فى النهاية تصل إليهم بمشقة بالغة. ويألف حيلة إلى ربع ما كانوا يستحقون. ومن أتاحت له هذه الفرصة، كان يحتر نفسه عضواً فعالاً وسعيداً. أما الآخرون فيبتون محرومين حرماناً تاماً يحصلون زملاهم المخطوظين. وإذا استطاع أحد المحرومين أن يصل بمشقة بالغة إلى بلاط السلطان لعرض شكواه، فإنه كان يأخذ رسالة من الدهوان الأعظم مضمونها كما يقول المسؤولون: إننا قد قررنا صرف مستحقته قبل الجميع، فلم لم تصل إليه؟ وهنا ينتحل الحكام عنراً قاتلاً: إن على الولاية أموالاً متأخرة، ولهذا لم أصرف له حقوقه. وسوف أحرر له رسالة تسلمها، فكان ذلك المسكين يأخذ الحوالة مضطرباً بالبقايا المتأخرة. ولما كان الحكام قد استوفى الأموال الطائلة - التى سبق ذكرها -

بالمزادة، كيف تكون لديه بقايا؟ وتلك البقايا التي كانت متأخرة إنما هي من الضرائب الإضافية التي فرضوها على الرعايا. وهناك بعض الرعايا الذين لم تكن لهم طاقة على سداد الضرائب المتكررة، فيضطرون إلى ترك قراصم ومساكنهم ومهربون، أو إذا كان هناك أشخاص ذوو نفوذ أو حثية، فإنهم يمتنعون في سداد المبالغ الإضافية، وهؤلاء كانوا يرضونهم بقولهم: لن نطالبكم بسداد هذا القسط الأخير، أو إننا سوف نغفص لكم نصف المطلوب. وكان المحصل والكتاب قد سجلوا في السجل مجموع الأقساط على الرضيم من أن المقرر تحصيله لا يزيد على ضريبة واحدة. [ص ٤٥٧] ونظرًا لأن آخرين قد سدّدوا وبعضًا لم يسدّدوا، أو دفعوا أقل من المطلوب، يتنبأ شيء من القسط الأخير، سموه "البقايا". ولما كان المحصل والكتاب شريكين في إضافة تلك الأقساط للمكررة واختلاصها، كانا يسجلانها، ويشهدان على صحة ما كتبا شهادة غامضة.

وإذا ما سألت الحاكم نائب أو وزير فأتلا: هل هذا الباقي من أصل المال، أو أنه من الإضافات التي أضفتها بين حقيقة الأمر. ولكن حيث إن الثواب والوزراء يعرفون هذه الحقيقة، وهي أنهم يتقاضون من الحكام تلك الإضافات كتوع من الجاملة، كانت تقصر الستهم. وهكذا فإن هذه التصرفات التي شرحناها كان يقدم عليها كل واحد من الوزراء السابقين. لكن هذا الأسلوب كان حرفة "صدر الدين ابلهوى"^(١) وصنعه. فقد اكتسب مهارة فائقة في ذلك التليس بحيث إنه أوصل الفساد والجور إلى عنان السماء، وأحق الضرر البالغ بكل شئون المملكة والإدارة. وفي عهده لم يتطلع أي مخلوق أن يحصل على قيمة حوالة من الحوالات من إحدى الولايات، ولم ينل حقه أي مستحق لأجر أو رسوم ذلك أن كل الحوالات الصادرة عنه كانت محض تضليل وغشاع. وكثير من الفقراء والمستحقين والشيوخ الذين كان يتاح لهم الوصول إليه، كان يجرر للواحد منهم حوالة

(١) صدر الدين "ابلهوى" هو صدر الدين أحمد الخالدي الزباني وزير جهات عثمان (١٦٩٠-١٦٩٤م/١٢٩١-١٢٩٤م) والذي فتح السلطان باستمال هذا النوع من العملة الورقية (چقر) بدلاً من التعامل بالذهب والفضة وذلك لتفريع الأرملة المالية التي حلت بالبلاد. ولكن ثبت فشل هذا النظام نشلاً فربماً فصر إشاعة والعودة إلى التعامل بالذهب والفضة. ولذا لقب الوزير بـ"چقرى" على سبيل السخرية والاستهزاء. انظر كتاب الشرق الإسلامي ص ٢١٠ وما بعدها.

يبلغ خمسمائة دينار بناء على التماس لو غيره من وسائل التفضل والإلحاح. ولأن هذا الشخص الفقير لم يكن قد رأى مطلقاً مائة أتنجيه^(١١)، كان يسمي ذلك سخاء، ويفرح لذلك أشد الفرح. وعندما كان يذهب لطلب هذا المبلغ كان يفكر في نفسه قائلاً: إن لي خمسمائة دينار، فلأقترض الآن مائة دينار أتفحقها في التفضل وإنجاز المصالح وما يلزم من نفقات الطريق. وبعد أداء قيمة القرض، يتبقى لي أربعمائة دينار. وعلى هذا الأمل، كان يتردد كثيراً لتحصيل هذا المبلغ، وينسى أنه شبح لا طائل وراه. وما كان يحينه من وراء ذلك هو أنه كان يتعلم عمل السعاة والجبلة والمبارين؛ غير أن كل هذه المهارات لم تحقق له أية فائدة. وعاقبة الأمر أن المقترض كان يهرب من هذا البلد.

ولا شك أنه نتيجة لسوء التدبير والتدبير جلا أكثر الرعايا في البلاد عن وطنهم، وأقاموا بيوتهم في بلاد أخرى غريبة. وبهذا خلت المدن والقرى من السكان، وبقيت غائبة على عروشها. [ص ٤٥٨] وإذا ذهب رسول لإحصاء الغائبين وجمعهم، فإنه كان ينزل بهم كثيراً من المشقات ويأخذ عليهم تعهداً بسداد أضعاف الضرائب المقررة عليهم. ورغم هذا لم يكن لهم ميل مطلقاً في العودة إلى بلادهم، وكانوا يفرّجون منها أشد التفور. ورغم محاولات العديدين من الرسل الذين يذهبون في أوقات مختلفة إلى الأطراف لجمع الغائبين لم يستطيعوا حمل واحد من الرعية على العودة إلى مقره. وأما أولئك الذين كانوا قد بقوا في مدنهم، فقد سدوا أبواب منازلهم بالحجارة، وضيّقوا مداخلها. وكانوا يروحون ويحيثون عن طريق أسطح منازلهم، ويهربون خوفاً من الجبلة. وعندما يذهب هؤلاء الجبلة إلى منازل الرعايا، يبحثون عن أحد الأشقياء المحتالين الذين لهم إحاطة تامة بعناوين المساكن. وبارشاده كان مراقبو الجبلة يسمعون الناس من الأرقعة والسراديب والحقائق والأماكن الخربة. وإذا لم يستطيعوا إلقاء القبض على الرجال، فإنهم كانوا يمتقلون نساءهم ويسوقون كقطعان الغنم من محلة إلى أخرى، ويلتقون بهن أمام الجبلة. وكانوا يملقنهن من أرجلهن، وكثيراً ما شوهد الجاهل يصعد سطح المنزل، حتى إذا ما وجد صاحبه جرى وراه إلى أن يلقى القبض عليه. فكان الرجل يهرب على غير هدى ينافع المعجز الشديد والبؤس الذي لا حد له

(١١) حلة صغيرة.

يلقى بنفسه من سطح المنزل إلى الأرض، فكان يدركه المحصل ويمسك بتلابيه، وتأخذه الشفقة عليه والرأفة به؛ فيستعطفه ويستحلفه ألا يلقى بنفسه من فوق السطح حتى لا يهلك. ولكن حيث إن الزمام قد أنفلت، والفرصة قد ضاعت، يكون قد سقط بالفعل وكسرت رجله.

من جملة هذه الولايات التي تعرضت لهذه المأسى ولاية يزد^(١) التي آل أمرها إلى حد أنه إذا تجرد شخص في كل غرامه، فإنه قطعاً لن يرى فيها مخلوقاً يتحدث إليه أو يسأله عن الأحوال. أما الأشخاص الملعونون الذين بقوا فيها، فقد عينوا لهم حارساً حتى إذا رأى أحداً من بعيد، أخطر الباقين، فيخضون جميعاً في القتوات وبين كيبان الرمال. [ص ٤٥٩]

وكل واحد من أكابر الملاك يملك أملاكاً في يزد، إذا ما ذهب إلى هناك، وأراد أن يتفقدتها، لا يرى أحداً من فلاحيه، حتى يسأله عن أحوال بيوتيه وأبن توجده. وفي أكثر المدن خشية أن ينزل الرسل في منازل السكان كان هؤلاء يعدون اتفاقاً تحت الأرض لها ممرات ضيقة ومتعرجة بحيث تجعل الرسل لا يسيرون إليها ولا يرغبون في ولوجها، وقد أقدم السكان على ذلك؛ لأن الرسل إذا نزلوا دارك، كانوا فضلاً عن عزيق السجاجيد وثياب النوم، وتحطيم أدوات المنزل، أو استعمالها استعمالاً سيئاً، يحملون منها كل ما أرادوا، أو يسرقها خدمهم. وإذا كان رب البيت قد جمع قليلاً من القوت والنفقات والأحطاب، فإنهم كانوا يستولون على هذه الأشياء، كما كانوا يستعملون الأبواب للوقود، فيحرقونها بدلاً من الخطب. وهكذا صاروا يهربون كل ما تقع عليه أيديهم.

(١) يدى رشيد الدين اعتمداً عاصماً بولاية يزد كما يدل على ارتباطه الشديد بهذا البلد إذ تروى للمصنف أنه كان يملك في يزد أملاكاً وحباً وحقولاً وعقارات عديدة، وقد ذكر منها على أصال الخنفة والبر والخير. كذلك استقدم عدداً من الفلاحين من أمثال يزد ممن هم بحبرة وتجربة في أعمال الزراعة والقلاعة ليمسكوا في ضياعه وأراضيها الواسعة في تيريز. وفي مقدمة هذا كله كانت تربطه صلة مصاهرة ونسب ببعض الشخصيات المرموقة في هذه المدينة.

لكل هذه الاعتبارات كان رشيد الدين يفر من غيره على الوقوف على حقيقة الأوضاع في ولاية يزد. (انظر مجموعة خطابه على شيفي در باره رشيد الدين فضل الله صفائي: مقاله الأسلا ارج انتشار بتوران: رشيد الدين فضل الله يزد، ص ٢٥ - ٣٦، طهران ١٣٥٠ هـ.ش.)

ومن جملة ما سمع أن أحد أئمة يزد، كان يمتلك منزلاً في هذه المدينة. وفي شهور سنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٥هـ/١٢٩٥م) نزل في هذا المنزل سلطانتشاه بن نوروز على أنه رسول، وكانت معه والدته وأبناؤه. وكان ذلك في عهد عظمة أبيه نوروز. وقد أقاموا هناك أربعة أشهر. وبعد أن استولوا على الأئمة الثمينة ولم يتركوا منها شيئاً يذكر، ورحلوا باليمن والبركة، حضر مشن العفارات في المدينة، وسلكوا سبيل الاحتياط في تحديد شن عتويات الدار التي بلغت قيمتها خمسين ألف دينار. وكانت قد أحرقت أبواب المنزل التي هي في غاية اللطف والأناقة، والتي كان يقدر شئها بما يزيد على ألفي دينار. كما حُرمت أماكن أخرى.

فإذا كان - على هذا النوال - حال دار رجل معصم يتولى منصب الإقضاء في المدينة وينتمي إلى هيئة القضاء فإنه يمكننا أن نفس على ذلك كيف تكون أحوال الأهالي والأفراد والرعابا؟! إن الأمر الذي لا شك فيه أنه لن تكون للسادة والأكابر والأصاغر من الرعابا قضية أصعب وأعقد من هذه. [ص ٤٦٠] وبمجة إيفاد الرسل كانوا يسليون الآلاف العديدة من الساجيد وثياب النوم وقتور طهى الطعام والأواني وأدوات الناس، ويسوقون الدواب إلى بساتينهم. وكانوا يجربون في يوم واحد الخدائق التي كان أصحابها قد عمروها بمائة ألف مشقة خلال مدة تزيد على عشر سنوات. وإذا تصادف أن كانت هناك قناة في ذلك البستان وسقطت فيها دابة يمتلكونها، كانوا يعطلون صاحب البستان، ويقطعون الأشجار في الشتاء للتلخفة. وإذا رأوا شجرة باسقة في إحدى الخدائق، فإن الحكام والأشياء يقطعونها بمجة أنها تصلح لصنع رماح الجند. وفي بعض الولايات كان هناك كثرة حاللة من الهبابة والفلمان وساداتهم من القواد، وهؤلاء يكونون في الحقيقة ضعف عدد أفراد السكان.

وقد ذكر أنه في سنة إحدى وتسعين وستمائة (١٢٩١هـ/١٢٩١م) كان عليخواجه بن عمر شاه السمرقندى حاكماً على ولاية يزد، فذهب أحد الملاك إلى قرية تدعى "فيروزآباد"، وهي من أهم وأعظم القرى هناك كي يحصل شيئاً من عوائد ملكه الذي كان يمتلكه. ومهما سعى هذا الرجل في سبيل ذلك ثلاثة أيام بلياليها، لم يستطع العثور على أى مخلوق قط من الأخوان. هذا على حين أنه قد أقام في القرية سبعة عشر من المحصلين

وأصحاب الخوالات. وقد قبضوا على أحد الحراس واثنين من السكان من الصحراء وأحضرهم إلى القرية، وتهدوهم بالجبال، وصاروا يضربونهم، وذلك كى يهضروا الآخرين، وحتى يحصلوا على طعام لهم. ولكن لم يتسر لهم ذلك مطلقاً. وكان من اللازم لجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم الحصول على العلف والمؤن والشراب والسراى. ويمكن أن نقس على هذه التصرفات: كيف كانت أنواع المظلم الأخرى. وبنفس التفكير فى أن هذه البدع الكثيرة والرسوم السيئة التى أصبحت بمرور الأيام عادة لأهل السوء كيف يمكن تداركها فى وقت قصير؟ خصوصاً وأنهم فى كل زمن أرسلوا للرأسم إلى الأطراف بخصوص استمالة الرعاى، [ص ٤٦٩] ودفع بعض المظلم عنهم. ولكن لم يعمل بها فى أى وقت، وبس منها كلمة الخلق.

وفى هذا الوقت الذى يمثل العهد المبارك لسلطان الإسلام غازان خان - غلبد الله سلطانه، وأدام عدله وإحسانه - وجه رأيه للمبارك الذى هو محض العدل والخير، وصرف كل همته إلى تدارك الخلل الذى كان قد تطرق إلى شؤون الملك، والقضاء نهائياً على البدع والفساد. وقد سعى سعياً جدياً فى سبيل أن يعيش الناس دائماً فى راحة تامة، وصرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء فى الدنيا إنما تكون فى تحقيق هذه الأمور، وألزم نفسه أن يجد ويجهتد إلى أقصى حد فى هذا الجهد لتدارك هذه المعبود المذكورة فى اللوامات التى تدفع الضرائب، وقال فى هذا الصدد: فى الوقت الذى فسدت فيه القوانين، تعطلت السياسة وتطرق إليها خلل بالغ، فنبهى البدء بتنظيم الأمور الصغيرة قبل أى شىء آخر حتى يعرف أهل العالم أن المؤاخلة والمعقوبة إذا وقعت بسبب الأمور البسيطة فإن العقاب على الكبار يكون بالضرورة أضعافاً مضاعفة. وهذا من شأنه أن يرغم الناس على أن يكفوا أهدبهم عن ارتكاب هذه المخالفات. وقال أيضاً: إن أساس كل عمل، وأصل الوصول إلى كل غرض هو المحافظة على كل الجزئيات داخله؛ لأن المسئولين إذا تداركوا تلك الجزئيات واحدة فواحدة إلى أن تستقيم واحدة منها، ثم شغلوا بإصلاح جزئية أخرى، فإن ما تم إصلاحه أول الأمر قد يتحل مرة أخرى، ويتهدر إصلاحه. ثم أضاف السلطان قائلاً: إن قومًا تعودوا على طريقة ما زمناً طويلاً، وصارت طبيعة لهم، يصعب جداً منعهم من انتهاج هذا السلوك، وانتزاع تلك العادة من طبيعتهم. كما أن الحكام المستبدين الذين اعتادوا فى هذه

الأعرام الإسراف فى الجور على الرعايا والاستيلاء على الأموال مضاعفة، ولا يعطون الدونان شيئاً منها قط. وكل سنة يمالون إلى المقاضاة والمحاكمة، ويرشون ويقضون فترة من الزمن فى اختلاق المحاكمات العديدة. وإذا قتل أياً من هؤلاء يظن الأعرون أن قضايهم وقعت صدفة، ولا يحشرون ويتظنون، بل يقولون: إن الشخص الفلتسى لم يساعدهم ويهتّم بهم. وإلا فلو كان ما وقع من أجل المال والرقابة عليه، لكان يلزم اتخاذ هذا الإجراء [ص ٤٦٢] مع العديد من الأتوم الأخرى.

وصفة القول أنا إذا عاينا نصف هذه الجماعة، فليس من الممكن أن يرتدع الآخرون فهكروا أيديهم عن الظلم والاعتداء، وبطل الرعايا على هذا النحو فى عذاب دائم، ولا نصل أموال قط إلى الخزانة والجنود. وإذا فالصلحة تقتضى أن ن فكر فى طريقة تكف نهائياً أهدى حكام الولايات عن التصرف فى الأموال، حتى لا يبدوا بالطبع منفكاً إلى التعدى تحت أمة حجة أو ذريعة، فيكون مثلهم مثل الثعلب الذى قال: سوف أخلص نفسى من الكلب بألف حيلة وحيلة. ولكن أفضلها هى ألا أراه ولا يرانى. وإذا فالأفضل أيضاً فى هذه القضية هو ألا يستطيع متصرفو الولايات تحرير حوالة على الرعية ولو بدنانق ذهبى واحد.

وبناء على هذا أمر السلطان غازان خان بأن يذهب كاتب نشيط إلى كل ولاية، ويكتب بالتفصيل مجموع المناطق التى تضمها تلك الولاية قرية قرية، وأن يقرر الضرائب بالتساوى بموجب الحسابات السابقة، ولا يتقيد بالزيادة والتقصان. وعلى هذا النحو يعمل حتى يصبح الرعايا مرفهين هاتين. كذلك أمر السلطان بأن يتفحص الكُتاب كل أملاك الخاصة (بانجو) والأوقاف والملاك الذين كانت فى حوزتهم هذه الأملاك دون منازع منذ ثلاثين سنة، ويكتبوها موضعاً بها أسماء الحكام ويثبتوها فى سجلات القوانين؛ حتى إذا ضاعت قبالة من أحد الأشخاص، أو أراد شخص آخر أن يستولى عليها فإنه يمكن الرجوع إلى تلك السجلات، والالتزام بما هو مدون بها. وبهذا لا يبقى لأى غلوق مجال للتليس أو التعدى. وعلى هذا ذهب الكُتاب إلى البلاد حسب الأوامر الصادرة إليهم. ورغم أن الرجال ثلوثوق بهم شأنًا والمسالخين قليلون فقد سعى هؤلاء الكُتاب بقدر المستطاع، ودونوا قوانين الولايات وأحضروها. وبعد ذلك أمر بالآل يؤثر مطلقاً أى ملك أو حاكم أو كاتب بقلمه

على ورقة لتحرير حوالة. وإذا كتبت حوالة، فإن الحاكم الذى أذن بكتابتها، يقتل وتقطع يد الكاتب الذى حررها، حتى يراه الكتاب الآخرون، فباغضوا من ذلك العظة والعبرة. كذلك عين لكل ولاية كاتبًا يكون ملازمًا هنا للديوان الأعظم. وفى أول العام يكتب الحوالات الموجهة حسب ما نص عليه القانون، قرينة فقرية [ص ٤٦٣] مع ذكر الأسماء والتفاصيل الأخرى اللازمة. ثم يؤشر عليها نواب الديوان الأعظم، ويؤكدونها بالختام الرسمى للدولة أى الختم النهي (التون شفا). وبعد ذلك ترسل إلى الولاية كى يسدها الرعية على فسطين مع العشر ونصف العشر وحق الخزانة، وأمام جاني الضرائب الذى ينتسب فى كل ولاية. وهو الذى يصرف لأصحاب الحوالات بعضًا مما حصله نقدًا بموجب الحوالات المختومة بالختام الرسمى للدولة (التون شفا)، ويرسل الباقى إلى الخزانة العامة، ويسلمه للخزنة مع سداد رسوم الخزانة. وإذا حمل الجاني أو الرئيس الأموال أحيانًا إلى ملتزمى الضريبة، فإن عليه أن يسلمها نقدًا مع عشر ونصف عشر الدنانق، ويبلغ عن مائة دينار نصف دينار رسومًا للخزانة، وإلا فإن هؤلاء الجباة يحضرون المال نقدًا، ويسلمونه للخزنة مع رسوم الخزانة.

وأمر السلطان كذلك بأنه إذا ما سدد الرعايا الضريبة نقدًا ذهبيًا فإنه لا يجوز للجباة أن يستبدلوا به بضاعة عينية، ولو بدينار واحد. وإذا جاء أحدهم ببضاعة بدل النقد، فإن عليه أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ويأتى بسننها نقدًا إلى الخزانة. وعلى المسئولين أن يدفعوا أموال المرتبات والرسوم والمنفقات المقررة للممول بها فى كل مكان، ولا ينتقص منها دنانق واحد؛ حتى يقوم الرعايا كلهم بالدعاء للدولة الخالدة. وبموجب الحوالات المميزة بالختام الرسمى للدولة، والتي تُحمل من هنا إلى الولايات، يقف جميعهم على الرسوم المستحقة عليهم، ويعرفون أنه لا ينهى دفع زيادة ولو بمقدار دنانق واحد. كما يكتبون إلى رجال القانون مستفسرين عن جملة استحققاتهم، وكيف حسبت لهم.

ولما نفذ هذا الحكم الذى يقضى بالألا يكتب الحكام الحوالات، ظن ملك "روداور" من أعمال هملان أن هذا الحكم مثل الأحكام السابقة فأجاز للكاتب أن يكتب عدة حوالات على الولاية، فصدر الحكم بقتله وبقطع يد الكاتب. وعندما علم الكاتب بمسير الرسول لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات، توفى فى المكان الذى كان قد

هرب إليه. وبعد مدة قبضوا على كاتب في نهالوند، وقطعوا يده. كذلك قبضوا على بقال من الشخصيات الرموقة في همدان، كان قد حول لحسابه مئتين من السماق مفضلاً نفسه على شريكه، [ص ٤٦٤] وصدر الأمر بقتله، فشنع له الكيرون، وخفف عنه الحكم بالإعدام واكتفى بجلده مائة وعشرين جلدة، ودفع غرامة قدرها ألف دينار.

وفي الأونة الأخيرة كانوا يأتون بالقبيلة من الهند، حتى إذا بلغوا همدان، حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف. فقال الحكام هناك: يجب الحصول على العلف من البساتين. فلما بلغ هذا الرأي السمع الأشرف لغازان، قال: إنا نوفر العلف للقبيلة، ونرصد ميزانية لذلك. وإذا فكيف يؤخذ من بساتين الناس؟! فليشتر أينما وجد، وإذا لم يوجد فكيف يستأجر الحصول عليه من البساتين؟! ومهما يكن من أمر فلتسامح هذه المرة. أما إذا أهدم المستولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسوف نعالقهم.

وجملة القول أنه خلال هذه السنوات لم يبق هناك مجال لأى مخلوق فى كل الولايات كى يكتب حوالة بمن^٢ من تين أو حبة من ذهب. وبذلك سُدَّ طريق كتابة الحوالات نهائياً. وفى العام الماضى تبين أن الحكام لم يجرؤوا على إضافة شىء على المبالغ المقررة؛ لذلك وزع الرؤساء والعمد فى القرى الزيادات فيما بينهم. ومن الطبيعى أنه إذا علم كل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، فإنه لا يبالغ شيئاً زيادة على المطلوب. وكذلك لا يستطيع المستولون مطالبة الغرباء وغيرهم ممن لم ترد أسماؤهم فى السجلات بسداد مبالغ فقط.

وبسبب هذه الإصلاحات شغل جميع الرعايا بالدعاء لدولة سلطان الإسلام - خلد سلطانه وعاد المغالبيون إلى مقارهم دون أن يسمي أحد فى طلبهم. وقد ترتب على هذا أيضاً أن المنزل الذى كان شمه مائة دينار، صار لا يباع الآن بألف دينار. وقد توافرت أموال كل الولايات من مسكوكات "ملر الضرب". وفى كل سنة يوافق بها المستولون الخزانة مرتين أو ثلاث مرات دون إبداء عذر أو تعطل كما يشاهد ذلك أهل العالم. وخلال هذه السنوات المعنودة لم تصدر مطلقاً إلى أية ولاية حوالة بنائى من ذهب أو "نغار" من غلة، أو حمل حمار من تين أو عرروف لو من^٣ من شراب أو هدية أو حرير أو ذخيرة أو متونة. [ص ٤٦٥] كما لم يؤخذ شىء من هذه الولايات.

وقد منح الحق تعالى البركة في الأموال وحقوق الديوان؛ بحيث إنه مهما أسر السلطان بالإغراق على الجند، وإجابة المحتاجين إلى ملتصاتهم، والإنعام على المقرين، ومداد نفقات كل طائفة، تكون كلها نفقاً من الخزانة. ولم يصادف في أي وقت أن تكون الخزانة عالية من الذهب والثياب. وإنه معلوم وواضح من السجلات القديمة والجديدة أنه لم يصرف في أي عهد وزمان هذا القدر من الذهب والنفد والثياب الذي يأمر به ويمنحه في كل عام السلطان غازان مخطد سلطانه كما أن هذا القدر من الأموال لم ينفقه الآخرون خلال خمسة أعوام. والخزانة لا تزال باقية ومليئة بالذهب والثياب وأموال الولايات. ولعل هذا لوحظ أيضاً أنه على الرغم من أن الحكام لم يعطوا أحدًا شيئاً بموجب الحوالات والتراخيص؛ فإنهم في نهاية العام كانوا يكتفون كشفًا بالحساب يبين أن الأموال كلها قد صرفت. وكان الواحد منهم يحصل على مبالغ أخرى إضافية.

أما في هذا الوقت، فإنه يمين عاطفة السلطان مخطد سلطانه وحسن تدبيره، عمرت للمالك، وبقي في عهدة حكام الولايات وفر زيادة في المبالغ. كما أن غلة العام الماضي لا تزال جعلتها موجودة في المخازن حتى لا يرغب الناس على شرائها قسراً. ولا ينبغي التسرع في بيع المحصول الذي ينتج كل عام. ولما ما كان غير ناضج من الغلال فإنهم كانوا يحصلون عليه بمجرد دفع العربون. والآن تتوفر للديوان كل سنة زيادة في الغلال الموجودة في المخازن.

بعد ذلك صرح سلطان الإسلام قائلاً: حيث إننا قررنا هذه التناهي، وكفنا أهدي الحكام عن تحرير الحوالات، وعلم الرعايا بالتفصيل القدر المعين لحقوقهم، صارت تلك القاعدة مقررة ومعتادة، وسهل على الرعية إلى أقصى حد أداء ما هو مقرر عليهم، وصاروا يؤدونه برغبة تامة.

وما ينبغي التفكير فيه هو أنه في الوضع الثاني بقيت هذه القاعدة مضبوطة ومستحكمة ومستمرة لا يتطرق إليها ومن بسبب الانقلابات وكثرة الأشغال ووقوع الحوادث والوقائع التي تحدث في العالم؛ إذ إنه بتوفر هذه الأمور لا تدعو الحاجة إلى كتابة كل هذه الحوالات الصادرة عن الديوان الأعظم، والمطلبة بأموال الولايات على وجه السرعة، أو يتواشى الشواب ووزراء العهد عن ضبط هذه المسائل، فيأذنون للحكام [ص ٤٦٦] بتحرير

الحوالات، ويصل المستبدون التهازون للقرص إلى مقصودهم، ويسطون أيدي التطاول فيصذب الرعايا من جراء ذلك، ولا يكون هناك مجال للسؤال والجواب، وتبطل هذه القاعدة الحميدة التي أسكن إرساؤها بمشقة بالغة. وبهذا يخرب العالم مرة أخرى، وتتبدد أموال الخزانة، ونفقات مؤن الجيش.

وحيث إن السعادة حلت بنا، وكانت هونًا لنا، وصار التوفيق حليفنا أسند إلينا الحق تعالى أمور السلطنة، ومنحنا القوة والقدرة. فنبغي مداومة السعي، وبذل الجهود الجبارة ونجنب الإهمال والفتلة. وبذلك تتوطد هذه الضوابط والقواعد، وتصير ثابتة ومؤكدة بحيث إنه لا يمكن أن يتطرق إليها بأى وجه من الوجوه أى تغيير أو تبدل.

بناء على هذا أمر السلطان بأن يكتب مرسوم مصاغ فى عبارة واحدة، وتغفظ صورة منه فى كل ولاية. وهكذا يفعلون حتى تكون الأحكام واضحة ومعينة لدى الجميع كبيرهم وصغيرهم.

وهذا هو نص المرسوم نذكره على النحو الآتى:

نص

**المرسوم الخاص بدخول الولايات الذى يكتبه الديوان
بالفصيل، ثم يقوم بتوزيعه، ويقضى بأن يكتب الملوك
وهكام الولايات هوالات بتاتا**

بسم الله الرحمن الرحيم

فرمان السلطان محمود غازان

لعلم حياة الضرائب والملوك والنواب والحكام والقضاة والسادات والأئمة والعلمور وملاك الأراضى والأعيان والرجوه والرؤساء والعمد، وعموم الرعايا وأهالى المدن والبلاد من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم الشام والافرنج أن كل همنا وتفكيرنا ونظرنا كان

موفقاً على أن تكون هذه الأيام للعدودة من المهد المبارك لسلطنتنا سائرة بمقتضى نص الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِر بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١١)، وبموجب قوله تعالى أيضاً: ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾^(١٢)، فننهض لإزالة أنواع الظلم (ص ٤٦٧) والتعدي والجور واستبعاد المستبدين والظالمين الذين اعتادوا ذلك بمرور الزمن حسب فحوى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾^(١٣)، فجعلوا دعاء المسلمين وأموالهم رزقاً وطعمة لهم، فعلياً أن نقضى على ذلك قضاء سريعاً بحيث لا يطمع بعدها أحد في الرجوع إلى عادة طمعه وخبائثه الأولى، فرتبنا ونسقنا شؤون الملك، وديرنا الأمور؛ بحيث تعود فوائدها عاجلاً أو آجلاً إلى كافة خلق الله تعالى، وتكون سبباً لرفاهيتهم وراحتهم، وحتى يحصل لنا بركة ذلك حسن السمعة في الدنيا والآخرة. وذلك بموجب قوله (صلى الله عليه وسلم) "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها"^(١٤)؛ إذ قد تحقق لدينا أنه لا توجد فائدة في العالم أعظم من العمل بمقتضى قول النبي ﷺ: "عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة". فلا يمكن الحصول على زاد للأخرة أفضل من هذا الوجه.

والآن قد تحقق وتبين لأهل العالم أنه بتوفيق الحق تعالى، وعملاً بما جاء في الحديث النبوي الشريف "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل، وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر"^(١٥)، قد خرج ذلك إلى حيز التنفيذ. وبقدر الوسع والإمكان

(١) الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْتِر بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَيَهْدِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (سورة النحل، آية ٩٠).

(٢) الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ فِي الْأَرْضِ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِشَيْئِهِ شَاكِرًا﴾ (سورة ص، آية ٢٦).

(٣) الآية: ﴿وَكُلُّكُمْ لَنَا رُزُقًا مِن قُرْبَىٰ مِمَّن نَّعْمُ إِلَّا لِقَالِ مَرْفُوعًا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (سورة الفرقان، آية ٢٣).

(٤) ورد في مسلم بحاشية "من سن في الإسلام سنة حسنة" (باب الزكاة ص ٦٩) وباب العلم ص ١١٥ النسائي: (باب الزكاة ص ١٦٤ ابن ماجه: للقداسة ص ١٤).

(٥) ورد هذا الحديث في كتاب سنن الترمذي على هذا النحو: "أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر". (سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى بن سورة الترمذي، ج ٢، ص ٣٩٤، حققه وصححه عبد الرحمن بن محمد عتيق، للجنة للتوبة بدون تاريخ).

لمكن تدارك بعض تلك المظالم والاعتداءات التي كانت مستمرة قبل هذا. وقد تعين شرح وتفصيل ذلك على حدة:

من جملة هذه الإصلاحات تعين وتقرير أموال وأحوال الممالك وإزالة الجبازة، والقضاء على المضاربات، وإلغاء الضرائب الاستثنائية وأنواع المحجوزات الديوتية، ومنع تحصيل نفقات توفير العلف لنواب الجبابة والرسل الذين كانوا يوفدون تبعاً إلى كل ولاية لجمع الأموال. وكانت تصرفاتهم سيئاً رئيسياً فيما لحق بالرعايا من أنواع المشقات والتخريب.

من أجل هذا أرسلنا الكتاب إلى كل الممالك، كى يكتبوا بالتفصيل أسماء الولايات والنواحي والقرى، ويحددوا ما عليها من الأموال والضرائب بحيث يكون جميع الخلق مستريحين من ذلك الإصلاح، وشاكرين راضين؛ إذ إنه قبل هذا كان المستبدون والظالمون يأخذون أضعاف تلك الأموال باسم الإتاوات والضرائب الاستثنائية والمؤن وأمر أخرى كثيرة؛ بحيث إننا لو رحنا نكتبها، فإن الشرح بطول. ؟ [ص ٤٦٨] ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن أكثر العمال وكذلك الأراذل والقواد كان يسليون الأموال ولا تعود فائدة تذكر على الديوان وبيت المال، بل كان ذلك يؤدي إلى الخلل وخراب الملك وتبدد المال. ثم إن الأشخاص الذين كانوا يقبلون أموال الديوان وفق نظام الإقطاع والضمان، وغرضهم أن يسيروا ملاكاً يفعلون ما يريدون، فكانوا يستولون على أضعاف أموال الإقطاعية، ولا يؤدون جزءاً منها إلى الديوان. ولهذا السبب لم تكن هناك أموال للإتفاق منها على تجهيز الجيش والحفاظة على الثغور وإبرام مصالح الملك، فكانت الضرورة تدعو إلى مصادرة الأموال وفرض ضرائب استثنائية على كافة الناس، وإرغامهم على تقديم إعانات.

وهذا السبب كان لئلك دائماً وكذلك للولايات والرعايا في زعزعة وعدم استقرار وتعب ومشقة، والجيش بلا متونة وضعيف الحال. أما الآن فقد تسهر بمعونة الحق تعالى وانقش الجبال كى ندون كل القواعد والقوانين بالتفصيل عن أكثر مواضع الممالك قرية وقرية، بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقاً في أى عهد، ولم يجمع نظرها من السجلات والكتب. كذلك قررت أموال تلك المواضع ورصدت. ولو أنه لا يستطيع أى شخص مطلقاً أن يأتى بما يساوى هذه الجهودات وذلك بسبب عدم الإطلاع عند بعضهم، وبدافع الأغراض والمطامع عند البعض الآخر. ولما يوجد الشخص الذى لا تكون فيه هذه

الصفات اللبيمة. ولكن القوانين حوت بقدر ما تيسر. ثم عرضت علينا. وإذا كان فيما عرض قد حدث تفاوت فاحش أو سهو واضح من أحد الأشخاص، فإن نواب الديوان الأعظم قد تداركوه. وأكثر المواضيع الديوانية التي تقتضها المصلحة وتوجبها الضرورة قد سلمت للعاملين من القضاة والمزارعين ورجال القانون، بشروط مؤيدة مخلدة وموشحة بالتوقعات الديوانية، ومهورة بختنا المرسي للدولة كي يتصرفوا بموجها. ويؤدوا حقوق الديوان سنة بسنة.

وحيث إنه قد زالت أنواع الظلم والاعتداء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التي كانت موجودة قبل هذا، فإن ما وقع من تفاوت وسهو لم يقم له وزن بالنسبة إلى المظالم والأضرار التي كانت موجودة سابقاً. وعلى هذا لم يضاهل الناس الواحد منهم الآخر. [ص ٤٦٩] وصار جميع الخلق شاكرين وراضين مادحين. وقد تخلصوا من متاعب الحياة والاستيلاء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التي يكثُر عندها ويطول شرحها. أما الأشخاص الذين كانوا لا يمشون الله ولمازقين وقصار النظر فلكى تكف أيديهم عن تحرير الحوالات التي يستعملونها في جذب أموال الناس وامتصاص دمائهم أمرنا - بخصوص تلك الأموال المفضلة والمقررة على كل موضع بموجب القانون - بالألا يتدخل الحكام والولاة في الولايات في كل ما يتعلق بشئون الحوالات حتى تقصر أيديهم نهائياً عن تحريرها ومنعهم من إصدار التراخيص. وبهذا الإجراء نُقل أيدي المستبدين وقواد الجيش الكثيرين الذين يزيد عددهم على عدد الرعايا ممن يدفعون الضرائب. ولما كانت عوائلهم وأقواتهم من دماء وأموال الرعايا العاجزين الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقوه منه﴾^(١) وكانوا لا يتخرجون من أكل ذلك المال الحرام. ومن الضروري كذلك أن يزاوُل هؤلاء أعمالاً من قبيل التجارة والفلاحة وزراعة البساتين وأنواع التصدير من أجل الحصول على رزق حلال، وهم بهذه الأعمال الشريفة والرزق الحلال يكفون عن العادات السيئة. وإذا ما تصرفوا عامين أو ثلاثة عن الأعمال السيئة إلى الأعمال الصالحة، فإنهم ينسون تلك العادات والتصرفات والمحركات المنهومة، وتسود العالم

(١) الآية تنميناها: ﴿بأيها الناس شرب مثل قاتعمرأه إن قلتم ندمون من دون الله لن يظفوا ذنباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقوه منه ضحك قطب والقطوب﴾. (سورة الحج، آية ٢٣).

قواعد ونظم جديدة؛ ذلك أن الانتظام عن المؤلف أمر صعب. ومهما فكرنا فيه لا يمكن تداركه إلا بهذه الطريقة لا بالسيف والضرب والمزجر والحبس. وكان الحكام والمستبدون في الولايات قد اعتادوا أيضاً أنه في حالة ما إذا منح سلطان لزمان شخصاً قربة أو موضعاً على سبيل الإدرا أو التعطف أو الإقطاع أو الخيرات أو المنيات والإنعامات أو أنه أوقف وقفاً، أو أن إحدى الخواتين أو واحداً من الأمراء الأتيجال والأمراء قد حمى شخصاً وأقطعهم موضعاً، ولم يؤد حقوق الديوان، أو تصادف أن خرجت قربة فإن هؤلاء يتخذون ذلك ذريعة لفرض أضعاف النفقات [ص ٤٧٠] المطلوبة للديوان الأعظم، ويسجلونها في الحسابات، ويستولون عليها لأنفسهم. وإذا لم يكن لنواب الديوان الرئيسي علم تفصيلي بالمخدمات اللازمة لكل موضع، فكيف يعرفون ما يدعيه الحكام في تقاريرهم وبياناتهم؟ كذلك الذين كانت لهم مآرب خاصة صاروا يدفعون الحكام كي يشهدوا زوراً. وبهذه الوسيلة كانوا يبددون مبالغ طائلة من النقد العيني.

أما الآن فلأنه وردت تقارير وتفصيلات عن كل موضع بموجب قانون الديوان الأعظم لم يبق بعد مجال لأي شخص كي شتد يده إلى مثل هذا التحويل والتخليط، وتكون أيضاً مثل هذه الأمور المذكورة وغيرها سهلة وواضحة لدى ملوك العصر ونوابهم، ولا يستطيع أى شخص في عهدهم أن يظلم غيره أو يشق عليه؛ إذ إن فوائد ذلك القانون مفصلة والإحصاءات المالية واضحة بينة لدى العقلاء والمطلعين، وتؤدي إلى الغرض المطلوب. وإذا لم يست هناك حاجة تدعو إلى التطويل والإسهاب في شرحها وبيانها.

ولما صار التوفيق حليفاً، ونجحت التجربة، وتحقق أن القانون قد نفذ في كل موضع وتيسر لهذا السبب تحرير الحوالات بالتفصيل وصدورها عن الديوان الأعظم، محتومة بالحتم الذهبي الرسمي للدولة. وقد ظهرت شرية ذلك؛ إذ استراح الرعايا، وعمرت البلاد وتحقق سر فعوى الآلة الكريمة: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليه الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج)^{١١}. ولم يبق مجال لأي مستبد انتهازي كي يتصرف في ذاتي

(١١) الآية تنص: «يأبها الناس إن كتبت في ريب من قبعت عليا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضقة علقة وحر علقة لئيم لكم وقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم نعيدنا لشركم ومنكم من يفرغ ومنكم من يرد إلى لرحل العسر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج». (سورة الحج، آية ٥).

ذهبي لو من واحد من الثمر. وقد علم رعايا كل قرية وموضع، مقدار المال المقرر عليهم. وكل شخص يأخذ منهم ما يزيد عليه، يكون ضالاً عديم الإنصاف. ولا سند له. وعلافاً حكم الرسوم وإجازة الديوان الرئيسي الذي لا يجنى فائدة تذكر من ذلك الضلال وتلك الزيادة، ولا يشعر بنعطة. وعلى الرعية أيضاً ألا يعطيموا أوامر الظالمين، ويسلدوا ما تقرر عليهم فقط بموجب الحوالات المنتومة بالختام الذهبي الرسمي للدولة. ثم يعود مجموع ذلك النقد إلى الخزانة والجيش وبيت المال.

وفي هذا الوقت فكرنا قائلين: "حيث إن الفرض من هذا التدبير والترتيب هو رفاهية الخلق ونيل الثواب، كان علينا أن نسعى بقدر ما نستطيع حتى نصير تلك القاعدة أكثر استحكاماً وثباتاً، فيزداد ثواب تلك الإصلاحات، ويستمر بقاؤها مدة أطول. [ص ٤٧١] ومع أننا قد نصبنا في كل ولاية كاتباً في الديوان الأعظم لتحرير الحوالات المفصلة؛ وذلك حتى يقوم الثواب بترويض الحوالات المكتوبة بالتأشيرات النديانية، ويختصمها بختمها الذهبي فإن وضع الإشارات على الحوالات وختمها يحتاج إلى وقت وتفرغ تام. وقد لا تيسر كتابة عدد وغير من الحوالات المفصلة، والتأشير عليها وختمها بسبب تبدل الزمان والانتقالات وإبرام الأمور الضرورية للملك والنفوس والاضطربات والمشقات التي لا يمكن أن تخلو منها عالم الكون والفساد. وحيث إنه من المتوقع أن يتطرق إليها عائق أو يحدث إهمال، تدعو الضرورة - لهذا السبب - إلى أن تكتب الحوالات المقررة على الولايات بصورة مجملة فينسخ الجمل بهذا - مرة أخرى - للاتهائزين ليكتبوا الحوالات ويعتمد إليها أيديهم ويتجرأون ويغربون العالم بنفس الطريقة، وجرئاً على العادة القديمة. وبهذا يلحق الكساد بيت المال على نحو ما كان عليه الحال سابقاً، وينفذ ما فيه من نقد، ويؤجل أيضاً تدبير النفقات المقررة للبلاد التي يصرف منها على ضروب الإصلاحات من قبيل تشييد العمارات وتنفيذ المشروعات، وتوفير النصح والإغاثات والصدقات وغيرها بحجة أن الأموال لا تصل مطلقاً إلى الخزانة، ويسوفون أمطاراً أخرى وحكايات مقنعة جرئاً على عاداتهم. وبهذه الطريقة يمشون وقهم سنة بعد سنة، ويمتد الجمع محرومين. ويمرتب على هذا أن نطلب هذه القاعدة التي كان قد مهد لها خلال مدة طويلة وبجهود بالغة؛ فكان أن استراح أهل العالم لهذا السبب. أما هؤلاء الاتهائزيون فإنهم يحرصون على الظلم ويتجرأون ويسخرون

الرعايا العاجزين. ومرة أخرى تصغر تدارك الأمر، فتكسد كل الأموال والمعاملات وتستهلك، ويؤول الحق على النحو الذي كان سائداً حتى الآن. ومن الطبيعي ألا يكون هذا الوضع ملائماً للوك للعصر ولا الجند ولا الفرعية. وقد فكرنا في تدارك هذا الأمر فقررنا بموجب القانون ما على الولايات قرية قرية وموضعاً موضعاً، وذلك بالتفصيل والتفنين. ثم أمرنا بجمع كل السجلات الخاصة بالولايات وإيداعها المكتبة الملحقة بالقبه والخانقاه وأبواب البر التي أقمناها في تبريز. وقد أودعت لدى المسئولين الثقات، وصدر الرسوم بالمحافظة عليها، وخصصنا للمكتبة رقفاً لما جاء في شروط الرقبة. كذلك كتبت "وثيقة اللعنة" نص فيها على لعنة كل من يطل ما جاء في هذه السجلات [ص ٤٧٢] التي يرجع إليها في كل مشكلة تقع بعد ذلك. وإذا ما فقدت نسخة أو لائحة كانت قد أعطيت لأحد الأشخاص، فإنه يزود بنسخة أخرى من المكتبة؛ حتى يحصل بذلك الثواب. وقد أودعنا نسخة منها في الديوان الأعظم، وواحدة مثلها في كل ولاية. وتوجد نصوص النوائح والقوانين في يد القضاة والملاك والرعايا. كذلك أمرنا بكتابة هذه البيانات على النحو الذي قرر في كل قرية وموضع على رقعة أو حجر أو صحيفة من النحاس أو الحديد حسب رغبة الأهالي، وذلك بأن ينقشوها عليها. وإذا رغبوا، فلهم أن يكتبوها بالجنس المغفور، ويعلقوها على باب القرية أو المسجد أو الكتبة والمواضع الأخرى التي يقع عليها اختيارهم. وتعلق هذه البيانات لليهود والنصارى على أبواب معابدهم، وفي القرى والمواضع التي يربطونها. كذلك تقام لسكان البادية في المواضع التي يرونها صالحة لذلك.

أما البالغ المقررة على الولايات، فنصلن بياناتها للأهالي دون زيادة أو نقصان بحضور القضاة والسادات والأئمة والعدول والإكابر في المدينة، ويُلزم كل واحد من السكان في كل قرية وموضع بأن يسدد سريعاً الأموال والرسوم وفق كل قائمة معلنة في تلك الولايات، وذلك خلال عشرين يوماً. وكل ذلك بموجب القانون على النحو الذي سبق ذكره. ثم تبيت هذه القوائم بالجنس والسامير في المواضع المختلفة؛ بحيث تبقى سنوات عديدة، لا يغيرها أو يبدلها أى مخلوق على أن يخص موضع لبيان الأموال العيبة، وكذلك البضائع المقررة ومقدارها؛ بحيث يكون سند كل قسم من تلك الأقسام في الموعد المحدد. كذلك نُعين رسوم الدعفة كي تسجل على اللوح وفي كل قسم من تلك الأقسام المسجلة

على اللوح، تكتب له مسودة الرسوم على ظهر هذا اللوح حتى يُعرف أن كل قسم خاص بالأموال المختلفة في الولايات المتباينة مقنن ومبين وعلى أي نحو ينبغي أن يكتب، ثم يحدد موعد سداد كل نوع، وكيف يكون الإيداع والتسليم. وينبغي أن يسجل كل قسم على لوح على نحو ما هو مذكور في المسودة [ص ٤٧٣] كي يتخذ وجوه القوم من الرؤساء والرعايا في كل قرية أماكنهم في موعد الموسم للعين، فيحضرون إلى الميدان؛ إذ إن المقرر أن يقم المحصل خيمة وسط المدينة. ومنذ بداية الموعد المحدد حتى اليوم الذي تنتهي فيه المهلة يذل الطبل خمس مرات كل يوم. ثم يستنهي موظف الخزينة والمستول عنها الذي في كل ولاية كي تسلم له الأموال كلها أو بعضها. وقطعاً لا يتقاضى المحصل من أي موضع شيئاً آخر باسم المؤن أو الخدعة وغير ذلك. كما لا يرسل المستولون الخوالات من الديوان بأى وجه من الوجوه، ولا أى محصل إلى أى موضع لو ولاية. وإذا أهمل الرئيس والرعايا ونهاونوا، ولم يسلموا أموال الضرائب في الموعد المحدد، فإن المحصل يقبض عليهم ويأخذ منهم ديناراً واحداً عن كل مائة دينار من أصل الضرائب المقررة. وكل من يقصر في هذا الشأن يجلد سبعين جلدة إلى أن تبقى هذه القاعدة مضبوطة ومحكمة، وتعم فائدتها الخاص والعام، وحتى لا يقع بسبب الإهمال والتغافل والجهل عدد من الناس مرة أخرى فريسة جور المستبدين والمارتقن والذين لا يتحشون ربهم.

والآن حيث إن مواعيد جمع الأموال العينية والمحاصيل قررت وحددت بمقتضى القانون للمؤبد المتخذ على النحو الذى سبق شرحه قمنا بترتيبها وتعيينها على هذا النسق:

موعد سداد الضرائب العينية لكل ولاية تختلف أقسامها كي يكتب كل قسم معين منها على الأرواح في موضع خاص بذلك النوع الذى صار مقتناً، والممولون يستجيبون لهذا النظام، ويسددون ما عليهم على النحو التالى:

١ الضرائب والرسوم التى يدفعها الرعايا من سكان القرى. وقد جرت العادة على أن يؤدوها على قسطين كل سنة.

٢ من جملة الرسوم السنوية التى تقررت لكل موضع اشترط أن يؤدى نصفها من بداية حلول "التوروز الجلالى"^{١١٣}. وتستمر هذه المهلة عشرين يوماً بالكامل. أما النصف الآخر

(١) التوروز الجلالى نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى. يقول ابن الأثير فى ذيل حوادث سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٩م: "تمها جمع نظام تلك والسلطان ملكشاه جامعة من إيمان الحسن، وجعلوا التوروز لأول نقطة =

فيؤدي ابتداء من طلوع الشمس في أول برج الميزان. وتستمر هذه المهلة عشرين يوماً بالكامل.

[ص ١٧٤]

٣ الضرائب والرسوم التي يدفعها سكان الصحراء التي جرت العادة على أن يستجيبوا لدفعها مرة واحدة في أول العام.

٤ خراج المال الذي كان مقررًا من قديم أن يدفع كضريبة عينية، تقرر سداده مرة واحدة في أول السنة من بداية (النوروز الجلال). وتستمر المهلة عشرين يوماً.

٥ خراج الضرائب العينية تقرر أن تسدد في بعض المواضع مثل بغداد وغيرها وقت حصاد المحاصيل الصيفية.

٦ رسوم الدمغة بموجب ما تقرر أن تسددها كل ولاية على حدة. ويكون هذا مناسبًا لها، وذلك على النحو المكتوب على ظهر النشور الذي يوضع على باب كل موضع خاص بالدمغة حتى تسلم على لقساط وفق هذا للترتيب. وليس لأي مخلوق أن يحدث بدعة أو يضيف رسمًا جديدًا، ولا يأخذ لجهة حاليًا أكثر من الرسوم المقررة بحجة أنهم اضافوا زيادة جديدة على الدمغة، كما لا يحدث رسمًا جديدًا.

٧ موعد وكيفية تسلم وتسليم أنواع المحاصيل الخاصة بالمناطق الحارة والمناطق الباردة من صيفية وشتوية، وبعضها خاص بالصحراء التي ليس فيها صيفًا وشروط ذلك على هذا النسق والمتوال المسجل والمشروح.

٨ الاتفاقيات الخاصة بالولايات الواقعة في المناطق الحارة من شتوية وصيفية. وذلك على النحو الآتي:

من الحمل. وكان النوروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت. وصل ما نقله السلطان مهديا الظواهري.
(الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٢١، الطبعة الأزهرية، تحقيق الشيخ عبد فرهاب التنجاري، القاهرة ١٣٤٨ هـ). وما هو جدير بالذكر أن شاعر فرهاصات القانع نصبت عبر الحيام كان من بين العلماء الذين عهد إليهم بوضع هذا الظنوم. (انظر برون: تاريخ الأدب في إيران من القردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين شوربجي، ص ٢٢٦).

أ الشئبة: من القمح والشعير وغيرهما. وكل ما تقرر لكل موضع من المواضع المشاة. وهذه المحاصيل يجب نقلها على الدواب من أول الشهر إلى مخزن بعين في تلك النواحي، وتسلم للصراف. وأقصى مهلة لتسليمها عشرون يوماً.

ب الصيفية: من الأصناف المشاة بموجب القانون. ومن المقرر أن تنقل في شهر...^(١) على الدواب إلى المخزن المعين في تلك المنطقة؛ حيث تسلم للصراف. وأقصى مدة لتسليمها عشرون يوماً.

٩ الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة في المناطق الباردة، ولها محاصيل صيفية، وتلك التي ليس لها محاصيل صيفية، فهي لا شك تدرج ضمن المحاصيل الشتوية فحسب، بموجب ما قرره القانون. وذلك على النحو الآتي:

[ص ٤٧٥]

أ الشئبة: بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها في شهر...^(٢) بالتمام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين في تلك المنطقة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يوماً.

ب الصيفية بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها في شهر...^(٣) بالتمام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين في تلك المنطقة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يوماً. وهكذا يكون الوضع في كل ولاية منح فيها الخواتين والأمراء الأتجال والأسراء أراضي ومزارع أو إقطاعات أقطعت للجنود. وكذلك ما أعطيناها بمقتضى الرسائل والمراسم والإعفاءات، وما أعطى على سبيل الإحسان والإنعامات والمبات والصدقات لتكون تحت تصرف كل شخص. وبمقتضى القانون، عليهم أن يضعوا لوحاً في كل موضع كي لا يستطيع الجباة المذكورون أن يأخذوا - وفق أهولهم - زيادة على حقوق الديوان، وأيضاً لا يتحمل أهالي ذلك الموضع مشقة تذكر ذلك أن عدل الملك ينبغي أن يكون كالشمس تسطع في كل مكان، وتعلو رؤوس أهل العالم.

(١)، (٢)، (٣) مكرراً في النص.

(بيت من الشعر العربي في الأصل):

كالشمس في كبد السماء وضوؤها يمشى البلاد مشارقًا ومغاربًا

وحيث إن الغرض من هذه الجهود في العهد المبارك للسلطان كان رفاهية الخلق، وضبط شئون الجند، والمحافظة على الثغور، وترويح أسواق الخزانة وبيت المال، ودفع المفسدين واللصوص والانتهازيين أثبت التجربة أن الرعايا صاروا راضين ومستريحين وداعين بالخير. وقد نظمت هذه الأمور التي سبق ذكرها على هذا الوجه؛ بحيث إن ما يحصل الآن من الأموال صار أضعاف ما كان يحصل سابقًا إلى خزانة آبائنا، ولم تعد هناك حاجة إلى المصادرة والتشدد في المطالبة.

ومن المؤكد أن هذه الإنجازات التي مر ذكرها تكون مناسبة لجميع السلاطين الذين اتصفوا بالعدل، وذوي الرأي السديد والتدبير الحكيم. وكذلك بالنسبة إلى الأمراء والوزراء والنواب الأمناء المشفقين والأكفء المتكئين في كل عصر وزمان. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾^(١). «ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»^(٢). أما إذا ما تجاوزوا ذلك، فإنه يصير موجبًا لسوء مستهم، وإنزال العقاب بهم. وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتغى وراء ذلك، فأولئك هم العادون﴾^(٣)؛ فلا غرو أن صار الخير العام والترتيب والضبط مبادئ جارمة وسالدة. [ص ٤٧٦] وبسبب ذلك أيضًا عاش الرعايا وكافة الخلق في رفاهية وأصبحت الأموال مقررة ومعينة. وإذا استأخ ظالم أيضًا أن يغير ويبدل، فإن عليه أن يمشى آلام القلب وتآبيب الضمير، والشئخ عليه، وتفجع الخلاق منه؛ إذ إنه لا يتصور أن تكون هناك عاقبة لو عم وجحيم، أشد إيلامًا من ذلك. «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»^(٤). كذلك لا يرضخ أهل العالم مثل هذا التصرف، ويتلون قوله تعالى:

(١) الآية بتدبيرها: ﴿لَمَّا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَرَى مِنَ السَّمَاءِ مَا فَتِكُ لهُ بِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ثم يفرج به زرعًا خلفًا لقرانه ثم يبيع

فراء، مصلحًا ثم يبعك سلطانًا إن في ذلك لذكرى لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ وسورة الزمر، آية ٢١.

(٢) الآية بتدبيرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ لَعِبْرَةً لَأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفترى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾. (سورة يوسف، آية ١١١).

(٣) سورة المؤمنون، آية ٧. وقد وردت أيضًا في سورة العنكبوت، آية ٢١.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢٢٧.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾^(١). فلا جرم أن كل شخص يغير ويدل يكون مستحقاً لللعنة الخالق، وسخط الخلاق. ﴿فمن بدل بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن الله سميع عليم﴾^(٢).

وعلى هذا المتوال أصدرنا مرسوماً إلى المملكه وأرستاه إلى ولاية. ^(٣) حتى تكتب نسخ من كل قسم من الأقسام المتعلقة بالأموال والمعاملات في تلك الولاية على النحو المعين، وعلى المسئولين أن يسجلوا مسودة كل منها على ظهر الرسوم. ثم يكتب على الفوح ذلك القسم المناسب لتلك الولاية كما تم شرحه، وينجز ذلك بسرعة. وكل من يقصر في ذلك يكون آثماً.

كتب هذا النشور في أواسط شهر الله الأصم "رجب" سنة ثلاث وسبعمئة (١٣٠٣/١٧٠٣م) في مقام أولجانبتر "بونهوق" بهولان موران. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله.

وأما عن تلك الولايات التي تجبى منها حقوق ورسوم الديوان من المحاصيل الزراعية والنفود العينية، فإن أكثرها كان يحصل بالحيازة والنجزة، وكان هناك مجال واسع في هذا الباب لأهواء الحكام والعمال والمصرفين في الأموال. وكانوا قد أحدثوا رسوماً وقواعد في كل عهد، وعينوا عمالاً كثيرين بأسماء مختلفة. وفي أكثر السنوات كانوا يطالبون بالأموال قبل حلول اليعاد المحدد لتحصيلها. وعند وضع التسعيرة كانوا يشقون ويقبلون على الرعايا والمزارعين إلى أقصى حد؛ بحيث إن أنواع تلك المظالم وأساليبها كانت تفوق حد الحصر. وقد حدث هنا في بغداد وشرار تلك المدينتين للمظتمين.

خاص السلطان غازان في أصناف هذه الأوضاع، وأمر بتدارك وتلافى ما فيها من نقص فحدد المسئولون الرسوم طبقاً للقانون، وأسندت الناصب إلى القضاة والنجاة على سبيل التأييد والتخليد وذلك بطريقة تتيح للأموال أن تصل بصفة مستمرة، وبأضعاف ما كانت عليه سابقاً. وبهذه الإجراءات صارت المزارعون والملاك والرعايا مستريحين شاكرين

(١) سورة البقرة، آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨١.

(٣) مذكور في المتن.

[ص ٤٧٧] وكُتبت أهدى الأحكام نهائيًا عن المطالب غير المشروعة، وقضى على ظلم المستبدن دفعة واحدة. وقد سُجّلت أنواع الخلل الذي كان مستشريًا في ذلك الوقت. وإن بيان طرق التخلص منها مشروحة ومفصلة في المراسيم التي كتبت لتلك الولايات. وكانت واضحة ومشهورة لدى الجميع. وهذا ذكرت باختصار.

فليمتع الحق تعالى هذا السلطان الراضي والباسط العفل بطول العمر ودوام الإقبال أهد الدهر، وليمنحه مشروبات هذه الحسنات في عهده المبارك، تلك الحسنات التي يحسده عليها دارا و اردوان ويخطفه عليها أردشير وأنوشروان. والسلام.

الحكاية السابعة عشرة

فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفح الظلم عنهم

لما كنا قد شرحنا فى الفصول السابقة أنواع الظلم والجور والتطاول؛ تلك المظالم التى كانت تنزل بالرعايا، ووضحنا المتاعب من كل صنف تلك المتاعب التى كانت تحمل بهم - نتجنب الآن التكرار. وقياسًا على تلك الحكاية تبين أنه كان للتوفاه والمهملات أهمية كبيرة فى نظر الحكام وغيرهم. على حين أن هذه الأهمية لم توجه للرعايا. والواقع أن الأشواك للفقاة فى الطرق العامة لم تكن تجد ذلك الإعلاء والتعب ما تجده الرعية.

لما سلطان الإسلام غازان خان خلد سلطانه فإنه بسبب كمال عدله، سير غور الأحوال، فنهض لتدارك هذا الخلل. وبفضل يمن مصلته، استراح الجميع على النحو الذى سبق ذكره. وما نغصه بالذكر فى هذا الفصل هو أن السلطان كلما شاهد بنفسه، أو عرض عليه أن أحدًا من المقرين أو الجنود قد ألحق بالرعية مشقة أو أذى، لو اغتصب شيئًا، أمر فى الحال بأن يستردوه منه بضربه بالعصى والمراوات؛ ليكون عبرة للعاملين. وعندما كان يركب باليمن للصيد، ويصل الركب إلى إحدى القرى، يأمر أتباعه بأن يشتروا بالعملة الذهبية الخراف والدجاج، وكل ما يحتاجون إليه مما يستعمله الخاصة [ص ٤٧٨] وكذلك ما يلزم من القطعان أو من بيوت المقول، وذلك بأن ينفقوا دينارين أو ثلاثة لكل ما يساوى دينارًا واحدًا.

والمقصود من ذلك أنه عندما يرى الآخرون هذا السلوك يأمون حدودهم، ويتجنبون الجور والظلم، ويفتدون بتلك الطريقة المحمودة. وفى كل وقت يدعو للرأى الأعلى أن أحد الأمراء أو الجنود أطلق يد البطش فى إحدى الولايات، وبالحق فى استبداده، أمر بمؤاخذه الأمراء الصغار، وضربهم بالمراوة، وعتاب الكبار ووجنتهم. وذات يوم صرح بقوله: أنا لا أحابى الرعية التازيك، وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر منى على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توقعتم منى بعد ذلك زائدًا أو طعمًا، أو التمسع هذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم فى القول، وأخذكم بالشدة والعتف. وينبى أن تفكروا

جيدًا أنكم لو اتقنتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستولتكم على بنورهم وغلاتهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟ كما أن عليكم أن تفكروا في أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وأذنهم فإن عليكم أن تفكروا كيف أن نساءنا وأبنائنا أعزاء علينا وأن حال قلدات أكيادهم تكون هي نفس حال أطفالنا، وهم أيضًا آدميون مثلنا شأنًا، وقد فوض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسوف نسال عما يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب، ونحن عندما نؤذبهم نكون جميعًا شقي، ولن يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعي إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم، وأية عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟ وماذا نجني غير الشؤم الذي سوف يحيق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن نتجح في أي عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والمأسي من الرعية. والفرق بين الخائين هو أن الرعايا المطيعين في أمان من الحاكم، والمصاة خير أمين. وإذن فكيف يجوز ألا نؤمن للمطيعين فيكونون منا في عذاب ونصب؟ ... لا بد أن تستجاب دعوتهم بلعنا والدعاء بالسوء لنا.

وعلى هذا ينبغي التفكير في هذه الأمور، وأنا دائمًا أسدى إليكم هذه النصائح، وأنتم عنها غافلون. ولكن بواسطة أمثال هذه النصائح بقي واحد من كلف من تلك الشاغب التي كانت تلحق بالرعايا قبل هذا. فلا غرو أن ازداد جمهورهم في مختلف الممالك توجهًا بالدعاء للدولة. فليكن هذا الدعاء مقروئًا بالاستجابة بحق الحق وعزته.

المكاتب الثامنة عشرة

فى إبطال تصفير نواب البريد، ودفن أذى الرسل ومنع المتاعب التى ينزلونها بالظلم

ولو أن إيفاد الملوك الرسل والسفراء إلى الأطراف والنجوات يكون أمراً ضرورياً، ويمكن أن تقوم وتنظم بهم شئون المملكة، لكن المشاد أن يوفد الرسل لإبلاغ أخبار الأمن والسلامة، وإيصال التحف والهدايا، ومن أجل مهجات الثغور وشئون الجند وأسرار للملك. ومن البدهى أن الحاجة كانت تدعو إلى إيفاد الرسل عدة مرات كل سنة لإنهاء تلك المصالح.

وقيل هذا كان الأمر قد وصل بالتصريح إلى حد أن جميع الخواتم والأمراء الأنجال وقواد الجيش وأمراء (الثومان والمزفره والصفه)^(١) وحكام الولايات والمشرفين على السلاح والبيزة وسياس الخيل والمشرفين على الذخيرة، وذوى المناصب الأخرى الذين نُصّبوا للقيام بكل عمل، كانوا يوفدون رسلاً قليلين أو كثيرين إلى الولايات لتصرف كل مهنة. وقد جرت العادة أن أخذ الناس يقدمون أبناءهم إلى الخواتم والأمراء الأنجال والأمراء ليكروا غلماناً ومعاونين فى التجارة. وكانوا يرضون بأجر ضئيل. وكان كل واحد منهم يوفد رسولاً لإنجاز مهماته بطرق مشروعة وغير مشروعة. هذا على حين أن مليونهم قد بلغت روحهم الترائى من شدة المتاعب والتشريد؛ فكانوا يلجأون مضطرين إلى حماية آخرين، ويرسلون رسولاً، ويحازونهم على سوء أعمالهم. وهؤلاء يتورهم كانوا يوفدون رسولاً مرة أخرى. وبواسطة هؤلاء تقوم كان الرسل يترددون على هؤلاء وهؤلاء. وكذلك يرسل حمايتهم الرسل بعداً تام. وهناك أيضاً طائفة أخرى، كان إذا مات منهم شخص، واختلف ورثته مع بعضهم البعض، فإن كل واحد منهم طمناً فى زيادة الميراث كان يختص بشخص قوى من ذوى النفوذ فيوفد هذا، الرسل تبعاً الواحد تلو الآخر. وهكذا كانوا يشغلون طوال حياتهم بذلك الأمر، ويقتدى بهم الناس آخرون؛ بحيث إن ذلك صار عادة وحركة للجميع.

(١) المقصود شرق المكونة من عشرة آلاف (الثومان) والألف (مزره) والثلاثة (صفه).

[ص ٤٨٠] وشة طائفة أخرى هم رؤساء القرى، كان كل منهم يبحث عن شخص يحمى به. وبسبب خلافهم وتنازعهم على الرئاسة، كانوا يصحبون الرسل إلى الولايات. وهناك طائفة أخرى كانوا يأخذون الرسل بحجة أنه يمكن الحصول على التحف النادرة من الولاية القبلية. وبهذا كانوا يفتقرون لضعاف أضعاف ما كانوا يمحضرون. كذلك كان المشرفون على شوبن احمارين، يرسلون بعض الرسل إلى الولايات بحجة إعداد الذخيرة والطعام، وتقديم الخدمات؛ بحيث كانت الدواوين في المدن تكتظ بهم. وكان هذا شأن أمراء السلاح والاصطبلات والدواب وغيرها؛ حتى وصل الأمر إلى حد أن الرسل في الطرق كانوا يزيدون على أفراد القوافل وجميع المسافرين. ولو كان هؤلاء الرسل خمسة آلاف حصان في كل مرحلة لما كفاهم؛ فلا جرم أنهم كانوا يستولون على كل قطعان الغنم التي كانت ترعى في المصائب والمشاقي ويسوقونها. وكانوا ينزلون جميع أفراد القافلة والمسافرين عن ظهور دوابهم عن يمينون من جهات الخطأ والمخند والنواحي الأخرى القريبة والناحية. كذلك كانوا يفعلون بالأمراء والحكام والملوك والكتاب والقضاة والسادات والأئمة وأرباب الحاجات الذين كانوا يترددون على المعسكر السلطاني، فيتولونهم عن ظهور دوابهم ويستولون على خيولهم، ويتركونهم على قارعة الطريق. كما يتركون بعضاً منهم في الأماكن الموحشة.

ولكثر ما كان الرسل يمارسون هذه الأعمال وصل الأمر إلى حد أن اللصوص كانوا يظهرون على هيئة الرسل، ويقفون على قارعة الطريق قائلين: "إننا رسل". ثم يستولون على خيولهم، وفجأة يقبضون عليهم ويحبسونهم وينهبونهم. وكثيراً ما كان الرسل يستولون على خيول زملائهم بحجة أن طريقهم أطول. وقد أدى الأمر إلى أن كل من له أتباع كثيرون، ويتمتع بنفوذ زائد، كان يستحوذ على حصان الآخر.

وحيث إن اللصوص قد اطمعوا على هذا الأمر، صاروا يقولون للرسل الموفدين الأقل منهم عدداً: "إننا رسل". ثم يتزعجون منهم خيولهم بالقوة وينهبونهم. **[ص ٤٨١]** كذلك يستولون على ما معهم من مراسم وهايات^(١). وقد انتهى الأمر إلى حد أن أكثر اللصوص

(١) نظر لرجة الكتابة قتيبة والمشرى.

استطاعوا بما استولوا عليه من الهيازين والراسيم أن يوقفوا الخيول أثناء سيرها وكانوا يذهبون إلى مفترق الطرق للسرقة، وذلك بالهيلة والمكر وبمجة أنهم موفدون لتبليغ الرسالة صاروا يندفعون أفراد القبائل ويسلبون دوابهم وملابسهم. وكان الرسل لا يكتفون بالخيول والعلف، بل يتدعرون بأنواع الخيل لا يتز ما يبد كل شخص مهما كان ثقلها، وينزلون بالناس شتى المقاعب، ويسلبون أموالهم. أما سياس خيولهم فكانوا يأخذون ملابس الناس وعمائمهم، وكل ما يرونه في أيديهم ويتعمدون الاستيلاء على المزيد من الخيول، ثم يبعونها، ويتصبون كل ما يملونه في القرى. وإذا مروا ذات يوم في الطريق بعشر من القرى أو عشرة اصطبلات فإنهم يطالبون بالثورة من تلك المواضع عشرة أضعاف ما يجزه الشرع والقانون. ولما كان ما يستولون عليه يزيد على ما يلزم لضعفهم، كانوا يبعون الفائض. وكان اهتمامهم دائماً مصوراً إلى التعامل ببيع الحلف، بحيث إن تجار الحظا والمند لم يفعلوا مثل هذا في ذهابهم وإيابهم.

وبالكشف عن هذه الأمور تضح هذه الحقائق التي تدعو إلى التساؤل: كم ألفاً من الرسل كانوا يروحون ويجهون كل سنة، وكم من الخيول وأطنان المؤن قد استولوا عليها بغير حق، وكم من الخلق ضربوهم وعلقوهم وأتزلوا بهم الشعب والألم؟ ولما كانت الرعية طوع أمرهم صاروا يمتقنون مطالبهم من المؤن، ويلبسون رغباتهم الأخرى، ويقومون ليلاً بحراسة دوابهم وأمتعتهم. وعلى هذا فإن المرء ليجب كيف يمكن أن يتصور أن هذا القدر من الزراعة يتوقف عليه قوت الناس يكون كافياً وميسراً اللهم إلا بالبركة التي تكرّم بها الحق تعالى على عباده؛ فلم يجرمهم من الرزق.

ومن بين حيل الرسل أيضاً أنهم كانوا يسيرون متفرقين على غير هدى وعلى غير أساس، وأنهم حشوا حلوك كانوا يقولون: إننا أبناء أو إخوة الأمير الفلاني الذي يذهب لأداء مهمة دقيقة خطيرة. وكان موظفو البريد والحكام والرؤساء والرعايا يعرفون أن كل ذلك كذب محض لا طائل وراءه. [ص ٤٨٢] وإذا تصادف أن رسولاً عظيم الشأن كان يذهب لأداء عمل هام، فإنه يماس على الآخرين، لم يكن له وقع يذكر في نظر الناس، كما لم يكن له اعتبار في قلوبهم. ولهذا الأسباب لم يبق احترام قط للرسل. وكانوا هم أسوأ الخلق في نظر الرفاة. وحيث إنه بسبب هذا اللبس لم يكن قد بقي قط وقع في

النفوس للرسول الحقيقتين، ولم يكن أحد يعياً بهم، ولم تعد لهم خيول للبريد، أو أنهم كانت تقدم لهم هزيمة عجيبة. وكان المسافرون وسكان الصحراء قد صاروا مخالفين فرعين فاجتازوا الطرق على غير هدى، واتفقوا منازلهم بين الجبال.

ولهذه الأسباب فإته عندما يقوم رسول بأداء مهمة دقيقة تخص مصالح الدولة، لا يستطيع الوصول إلى الجهة المقصودة إلا بعد فوات الوقت يومين أو ثلاثة. ولا بد أن تنشأ أضرار عن ذلك. ودائماً ما يجب مؤاخذة سعاة البريد بسبب ما يصيب الخيول من هزال. ورسوم أنهم كانوا يرمطون بحمالة حصان في كل محطة للبريد، لم يكن يوجد اثنان منها يصلحان لركوب الرسل. وفضلاً عن ذلك فإتهم كانوا يأخذون العديد من التومات من كل مدينة لسد نفقات محطات البريد ومتطلبات الرسل. ولهذا السبب فإن حكام الولايات كانوا يأخذون من الرعايا مبالغ أخرى من الأموال، يتفقون بعضها، ويسلبون بعضها. كذلك فإن حصيلة الدفعة التي كانت لوغر الأموال في البلاد، وفي كل الولايات، كانوا دائماً يخصصونها لسد نفقات الرسل، ولم تكن تكفي لتفقاتهم. وكان الحكام يكتبون حوالات بتفقات المؤون تصرف من أموال الدفعة ثم يهرون. ولما لم تكن حصيلة الدفعة كافية لسداد قيمة الحوالات، كان متعهد الدفعة يخصي أيضاً. كذلك كان الخصام يقع بين الرسل فتكون العاقبة أن من كانت له الغلبة يستولى على الأموال. ولما كانت هذه الغلبة تستلزم كثرة الأتباع، كان الرسل يسعون في أن يجتمع حولهم أتباع كثيرون، يختارونهم من أقرانهم وأصدقائهم. وفي الطريق كانوا يستولون على كل ما في أيدي الناس من أصناف. وكان الرعايا والسفلة يتبعونهم. وقد أدى الأمر إلى أن الرسول الذي يعرفه لذلك والأمراء الكبار كان يصطحب معه في أقل مهمة كلف بها مائتين أو ثلاثمائة فارس، وبعض الرسل الذين كانوا أكثر تقريباً وشهرة، [ص ٤٨٣] كان يذهب معهم حتى محمالة فارس بل ألف فارس. وقد يتصادف أن يضعوا ما يقرب من مائتي كرسي في الدبوان بإحدى المدن لجلبوس الرسل. وكان الحكام يقولون: "بئنا نقدم في الجلبوس هنا كل من نكون مهمته أكثر ضرورة". ولهذا السبب صار الرسل يتنازع بعضهم بعضاً، فمن كانت له الغلبة يجد الحكام - اعتماداً على حاجته - الخلاص من أذى الآخرين. وعلى هذا يمهلونه قليلاً، ويتجزون له مهمته. على حين أنهم يمهلون سواه. وهكذا صار الحكام يمشون وقتهم، وفي نهاية

السنة، كان جميع هؤلاء الرسل يعودون بنفى حنين دون أن ينجزوا أعمالهم. هذا على حين أنهم ينفقون نفقات باهظة. وفي الواقع فإن أنواع الخلل والضرر التي كانت تقع بسبب هؤلاء الرسل تفوق الحد الذي لا يمكن شرحه.

ولكمال معدلة سلطان الإسلام عند سلطانه أوجب على نفسه ضرورة تدارك تلك العيوب، فقال في هذا الشأن: إن أمرًا استفحل ضرره بالتهريج حتى وصل إلى هذا الحد واعتاده الناس جميعًا، لا يمكن القضاء عليه دفعة واحدة، وإنما علاجه يتيسر عن طريق التآني. ثم بدأ بالفعل في تدارك هذا الخلل. وفي العام الأول قال: ينبغي أن نخصص لنا محطة واحدة للبريد، يفتصلها الرسل مسرعين لتصرف عظام الأمور، والقيام بمهمات الثغور ولا يمتطى أي شخص آخر جواد البريد حتى يتميز هؤلاء الرسل على الآخرين، ويصلوا إلى مقصودهم سريعًا. ثم أصدر مرسومًا يفتى بإنشاء محطة للبريد في الطرق الهامة. وعلى بعد ثلاثة فراسخ يربط فيها خمسة عشر حصانًا سميًا سليمًا، ويقطع هذا العدد في بعض المواضع التي لا تدعو الحاجة إلى ذلك. كذلك أمر بالآل يعطى أحد حصانًا ما لم يكن هناك تصريح عليه تأشيرًا بالخط المبارك. وعتوم بالحنتم الذهبي الخاص. ثم عهد بكل محطة للبريد إلى أمير كبير يشرف عليها وترك للأمرء التصرف في الإتيان على مختلف المصالح في تلك الولايات للعينة، بحيث تزيد هذه النفقات عما تدعو إليه الحاجة؛ وذلك حتى لا تبقى هناك حجة لأحد. وقال في هذا الصدد: إنني أعطيتكم زيادة عن المطلوب من النفقات حتى لا يقع تقصير. فأنفقوا هذه الزيادة لتصرف مصالحكم الخاصة، وحتى لا تصير كل يوم وشاية مؤداها أن النفقات كانت كثيرة عما تدعو إليه الحاجة، وهذا يؤدي إلى اختلال العمل، أو أن يقال: كان ينبغي أن يوكل هذا العمل إلى شخص آخر. [ص 484] فبختل بهذا نظام البريد. وبما أنكم أمراء كبار، فإنه لا مانع من زيادة النفقات لكم. ويجب عليكم أنتم أيضًا أن تنظمو المهام التي تسند إليكم. ولما كان من الضروري أن يرسل أمراء الثغور إلى محطة البريد بيئات عن أحوال الرسل كان على الأمر أن يعطى كل رسول عدة رسائل، وعليها التأشير المعهودة، وعتومة بالحنتم الذهبي. ثم يعطى بعض الرسل جوادين وبعضهم ثلاثة أو أربعة جواد. ويتعين على رجال البريد أن يعرفوا أنه لا ينبغي أن يعطى الرسول حصانًا ما لم تكن التأشير مكتوبة على الرسالة التي يحملها. ثم قال: إن القرض من إيفاد الرسول العذاه هو أن يصل بسرعة لإنجاز المهمة المكلف بها. وإنما كان ابنًا لأحد الأمرء، فإنه لا يحصل على أكثر من أربعة جواد. وصرح السلطان أيضًا بقوله: إنه إذا كانت المهمة تستلزم

الإسراع إلى أقصى حد، فإنه يجب تخوير رسالة محتومة، ثم ترسل على يد رجال البريد الموجودين في محطة البريد كي يتنوا السرى، ويكتب في أعلى الرسالة عبارة: "من المكان الفلاني إلى المكان الفلاني". كذلك أعطى كل أمير من أمراء الثغور الدفعة الخاصة بالفرسان كي يضعها على تلك الرسالة. ورجال البريد السائرون في الطريق يعرفون أن هذه الرسالة قد أرسلت من قبل المحضرة. وحيث إنه توجد محطة البريد على بعد ثلاثة فراسخ، فإن سعاة البريد العدائين يقطعون عدوك في اليوم بأكمله ليل نهار ستين فرسخًا، فتصل الأخبار سريعًا من خراسان إلى تبريز في أربعة أيام. أما في السابق، فكان إذا قدم رسول، فإنه لا يستطيع الوصول قبل ستة أيام. كذلك خصص السلطان شخصين من السعاة في كل محطة للبريد حتى إذا طرأت مهمات في الولايات، فإن عليهما أن يضعا طابع دفعة البريد على الرسائل ثم يختم، ويكتبان عبارة تفيد أن الرسالة أرسلت من الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني. وقد أثبتت التجربة أن السعاة يعملون في اليوم بأكمله ليلاً ونهارًا من موضع إلى آخر ثلاثين فرسخًا. وبهذا يبلغ كل خير في زمن قصير. ثم قال السلطان بعد مدة: إن حراسنا وملازمي حضرنا يلازمونا ليلاً ونهارًا في الحر والبرد، أثناء الصيد والحرب، ويسمرون بحيولهم ومؤنهم. فلماذا لا يركب الأشخاص الذين يكلفون بأداء أعمال للدولة، ولا يحصلون على المؤن؟! وإذا ما حلوا بالولاية فإن عليهم أن يقدموا الكشوف بالتفقات وحيث إن هذا يكون أمرًا معقولًا، فقلت أحكام الرسوم الصادرة في هذا الشأن، ومضت مدة على تطبيق هذا النظام، وأثبتت محطات البريد الأخرى البالغ عددها عشرة آلاف وبذلك عادت إلى الخزانة، [ص ٤٨٥] الأموال التي كانت تنفق سنًا، ولما لم تكن هناك حيول مخصصة للرسائل الذين يوفدهم السلطان، فإن علينا أن نتصور: كيف يمكن للآخرين أن يأخذوا خيولًا؟! ولقد صدر فرمان السلطان أيضًا، ويقضى بالآي يرسل أي مخلوق رسولاً إلا أن يكون من قبل السلطان. ولهذا السبب صار إيفاد الرسل من قبل الآخرين أمرًا مرفوضًا. كذلك صدر أمر ينص على أنه إذا أوفد شخص رسولاً - لمصلحته الخاصة - إلى إحدى الولايات أو الأماكن الأخرى، فإنه لا يعطى علفًا. وعلى الحكام أن يحتفلوا ذلك الشخص ويقبلوه ويحبوه؛ فترك هذا العمل الأشخاص الذين كانوا يستعدون الرسل لإنجاز مصالحهم.

بعد ذلك صرح السلطان قائلًا: إن الرسل الذين يذهبون إلى الولايات نعتيهم نفقات السفر من الخزانة ذهابًا وإيابًا، حتى لا يأخذوا شيئًا من أحد في أي موضع. وعندما يصلون

إلى المكان المحدد، يتناولون الطعام في المبنى للعين. وكل رسول لوُفد إلى إحدى الولايات يعطى نفقات السفر نفقاً من الخزانة. وقد ذاع هذا الأمر واشتهر في كل الولايات والأماكن. وإذا كان الرسل الذين يوفدون بأمر السلطان غلده ملكه لا يملكون نفقات السفر فكيف كان الناس يملكون غيرهم؟! ولهذا السبب أُنشئت خلال هذين العامين نفقات علف الخيل وموتنة الرسل من المئدة والقرى والحظائر، بل إنه لم يمد أى مخلوق يرى رسولاً في البلاد؛ ذلك أن الرسل الذين يملكون السير بسرعة فائقة ليلاً ونهاراً يكونون متشغلين بقطع المسافات، وليس لديهم فراغ لتناول القليل من الطعام. وبلا شك يسير من تلك الولايات ثلاثون رسولاً تقريباً. وحيث أنه ليست هناك لواتر بأن يأخذوا زاداً في الطريق لا يميزهم أحد عن المسافرين الآخرين.

بمثل هذا العدل الشامل، يكون كافة الخلق في راحة. فالمنقول والبدو يكونون فارغين البال في مواطنهم، ويصير التجار مطمئنين، وتكون البضائع الصادرة والواردة آمنة في الطرق، ويدعو جميع الرجال مع نساءهم وأطفالهم من أعماق قلوبهم وأرواحهم بنوام إقبال السلطان. فليستجب الله هذا الدعاء. وأمر السلطان أيضاً بأنه في حالة الضرورة وإذا لزم الأمر أن تعطى جماعة عدداً من الجياد أو الحمير [ص ٤٨٦] كى ينتقلوا من ولاية إلى أخرى، فإنه يدفع لهم شنها كى يصير ملكاً لهم. ومن القاطوع به أن اسم خيل البريد لم يكن وارداً من قبل. وقبل هذا كان الصيادون ومصتهو النمر والأسود يحضرون الحيوانات والفهود من الولايات بواسطة خيل البريد، فأمر بأن يدفع لهم شن هذه الحيوانات، وكذلك نفقات الذهاب والإياب، حتى لا يأخذوا في الطريق شيئاً مطلقاً، وتصير الدابة التي كانت قد بقيت بعد الوصول ملكاً لهم.

بهذه الأنظمة عمرت البلاد ووجدت من جديد الرفاهية والنظام. والأموال التي كانت تنفق على حور البريد، والنفقات المخصصة للرسل كانوا يأخذونها إما بالزيادة وإما تنزل إلى الخزانة. وما كان يضيع على الرعايا بتلك الخيل يبقى لدى رؤسائهم.

فليرسل الله تعالى بركات هذه المعنلة إلى أيامه المباركة بمنه وجوده وخصي لطفه

وكرمه.

الحكاية التاسعة عشرة

فى القضاء على اللصوص وطُاع الطرق والمحافظة على الطرق منهم

لا يخفى على أهل العالم إلى أى أحد بلغ قبل هذا تناول قطاع الطرق واعتداء اللصوص على الناس. ورغم أن أجناسهم كانت كثيرة لا تحصى من قبيل الشول والتزريك والمرتدين والكرد واللور والشول والسورين، فإنه كان ينضم إليهم أيضاً الغلمان الماريون من ساداتهم. ويدخل فى زميرتهم كذلك بعض القرويين وسكان الأطراف. وكانوا يُدْعَوْنَ بأنهم مرشدون. وكان لهم جواسيس ينهون إليهم أخبار كل طبقات الناس. وإذا ما وقع فى مأزق فى وقت من الأوقات حيث ظلوا يهددون الطرق مدة طويلة ونالوا شهرة فى هذا العمل، فإن طائفة من الناس تسرع لحمايتهم فائلين عن كل واحد منهم: كيف يمكن إعدام مثل هذا البطل؟ ينشئ الإبقاء عليه ورعايته. ولهذا السبب صار اللصوص الآخرون يزدادون وقاحة وجرأة ورغم أن القانون السابق كان يقضى بأن يتحد جميع أفراد القوافل والمرسل وعابري الطرق فى مواجهة اللصوص عندما يظهرون ويقاومونهم، فى خلال تلك الحيلة لا تعاون تلك الأقسام بعضها لبعض عندما يهدد اللصوص الطرق. [ص ٤٨٧]

وأكثر من هذا فإن اللصوص كانوا يعرفون أحوال تلك الجماعة بالتفصيل، فيجاهرون بقوتهم: ليس لنا شأن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً أو يملكون القليل؛ فكان أفراد تلك الجماعة ينفصلون عن بقية الطوائف، ويتحون جانباً؛ فتنهز اللصوص الفرصة ويهاجمون الآخرين ويقتلونهم. وكان اللصوص إذا سطوا على بعض المواضع، ونهبوا مجموعة من الخيول أو قرية أو مدينة، فإن سكان تلك النواحي لا يتحدون بل يلتزمون الحياد؛ رغم أنهم قريون بعضهم من بعض، ومن الممكن مقاومة هؤلاء اللصوص. وقد انتهى الأمر بأن صار للصوص أعوان وشركاء بين كل قوم من سكان البوادي والقرى. وكان هناك أناس كثيرون مظلومون على أحوال اللصوص، غير أنهم كانوا يخفون الحقيقة. وأحياناً إذا انكشف أمر هؤلاء اللصوص فإن الناس لا يرضون على الحضرة ما حدث فى الوقت المناسب. ويمدد الرؤساء وبعض عمد القرى الذين كانوا مقربين إليهم وأصدقائهم، يحصل هؤلاء

اللمصوص على كل ما يلزمهم من نفقات. وكثيرا ما كانوا يذهبون إلى منازل تلك الجماعة وينزلون ضيوفا عليهم. كما كانوا يلجأون إليهم عند الخوف والفرع. كذلك كان لهم أشخاص مقربون إليهم في المدن يبيعون بضائعهم للناس. وكانوا يعاشرهم أوقانا قد تمتد شهرا أو شهرين، ويفسبون الأموال للمسروقة فيما بينهم. وقد بلغ اعتداء اللصوص إلى حد أنهم كانوا يسطون فجأة أثناء الليل على منزل أحد الأمراء ويغزرون عليه. وكان رجال الأمن وحراس الطرق لا يقلون عن اللصوص ظلما؛ إذ كانوا يستولون على كل ما يربطون من المسافرين وكانوا ينعون القوافل من السير بحجة أن بين أفرادها لصوصا وأوغادا فيعرف اللصوص ذلك، ويسببون إليهم، ولا يتعقبهم الحراس مطلقا. وفي الحقيقة لم يلقئ الراتحون والفاقدون من اللصوص بقدر قلقهم من رجال الأمن وحراس الطرق؛ ذلك أن ضرر اللصوص يقع أحيانا ومصادفة لكن هؤلاء الضحايا كانوا ينعون قريسة في يد القتالعين على الأمن والحراسة في موضعين في كل مرحلة. [ص ٤٨٨] وما أكثر القوافل التي كانت تختار السير في الطرق البهولة والثابتة إلى أقصى حد، والمليئة بالأهوال والمشقات كي تتخلص من رجال الأمن وحراس الطرق.

يزاء هذه الأوضاع رأى سلطان الإسلام غلذ سلطانه أن من الواجب عليه تدارك هذه الأمور، فقرر أولا أن كل مخلوق يفصل عن رفاقه وقت هجوم اللصوص، ولا يتعاون مع الآخرين في العمل على مقاومتهم يكون منبئا، وتقع عليه إرابة دماء رفاقه وإزهاق لرواحهم.

وأصدر قرارا ثانيا يتلخص في أن كل موضع من المرباط والقرى يتعرض لسطو اللصوص تقع مسئولية القضاء أثرهم والثور عليهم على عاتق من يكون أقرب إلى المكان الذي تعرض للسرقة خصوصا إذا أخيروا بهجوم هؤلاء اللصوص؛ فإنه يكون لزاما عليهم أن يتقبوهم فرسانا ورجالا سواء آكان الوقت ليلا أم نهارا حتى يهثروا عليهم.

كذلك أصدر قرارا ثالثا مؤداه أن كل مخلوق من المفول والرعابا للمسلمين يكون قد تراطا مع اللصوص في المرباط والقرى والمدن، وثبت عليه ذلك يقتل فوراً دون عاباة.

وقد عهد السلطان غازان خان بمهمة تنفيذ هذه الإجراءات إلى الأمير أيتقول أحد المقربين إلى الحضرة، والمشهور بصراحتة ونزاعته وهو لا يخفى أحدا على الإطلاق، قبض

على كثير من طائفة اللصوص وأعلمهم جميعاً، وقد بعضهم نصفين، وجعل الشخص الذى كان يشى بهؤلاء اللصوص "طرخانا"، وأصدر أمراً بأن يكون شغفه الشاغل التحرى واستغناء أخبار هذه الطائفة. ولما كان السلطان قد استحسن إقدام الأمير أيتقول على قتل هؤلاء اللصوص، منحه كل أموالهم ودوابهم، وأمر بإعدام كل مخلوق يسرق ولو بقدر دائق واحد.

بهذه الإجراءات ظهر الخوف والرعب فى البلاد، بحيث إنه لم يمر - بعد ذلك - أى مخلوق على التواطؤ مع اللصوص. ولما عرف هؤلاء أنه لن يسر لهم معين، ولن تنهبهم الوسائل والمقام، قللوا سرقاتهم وساد الأمن إلى حد كبير. [ص ٤٨٩].

بعد ذلك قرر أن يراعى حراس الطرق فى كل البلاد، وفى كل موضع يكون مخوفاً موحشاً، وأن يؤخذ نصف درهم من القافلة عن كل أربعة من الحسير المحملة، وعن كل جملين نصف درهم أيضاً، وذلك باسم الضريبة وقطناً لا يؤخذ أكثر من هذا. أما العوالب غير المحملة، وما ينقل من للأكولات والفلال، لا يطلب عنها شيء قط. وإذا حدث سطو فإنه على كل حارس للطريق يكون أقرب من مكان الواقعة أن يقبض على اللص، وإلا فعليه أن يسد من ماله الخاص قيمة الشيء المسروق. وبموجب هذا أخذت منهم جميعاً بقرارات خطية.

وقد عهد بالإشراف على جميع حراس الطرق إلى الأمير بورالنى وهو ابن الأمير جتقور الذى كان أميراً كبيراً للشرك فى عهد أرغون خان. وأمر السلطان بأن يعهد الأمير بورالنى إلى شخص موثوق به لحراسة كل طريق. والباعث على ذلك هو اتخاذ الحيطه والحذر حتى لا يتوقف الحراس فى الموضع الآمنة، ويهربوا فى الأماكن السهلة، ويتركوا الموضع المخوفة المحفوفة بالأخطار معطلة، ولا يراهم أيضاً فى الموضع مدة تزيد على الضرورة.

وأمر كذلك باتخاذ الحيطه والحذر، وذلك بإقامة أصعدة من الحجارة والجص فى الموضع الضرورية. ثم يوضع على كل عمود لوح مثبت تثبتاً محكماً، ويسجل عليه عند الحراس المكلفين بحراسة ذلك للموضع، وشروط القاترون المحصص فى هذا الشأن، وذلك حتى لا يتجاوز الحراس تلك للموضع، والصدد الثمين للحراسة، ولا يتفاضوا ما يزيد على الرسوم المقررة. ويطلق على هذا اللوح اسم "لوح العدل". وأمره واضح وظاهر.

وقبل هنا كان كل مخلوق يدعى أنه من رجال البريد، ويرابط في مفترق الطرق. وكان يأخذ الإتاوات بعملة السماح بالمرور. أما الآن في هذا الزمان، فلأنه قد كتب صراحة على اللوح أن كل مخلوق يربط خارج هذه الموضع المحددة يعتبر لصاً، لم يستطع أى شخص من المغول والتازيك أن يربط في مكان آخر [ص ٤٩٠] وخلال هذين العامين عندما أصدر السلطان هذا القانون، هاجم اللصوص طرقاً قليلة في البلاد. وإذا اتفق أحياناً وحدث سطر فإن اللصوص يسألون ومعهم الأسئلة التي اغتصبوها ويقتلون. وعلى هدى هذه الإجراءات، انتهج جميع القوم الترك هذا الأسلوب، فعم الأمان، واستتب الأمن في الطرق.

كذلك أصدر السلطان قراراً آخر يقضى بأن أفراد كل قافلة وكذلك المسافرون الذين يتزلون في الطرق الكبيرة بالقرب من إحدى القرى أو في دار البريد عليهم أن يسألوا أكثر أطراف القوم الموجودين في هذه المناطق: "هل يوجد لصوص أو لا؟! فإذا أجابوا: نعم يوجد، فإن على هؤلاء المسافرين أن يتزلوا في دار البريد أو في القرية. ويجب على المسئولين ألا يمنعوهم من التزلول هناك. أما إذا ظفروا: لا يوجد لصوص، وهم يتزلون في الصحراء وتصادف أن ظهر لصوص وسلبوا شيئاً، فإن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء القوم. لكن هذا الحكم لم ينفذ في أطراف المدن، لأنه يتعذر تنفيذ ذلك هناك.

وحيث إن الطرق نظمت على هذا النحو، وزُود الأمير بورغنى بأسماء حراس الطرق ورؤسائهم بالتفصيل، فبلغ عددهم ما يقرب من عشرة آلاف شخص؛ بحيث إنهم صاروا يكونون جيشاً معاً إحصائياً تاماً، وجنود هذا الجيش يقومون بهذه المهمة غير قيام كذلك صدر أمر بالاحتفاظوا بحمل آخر، وعليهم أن يحافظوا على حياة جمهور المسافرين وأموالهم وذلك على نحو يتبع لهم أن يروحوا ويحبوا في أمان وأطمئنان. وهم فارغوا الهال معطمتو الخاطر، يدعون لسلطان الإسلام بإخلاص تام.

فليكن دعؤهم مقروناً بالاستجابة من الله ولطفه العليم.

المكايبة المشرون

في تقليص عيار الذهب والفضة من الشوائب

بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقاً

وليس من الممكن أن يوجد أفضل منها

لا يخفى أن السكة لكل الممالك منذ قديم الأيام حتى الوقت الحاضر لم تكن في أي عهد قد ضربت كلها باسم ملك واحد كان يسيطر على كل العالم؛ وخصوصاً في العهود التي كانت هذه الممالك في يد عدة ملوك وسلاطين. وكان عيار الذهب والفضة مختلفاً دائماً في هذه المواضع. وقد أرادوا أيضاً في عدة ممالك أن يضبطوا المسائل الخاصة بالعملة وذلك بأن يجعلوا العيار فيها متساوياً. ولكن هذه المحاولات لم تتحقق برغم الأحكام الصادرة بشأنها، ولم يستطيعوا ضبطها. [ص ٤٩١].

وليس هناك شك في أن أحد توميس للثوك أن تكون الخطيئة والسكة باسمهم. وحتى هذا الوقت كانت السكة تضرب في بلاد الروم وفارس وكرمان وجورجيا وماردين بأسماء الملوك والسلاطين هناك وبعبارات مختلفة. وفي عدة مواضع في عهد أرغون خان وكيخاتو خان صدر مرسوم يقضى بأن تضرب هناك سكة الفضة ذات عشرة عبارات بتسعة عبارات. وكان هذا من الناحية الاسمية فقط؛ إذ الواقع أن العشرة عبارات لم ترد عن سبعة عبارات أو ثمانية. والعملة الرومية التي كانت أحسن بالنسبة إلى غيرها من المواضع الأخرى وصلت إلى حد أن عيار الفضة فيها لم يزد عن دينارين في كل عشرة دنانير. وكانت البقية كلها نحاساً. وكان رسل المغول يلعبون مرات عديدة مع الكتاب التازيك إلى الولايات المختلفة لفحص العيار بناء على حكم المرسوم. وكانت تصرف تفقات طائلة في هذا السبيل. وهم يؤدون واجبهام اسماً فقط دون أن يعاقبوا أي مجرم. ولم يستحووا من أن يسكوا مثل هذه العملة التي تبدو نحاساً فقط واحدة دون أن يظهر فيها أثر من زيادة تذكر من الفضة. ولأنها كانت ترسل بالمدد كانوا يقتطعون من العملة الفضية حواشيها. ولما كان العيار في الولايات مختلفاً كان التجار يتاجرون في الأقمشة الحريرية على سبيل الضرورة.

وكان يشترون الذهب والفضة من أى بلد يذهبون إليه حيث كان العيار فى الموضع الذى يقصدونه؛ لأن الفالسة من ذلك تكون لهم أزيد. ولهذا السبب لم تكن الأكمشة الحريرية موجودة فى أغلب المواضع. وقد أدى الأمر إلى حد أنهم كانوا يشترون النقود بأقل من قيمتها الحقيقية، وإلا ما كانوا يأخذون شيئا. وكل من أراد أن يأخذ معه مائة دينار لينفصها فى بلد آخر كان يخسر من هذا المبلغ ما يزيد على عشرة دنانير. وكثيرا ما كانت الحسارة تصل إلى عشرين دينارا. وليس هناك غرامة لتدح من أن يخسر غير التجار من المال - الذى يفتى بحاجاتهم الضرورية - كل شهرين أو ثلاثة أشهر عشرة أو اثني عشر دينارا. ومع هذا كانوا مضطرين إلى شغل مشقات كثيرة حتى يستوفوا تلك النقود منهم لا سيما فى القرى ومضارب البدو وسكان الصحراء الذين لا يعرفون العيارات، ويترددون فى أخذها عاجزين عن إدراك ما هو أفضل لهم.

وفائدة وجود الذهب والفضة إنما تتمثل فى أن حاجات الناس تقضى بواسطةها وسرعان ما يحصلون على الأشياء التى يريدونها. وعندما يصير حال الذهب والفضة على هذا النحو [ص ٤٩٢] تروج الأثواب وتظهر المتاعب، ولا يقبل أحد هذه العملة وقت الصرف، فيكون ذلك خللًا لوضع العالم وطبعه.

فكر سلطان الإسلام خلد الله ملكه فى أن يتدارك هذا الخلل وذلك على الوجه الآتى:

أولا ضرب السكة وفق طبعه، ووضع عليها علامة لا يتيسر لكل شخص تقليدها وأمر بأن تضرب السكة فى كل البلاد من الذهب والفضة كى ينقش عليها اسم الله واسم الرسول واسمه هو أيضا. وفى جورجيا^(١) كذلك لم تكن السكة هناك تحمل على الإطلاق

(١) انحضت إمارة جورجيا للنفوس فى إيران، وكانت تدفع لهم المخرج لقاء أو عينا، وتعمل جماعة لثبتي نلس السياسة فى إتبعها للنفوس. وكان على الكرج أن يبتوا النفوس بعدد من جنودهم فى زمن الحرب. وقد اعترض النفوس الجيش القادم من جورجيا حينما مثالي وكلفا كما أن للنفوس أظهروا ميلا وولنا بالكرج بسبب مهارتهم العسكرية ولكنهم المراس الطبيعيين للنفوس القوتلانية. وفى مقابل ذلك سمح لهذه النفوس بتسقط وفر من الاستقلال فى النفوس المتاخلة والقيادة، وكان باستطاعتهم أيضا البت فى شعورهم العسكرية دون تدخل للنفوس. (انظر كتاب العالم الاسلامي فى العصر للنفوس. تأليف بروتك جيورج. نقله آل القرية خالد اسعد عيسى، راجعه وقدم له سهيل زكار، وطلحة الأول / ص ٦٨-٦٩، دمشق ١٤٠٢-١٤٠١ م ١٩٨٢).

اسم الله واسم الرسول، فسكت غازان على سبيل الضرورة على النحو المقرر عند النجرج (المخرج)، إذ لم يكن يروج عندهم غير تلك العملة. وكان نظام التعامل قبل ذلك يسير وفق ما تعارفوا عليه؛ إلى أن دعت الضرورة إلى أن تضرب هناك أيضا هذه السكة المعمول بها في إيران؛ وإلا فإن نفدهم ما كان يتداول في أي موضع آخر. هذا على الرغم من أن السكان هناك كانوا عصاة متمردين. وهكذا تقرر ضرب السكة من الذهب والفضة وتداولها في كل البلاد على النحو المذكور.

ثانياً فيما يتعلق بتقرير العيار، قال: إننا لو سحنا بإتقاص شيء قليل من عيار الذهب الشرعي المتداول كالنقد الخليفي والمصري والمغربي، لأنقصوا كثيرا من العيار بمجرد الترخيص، وبالخيل والتليس يظهرون ذلك العيار بشكل آخر. ولم يكن مفتشونا على علم بذلك، أو أنهم يتقاضون رشوى فيهملون الأوامر.

وإذن فالمصلحة تقتضي أن تضرب النقود بصورة مطلقة من الذهب الخالص؛ بحيث يمكن سكه بالورق. وإما النفضة الخالصة فيمكن تحليلها بالزئبق، حتى إذا دخلها تخليط ولو بقيد شعرة فإنه يمكن إظهاره ومعرفة إما من اللون، وإما من ..^(١)، وإما من النعومة. وإذا صهرت بالنار فإن التخليط يظهر في الحال، ويسهل على كل شخص معرفة قيمتها. وحيث إن السلطان أراد أن يكون العيار في كل البلاد على هذا النمط، وكانت مواضع التفاوت كثيرة في العيارات أمر قائلا: "إننا نفذ هذا القرار فجأة فإن كافة الخلق سوف يلحقهم الضرر، ويضجون بالشكوى. فالأول إذن أن يسك كل درهم بأربعة دنانق من غير أن تكون هناك مصلحة من وراء ذلك، ولو بنصف أو ربع دانتق. [ص ٤٩٣] ولم يكن هناك سكة يضربونها في هذا الزمن بنصف مثقال مما كان يساوي نصف الدانتق خالصا، ونصفه الآخر مزينا. أما الآن فيساوي نصف مثقال فضة خالصة. وحيث إن قيمة الذهب والفضة تكون بمقدار عيارهما فإن كل شخص يملك نصف نصف دانتق أي (ربع دانتق) خالصا والنصف الآخر مزينا، ثم يصرفه بدرهم واحد، أو يجعله خالصا في نصف مثقال، يصرفه بذلك الدرهم الواحد. وبالتفريق تبين أنه قريب من القيمة المهددة، ولا يحدث ضرر كبير. ومن هنا أخذ الناس يستبدلون راضين كل ثلاثة مثاقيل فضة خالصة مسكوكة بثلاثة مثاقيل

(١) مكنا في اللز.

ونصف مثقال من الفضة التي كانت في أيديهم. وكان السلطان يستفسر عن قيمة الذهب المتداول ويأمر بسكه وتكثيفه على نحو مرضي؛ بحيث لا يحدث تقلبات قط. وأما الذهب الرموزي الذي لا يستطيع أحد تمييزه عن الزيف المطلي بالذهب، وكذلك أنواع الذهب الأخرى القليلة العيار، والأقل قيمة، فإنه أمر بأن يسهر بسر أرخص ومقصوده من ذلك أن العيارفة عندما يدركون أن في صهر الذهب ربما لم يشترونه كله، ويصرونه ذهباً خالصاً. ومتى عرفوا تلك الفائدة فإنه خلال عام واحد لم يعد أحد يرى في البلاد مثقالاً واحداً من الذهب القليل العيار.

ولما كان الذهب الأحمر (الإريز) الخالص يوجد نادراً في الأسواق فيما مضى فإنه إذا توافر منه قدر محدود فإنه مائة مئزر كانوا يظهرون لشراؤه. وكان المشهور أن الثياب والأقمشة المنسوجة وما شابهها تلك التي كانت توشى بالذهب، وتستهلك كثيراً من الحياوط الذهبية متوافرة في عصر الملوك. كما أنها من البضائع التي تروج في الهند وتعمل إلى هناك. ولهذا قل الذهب في ذلك الوقت. أما الآن فإن الذهب الأحمر يتداول بكثرة في الأسواق بيد كل قروي، ولا نهاية له، وبه تنجز كل المعاملات. وعلى هذا لم يبق في البلاد من الذهب والفضة غير المضروبين بهذه السكة.

ثالثاً: بالإضافة إلى ذلك صلو قرار يقضي بأنه إذا عثر على ذهب وفضة مزيفين في يد أحد الأشخاص فإنه يحير مجرماً. وجريماً على العادة القديمة لا يقولون: دلنا على ذلك الشخص الذي أعطاك هذا الذهب؛ إذ إنه في ذلك الزمان كانت أنواع [ص ٤٩٤] الذهب المزيف موجودة. أما في هذا الزمان (أي في عهد غازان) فالأمر يقتضي ألا يتعامل أي مخلوق بغير الذهب والفضة. ومن لا يعرف الذهب بعرضه على شخص آخر كي يتناط لنفسه. وحيث إن الأمر يجري على هذا المنوال لا يقدم أي مزيف على تعريف الذهب؛ لأنه يعرف بالتأكد أنه لن يقبل منه؛ ولأن الجميع يتناطون. وفي هذه المدة التي نفذ فيها أمر عظيم كهذا في كل البلاد، لم يكن الأمر محتاجاً لأن يقتل أحد جزاء مخالفته. ولقد ذاع الخبر وانتشر في كل البلاد، ويقضي بالأمر بكون هناك سكة أخرى قط ولا عيار آخر غير المذكورين. وأمر أيضاً بالتعامل بالفضة المسكوكة، بحيث وزن الدينار المتداول ثلاثة مثاقيل حتى لا يزيفه أي مخلوق.

ولما صار النقد متلوباً في كل البلاد استراح الناس، وأخذ التجار يستبدلون الأمتعة بالنقود التي كانوا يدعرونها. والآن يحملون أنواع البضائع إلى كل بلد. وقد رخصت أسعارها، وتضع جميع الناس بقولتها، وانتشر اسم سلطان الإسلام عند سلطانه وذاع بالاستحسان والثناء. وقد فرقت الحظية وضربت السكة باسمه المبارك. كذلك أمر السلطان غازان بسك عملة من أجود أنواع الذهب، تزن كل واحدة منها مائة مثقال، ونقش عليها اسمه بخطوط كل الولايات، حتى يعرف الجميع عندما يقرأونها في كل المواضع أنها من ضربه. وقد نقش عليها آيات القرآن الكريم وأسماء الأئمة الاثني عشرية (رضي الله عنهم). وكانت هذه العملة تتناثر بالجودة والल्प إلى أقصى حد؛ بحيث إن كل شخص يثر عليها، لا يسيل إلى تركها. وفضلاً يريد أن يحتفظ بها. وعلى سبيل الشهرة وإذاعة الصيت صرح السلطان قائلاً: "عندما نعم على أحد تعطي من تلك العملة المنازة"^{١١٣}. مثل هذه الاعمال العظيمة التي لم تنح لأى واحد من الخلفاء والسلاطين السابقين قد تيسرت ومهدت لسلطان الإسلام عند سلطانه وهي لازمة لراحة الخلق. فليقته الله تعالى أيد الدهر بمته وكرمه.

(١) يبدو أن هذه العملة كانت للإعداد فقط وليست للفقول. هنا ويذكر شولر أنه لم يثر حتى الآن على نموذج من هذه للسكوكات (تاريخ مغول در ايران، ترجمة دكتور محمود مير قاسم، ص ١٩٤ - ١٩٥).

فى تعديل أوزان الذهب والفضة والأعمال والمقاييس والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى وغير ذلك

قبل هنا كانت أوزان الذهب والأعمال والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى مختلفة فى البلاد، بل حتى هذا الزمن، كانت تختلف أيضا فى نواحي كل ولاية. ولهذا السبب كان يقع غلل كبير فى محيط الأسعار. وكان للتجار يفللون من شراء البضائع؛ لأنهم كانوا كلما حملوا نفردا من موضع إلى موضع زادت قيمتها. وبمجرد ما كان الوزن يتفاوت كان يتحقق الربح للتجار. وقد ترتب على هذا أن كسدت سوق البضائع فى بعض الولايات واتعدم وجودها فى بعضها كذلك. وكانوا يتعاملون بالأصغر منها مع الغراء، وبالأكبر فيما بينهم. وإذا كان الغريب يعرف ذلك أو لا يعرف فإنه للضرورة مرضى بالأمر الواقع. وكان القرويون يشهد الواحد منهم للآخر كذبا وزورا على أن المكيال عدل وصحيح. أما مكاييل الحبوب التى كانت تعطى للجند، أو تقدم كهديايا، والتي ينبغي أن يزن كل مكيال مائة من فإن ما يظهر منها سبعون أو ستون منا فقط، بل أقل من ذلك أيضا. لكن الأثداء يأخذون حقهم كاملا، بل وأزيد أيضا، وذلك بضررب المراوأة. ولهذا السبب كان الناس دائما فى حفاق ونزاع.

عن هذه الأحوال المنحلة قال سلطان الإسلام: "حيث إن كل المسالك طوع أمرنا، فما الداعي إذن لوجود هذا الاختلاف؟! علينا أن نضبط تلك الأمور ونصلحها؛ بحيث نكون كل المواضع متساوية ونعمل حتى لا تبقى أوزان مختلفة فى الأسواق والولايات والقرى كى لا يستطيع التجار التلاعب والسرقة.

وبخصوص هذا الموضوع أصل للسلطان فكره المبارك، فأصدر مرسوما ينص على وجوه الإصلاح والتدبير والترتيب على النحو الذى نسجله ونوضحه ونبينه فيما يأتى:

[ص ٤٩٦] نص المرسوم الصادر بشأن عيار الذهب والفضة
الذي أمر به السلطان على التوجه الذي هو أفضل كل الوجود

بسم الله الرحمن الرحيم
بإذنه تعالى ومبلى من المنة المحمدية
فرمان السلطان محمود غازان

ألا فليعلم الشحن والمثوك والكتاب والذواب والقضاة والسادات والأئمة والصدور
والأعيان والوجوه والمشاهير وكافة السكان والمسافرون وتجار الممالك أن كل أنظارنا
وهمنا السلطانية متجهة إلى رفاهية أسواق الرعايا وجميع الخلق، ونشر العدل والصدق فيما
بينهم وإقامة الأعمال الخيرية وتريد أن نزهد من بين سكان العالم الظلم والجور والبدع
والأكاذيب التي انتشرت أمانا مدمية بين الخلق. ذلك أن كافة الناس صاروا في تعب
ومشقة، ومثار اعتراض وجدال ودعوى باطلة، وحروب وعصومات؛ فرغب في أن نرفع
عن كاهلهم أنواع التزوير والمظالم كي يتخلصوا في هذه الدنيا من الفتن والمشقات، وفي
الآخرة من العقوبة ومن نار جهنم.

في هذه الأونة عندما كنا نفضي شئون الملك ومصالح الخلق، ونضع قانونا لكل أمر
تنب لنا أن كل شخص بعد لمصلحته ومنفعة لوزاننا من الحجارة واللبن والحديد وغير ذلك
يستعملها في أسواق المعسكرات والمدن. وفي كل وقت يزيد وينقص في الوزن حسب
هواء. وهكذا بيع وبشترى بهذه الطريقة، فبغير المقراء مغبونين ومتضررين. هذا التصرف
لم يكن مناسباً لرأينا الذي يزعم الدنيا، ولم نستحسبه، فصدر أمرنا بتعديل أوزان الذهب
والفضة والأحمال والمكاييل والمقاييس، وذلك في كل البلاد المستدة من ضفاف نهر جهمون
حتى حدود مصر، وأن تصنع كلها من الحديد. ثم تحتم وتضبط بحضور الشخص الذي
عنا هذه المهمة. وبموجب هذا النظام يباشر الناس أصنافهم في كل البلاد، ولا يحيدون
عنه. وإن تفصيله وبيان ذلك إنما يكون على هذا النحو الذي نشره فيما يأتي:

[٤٩٧] أولا: يجب أن يكون وزن الذهب والفضة في كل البلاد مولزيا ومساويا لوزن

تبريز كي لا يستطيع أحد أن ينقص أو يزيد فيتحمل مظالم الناس، وأيضاً لا يتقل النقود من ولاية إلى ولاية أخرى بسبب تفاوت الوزن. ومطلبا يتساوى عيار الذهب والفضة في المملكة تتساوى الأوزان أيضاً. ولهذا السبب عينا الأمتان في فخر الدين وبهاء الدين كي يصنعا أوزان الذهب والفضة بالشكل للثمن وأن يمينا من قبلهما في كل ولاية اثنين من الثقات وأمينا من قبل فاضي تلك الولاية كي يعدلوا الأوزان بحضور المحاسب، وبهم ترتيب وضبط ذلك، على نحو يراعى فيه أن تكون سنجات الذهب مشنة الشكل طبقا للنموذج الذي وضعه فخر الدين وبهاء الدين الخراساني. فأى شخص في كل ولاية يحتاج إلى أن يعد لنفسه وزنا، عليه أن يصنعه بالشكل المعين من الحديد الحام. ثم يذهب إلى الأربعة الثقات المذكورين الذين عينوا في كل ولاية كي يعدلوا العيار باحتياط تام، ويضعوا عليه السكة، ويسلموها لأصحابها، ولا يصنع تلك السكة أى شخص آخر كالتنا من كان، ولا يضعها على حجر الوزن. أما الشخص الذى يصنع تلك السكة وفق هواه، ويضع العلامة على الحجر على سبيل التمويه فيحتر بجرما ويستحق الإعدام.

ثانيا: يجب على كل شخص يعطى السنجات والسكة أن يسجل اسمه في السجلات حتى لا يستطيع الآخرون تزيف الوزن حسب هواهم، وأن يخصص المسئولون كل شهر - على سبيل الاحتياط - كل السنجات لكافة الناس، ويقارنوها بالأصل، فإذا ما زاد عليها شخص أو نقص منها، أو أخفها أو وضع السكة خفية أو سرا حسب هواه، أو استعمل وزنا آخر ليس عليه ذلك الحتم وتلك النقوش ثم تدلوه أو أنه زيف تلك الأوزان - فإنه يقبض على ذلك للشخص ثم يساق إلى الشحنة كي يعاقب بموجب حكم المرسوم.

ثالثا: أوزان الأحمال لما نض الحكم والترتيب والطريقة. ولكن المقرر هو أنه في كل موضع يكون الوزن أقل من وزن تبريز يعدل ليكون مناسبا ومساويا لوزن هذه المدينة. [ص ٤٩٨] وكل ما كان حتى هنا الوقت زلنا على وزن تبريز يطبق عليه القرار للثبع بالنسبة إلى السنجات ومرعاة الاحتياط حتى يتركوا وزن تلك الولاية. لكن ينبغي أن تصنع كل تلك الأوزان من الحديد بشكل مشن طبقا للنموذج، وأن يراعى الاحتياط فوضع عليه السكة، ثم يقر المسئولون الثقات الإجراءات على هذا النحو من الضبط والترتيب.

وينبغي أن تصنع أوزان الأحمال ابتداء من عشرة أمتان حتى الدرهم الواحد في إحدى عشرة قطعة وفق هذا الترتيب: عشرة أمتان خمسة أمتان متان من واحد نصف من ربع من شن من عشرة دراهم خمسة دراهم درهما درهم واحد. وعندما يكون الحمل ثقيلًا ومكونًا من قطعة واحدة يجب على موظفي المنفعة في المدن أن يصنعوا قبانًا معتمدًا عليه، يوزن به الحمل؛ بحيث لا تكون هناك زيادة أو نقصان في الوزن.

رابعا: بسبب اختلاف للكائيل في كل بلد من كيل ولفيز وجريب وفتار قمح أو شعير ونظرا لاصطلاحاتها الكثيرة فإتهم يزنون وينقصون فيها، وكل شخص يصنع مكبالا وفق هواه. ولا شك أن ضبط ذلك كله أمر صعب. ثم إن كل شخص لا يدرك ذلك، وبخاصة أفراد القواف المتطوعين من الفول. وكذلك للتجار والفرهاء الذين يصلون إلى كل ولاية. وقد ينشأ الخلاف بينهم وبين الرعايا فيما يتعلق بشراء مكبال الذهبان وتسلمه. على أن كل من له غلبه ونفوذ يأخذ بالقوة ما يزيد عن المقرر. أما الأشخاص الضعفاء فيعطون أقل من المعهود. وهذا من شأنه أن يسبب النقصان والخسران والمشقة والتعب والافتقار بين الناس أجمعين.

هذه الأسباب امرنا بأن يكون الكيل متساويا في كل البلاد. وكل كيله تساوى عشرة أمتان بوزن تبريز، ويساوى الشن الواحد ٢٦٠ درهما وكل عشر كيلات تساوى تفتارا واحدا. وباستثناء الكيلة والتفتار المذكورين لا يستعمل أى مكبال أو اصطلاح آخر بين الخلق حتى تكون المعاملة والمحاسبة صحيحة، ولا يختل الواحد منهم على الآخر. وعند تسليم التفتار يقدر بالمكبال حتى لا تكون فيه زيادة أو نقصان. ولما كانت الجبوب من القمح والشعير والأرز والحمص والفول والسمسم والجاورس وغير ذلك، وبعضها أخف أو أثقل من بعضها الآخر، ينبغي أن يصنع لكل نوع من تلك الجبوب [ص ٤٩٩] مكبال خاص به، بحيث يعادل عشرة أمتان بالضبط. ثم يكتب اسم محتوى كل مكبال على أربع جهات بعنوان "مكبال الحب الثلاثي"، على أن تفرض دار القضاء "المعتمد" للقيام بهذا العمل، إذ إنه الشخص الذى عهد إليه بالإشراف على أوزان الذهب والفضة والأحمال. وعلى المسؤولين أن يحتاطوا لذلك الكيال بالاتفاق مع المختص، وأن يضعوا على أطرافه أيضا علامة خاصة به، بحيث لا يمكن حدوث أى تزوير أو محاولة للنقصان أو الزيادة.

وكل شهر تتخذ الحديقة في المدن والولايات؛ بحيث إن كل شخص يصنع مكبالا بغير العلامة الخاصة به، ويكون في حوزته، يقبض عليه ويسلم للشحنة، ويعتبر مجرما، وتقطع يده، ويؤخذ بجرمه وجنايته. وبأى حال من الأحوال، ولأى سبب من الأسباب لا يكون هناك بعد ذلك في كل الممالك ابتداء من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم مصر أى مكبال أو قنبر أو جريب سوى المكبال ذى العشرة أمتان، والفتنار ذى المائة من. وإذا وجد فإنه لا يهتم به، ولا يصنع مكبال لو مقياس آخر. وإذا أريد صنع نصف ذلك المكبال ذى خمسة أمتان فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يتكون من العشرين ونصف المكبال تغار واحد.

خامسا: يجب تحديد مكبال الذهب والمخل والسمن، بحيث يكون كل مكبال عشرة أمتان مساو لوزن تيريز. وإذا أريد صنع نصف مكبال فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يكون خمسة أمتان بوزن تيريز. وأما قرب الذهب فما كان يقدم منها طعاما للجنود أو الإهداء فإن الواحدة منها تقدر بخمسة مكبالات، وتزن خمسين منا. وأما ما يقدم فى المآذب والحفلات فإنها تكون أربعة مكبالات تزن أربعين منا.

سادسا: تقاس كل الأذرع التي يقيسون بها الأقمشة بالذراع التيريزى، ولا يقيسونها بالذراع الرومى الذى يختلف كثيرا عن الذراع التيريزى. لكن يوضع على أعلى كل الأذرع الختم الذى صنعه الأستاذان فخر الدين وبهاء الدين الخراساني: أما النموذج الذى يعطى للمسولين، فإنه يوضع على طرفى الذراع ويكون تنفيذ ذلك على النحو الذى سبق شرحه. وفى المدن يشرف على هذه العملية المعتمدون المذكورون. وكل من يغير ويبدل فى المقياس بعد مجرما ويستحق الإعدام.

أوصل الله تعالى بركات مثل هذا العدل والإنصاف إلى أيام السلطان المباركة الميمونة.

المكعبة الثانية والمشرون

فى تنظيم شئون المراسيم والهيرات وتسلميها للناس

[ص ١٠٥] بخصوص المراسيم قرر السلطان أن يعرض عليه فى الوقت المناسب كل كلام فى حالة صحوه و يقظته. ولو أن سلطان الإسلام خلد ملكه - حتى وقت تناوله الشراب أيضا لا يستطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سبيل الخيلة والتليس والمغالطة. كما لا يستطيع الحصول على إذن يسمح له يعرض كلام غير مستساغ ولا جنوى منه. ولا يمكن أن يعرض عليه موضوع غير منطقي لا فائدة منه، أو أن يطلب إليه البت فى أمر على سبيل العجلة والتسرع؛ فلم يأذن بأن يعرضوا عليه كلاما فى مثل هذه الأحوال.

كذلك أمر السلطان بأن بعد الأمرء صور المراسيم بعد عرضها عليه، إذ إنهم يعرفون مصاح الملك، ويتركون كل أمر. وإذا كانت هذه المراسيم غير معقولة وبعيدة عن العمل الذى يمارسونه، فعليهم ألا يكتبوها بناء على التماس كل شخص. وهناك أيضا كثير من المهمات التى ينهى أن تراجع بشأنها السجلات الدوائية مع ذكر المواضع والبيافع. ويجب الاحتياط عند كتابة المسودة، فيقرأونها لفظا بلفظ بحضور كتاب المنقول، ثم يعرضونها على الحضرة، حتى إذا لزم إصلاح قنانه يصحح بقلم السلطان المبارك أو بلفظه المبارك. وبعد تبيض المسودة يعرضونها عليه مرة أخرى، ثم يهتمونها، ويقولون: إن الرسوم القلاسي الخاص بقلان قد عرض فى اليوم القلاسي وقرئ فى اليوم القلاسي، وذلك حتى يؤذن لهم بوضع الدفعة.

وقبل هذا كان مفتاح صندوق أختام الدفعة الكبيرة فى يد الكتاب. أما الآن فهو فى عهدنة الحضرة المبارك، ويسلم وقت الحاجة كى يتختم به الكتاب المراسيم متفقين، ثم يعيدونه إلى موضعه. كذلك عين السلطان أربعة أسراء من أربع فرق، وأعطى كل واحد منهم على حدة عتما أسود (قرا صفا) حتى إذا عتسوا به للرسوم سجلوا ذلك على ظهره بحيث لا يمكن إنكاره مطلقا، أو أن يقولوا: إن ذلك لم يتم بمعرفتنا. بعد ذلك تعرض هذه المراسيم على الوزراء وأصحاب الديوان مرة أخرى كى يتناطوا للأمر ويتأكدوا متسائلين: هل حدث تلاعب أو لا؟ وهؤلاء يضعون أيضا دفعة الديوان على الرسوم، ويسلمونه

للشخص اللعين. ثم عين كاتباً كي يكتب في السجل صورة المرسوم لفظاً بلفظ ويختتمه ويذكر [ص ١٥٠] اليوم الذي ختم فيه بالتمغنة، ومن كتبه، ومن عرضه. وبعد انتهاء العام ينشأ من جديد سجل آخر تسجل فيه المراسيم؛ بحيث تخصص سجل جديد لكل سنة. والمقصود هو ألا يتيسر حدوث تزوير أو تخليط، ولا يستطيع أحد قط أن ينكر عرض المرسوم أو كتابته ويختمه. وكذلك إذا أعطى أحد مرسوماً، ووجده شخص آخر، وأراد أن يحصل على حكم يخالف ما نص عليه المرسوم فإنه يرجع إلى السجل كي تعلم الحقيقة، ولا يحدث خلاف ما عرض. وإذا ما اتهم صاحب المرسوم فإنه من ذلك السجل، يمكن معرفة ما إذا كان قد أدخلت زيادة على ما هو مقرر له أم لا. وبناء على هذا يؤخذ هو أو من اتهم؛ وذلك حتى تنتظم أمور الأحكام بصورة دائمة، وتلق أبواب الاعتراضات المفروضة. وأمر السلطان كذلك بالأخذ بالمرسل من أحد شيئا في مقابل ختم المرسوم بالختم الأحمر. والحق أنهم بهذه الإجراءات قللوا كثيراً من أولئك الذين كانوا يطعمون بالنسبة إلى ما كان عليه الحال قبل ذلك.

كذلك عين لكل أمر هام دمغة خاصة؛ فالدمغة الكبيرة للصنوعة من اليشم^(١) خصصت للحكومات السلاطين والأمراء والملوك العظام ومعظمت الأمور. وخصصت للقضاة والأئمة والمشايخ دمغة أخرى من اليشم أيضاً، وهي أصغر قليلاً. أما للأمر للتوسط فقد خصصت دمغة كبيرة من الذهب وهي أقل قيمة من اليشم. ومن أجل ركوب الجند وتزويجهم تستعمل دمغة خاصة من الذهب بنفس ذلك الخط والنقش المعهودين، على أن ينقش على أطرافها صورة قوس وهراوة وسيف. ويقضي الفرمان بالأمر بركب الجنود أو يتزولوا بناء على كلام الأمراء أو أى مخلوق ما لم يروا تلك اللمغة، وذلك باستثناء جنود الطليعة الذين يقومون بمباشرة مهمات الثغور وحراستها. كذلك هناك فئة قليلة من الجند لمراقبة الطرق على سبيل الاحتياط، فعلى هؤلاء أن يركبوا ويتزولوا بناء على أوامر أمراءهم. واتخذوا أيضاً ختما ذهبياً صغيراً يختم به حوالات الخزانة والولايات وملحقاتها والمفاوضات والرسائل الديوانية التي تكتب بخصوص المعاملات والرى والفلاحة؛ وذلك بعد أن يكون كتاب الديوان قد كتبها بموجب التائشيرة، وكتبوا على ظهرها عبارة مختصرة بالخط المغزلي حسب التعليمات حتى يتنموا بتلك اللمغة.

(١) اليشم: مصطلح عام يشمل مجموعة من المعادن الصلابة التي تتدرج قوتها من الأبيض تقريباً إلى الأخضر الأداكن وتتكون من سيليكات الكلسيوم والفسفور. (انظر المعجم الوسيط، ج ٢ ص ١٠٦٥).

والآن عندما تتجمع الحوالات والرسائل الكثيرة [ص ٥٠٢] تعرض على الحضرة فيأخذ المسؤولون مفتاح الصندوق ليختصها الوزراء وشواب الديوان بمعرفة "صاحب الدفعة" (صفاجي). هذا على حين أن الآخرين يثبونها في السجل المحفوظ أيضا في ذلك الصندوق حتى تتضح معرفة أى شخص يختص بالدفعة، وفي أى وقت تم ذلك. ومع توافر مثل هذا الضبط والترتيب كيف يبقى مجال يمكن معه كتابة حوالة بلديات من الذهب دون الإذن المبارك ١٩

وعندما قررت هذه الضوابط ونفذتخطر للفكر المبارك أنه لما كانت مهمات الملك ومصالحه ومتمنسات الناس أكثر من أن تتيح الفرصة الكافية لقراءة كل مسوداتها؛ ينبغي أن يفكر في اتخاذ قرار آخر في هذا الشأن حتى لا تشغل مصالح الناس، ولا تلحق مشقة بأرباب الحاجات لهذا السبب. وحيث إتهم أيضا بكون صورة لكل مهمة فلا بد ألا تبقى في ذهن الكتاب مضامينها لكثرة ما يكتبون؛ ومرة أخرى يحدث اختلاف في العبارات ويظهر الاختلاف في تلك الأحكام التي تكون قد كتبت لمهمة واحدة. ولتلاقي هذا النقص أمر بأن تضبط أنواع المهمات ومتمنسات الناس مما قد يمكن وقوعه؛ وذلك اعتمادا على القياس وإعمال الفكر، وأن تكب لكل منها صورة تشمل على جملة الشروط اللازمة لتلك المهام بتفكير تام وعناية فائقة.

وعندما دونت كل هذه القواعد والشروط، استدعى السلطان الأمراء وقال لهم: إن الأحكام التي تصدر إنما هي بأمرى، وتعرض بواسطتكم. وحيث إنه يجب على كل مخلوق ألا يكون قادرا على إحداث تغير في هذه الشروط بسبب تلونه وعدم ثباته يلزم أن نقرأ هذه المسودات، ونعمل الفكر في كل باب من تلك الأبواب، بحيث نحاط للأمور، ولا يبقى أى شيء مما دق أو صغر، ويترك مهملا وغير مرعي. وبذلك يكون ما نقره موافقا لرأينا ورأيكم، ونجعل دستورنا. بعد هذا نيت في كل القضايا على هذا النحو، ونحكم بناء على ذلك، حتى تجرى كل الأمور على منوال واحد وقانون واحد، ولا يتطرق اختلاف إلى أتواننا. ويجب على المسؤولين أن يتشاوروا في الأمر. وعلى سبيل الاحتياط يصلحون ما يرونه في حاجة إلى إصلاح؛ بحيث يستقر رأيكم بالإجماع على قرار واحد. وبعد ذلك يقرأ ما كتب مرة أخرى بحضوركم؛ فإذا ما بدا لكم شيء من محلل فعليكم أن تتشاوروا وتصلحوه. [ص ٥٠٣]

وبعد إتمام هذه الخطوات الإصلاحية استقر الرأي حسب الأوامر الصادرة على أن تكتب كل تلك المسودات في سجل، سماها "قانون الأمور"، وأمر بأن تنسخ الأحكام فيما بعد من تلك المسودات دون زيادة أو نقصان. وإذا اتفق - وهذا نادر - أن وجدت صورة لم تذكر في السجل فإنه تعد لها مسودة ثم تعرض. وأحيانا إذا لزمتم إضافة جديدة تتناول الشخص والموضوع واتضاء الحال والوقت فإن على المسؤولين أن يكتبوا - على حدة تلك الألفاظ القليلة، ثم يعرضونها.

وحيث إن مثل هذا المصبط والترتيب لم يكن لهما مثل في أي عهد سدت أبواب الجهادلات والمنازعات التي كانت تحدث في الأحكام نتيجة اختلاف العبارات. وبذلك انتهت حيرة أصحاب الحاجات، ونهأت لهم الفرص المناسبة، واستراح المخلق، وتحقق للجميع وثوق تام في شئون الأحكام، ورسخت حرمة المراسيم وعظمتها في القلوب. وقد زال سعي وأراجيف المفسدين والقضوليين الذين كانوا يستبطنون الأحكام وفق أمرائهم ووضعت مراتب الخواص والعوام والحكام والمحكومين والظالمين والمظلومين. ولا شك أن مناقع هذه الضوابط أكثر من أن توصف.

أما بخصوص ترتيب وتدمير منح الهيازات^(١)، فقد أمر السلطان بصنع بايزات كبيرة خاصة بالسلطين والملوك والشحن، وهي مستديرة على هيئة رأس الأسد، ومكوب عليها اسم ذلك الشخص الذي يمنح الهيازة. ثم يسجل ذلك في السجل، وتظل في يده طوال مدة عمله. ثم تسترد بعد عزله؛ إذ إن الهيازة تظل سنوات عديدة مخصصة لتلك الولاية. ومن الملتطوع به أنها شنع الملك بعينه، ولا تعطى شخصا آخر غيره. وكان المعتاد قبل ذلك أنهم إذا كانوا يرسلون - خلال عشرين سنة - عشرين حاكما إلى إحدى الولايات، فإتهم ينحون كل واحد منهم هيازة. وكان كل حاكم يعتقد حتى بعد عزله أن الهيازة أصبحت ملكا له، فكان يرسلها في الخفاء إلى أحد الأماكن لإتجاز مهماته الخاصة.

(١) الهيازة لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب رتبة المهنة إليه. وهي تشبه اللبالية في العصر الحديث. ويخل على وجهها اسم الله واسم صاحب الخان للتاج وعلامة خاصة. وقد أمر خزان بأن يكتب عليها أيضا اسم الشخص الذي يمنح الهيازة. نسي ثرواتها ما كانت تزيه صورة الأسد. وهذه خاصة بالملوك. وتهدى الهيازة إلى من يثق بهم للقول من كبار الشخصيات ورجال الدولة، ويتبع حاملها بالبنوات خاصة فله قطعة على كل من في دولة للقول.

وأما بخصوص الملوك والشحن ذوى الرتبة للتوسطه، فقد خصص لهم بايزات أسفر من السابقة. وهى ذات نقش مخصوص ومكتوب عليها اسم الشخص الذى صرح له البايظة وفقا للضوابط المذكورة، ومنع ما كاتوا يعطونه قبل هذا من وسائل كى يصنعوا البايظات فى الولايات وعين السلطان صائفا بيازيم البلاط، وهو الذى يصنع البايظات. وعند تسليم البايظة المصنوعة من الفولاذ ينقش عليها نقش معين؛ بحيث لا يستطيع شخص أن يقلده بسهولة. وبشرط أن يتم ذلك فى حضرة السلطان، ثم يطرق بالمطرقة حتى يثبت عليها [ص ٥٠٤].
والمقصود هو أن تظهر البايظة الزورة بواسطة تلك العلامة.

وبخصوص الرسل الذين يركبون خيول البريد فقد خصصت لهم نفس البايظات المستديرة، ويكتب عليها بايظة الخزانة ثم يسجل اسم الرسول فى السجل. وعند عودته تسترد منه.

وأما بخصوص الرسل الذين يذهبون بالبريد الرسمى للدولة، فقد أمرهم السلطان ببايظة مستطيلة على رأسها صورة القمر، وصنع هذه البايظة أيضا وتسترد وفقا لهذه القاعدة. وعندما تقرر إيجاد أمراء الثغور دعت الضرورة إلى استخدام البريد الرسمى، كما تقرر أن يمنح كبارهم خمس بايظات مصنوعة من النحاس. أما ذوى الرتبة للتوسطه، فيمنحون ثلاث بايظات يسلمونها للرسل الرسمى العلوي.

وقبل هذا كان أمام كل واحد من الأمراء الأتجمال والخواتين والأمراء أنواع من البايظات. وكان هؤلاء يسرون الرسل تباعا إلى الولايات لإنجاز كل عمل يريدونه. وقد ثبت واتضح للجميع كيف ظهر أثر هذا التقدير المحكم وكيف ظفر الناس بأى نوع من الراحة.

لوصول الحق تعالى بركات هذا العدل والإنصاف إلى أهبام السلطان المباركة.

في تدابير استعادة المراسيم والهايزات المكررة التي كانت في أيدي الناس

تقتضي طبيعة العالم أنه في عهد كل ملك توجد طاقة من الناس تناسب أساليب حكمه، وتلقى مع عاداته وميوله. وهؤلاء القوم صاروا مقدمين على غيرهم، وإلهم تفويض شؤون الملك والولاية، وهم ينفذون الأحكام على طريقة ذلك الملك إن عدلا وإن جورا ويسلمون للناس المراسيم والفرمانات. وعندما ينتقل الحكم إلى ملك آخر فلا مفر من أنه يرغب في إحالة تلك المهمات إلى أشخاص يسيرون وفقا لعاداته ورسومه، ويصدرون أحكاما بصورة تتناسب مع طبيعة عهده؛ ذلك أن كل عهد يقتضي نوعا خاصا من الحكم. والشاهد قبل هذا أنه في عهد آباء وأجداد سلطان الإسلام - خلد ملكه - أن كل ملك إذا ما أراد أن يجمع المراسيم والهايزات السابقة التي كانت في أيدي الناس بالحق أو بالباطل فإنه يسيّر [ص ٥٠٥] رسلا مشهورين يحملون الأوامر المحكمة العظيمة والمصوغة في أسلوب من المبالغة والتحويل. ويحمل الترميمات هو أن من يخفى مرسوما من المراسيم أو هايزة من الهايزات يعتبر مجرما. وكان هؤلاء الرسل ينفقون نفقات باهظة في طريقهم إلى الولايات بحيث لا يتروها الحصر والعد، وصاروا ينفقون جميع من عندهم مراسيم ومن ليس عندهم. وكانوا يضربونهم ويرتكبون في ذلك المخالفات. ولكن حامل المرسوم الذي سحب منه فئته على الرغم من أن هذا المرسوم لم يكن يصلح له، لكنه في سبيل المحافظة على كرامته، وحتى لا يبدو في نظر الناس خفيرا ينفق نفقات باهظة كي يعيدوا إليه المرسوم. وبذلك يتحقق له الإجلال والاحترام.

وبخصوص الهايزات كان يحدث مثل هذه التصرفات. وكان الرسل يطوفون حول العالم بصورة مستمرة، ويحصلون بهذه الطريقة على أسواق طائلة. ومع هذا لم يكونوا يستطيعون إحضار مرسوم واحد من مائة مرسوم. ومع ذلك كانوا يحضرون هذه المراسيم في تلك السنوات. ثم يكتب الكتاب مراسيم أخرى لتأييد المراسيم التي بأيديهم. ومع أنهم كانوا يستردون المراسيم الباطلة صاروا يعطون كل شخص مراسيم كثيرة مختلفة متناقضة

لأن الطريقة المتبعة في ذلك الزمان فيما يتعلق بإعطاء المراسيم، كانت تتطلب لجوء كل واحد من الناس في العالم إلى أحد الأمراء، وبأخذ مرسومًا حسب رغبته. وبسبب اختلاف المتنازعين، وتعبس الجماعة كانوا يرسلون كثيرًا من المراسيم التتالية المتعاقبة مما لا يمكن شرحه. وهكذا كانت تضي الأهم بتلك الطريقة، ويموت هؤلاء المحصومين وهؤلاء الأمراء ثم يموت آباؤهم، ويسلكون نفس السلوك، ويد كل واحد منهم محصون مرسومًا، بحيث إنهم إذا حضروا للتحقيق معهم فإنه - خلال عشرة أيام - لا توضع صورة أحوالهم، ولا كيفية حصولهم على المراسيم. وستة بعد أخرى لا يفهمونها، وإذا ما فهموها اتضح أنها كلها على غير أساس وباطلة. وقد كتبوا بدافع التعصب، لو أنها عرضت عن طريق الرشوة، أو أنها صدرت بغير إذن السلطان، ودون إشارته. وكثيرًا ما كان يحدث أيضًا أن يتلقى الأمراء الكبار، ويعرضوا مرسومًا معينًا لمصلحة أحد الأشخاص، فكانوا يعطونه التأشير، وتكتب صورة المرسوم على وجه التحقيق. ولكن ذلك الشخص يضيف عدة ألقاب مختصرة يدخلها على المرسوم، فيتغير ذلك القرار الذي اتفق عليه الأمراء تغيرًا كليًا [ص ٥٠٦] يوافق مصلحته. وكان يخال كي يضيف هذه الزيادة إلى الصورة، أو يعطي الكتاب هدية قيمة حتى يكتبها ثم يتسك بها. وكثيرًا ما انتهز الكتاب الصغار الفرصة وأعطوا كل شخص مرسومًا وفق رغبته دون مشورة الأمراء الكبار. كذلك الحال عندما يعطي أحد مرسومًا بأمر السلطان، ووجد شخص آخر يماثله في منزلته وصنعه، فإن الكتاب يتشبثون بذلك، ويعطون أيضًا ذلك الشخص مرسومًا على غرار زميله؛ فكان يترتب على تلك القضاها الألف المتناقضة مائة ألف إشاعة وفتنة بين الناس. ولما كان المحصوم جميعهم أصحاب مراسيم فإن المحققين والحكام والقضاة مهما أرادوا أن يتوا في قضاة واحدة، ويحكموا فيها حكمًا قاطعًا، اختلط عليهم الأمر وغمض، وذلك لكثرة ما يد كل واحد منهم من المراسيم والهايزات. وقد أدت المتنازعات إلى حد أنه في كل سنة كان يقتل كثيرون من الأشخاص بعضهم بعضًا. بالإضافة إلى ذلك صار تجميع تلك المراسيم والهايزات المكثرة واستردادها أمرًا عسيرًا. ومع هذا كانوا يعطون الناس عددًا كثيرًا منها بنفس الطريقة المذكورة

أما الآن فقد أصل السلطان غازان - خلد ملكه - فكره البارك في تشارك هذا الخلد وأمر بإصدار المراسيم إلى كافة الممالك، وكلها مصوغة في عبارة واحدة مضمونها أنه على

للشحن والملوك وحكام الولايات أيضا ألا يقبلوا على الإطلاق ما يقدم إليهم من الهيازات القديمة والحديثة التي في أيدي الناس، وألا يهتموا بها؛ إذ إننا أصدرنا أمرنا بإلغائها كلها. وكذلك المراسيم التي منحناها، وصدرت خلال الأعوام الثلاثة الأول من حكمنا عندما كنا لا زلنا منهمكين في تدبير وترتيب شؤون الجند، وإزالة القمامة، والقضاء على الاضطرابات والفتن التي حدثت، ولم نشغل بجزئيات الأمور. ولا شك أن تنفيذ الأحكام السابقة كان أمرا ضروريا لتطبيع عناصر الخلق كي تستقيم الأمور.

وبناء على هذا فإن المراسيم التي منحها الناس نوروز وصدر الدين والشواب الآخرون وفق مرادهم وهواهم [ص ٥٠٧] كلها باطلة حتى هذا التاريخ الذي باشرنا فيه بأنفسنا ضبط أمور الممالك؛ فقررنا أن يعرض المرسوم علينا، ثم يسلم للناس. وينبغي أن يعترف الجميع بصحة كل ما يصدر من المراسيم بعد هذا التاريخ المذكور، وألا يهتموا قط بالمراسيم الأخرى التي صدرت عنا وعن السابقين علينا، فتقدم كلها إلى حضرتنا لتقرر ما فيه المصلحة. ولا شك أن مراسيم الملوك السابقين كانت حسنة ومعقدة، وما دما قد وقعنا على المراسيم التي ينبغي أن تكون حماية وسننا وناموسا وبركة، فكيف يجوز لنا أن نستردها؟ إننا سوف نضع دمعة معينة على ظهرها، ونعطيهها الرؤساء لتكون في أيديهم وتكون أكثر تدعيما. وسوف نعد هيازة بشكل آخر. وكل من يجوز هيازة، عليه أن يحضرها ويسلمها خلال ستة أشهر، وذلك حتى نعطي هيازة جديدة كل من يسلك طريق الصواب. وبعد ستة أشهر سوف يقبض على كل شخص تكون في حيازته هيازة قديمة، ويعتبر مذنباً ونسرد منه.

ولما أصدرنا هذا القرار دعت للضرورة جميع الناس إلى إحضار مراسيمهم لتجديدها. وكل ما كان منها صحيحا يعتمد بالتوقيع، وكل ما لم يكن صحيحا يسترد من حيازته. وبهذا الإجراء ظهر الحق من الباطل والصدق من الكذب، وتخلص أرباب النواميس من عار خسة الدخلاء. وحيث إنه لم تعد هناك أهمية للمراسيم القديمة لا سيما المكرر منها، لم يستطع أحد أن يظهرها إذا كانت لا تزال في يده، فضلا عن أنه لن يلتفت إليها، توقع صاحبها في الذنب. وتخضع الهيازات أيضا لمثل هذا النظام. وما أن نفذ هذا القرار حتى اختفت مجموعة تلك المراسيم والهيازات؛ لأن أصحابها أخذوا بعضها مجددا، ولم يجرؤوا

على إبراز بعضها الآخر. ولقد ذاع الفرار وانتشر، وبنص صراحة على عدم الالتفات إلى المراسيم والهايزات القديمة في أي عهد من العهود؛ إذ إن الناس يطعون على وجه التحقيق أنه لو كان هذا الإجراء صحيحا لاتبع على الفور في عهد مثل هذا السلطان العادل. ولاشك أن هذه الطريقة الصحيحة هي دستور جميع الملوك والأمراء والحكام في كل عصر. وإذا كانت قد بقيت بايذة ذهبية أو فضية في حوزة أحد الأشخاص فإنه ما لم يسلمها فلن يعطي أخرى عرضا عنها. وإذا كان متبصرًا بعواقب الأمور فإن عليه أن يبادر بتسليمها [ص ٥٠٨]، وإلا فإن عليه أن يصهرها ويتفق ما صهره.

ومن المؤكد أنه سوف يصل الأمر عن قريب إلى حد أنه لن تبقى واحدة من الهايزات التي أخذت خلال مدة سبعين سنة بعزل وأسباب مضللة. وهكذا نفذ سلطان الإسلام مثل هذا العمل العظيم بتدبير يسر قرره بغطته وكهاسته. أدام الله ظل معدته. والسلام.

المكايبة الرابعة والمشرون

في منح جند المغول الإقطاعيات في كل ولاية

قبل هذا لم يكن لكافة جنود المغول مرتبات وملابس وقطاعات ومؤن. وكان بعض الأثابار منهم يأخذون قسرا من الزاد، والأغلبية لا يأخذون شيئا. كما أنه في العهد السابق عندما كانت عادات المغول ورسومهم لا زالت مرعبة كان جميع الجنود يمنحون كل سنة مراعى للخيول والأغنام والأبقار، وتزود المسكرات كما يزود الجنود الفقراء المعدمون بالبلاد واللين الخبز.

بعد ذلك في أوائل عهد هذا السلطان كانوا يعطون الجنود المرابطين في أقرب مكان قليلا من الثوتة، ثم تزداد تدريجيا، وأضاف إليها سلطان الإسلام - محمد ملكه - مقادير أخرى. ولما كانت تلك المؤن تحول إلى الولايات، ويشتال المتعهدون في صرفها، كان المغول يتعصبونهم. وبسبب مطالبة هؤلاء المتعهدين بالمؤن كان الظلم الفادح يلحق بسكان الولايات لأنهم يتحملون نفقات باعطة يدفعونها باسم الدواب والزاد والعلف. وفضلا عن أن الحكام والمتعهدين كان يلحقهم نصب ومشقة من جراء ذلك فإن الرعايا كانوا يضيقون ذرعا بما يطالبون به من تقديم للمؤن. ومع هذا لم تكن تصل مؤن كافية إلى الجنود. وكان بعضهم في نصب بسبب عاظمة المتعهدين، وبعضهم بسبب الشرفين على تعيين الجيش، إذ إنهم كانوا يأخذون هدايا شينة ويهملون أداء واجبهم، وبعضهم بسبب أن الكتاب المسكرين لم يعنوا الحوالات في وقتها المناسب، فيعجز الجنود عن التحصيل. [ص ٥٠٩] وأخيرا كان المتعهدون يشترطون للمؤن لأنفسهم بنصف الثمن. وكانت الحوالات دائما بيد الجنود، وهم في نزاع وجدال مع المتعهدين. وكانوا دائما يعرضون تلك الأحوال على السلطان فتزجج لذلك مسامحة الباركة، وتكون عاقبة الأمر أن أكثرها يسقط من الحساب ويضاف إلى القضايا القديمة. هذا على حين أنهم كانوا يجوزون حوالات كثيرة مستحقة للصرف.

شاهد السلطان هذه الأوضاع مدة أربع سنوات أو خمس، فأمر بأن يجمعوا المؤن في كل ولاية أثناء الشتاء والصيف، وقت جني المحاصيل ويقوموا بتخزينها في المخازن وتودع في

عهدة شحنة الولاية، ثم تسلم من المخازن إلى المستولين بعد سداد قيمة الحوالة نقدا، ولا يأخذ المشرفون على شؤون الجيش هديا في مقابل أداء واجبه، ولا يطلبون زادا ولا علفا. فكانت تسير الحوالات على هذا السؤال. وكان السلطان يعطي نقدا ذهبيا من الخزانة، بحيث إنه خلال ثلاث سنوات أو أربع لم يستطع أحد أن يقول: لقد بقي لي على الديوان من واحد من الفونة. وبعد ذلك في أوائل شهر سنة ثلاث وسبعمائة هجرية (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) هداه تفكيره المبارك إلى أن يصرح قائلا: إن كمية المون التي عينت للجنود لا تكفي شخصين من كل عشرة أشخاص. وبني أريد أن يكون إنعامنا عاما للجميع. كما أن الجند عند مسير الاحتياطيين منهم إلى الولايات يسيرون الشاحب لسكان الولايات. وأيضا يقول كل واحد منهم سواء بالحق أو بالباطل: إنني لا أملك شيئا؛ فيحدث الإخفاق والمعجز. ويقول أيضا: لقد نفقت جوانبا بسبب القرد وانتشار طاعون الماشية والأقوات الأخرى. وهنا تدعو الضرورة إلى جمع المال في كل وقت وإعطاك المتضررين؛ لأن العالم لا يخلو من الأحداث. وقد يجيء وقت لا يتيسر فيه تحصيل المال بسرعة. وهذا ما يحتم العمل دائما على تدبير وترتيب نفقات الجند ومؤونتهم. وهناك ولايات في الممالك تقع على طريق عبور الجند، وفيها مصاهفهم ومشابهم، ودلما ما يسلكون سلوكا معيا في تلك الولايات يستولون على القرى قوة واقتدارا، ويستولون بالرعايا. وإذا فمن المصلحة أن تقطعها بأكملها للجند، ونعين نصيبا لأفراد كل كنية، ليكونوا هم المتصرفين في هذه الأراضي ويعتبرونها ملكا لهم. وبذلك تشيع عيونهم وقلوبهم.

ولما كان أكثر الجنود في هذا العهد يميلون إلى اقتناء الأملاك والزراعة فلا شك أنهم يحققون رغبتهم عندما يملكون إقطاعا. وبذلك لا تكون هناك حاجة إلى الخزانة [ص ٥١٠] للإتفاق على مصالحهم؛ لأن كل واحد منهم يحصل على حصته ومعاشه من الإقطاعية، وتتوافر لهم عمارات كثيرة أخرى، ويكون لهم أتباع وخدم وأهتار وبنور ويحصلون على الثمن والشعير. وإذا حدث أيضا وباء بين الدواب فإن كل واحد يستطيع أن يربط اثنين أو ثلاثة من الخيول، يحتفظ بها بدنية قوية، حتى يستطيع - عند الحاجة - ركوبها في وقت أسرع؛ إذ إن أكثر الخلل الذي يلحق بجنودنا إنما ينتج عن هلاك الدواب لأنهم في هذا العهد لا يبدونها بالماء والعلف بالمقدر الكافي.

وإذن فنحن إذا سلمنا الولايات للجنود بوجه من الوجوه، وأعدنا محطات القوافل الضرورية، ووفرننا الطعام للأتباع والحوالين، وكذلك اللوازم الأخرى الضرورية وسلمناها لهم وأصبحت كلها تحت تصرفهم، فسوف نقل نفقاتنا، ونقل المتقاضون وأرباب الحاجات. أما الولايات الأخرى التي ليست مبررا ومقاما للجنود فإنها تبقى في موضعها لسد النفقات الخاصة، وهذه يمكن ضبطها دون نصب أو مشقة، ويكون المال الذي يحصل منها كافيا. وعلى هذا النحو تضبط الأعمال الكبيرة التي يقوم بها الجنود وغيرهم. وفيما بعد تبقى الأمور مرتبة طبقا لهذه القواعد، ونعم فوائدها كافة الملوك والأمراء والوزراء والجنود والرعايا.

وعلى هذا النمط أصطل السultan فكره، وعين لجميع الجنود إقطاعيات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر خلال شهرين أو ثلاثة، وفصلها تفصيلا. وفي هذا الصدد نفذ حكم المرسوم. ونحن ثبت صورته في هذا الفصل حتى إذا قرأه الناس، فإنهم يظلمون على الدقائق التي روعيت في هذا الباب إن شاء الله العزيز.

نص المرسوم بخصوص منح جنود المغول الإقطاعيات

بسم الله الرحمن الرحيم

[ص ٥١١] بقوة الله تعالى وميامن الملة للمحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فلتعلم الأمهات، ولتعلم الأحفاد والحفيدات والحوالين والبنون والبنات والأصهار وقواد العشرة آلاف (تومان) والألف (هزاره) والثلاثة (صدده) والعشرة (دهه) والسلاطين والملوك والكتاب وعموم أهالي كل الولايات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر أن جدنا الأكبر چنگيز خان انحصر في بدء القطرة بالتأييد الإلهي والإلهام الرباني. وكان يرعى دستورده بمثابة تامة أدق من الشعرة، ولم يترك الجمال لأى مخلوق من بني آدم حتى ينحرف برأسه عن ربة أمره أو أن يخرج قدمه عن جادة الاستقامة، فلا جرم أنه استطاع - بهذه الوسائل -

أن يسخر ساحة الدنيا مشارقتها ومقاربتها، وأن ينقش على صحائف الدهر اسمه الطيب وصيته الخالد. وقد تحمل كل أنواع المشقات والشدائد في سبيل زيادة رتبة المملكة وفسحتها، وأورث أبنائه وذريته جميع الطوائف والرعايا والممالك، وصيرها لهم مهددة مرتبة وذكرى حسنة منه.

بعد ذلك سلم أبناؤنا الحيريون تلك للملك لأبنائهم على نفس النسق والترتيب، فاستطاع كل واحد أن يضبط قوانين الملك ونظمها، ويضمن التكفل بإدارة شئون حكم العالم. بهذا خلد هؤلاء الأبناء لهم ذكرا جميلا على صفحات الدهر. أما أولئك الذين لم يحافظوا على رعاياهم، ومارسوا الظلم والتمدى فإتهم بلا شك قد خلفوا لهم سمعة سيئة.

“إن آثارهم تدل عليهم فانظروا بعينهم إلى الآثار”، ولما كان صدق هذه المعاني ثابتا ومقررا ومعينا لنا، وعلمنا أن البقاء الأبدى وخطود الحياة في هذه الدنيا أمر غير ممكن للجميع، وأنه لا يتصور أن تكون هناك فائدة من هذه الدنيا سوى ادخار الاسم الحسن. لما كان ذلك كذلك فكرنا نحن أيضا في هذه الأيام القليلة المعودة عندما وصلت نوبة الملك إلينا في ادخار السمعة الطيبة، فنشمل بمزيد من الراحة والرفاهية مجموع الرعايا الذين سلموا قيادتهم لنا، حتى نكون [ص ٥١٢] قد سجلنا على صفحات الدهر الذكر الجميل والثواب الذي هو عبارة عن الحياة الباقية والعيش الخالد، ويقى صيت معدلتنا على الأيام دائما ومزينا وباقيا وخلدا. والله يوفقنا بلطفه ويؤيدنا بنصره. والآن لا يخفى على الجميع أنه قبل هذا في عهد آبائنا الصالحين كان رعايا المنفول مطالبين بكل أنواع المطالب والالتزامات والمشقات من قبيل سداد ضريبة المواشي والإيفاء بواجبات دور البريد الكبرى وتحمل أعباء الياسا القاسية، ودفع النفقات اللازمة للمحافظة على سلامة الجنود، تلك الأعباء ألغيناها كلها دفعة واحدة في زماننا هذا.

في ذلك الوقت كان الرعايا محرومين مما احتوت عليه المخازن من الذخائر والمؤن. ورغم وجود تلك الأعباء كانوا يرحلون برضاء الخاطر، ويقومون بواجب الطاعة ويتحملون مشقات الأسفار البعيدة. ومع هذا كانوا قانعين. والأمر الذي لا شك فيه أنه حتى هذه اللحظة لم يتوافر لجند المنفول زيادة ملموسة في الجاه والمال.

والآن وقد أنعم الحق تعالى علينا بالرعايا والممالك التي حكمها أبائنا، ومنحنا سرير ملك العالم وعاصمته الكبرى، بفلنا كل الهمة، وصرنا كل حرصنا السلطاني في سبيل الإصلاح حتى ننظم وترتب مصالح الرعايا الكثيرين على نحو نطمئن إليه؛ بحيث إنه بعد ذلك لا ينسى أبدا جميع أفراد القوات الاحتياطية في جيوش المغول - ما نوالدوا وتناسلوا - هذه الجهود، ويقضون أهتمامهم في رفاهية ورغد من العيش. وبعد أن يحمل دور غيرنا نكون قد سلمنا له المملكة والجيش؛ بحيث لا يقف في سبيله أى عائق، ويحمل وضع يؤدى إلى الاستقرار واستقامة أمور المملكة والرعية، ويؤدى إلى الخلود والذكر الجميل ودوام حسن السمعة، وازدهار دعوات الخير. ولا يخفى على الجميع أنه قبل عهدنا كان المسئولون يعطون جميع المتطوعين من جنود المغول بمن يقيمون في المناطق الممتدة من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم مصر قدرا محمدا من المؤن، ونادرا ما كانوا يتعمون على بعض منهم في كل وقت. هذا على حين أن أكثرهم ظلوا محرومين وبقوا بغير نصب. [ص ٥١٣] ولعلاج هذا الوضع أمرنا في الوقت الحاضر بمعاملة أفراد قوات المغول الاحتياطية معاملة واحدة فتشملهم عاطفتنا وتعمهم عطائنا؛ حتى لا يبقى أى واحد منهم محروما من إنعامنا. وعند رحيل الجنود وزحف الجيش تتوفر لهم القنطرة والحركة والطاقة للمحافظة على الممالك ذلك أن استقامة شئون الملك وانتظامها متروطة بهم

وبناء على هذه المقدمات أمرنا بأن يقطعوا لهم الأراضي في الولايات والقرى، ويوفروا لهم المياه مما يكون قريبا ومناسبا لهم من أسلاك الخاصة وأسلاك الديوان والمزارع العامرة والحربة حسب ما هو مثبت في السجلات والقرائن، ويعينوها باسم الإقطاع في كل كنية مكونة من ألف جندي، ثم يسلمونها لهم كي يتصرفوا فيها؛ وذلك على النحو المفصل في الكنية الفلانية.

وأما عن الأحكام الخاصة بهذه الإقطاعية وشروطها وكيفية كل قسم من أقسامها فإنها تكون على النحو الذى نشرحه فيما يأتى:

أولا: ما يتعلق بأسلاك الخاصة وأسلاك الديوان من اللواضع: تقرر أن تبقى فيها تلك الجماعة من الرعايا الذين كانوا يقطنونها من قديم الزمان، وكانوا يزرعونها. فهؤلاء يستمرون في زراعتها جريا على تلك القاعدة بشرط أن يعطوا الجنود المتطوعين نصيبهم

بصدق وأمانة، وأن يسجدوا هون زبادة أو نقصان الضرائب والرسم الديوانية، وذلك حسب التمهيدات والتفصيل الذى مر ذكره.

ثانيا: يجب ألا يتدخل جنود الاحتياط فى شئون أسلاك الملاك ومياهم وأراضيهم وأصحاب الأوقاف، ولا يتصرفون فيما تنتجه، وأن يدفعوا بصدق وأمانة الأموال والضرائب والرسم الديوانية بموجب سجلات القاتون وطبقا للتفصيل المذكور.

ثالثا: القرى والمزارع والمواضع التابعة للديوان التى تخرب، وتدخل فى حيز مواطن هؤلاء الجنود، عليهم أن يحرثوا منها ما صار مزارع صالحة للزراعة، ويتركوا الأراضي الباقية لأسراهم وغلمااتهم بزراعونها ويحصلون محاصيلها، ومعهم أبقارهم وثيرانهم وبنورهم. وإذا ظهر مالك لذلك الموضع الحرب، وأقام دعوى بملكيتها أو بتوليتها وقيته [ص ٥١٤]، وظل مدة طويلة تحت تصرفه، وثبت استحقاقه له بموجب الشرع المطهر. وكان هؤلاء المتطوعون قد زرعوه بواسطة أسراهم وغلمااتهم، فإن عليهم أن يدفعوا العشر من عوائده للمالك، ويأخذوا الباقى لهم ولزراعتهم.

رابعا: السكان الذين منحوا قرى عسرة أو خربة، ثم تفرقت منذ ثلاثين عاما، ولم تدخل فى حساب وقانون الولايات الأخرى ولا زال يحتفظ بها كل واحد منهم، عليهم أن يعيئوها. وإذا كان سكان الولاية الأخرى يعملون عندهم أيضا فإن عليهم أن يعيئوها. ومن المقلوع به ألا يقبلوا بأى وجه سكان الولايات والمواضع الأخرى وألا يرتبطوا بالفرعاء بحجة أنهم سكان الولايات الجديدة، ولا يجمعوهم بأى وجه ولا يجمعوهم، ولا يسمحوا لهم بالدخول فى قرأهم. وعلى للمتطوعين ألا ينقلوا سكان القرى التى أنقذت لهم من غيبتهم فى إحدى القرى إلى القرى الأخرى، ولا يقولوا إن كلنا المزرعتين والقرعتين ضمن إقطاعنا، وسكانهما هم رعايانا. وعلى سكان كل قرية أن يزرعوا فى مناطقهم المحددة لهم، ولا يقولوا إن سكان هذه المناطق التى أنقذت لنا إنسا هم أسرانا؛ إذ إنه ليس للجنود على الرعايا أكثر مما لهم على زراعة قرأهم، وعليهم أن يأخذوا منهم بالحق ما هو مقرر عليهم من المال ورسم الديوان، وألا يسخروا السكان فى عمل آخر سوى أن كلا منهم يزرع فى الموضع المخصص له. أما السكان الذين لا يعرفون الزراعة أو لا يمارسونها فلأن أصحاب الأراضي قد تسلموا حقهم من المال المعين المقرر لهم من الديوان لا يصح أن يحرثوا هؤلاء السكان على الزراعة بالقرى والعطف ولا يظلموهم، بل يعاملوهم بالمستى.

خامسا: على المتطوعين من الجنود ألا يتدخلوا في شئون القرى الواقعة على حدود قراهم والمجاورة لهم، فلا يزرعوها، ولا يستولوا على الماء والأرض بحجة أنها واقعة في موطنهم، [ص ٥١٥] وألا ينتموا ذلك للمقتدر من الأعشاب التي هي مرعى لأبقارهم وأغنامهم وحميرهم.

سادسا: حيث إننا منحنا المتطوعين الأتعام والعطاء، وعينا لهم هذه المواضع باسم الإقطاع، وأنعمنا عليهم بها، يكون غرضنا هو راحة كافة الخلائق، وإتفاء الذكر الجميل والقانون والعدل. وهم جميعا مؤيدون ومختطون بهذه الحبة وتلك الرعاية. وقد قدم نواد الفرق المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة، والمتطوعون الكثيرون وثيقة خطية يتهنون فيها بأنهم بقدر ما في وسعهم وقدرتهم سوف يذلون جهنم في نفاذ العدل ونشر الصدق، ولا تحرفون من بعد عن جادة الصواب ولا يتدنون ولا يضطهدون الناس، ولا يقدمون على أنواع الظلم والجور وتلك الأفعال التي كانوا يمارسونها من قبل. هذا وينبغي أن يكونوا عند كلمتهم، ولا يطلبون من الرعية شيئا باسم الهدايا والمؤن والضرائب على السلع وغير ذلك.

سابعا: تقرر كذلك ألا يكتبوا لأى سبب من الأسباب حوالات من الدهوان على الإقطاعيات، وألا يجولوا إليه شيئا أبدا. وبموجب ما تقرر يسلم لكل شخص من الجنود المتطوعين خمسين منا بوزن تمييز من المستودعات الخاصة، ولا يطلبون من الرعايا شيئا آخر غير ذلك.

ثامنا: أمرنا كذلك بأن توزع الإقطاعيات وما يلزمها من ماء وما تشتمل عليه من أراض خربة وعامرة على أفراد الكتبية المكونة من ألف جندي، وذلك على النحو الذى سبق تفصيله. ثم يحضر جماعة من تلك الولاية ممن هم أهل الخبرة مع هذا الكاتب فلان الذى عيناه، وتقسّم هذه الإقطاعيات إلى عشرة أقسام. ثم تجرى قرعة بالسوط. وبعد ذلك تقسم بين الفرق المكونة من مائة، وتجرى القرعة أيضا بالسوط.

وهذا الكاتب الذى فوضناه باسم "العاض" يسجل فى السجل نصب كل واحد من المائة والعشرة عرابا كان أم عامرا، وذلك على انفراد وبالأسم، ويحفظ بالسجل، ويسلم نسخة منه للديوان الأعظم، وأخرى لأمر القرعة. ثم تسلم سجلات الفرق المكونة من مائة لأمرها.

بعد ذلك يتفحص ذلك الكاتب العارض هذه السجلات كل سنة ويعرض علينا اسم ذلك الشخص الذي جد واجهد في الزراعة، أو اسم ذلك الذي قصر. كما يعرض علينا ما سجله عن خراب وعمران كل جزء محدد حتى يختص برعايتنا ذلك الشخص الذي أهدى اجتهادا ونشاطا. أما ذلك الذي قصر وخرّب، فإنه يؤخذ بذبّه.

[ص ٥١٦] ولا يهون هذا الإقطاع الذي منحناه إياهم، ولا يعطونه هذا أو ذاك، ولا العبد والكبار والصغار والأقارب والأصهار وغيرهم. وكل من يقدم على هذا العمل يحترق محرما ويقتل.

وإن صدق المرأة بمقتضى الحديث النبوي الشريف كما نفذناه بصورة مستقلة بمقتضى الرسوم الصادر في هذا الباب، وهو ما تقرر أن يكون تسعة عشر دينارا ونصف^(١).

ناسما: ليكن معلوما أيضا أن هذا الإقطاع قد خصص للجنود المتطوعين الذي صاروا حراما ثم رحلوا. وإذا توفي شخص من تلك الجماعة، فإنه يقوم مقامه أحد أبنائه أو أسرته فيقطع إقطاع المتوفى ثم يسجل. وإذا لم تكن له ذرية فإنه يسلم لأقدم غلمانه. وإذا لم يكن له غلام أيضا فإنه يعطى من يكون أجدر من بين الفرقة المكونة من مائة جندي. وإذا كان من بين المائة أو العشرة من غير القتاتون، فإنه أسراء الألف والمائة يعتبرونه مذنبًا، فيعطون الإقطاع شخصا آخر يستطيع التحمل ويسجل باسمه. ثم يعرض السجل علينا كل عام. كذلك أمرنا بأنه إذا طالب المتطوعون بشيء يزيد عما هو مفصل من الأموال والضرائب وغير ذلك، وعما هو مرسوم في سجلات القوتين والتسهيلات، فإن العارض يمنعه من ذلك. وإذا ما أخذوا الإقطاع بالعرف والقوة، فإن على العارض ألا يخفى الحقيقة، بل يسجل اسمه ويعرضه علينا.

عاشرا: عندما يسير هؤلاء المتطوعون بعد عرضهم بموجب حكم الرسوم بطلع الكاتب الفلاحي أولا أمير المائة، وبعد ذلك أمير الألف، ثم أمير التومان - على السجل المخصص الذي كتبه، ويواجههم ويعرض عليهم. ثم يطلع عليه قائد المتطوعين. وتقرر أيضا أنه عندما

(١) الحديث هنا عن صدق الرثة فيه استطراد وبعد عن الموضوع الرئيسي الذي يعالجه رشيد الدين، وهو الذي يتناول منح الخزانة من جنود القبول الإقطاعيات، هنا من جهة ومن جهة أخرى لم يرد نص صريح عن النبي صلى الله عليه وسلم بمدد فيه صدق الرثة، وإنما نص عن الملائكة في الصدقات، وحث على اللياسة وانتظر قضية تنفيذ الصدقات، تكليف الشيخ عبد الله بن زيد كل محمود، ص ٦، (الطبعة ١٣٩٦هـ).

بين إقطاع أمير الألف ويخصه له، لا يتصرف في إقطاع التطوع. وحيث إننا أقطعنا
 المعارض كذلك من ولاية أخرى، لا يكتب حوالة على إقطاع التطوع، ولا يحول إليه شيئا.
 لقد قررنا كل هذا، وأنعمنا على المتطوع بإقطاع على النحو المذكور. وإذا ما أخذ
 المتطوعون أيضا شيئا من المزارعين يزيد عما هو مذكور ومدون بالتفصيل في سجل
 القوانين، [ص ٥١٧] لو تعرضوا للمزارعين الذين لم ندعهم تحت رحمة المتطوعين، لو أنهم
 حووا المزارعين في الولايات الأخرى وأووهم، أو أنهم اعتدوا على مواضع الماء والأراضي
 الواقعة على حدود قراهم أو اغتصبوا الأراضي الزراعية ومرعى الأبقار والأغنام والحمبر
 ولا يملنون كل سنة عدد الحيوانات وإنتاجها ويتكأون ويتحطون الأعشار، ويرسلون
 أشخاصا آخرين بدلا منهم تحت اسم المتطوعين. وإذا حدث شيء من هذا فإن هؤلاء أيضا
 يصرون مجرمين.

وعلى الشخص الفلاني الذي عيناه للقيام بأعمال للكتابة في الكتيبة المكونة من ألف
 جندي أن يضبط جيدا كل الأقسام التي ذكرت في هذا المرسوم، وبين كذلك المواضع التي
 لم تدخل فيها، وكل من قام بتعمير وإصلاح في عمال الإقامة، ويكتب أيضا بالتفصيل كل
 ما صار يوار تماما من الأراضي، وذلك على حدة وبالتحديد والتفصيل، ثم يحضر هذه
 المعلومات إلى الديوان كي يثبت في السجلات، وتجمع في قسم الإضافات.

ولقد سلمنا هذا المرسوم للكتيبة الفلانية حتى يحضر الجميع من الآن فصاعدا تهاده
 مؤبدا ومخلدا، ولا يدخلون عليه تغييرا ولا تبديلا (فمن فعله بعد ما سمعه فإننا إنشء على
 الذين يفعلونه إن الله سميع عليم)^(١).

حرر هذا المرسوم في الشهر الفلاني والسنة الفلانية وفي المكان الفلاني.

(١) سورة البقرة، آية ١٨١.

المكايبة الخامسة والعشرون

في كيفية إعداد جيش خاص مستقل للمسلطان غازان خان

قبل هذا كان جيش المغول أثل منه الآن نسيباً، فزاد سلطان الإسلام - عجل ملكه - بتدبيره وكفايته جنود المغول والتازيك، وقال: إن حدودنا وثقور ممالكنا هي: خراسان وفارس وبغداد وديار بكر وبلاد الروم ودرهند^{١١}، وهي متباعدة جدا الواحدة عن الأخرى. ورغم أنه قد أتيم في كل موضع من تلك المواضع جيش مستقل للدفاع عنه، فإنه إذا ما دعت الحاجة إلى انتقال جند من ناحية لخدمة ناحية أخرى يتأخر وصول [ص ٥١٨] القوات بسبب بعد المسافة. وفضلا عن أن الجنود كانوا يتعرضون للجوع والعري، وتهزل قلوبهم وتفنى، لا يؤدي هذا بالقطع إلى نتيجة حاسمة. ولما سبب أمر السلطان بتعيين شخص واحد أو اثنين إثنين من كل منزل فيه ولدان وأخ وسائل خيل، وكون من مجموعهم جيشا مستقلا، وعينهم مدنا للأطراف ليرابطوا مع الآخرين. كما عين جند التازيك للمرابطة على المضائق والأماكن الوعرة على الحدود التي يمكن أن يحافظ عليها المشاة، ومنع الجميع المرتبات والإقطاعات. ولم يكن هؤلاء الجنود يخضعون من قبل لأي نظام مع أن قوادهم كانوا يتقاضون عدة مرتبات وذلك بانتحال الأعذار المختلفة. هذا على الرغم من أنه لم يكن هناك جنود قط.

وفي هذا الوقت أيضا أمر بتعيين الكتائب والفرق منهم، وكتابة أسماء الجنود ورتبهم في السجل، وهم مطالبون بالعرض في كل شهر لتفقد عندهم وعددهم من فرسان ومشاة بموجب الضبط والقانون الساريين، وبمحكم المرسوم الصادر في هذا الشأن. كذلك أمر بإعداد جيش المغول على هذا النمط الذي يتناه في الفصل السابق. وفي المرسوم الذي سجلناه بخصوص إقطاعات الجنود. فما الحاجة إذن إلى التكرار؟

كذلك عين لكل ثغر عددا من الجنود يكفي لحمايته. أما الجنود الذين لهم موطن ومحل إقامة في الولايات فقد عين منهم من يكون أقرب إلى الثغور، ليكونوا عوناً للجنود الذين

(١١) "درهند" يسبها الغرب باب الأيوبي، وتقع في أقصى شمال بلاد شروان. وهي أعظم موطن عمر لروم. (انظر

بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٤ - ٢١٥).

يدافعون عنها وقت الحاجة. وهكذا نظم الأمور بحيث إنه في أى وقت لا يسرع طرف
لجدة طرف آخر بشر ضرورة ملحة. وزيادة عن اليهود أعد جنودا آخرين ليكونوا
مرابطين وعلى أعباء الاستعداد.

بهذه الإجراءات استعمال السلطان الحراس والقواد وحظهم على أن يختار كل منهم
واحدا أو اثنين من إخوته وأولاده الذين ليسوا ضمن تعداد الجيش الرسمي، فزاد بذلك كل
ألف جندي مائة أو مائتين، وأحضرهم جميعا خلال عام واحد. وقد أمر لهم سلطان
الإسلام خلد ملكه بالإتعامات و المرتبات والإقطاعات [ص ٥١٩] ومنذ عدة سنوات
نشب نزاع وخلاف بين أعقاب جوجي و چنئای وأوگتای الذين هم بنو أعمام السلطان
خلد ملكه، فكان جنودهم يهر بعضهم على مواطن البعض، وبأسرون أبناءهم ويعتونهم
للتجارة، بل إنه بسبب الفقر كان كثير منهم يبيعون أولادهم أيضا. فأخذت سلطان الإسلام
الغيرة من تلك التصرفات، وقال: كيف يجوز لأقوام المغول، وأغلبهم من نسل الأمراء
العظام الذين رحلوا في عهد چنگيز خان، وأعقابهم في هذا الزمان ولا زالوا يبيعون
أنفسهم عبيدا للتازيك، أو أن أغلبهم يضطرون إلى التسول؟ ولإزالة هذه الأمور السيئة يلزم
رعاية حقوق تلك الجماعة، والحفاظة على شرفهم؛ إذ إنه بدون هذا تتحطم الصلوات
وتضيع هبة جنود المغول التي كانت قد وصلت إلى نجم الميوق (أى إلى عنان السماء)
ويصبحون محترقن في نظر التازيك، ويعمل أكثرهم أيضا إلى الولايات النائرة.

لذا كله أمر بأن يشتروا لحساب الحضرة كل من يحضرونه من أبناء المغول، وأن يدفعوا
أثمانهم بالنقد الذهبي حتى يحصل الذكر الطيب، ويحقق الثواب، ويتكون منهم الحرس
للجيش الخاص الملازم للحضرة. وقد اشترى السلطان خلال هذين العامين كثيرا من أبناء
المغول، وعين لهم المرتبات والمؤن، وألزمهم في ولاية "مراغة" وعهد بإمارة كويتهم المكونة
من عشرة آلاف جندي إلى يولاد جينگسانك. كما عين قواد الفرق المكونة من الألف
والمائة من المئربين إلى الحضرة. وبذلك اجتمع ما يقرب من عشرة آلاف جندي وهم
يشتركون وفقا لهذه القاعدة كل من يجلبونه منهم حتى كونوا منهم كتيبة كاملة، بل ما يزيد
على ذلك، وصار جميعهم حرما خاصا وملازمين السلطان. وفي أى عهد من العهود لم
يكن هناك جيش يمثل هذا الإعداد والترتيب على النحو المتبع الآن في هذا الزمان. وقد

المكايبة السامسة والمشرون

فى منع إقراض المال بالربا والقضه على التعامل بالربح الفاهش

عندما بسط سلطان الإسلام خلد ملكه ظل معدته وتفحص بنظر البصيرة مصالغ الخاص والعام عرف على وجه التحقيق أن الإقراض بالربا وأنواع المعاملات غير المشروعة تؤدى إلى اختلال أحوال الجمهور، وخصوصا فى هذا الزمن الذى انصرف فيه الناس دفعة واحدة عن جادة الإنصاف، وامتدت أيديهم إلى ممارسة الأعمال غير المشروعة. فقال فى هذا الصدد: إن تشارك هذا الخلل من الواجبات حتى لا يؤثر ولا يسرى شؤم هذا العمل غير المشروع، والمؤدى إلى الخلل إلى كل الشئون. وقد نفذ السلطان أحكام المرسوم المطاع فى العالمين حتى لا يقدم أى مخلوق على تلك القفلة الذمومة غير المشروعة. ولما كانت القوائد العظيمة التى تضمنتها هذا الحكم ليست مخفية على أبناء هذا الزمان وإنما إذا ذكرت فى الكتاب فإن الجميع يدركون أنها محض الصدق وسيعرفون فى المستقبل أن حكم سلطان الإسلام خلد ملكه يقضى باستئصال مفاصد عديدة استحصلا كلها.

لهذا السبب نسجل هنا عدة أنواع من المفاصد، حتى يعرف أهل العلم أن ارتكاب عمل واحد منها أمر غير مشروع، ويتولد عنه كثير من الخلل والفساد والاعتراف. وتوضيح ذلك على النحو الآتى:

أولا: فى عهد أبى قحطان الذى اشتهر بين الجمهور بأنه كان ملكا عادلا. وفى أيامه كان الناس آمنين مسترخين، لأنه أبقى على نظم والده هولاءكو خان الذى كان فى الحقيقة "صاحب قران"^(١) المهيد، وذلك من حيث مراعاة القوانين وتوخي العدل، وانتهاج سياسته. وكان الأمراء وأركان الدولة ووزراء أبيه، وبعض ممن دغل الخدمة فى أيام حكمه يزاولون

(١) لقب يوصف به من تتخذ نطقه أو يولد عند هيران كركمى للشترى وزجل على حسب الأصول القبلية القديمة وتأثيرها فى اللوحات؛ فكانوا يظنون أن مثل هذا الولود سيكون له شأن عظيم والقاسوس القديم فى العصر الجديدي، تكلم الشيخ أحمد النجوى. جلد دوم (١٤٠)، ص ٨٨٢، تهران ١٣٥٤ هـ.ش.

أعمالهم. وفي ذلك الوقت أُعد بعض التجار على نفقتهم الخاصة عدة مجموعات من الأسلحة تضم الجواشن والخيول للدرعة وآلات الحرب [ص ٥٢١] وبعضاً من الخيول الفارغة، وقدموها إلى حضرة أباتاخان. وبواسطة أمراء السلاح والمشرفين على الاصطبلات أخذوا أشانها بطريقة كان فيها ربح لهم. وعندما شاهد الآخرون تحقق ذلك الكسب اقتنوا بهم. وقد وصل الأمر إلى حد أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم ثروة، كانوا يفترون الأموال بالربا، وأخذوا ينفقونها في هذا الفرض ظانين أنهم سوف يسددون الدين من الربح ويحققون من رأس المال منافع لهم. وقد جرت العادة أن كل ما يودعونه بحمله أمراء السلاح والمشرفون على الاصطبلات إلى الديوان، ويأخذون به الخوالات ويطالبون بتحصيل قيمتها نقداً. وبهذه الوسيلة أتبع لكثير من الرعايا وكذلك الأشخاص الذين لم يكونوا يملكون شيئاً قط في عالم الله أن يحصلوا على أرباح طائلة سدّدوا منها ديونهم، وصاروا من جملة الأثرياء، وفجأة ركبوا الخيول العربية والخيال المرعبة السريعة وارتدوا للملابس الفاخرة وجمعوا حولهم الغلمان الملاح والحشم الكثيرين. وكانوا يسرون بالخيال والإبل المحملة ويطوفون بالطرق وللدن والأسواق. فكان الناس يتعجبون من أحوالهم ويسألون: من أين وكيف توافر هؤلاء بهذه السرعة مثل هذه السلطة؟! وعندما يقفون على حقيقة الأمر تتحرك في نفوس الشحاذين والمفلسين ولع ممارسة ذلك العمل، ويسيطر على رؤوسهم ذلك الهيام والولع. وهناك عدة آلاف من المسلمين واليهود من الخصافين والبائعين الجائلين الذين كانوا يعلقون في أعناقهم القررات المحبوبة على الكمون والكزبرة والأشياء البالية ويبيعونها. وكذلك صغار التاجين الذين لم يكونوا قد رأوا مطلقاً بأعينهم دانقا واحداً من النفود، ولم تكن بطونهم قد شبت من الخبز. هؤلاء أيضاً قد شغلوا بالتراض المال بالربا ولم ينفقوا ما اقترضوه في تهيئة السلاح وإعداد الخيل، بل صاروا يصرفون كل أموالهم في شراء ملابسهم والاهتمام بمظهرهم، أو يقدمونها رشوة إلى الأمراء اللذكوريين، ويأخذون صكاً ينص مثلاً على أن ألف مجموعة كاملة من السلاح وعدداً كبيراً من الخيل قد تم تسليمه. ثم يحصلون ذلك الصك إلى الكتاب. [ص ٥٢٢] ورغم أن هؤلاء كانوا واقفين على حقيقة الأمر فإنهم التزموا الصمت، لأنهم أخفوا شن صحتهم، فكانوا يكتبون المراسيم والخوالات بالأموال النقدية للولايات. ونظراً لأن الأمور قد تسرت لتلك الجماعة، وصاروا في نعمة

وآراء، شرعوا يقرضون الآخرين بالربا. ولهذا السبب اتخذوا أغلب الناس هذا العمل حرفة لهم وسلموا كل ما كان لديهم من الدراهم والديناتير والمشغولات الذهبية والألات والملابس، وأنواع الأموال من "صامت وناطق"^(١) للناس الذين كانوا يطمحون في تحقيق الفائدة. وما كان يرضى الشحاذون بيده بعشرة توماتات أى مائة ألف دينار، وصل إلى درجة أنهم لم يرضوا بيده بمائة تومان. ولولئك النصابون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم تجار ورجال أعمال أخذوا يجلسون في الدار كل مخلوق كان له إلمام بمعرفة الحط المغولي كمن يكتب لهم الصكوك كما يربطونها، ويضع تأشيرته كل أسير كانوا يطلبونها، ثم يحملونها إلى الكتاب الذين كانوا على علم بمقدار ما يقضه هؤلاء الناس عن كل تومان حتى يكتبوا لهم المراسيم والحوالات. وقد تضاعفت قيمة التومان بحيث إنهم اعتبروه لا شيء.

بعد ذلك كانوا يقدمون تلك الدعوى إلى الديوان، وعرضونها على حضرة أباقاخان. وكانت الحوالات والصكوك من الكثرة بحيث إنهم لو جمعوا كل ما في ممالك العالم من الذهب والفضة، وضموا إليه كل ما هو في باطن المناجم لما وفى بهذا المقدار. والعجيب في الأمر أننا إذا فرضنا أن ألف رجل يجمعون في إحدى الصحارى مجموعة من الأسلحة تبلغ ارتفاع جبل فاته لا يتوسعها مائة مستودع، لو أن عشرة آلاف حصان تكاد تستوعبها إحدى الصحارى والمزارع، فكيف أن مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل مسلح، ومائة ألف أو مائتي ألف رأس من الخيول، وهم كانوا يدعون أضعاف ذلك مائة مرة وزيادة، وكانت يدهم المراسيم والحوالات!

ولما كانت علو الهمة والمعظمة من شيم الملوك، لم يفكر أباقاخان في أن يسأل: أيهن عرضوا كل هذه الخيول والأسلحة التي لا حصر لها؟ [ص ٥٢٣] وعلى أى الجيوش وزعوها؟ وفى أى عزاتها؟ أودعها؟ وفى أى مرعى يربونها؟ أما الأمراء وأركان الدولة الذين كانوا واقفين على حقيقة الأمر فقد رضوا بحق السكوت المختصر، ولم يكن لهم مجال لتدارك الأمر بسبب ثلوثهم. وكان كل واحد من أولئك الأتقيان قد تشبث بأحد الأمراء

(١) صامت: الذهب والفضة، وناطق: الإبل والتمسح. (انظر الصحاح للجوهري ج ١، إسناد وتصنيف تدمر مرعشلى، ولغة مرعشلى، ص ٧٣٢، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٤م).

أو بإحدى الخواتين، وصرار يؤدي لهما أحقر الخدمات كي يتال رضاهما بما يقدمه لهما من خروف أو قنينة شراب. ولما تجاوز الأمر حده، أراد الصاحب السعيد الخوافة شمس الدين صاحب الديوان - رحمة الله عليه - أن يتشارك هذا الخلال، فجمع هؤلاء الألقاقين، وقال لهم: إن هذه الأموال التي نطالبون بها، لا توجد في العالم كله. وأنا أعرف أنكم لم تنفقوا شيئا أكثر من تقديم الهدايا. والآن أصبر شريكاً لكم، وسوف آخذ من الملك (المقصود آباخان) مائتي دينار في مقابل كل ألف دينار تنقسمها فيما بيننا. وحيث إنهم لم يكونوا قد صرفوا نصف دينار في مقابل كل ألف دينار، رضي الجميع بذلك. واسترضى هو نفسه الأمراء، وعرض عليهم قتالاً: سوف أوفر شاتية توماتات، وأكتب حوالة على الولاية بتومانين، بحيث تسلم للتجار، فوقع هذا الحل موقع الاستحسان. وكان صاحب الديوان يتسلم مراسيم ويكتب في الحوالة تومانين في مقابل كل عشرة توماتات بالنسبة إلى المبالغ التي يأمل تحصيلها. ولما كان نصفها عائداً إليه كان يعطيهم حصصهم من البضائع التي لم تكن تساوي ربع شنها، ويتسلم هو نصيبه تقديراً. أما الجماعة الذين كانوا يقرضون النصابين بالربا فقد ظلوا يطالبون مدة بقرض أخرى، حتى إذا استوفوا مطالبهم من المال، سدحوا ما عليهم دفعة واحدة، لكن الدائنين كانوا يالسين من الحصول على الربح ورأس المال، فلم يدفعوا لهم شيئا.

في هذا الوقت الذي حدث فيه هذا السلوك مع صاحب الديوان وراجت هذه الإشاعة التي تقول: إن الأموال تصل تباعاً، فسر جميع المتعاملين، وأعطوهم كل ما معهم من البضائع بالمشاركة. فكان هؤلاء المحتالون لشدة حرصهم وجرأتهم يمشون في بيوتهم، ويمررون الصكوك ويحملونها إلى كتاب المنقول، ويأخذون المراسيم والحوالات. فأدرك صاحب الديوان هذا الأمر. ولكنه ظل عاجزاً. ومن بين تلك الجماعة، كان هناك رجل يهودي يعمل خصاصاً^(١)، التجأ إلى المعسكرات في عهد هولوكرومان [ص ٥٢٤] وأحضر معه جمعا من المنقول إلى صاحب الديوان يطالبون بأموال للمشاركة فسأله الصاحب: كم مستحقاتك؟ أجاب بحماسة تومان. وأطلعه على الرسوم والحوالة، فتعجب صاحب الديوان، وسأله: أنتلك منزلاً في تيريز؟ قال: بلى. فعاد وسأله: أكبر هو أم صغير؟ أجاب: صغير. فقال

(١) الخصاص من نصف المال. (الجمهورية، ج ١، ص ٢٢٨).

الصاحب لو حمل مبلغ بحساسة تومان من الذهب إلى سطح متزك لتشرها عليه فهل يستوعبها لو لا ١٣٧ فاعترف اليهودى بأنه لا يستوعبها، وهكذا كان تصف هؤلاء القوم على هذا النمط. وقد أحقق صاحب المديون أيضا فى معالجة أمثال تلك القضايا، ولم يستطع تداركها. ولما انتشرت هذه الإشاعة كان الناس ينفقون يوما بعد يوم كل ما فى أيديهم فى هذا الشأن. وإذا لم يكن لديهم مال كانوا يقرضون؛ إلى أن صار أكثرهم فقراء معدمين. وعلى أمل الحصول على تلك التوماتات المثبتة فى الحوالات، حصاروا يضيعون وقتهم عبثا. وبعد مدة نظرا لأن تلك الأموال لم تكن تصل إلى التجار بس المتعاملون معهم، وكفوا عن مساعدتهم لسد حاجاتهم، وذلك بالحصول على قرض أو نقد. وأخيرا انتهز الصابون هذه الفرصة وقالوا لعملائهم: إتنا لا نغنى عليكم شيئا، ولأن لكم أنواعا من الحقوق علينا لن نسب لكم ضائقة مالية. لقد أعطينا بموجب الرسوم حوالات مختومة بالدعفة لصرف مبالغ كبيرة من الأموال المبنية بحولة على حساب الممالك، فنشركم فيها. وسوف نأخذ رسولا من الخاتون الفلانية أو من الأمير الفلانى حتى نحصل على أموالنا، ونعطيكم نصيبكم. ولكن الحرص كان يسيطر عليهم عندما يرون للراسيم والحوالات التى كانت تتضمن أضعاف المبالغ التى اقترضوها، والتى تنفقوا على مشاركتهم فيها فصاروا يدبرون ما يحتاج إليه هؤلاء القوم. ولما كان يتحتم عليهم أن يقرضوا بالزيادة باعوا أملاكهم، وذهب معهم أكثر عملائهم إلى الولايات. وهكذا اتجروا هذه الطريقة، فكانت عاقبة الأمر أنهم لم يصلوا إلى شيء قط وخسروا ديارهم ومقومات حياتهم، وظلوا مفلسين مدينين.

وبعد عهد السلطان أباقاخان أى فى عهد أحمد (تكدار) وأرغون وغيحاتو استمرت تلك الجماعة تجرد وتسمى فى طلب الأموال. وكان كل من الخواتين والأمراء الأتجمل والأمرء يتخذ رسلا يقبلون عروضاً جوفاء، وينهيون إلى الولايات، فكانت الأموال النقدية اللازمة للارتحال إلى الممالك تستهلك فى توفير العلف للوابهيم وسداد نفقاتهم. كما أن حكام الولايات راحوا يدافع الطمع يعطون الصنف الذى يساوى عشرة دنانير بثلاثين دينارا أو أربعين. وينبى أن تسدد الأموال نقدا للخرانة. [ص ٥٢٥] ومن مظاهر طمعهم أيضا أنهم كانوا يعطون العملاء الأحمزة للرصعة واللؤلؤ والأصناف الأخرى بأثمان مرتفعة وهؤلاء كانوا أيضا يرضون بذلك لأنهم إذا كانوا يأخذون حتى الحجارة والحزف لسداد

تلك النفقات، فإنهم يحضرون ذلك بلا مقابل. ولهذا السبب كانوا هم أيضا يبيعون تلك المرصعات بثمن جنس، وكانوا يرهنونها في مقابل شيء حثير. وقد ترتب على شؤم تلك التصرفات انحطاط قيمة الجواهر وكساد سوقها كسادا تاما، ومع هذا لم يستطيعوا الحصول على دخل أكثر من هذا بحيث يفي بسداد نفقات الرسل وتمهيداتهم.

وعاقبة الأمر أن التجار المنحرفين وعملاهم ظلوا جباعا عراة. ولهذا السبب كانوا يحجزون عن القيام بأى عمل يحصلون به على الكفاف لمهشتهم. وكانت أموال الخزانة تعرض للتلف والتبديد، ولم يستطع شخص قط أن يتدارك هذا الخلل.

وعندما وصلت نوبة الحكم إلى سلطان الإسلام غازان خان خلد ملكه أمر:

أولاً: بعدم إفراض اللال بالربا، فكفت تلك الجماعات أيديها عن التعامل به، ولم تكن لديهم أية حيلة أخرى يلجأون إليها. وفي هذه السنوات القليلة اختفى المرابون العديدون مع كل المراسيم والمحاولات، وتركوا تلك المعاملات التي لم يكن لها سند ولا أساس على الإطلاق، ولم يذكرها أحد. وهكذا تصرفت تلك الجماعة التي كانت تراول هذه الأعمال وعاد كل منهم إلى حرفه الأول، وظهر الفرق بين الكريم والشحاذ، والشريف والوضيع. وقد اتخذت تلك الطوائف الفساعة شعارا لها، وهم يتوجهون بالدعاء لدولة سلطان الإسلام - خلد ملكه -.

وبعد، فهذه كانت إحدى مسلوي التعامل بالربا على النحو الذى شرحناه.

ثانياً: الأشخاص الذين كانوا يتعاملون بالربا خلال هذه الفترة الطويلة أكثرهم من المغول والأرمن. والحقيقة أن الناس إذا افترضوا للال بالربا، فكيف يستطيعون أن يكونوا سعداء؟ عاقبة الأمر أنهم كانوا يحجزون عن أداء ديونهم، فيظلون في ذل أسر مدنيهم مع نسايتهم وأولادهم. ولكن بين معاملة سلطان الإسلام خلد ملكه زالت تلك المذلة عن أهل الإسلام.

ثالثاً: مسألة أخرى تتعلق بتخلل خطير كان يحدث خلال هذه الفترة الطويلة حينما لم يستطع الملوك وحكام الولايات ممن كانوا أناسا يتصفون بالأصالة والشرف - أن يمهّدوا بتحصيل أموال الولايات حسب المقرر. [ص ٥٢٦] وكانوا يتجنبون تلك الأعمال. وإذا كان الشحاذون والأشرار يستطيعون أن يعيشوا عشرة أيام في تمس الملوك بدلا من عشر

سنوات يقضونها مفلسين فإنهم كانوا يأخذون المال بالربا، ويقدمون الهدايا الثمينة ويتسلمون الحكم في الولايات، ويصلون إلى مناصب الملوك والسلاطين المشهورين ويجمعون لأنفسهم ضرائب باهظة من الولاية. ولما كان عليهم أن ينفقوا نفقات للمسكر وشن الظلمان والدواب والملابس الفاخرة والكعكيات الأخرى كان من الضروري أن يقرضوا المال بالربا. وحيث إن ذلك الشخص الذى كان يقرض المال يعرف أنه يعرض ماله للتلف فإنه لا يعطى هذا المال إذا لم يتصور أنه يحقق له ربحا كبيرا إلى أقصى حد. فلا شك أنهم كانوا يستطيعون أن يأخذوا ثلاثة دنانير أو أربعة نظير كل دينار يفرضونه. وعندما كانوا يذهبون إلى الولايات كان مجموع إيرادات الديوان لا يفي بسداد فروضهم. ولهذا كان من الضروري أن يأخذوا من الرعايا أضعاف المقرر عليهم؛ ففزع آلاف عديدة من الناس من عباد الله وممولي الضرائب فى نصب ومشقة، ويعتقون معذبين. ولما كان أصحاب الديوان مطلعين على عدم استقامة تلك الجماعة. ولأنه كان ينبغي أن تكون الأموال موجودة، فبدعها كلها هنا الحاكم، ولوث سمحتهم. وما دام ذلك كذلك فإنهم ما كانوا يستطيعون منعه. وقد كان هو أيضا شخصا مفلسا. وبالإضافة إلى ذلك سمح مضطرا للرعايا العديدين بأن يأخذوا مالا أزيد مما يستحقون. وقد أبدى فى ذلك إهمالا وتغافلا. كذلك كان يلزم أن يقدم هدايا شينة للشحنة وكتاب الولايات حتى لا يمتعوه. وإذا لم يأخذوا لما تيسر اللفح. ومع هذا لم يكن يصل مطلقا أى مبلغ من النقد إلى الخزانة. وإذا أحضروا أحيانا بعض البضائع فإنه لم يكن شئها يساوى ربع قيمتها. ولهذا السبب كانت شئون الجيش مضطربة بسبب ندرة المونة. وسنة بعد أخرى كانوا يتسلمون منهم الولاية بهذه الطريقة. وكان الكبار المحترمون مطلعين على أفعال أولئك المفسدين الأخساء، ومع هذا لا يستد إليهم عمل مطلقا. وقد قال كبار الحكماء: إن الملك يفتل ويوزل عندما ينحى الأشخاص الأكفاء عن مزاوله الأعمال المناسبة لهم، وتسد إلى غير الأكفاء. [ص ٥٢٧]

وقد ظلت هذه الطريقة متبعة فترة من الزمن. وعندما صار صلبر الجلاوى وزيراً، وصل أمر الإقراض بالربا إلى حد يصعب تصديقه إذا حولنا الشرح والإقاضة، بيد أننا نرى أن ذكر نبذة عن الموضوع أمر ضرورى، إذا ما أردنا الإحاطة به. وحيث إن جميع أهل الزمن الحالى قد شاهدوا هذه الأحداث لا يمكن أن نقول جزئنا. أما بالنسبة إلى القراء فى الأزمان

المقبلة، فسوف يبدو لهم ذلك أمرا مستحيلا وتوضح ذلك أنه في عهد الوزير صدر الدين كان المصهدون في الولايات أعرض أبناء عصرهم. وحيث إنهم كانوا يعرفون عادته، وهي أنه يبيع بقره بمجمل صغير. وكان المصهد يقترض المال بالربا، ويقدم الهدايا على سبيل الرشوة؛ فما كان يساوي عشرة دنانير بأخذه صدر الدين بعشرين دينارا. ثم يعطيه له بثلاثين، فكان يرضى بذلك. ثم يقول له: ينبغي أن يدفع قسط من المال للديوان، فينطلق المصهد قائلا: هنا يقترض المال بالربا. وإن ذلك المقدار الذي أعطيته على سبيل الهدايا قد تيسر بصعوبة بالغة (بالف حيلة)، فكان الوزير يقول له: لن يصيبك ضرر. وإذا أخذت مالا فسلمه لنا. وبمجرد أن كان ذلك الشخص يسلم القبالة وبموجب الأصل والربح من المال بأخذ بسهولة كل ما يساوي عشرة دنانير بثلاثين دينارا، ثم يعطيه إياه بأربعين. وفي الحال يصرف تلك الدنانير العشرة للمتوافرة. ولما كان صدر الدين يريد الحصول على المال بسرعة قال نوابه: إن هذا الشيء يساوي عشرة دنانير، لكنهم لن يشتروه بأزيد من ستة دنانير ويحصلون لأنفسهم على الدنانير الأربعة الباقية.

والخلاصة أنه لم يكن يصل إلى صدر الدين لأزيد من ستة دنانير من أربعين دينارا هو أصل المال. وذلك أيضا هو مال الديوان الذي كان يبدده. وكان من بين عملائه شخص اشترى من أحد التجار عدة آلاف من النعم خاصة صدر الدين، شن كل رأس منها خمسة دنانير. وقد أعطى التاجر مهلة شهرين لسداد الثمن. ولما حل ميعاد الدفع لم يكن النقد موجودا. وكان أكثر ما تبقى من تلك الأغنام قد صار هزيبا غريبا فأمر ببيعها كلها بثمن بخس، وإعطاء التاجر ربح شهرين بالإضافة إلى شئها. ثم أحالوا القبالة الأصلية وفق هذا القرار إلى شهرين آخرين. فلا جرم أنه بشؤم تغلغل مثل هذه الأرباح تبذرت أسواق المال، ولم يسلموا للخزينة شيئا منها قط. وكل حوالة أصلها مبهاتو باسم المروءة والسخاء لم يكن يصل منها مطلقا داتق واحد [ص ٢٨٥]. لشخص من الأشخاص. وكذلك الحال بالنسبة إلى المؤن والمرتبات والنفقات المقررة. ولما سبب لفر الجند من مبهاتو. ورغم كبل هذا ظل صدر الدين مفلسا دائما. ولما قتل كان في عنقه الآلاف المؤلفة من مظالم الخلق. وما أكثر الدهار ثلثية بالأموال والنعم التي صيرها عاوية على عروشها. أما ولاية الأتاليق من السلاطين والمثوك الذين كانوا يقصدون البلاط فقد صاروا

بهذه الطريقة مدنين يقترضون من مائة ألف مسلم ومثولي. وعلى هذا النحو تبددت أموالهم جميعا. ولقد توفي بعض هؤلاء القوم والمظالم في أعتاقهم. وعلى هذا للنوال خسر بعضهم أهلهم وأموالهم وأثاثهم مثلما رأى الجميع بأعينهم وسعوا بأذانتهم. وقد أدرك الجميع أنه لم تكن هناك مبالغة بل إن هذا القول إنما هو مثال وقيل من كثير بالنسبة إلى الواقع.

وعلى هذا النحو صار من الصعب لتشارك مثل هذه الأمور العظام التي رسخت في أدمغة الخواص والعوام. وبسبب الأضرار والأهواء المذكورة، فإن جميع الأمراء الأنجال والخوانين والأمراء والوزراء والكتاب والأكابر والأثباع كانوا يرعون هؤلاء القسدين وكان لبعضهم ديون عليهم، وكان بعضهم يقبل المغايا منهم. وليس هذا فقط، بل إن بعضهم صاروا شركاء لهم. ومهما يكن السلطان عادلا وذا سياسة وصاحب شوكة فإنه يكون من الصعب أن يستطيع التغلب على هذه الصعاب إلا إذا كان مزودا بالحكمة والكفاءة والعقل الكامل.

أما سلطان الإسلام خلد ملكه فقد فكر في فكرة مباركة؛ إذ عرف أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا. فإذا منع ذلك فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامي من جهة، وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة المغتاية من جهة أخرى. وببركة منع الربا قضى السلطان على كثير من الأضرار الجسيمة.

وعلى أثر اعتناكه إلى تلك الفكرة أصدر مرسوما في شعبان سنة شان وتسعين وستمائة (١٦٩٨هـ/١٢٩٨م) يقضى بالآلا يتعامل أي شخص بالربا فاستكر ذلك أكثر الناس الذين كانوا قد اعتادوه، وصار بعض الأكابر من ذوى النفوذ يقولون: إنه بصدد هذا المرسوم سوف يفلق طريق المعاملات نهائيا، فرد عليهم سلطان الإسلام - خلد ملكه - إننا قررنا إغلاق طريق المعاملات المذمومة. كذلك قال بعض الجهال من أصحاب الفرض والهوى [ص ٥٢٩] إنه يلزم للخزينة أموال نقدية في كل وقت، وإذا لم يقرضوا حكام الولايات فسوف يمجزون عن أداء المال، فقال سلطان الإسلام ووزرائه: إننا لن ندع أي شخص يتعامل بالربا في مصاغ الديون، أو أن يأخذ أي شيء من أصل المال أو ربحه. وقد نبه السلطان مرارا على الخوانين والأمراء الأنجال والأمراء بالآلا يقرضوا على الإطلاق تلك الجماعة.

وعلى هذا أمر المشركين بأن يتنادوا صراحة بأننا لن ندع أحدا قط يقرض هذه الفكرة مالا، أو أن يطلب شيئا منهم أثناء حياتهم لو من تركاتهم بعد مماتهم لأننا لا نريد منهم مالا نأخذنه كسلفة. وإذا ما بددوا أموال الديوان، فسوف نصادر أمصتهم وأموالهم في مقابل ذلك.

رابعا: مسألة أخرى هي أن المعارضين قالوا: إن القروض ضرورية لأرباب الحاجات لإعجاز مهماتهم. وقد رد عليهم السلطان بقوله: لماذا يبيء الشخص الذى لا يملك نفقات الطريق وما يحتاج إليه السفر؟ أية فائدة تعود علينا منه، أو تعود عليه منا؟! يجب أن يخلص مسترهما في منزله لا يبرحه. وحيث إنهم كانوا يسوقون تبريرات أخرى من كل نوع، كان يرد عليهم بقوله: إن الله تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. أو كان ينهى أن ترد عليهم نحن بالضرورة بهذا المعنى فنقول: هذا ما أمر به الله^(١) ورسوله، ونحن أسمع قط كلاما بخلاف ذلك. ومنذ ذلك التاريخ لم يعطوا مالا أى مخلوق أراد الاقتراض بالربا. وإذا ما استجد شخص ذو تقوى فإتهم بمتونه بحكم الرسوم.

ولأن الناس جميعا في زماننا هذا لا يتعاملون بالربا بحمد الله ومنه زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف الناس، وصار أكثر الأموال النقدية تصل إلى الخزنة ذهباً أحر؛ لأن للقانون لا يبيح تسليم الأموال العينية بدلا من النقدية. كذلك ثبتت قيمة الجواهر والرصعات. وكل من يملك مالا لا يسله ليد مفسد من المفسدين فيتزه بالحيلة. وبذلك صار أكثر لوزاق الخلق حلالا، وعمت البركة، واشتغل **[ص ٥٣٠]** أكثر الناس بالزراعة والتجارة والحرف النافعة. وبهذه الوسيلة انتظمت أمور العالم من جديد، ووجدت رونقا وبهاء. ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفساد. أما الذين يعيشون بعد هذا، ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى هم أن يدركوا فائدة هذا القانون؟! وخلال هذه المئة التى نفذ فيها هذا الحكم كان بعض الناس ممن سيطرت عليهم لذة التعامل بالربا يبيحون بالقروض كثيرا من البضائع بأشياء باهظة، بحجة أن ذلك من قبيل التعامل والبيع المشروع، ولأنه لم يتخذ شكل الربا.

(١) نهي الله خلقه عن التعامل بالربا فقال في حكم كسبه: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من لمس ذلك﴾ بأنهم قالوا: إننا نبيع مثل الربا وأسل الله طبع وحرم الربا فمن جاهد موطنه من ربه فانتصه فله ما سلف ولربه إلى الله ومن عاد فلأنك تصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

وعاقبة الأمر أن هؤلاء الغرماء كانوا يأتون إلى الديوان ويقولون: لقد باعوا لنا بضائع بهذه الطريقة، وأنهم يطلبون شنها، فغضب السلطان خلد ملكه وقال: إنهم إذا لم يتركوا هذه الخيل والتزويرات فإنا سوف نأمر بأن كل شخص يأخذ قرضاً بهذه الطريقة لا يعيد على الإطلاق رأس المال ولا ربحه. فإذا وجد المال متوافراً إمام الناس فما الناس لإقراضه؟! .. ينبغي أن يشتروا به أملاكاً، ويستثمروه في التعمير والزراعة والتجارة فصار الناس يخافون من ذلك، وقل التعامل بالربا، كما قلت المعاملات المجهضة. ومن المؤكد أنه سوف يقضى نهائياً على هذه الطريقة وفي أسرع وقت.

فليوفق الحق تعالى هذا السلطان كي يقضى دائماً على هذه الرسوم المضمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف مهيأة وراسخة.

المكاتب السابعة والعشرون

في منع الخلاة في صدق الزواج

قال سلطان الإسلام: إن الحكمة الإلهية في تشريع الزواج هو أن يكون هناك تماسك وتوالت بين الأدميين. ولهذا السبب فإن حكم الشريعة يقضي بأنه إذا تفوه شخص بكلمة الطلاق سواء أكان جادا أم هازلا، وسواء أكان رافيا لم غاضبا فإنه يقع الطلاق في الحال لأنه إذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجة وزوجها [ص ٥٣١] فالأولى أن يتفصلا، وإلا فسوف يؤدي عدم الوفاق إلى الحدة والفضب. وإن استمرار الحياة مع الغضب على عادة الوحوش، ولا محالة أن ذلك يؤدي إلى النفور، ولا يتحقق التوالد والتناسل مع وجود النفور. ولهذا السبب أصبح طريق الطلاق مفتوحا دون مانع قط.

أما إذا عقد النكاح على امرأة بصدق باعظ فمن يستطيع أى مخلوق أن يبادر بطلاق زوجته، وذلك خشية أن ينفق المال الكثير. وإذا كانت علاقة الزوج بزوجته ليست على ما يرام وغير محتملة فإن الزوج يضطر إلى التحمل. وهذا الأمر خلاف المشروع والمقول ذلك أنه بموجب ما تقرره تقتضى حكمة الشارع أنه إذا ما تردد شخص فى إظهار المحبة لزوجته، ولم يحرص على اتفاق وجهات النظر بينهما فإنه يستطيع أن يتفصل عن زوجته دون جدال أو تفكير أو مانع.

كذلك تقتضى حكمة الشارع أن تكون رعاية الناس لأبنائهم وتوفير مؤنهم ولوازمهم أمرا واجبا على الآباء. وهؤلاء الآباء معرضون فى كل وقت لمنع الإعانات عنهم، أو أن بعضهم يرحل كجنود احتياطيين بعيدا عن أولاده. فإذا ما استهلك صدق الزوجة فمن أين يتوافر المال لتربية الأبناء، وسد حاجات البنين ورعاية شئونهم؟

وبناء على هذه المقتضات، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استحسّن المهر القليل فى الزواج بنهى أن ينفق الناس الصدق إلى أقصى حد؛ بحيث لا تجب عليه الزكاة. وبناء على هذا تقرر ألا يزيد كل الصدق على تسعة عشر دينارا ونصف؛ ذلك أنه ليس هناك إثم قط فى الصدق القليل. ولا شك أن الشخص الذى يهب زوجته لا يمكن التفرق بينهما

مهما بلغ التحامل والإجبار. أما الزوجان اللذان لا يوجد بينهما وفاق فمن الأولى أن يفصلا بأسرع وقت ممكن كي يتخلصا من اللتاعب، ويستفيد كل منهما؛ لأنه ثبت بالتجربة أن بعض الزوجات لا يفهمن أزواجهن، فإذا ما طلقن فإن الآخرين يتزوجون منهن ويحبوهن، فتكون هناك فائدة للطرفين.

لهذا السبب أصدر السلطان مرسوماً بخصوص هذا الموضوع.

والسلام.

الحكاية الثامنة والعشرون

في إقامة المساجد والحمامات في القرى بكل البلاد

لا يخفى أن احتياج الناس إلى الحمامات والمساجد من الأمور الضرورية. وفي بعض من ولايات الممالك لم يبن في القرى شيء من كلا النوعين، ولم يهدر ملوك الإسلام ذلك من قبل. ومن المؤكد أن الأهالي في تلك الأماكن لا يقيمون صلاة الجمعة، ولا يتيسر لهم غسل الجنابة والتنظيف، كما هو مشروط شرعاً، مما يسبب خطراً في دينهم.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان وأصدر مرسوماً يقضي بإقامة مسجد وحمام في كل قرية من قرى كل الممالك. ويحظر جرماً وقسماً من لا ينفذ هذا الأمر. وخلال ما يقرب من عامين أقيمت في كل البلاد المساجد والحمامات في الأماكن التي لم يكن فيها مساجد ولا حمامات. وفي هذا الزمان تحصل أجور مرتفعة من تلك الحمامات، فأمر السلطان بأن يتفق منها على ما يلزم تلك المؤسسات، وعلى شؤون المساجد من تعمير وقرش وإنارة وصرف أجور للخدم.

وبمجرد أن تم هذا النموذج الدال على حسن التدبير الذي أمر به السلطان جرى مثل هذا العمل الخيري في عدة بقاع من بقاع الممالك، وظهر شعار الإسلام، ونعم الناس بالهدوء والراحة.

أوصل الحق تعالى بركات ومثوبات ذلك إلى أهبام السلطان المباركة.

الحكاية التاسعة والعشرون

في منع الناس من اهتماء الشراب

حيث إن أكثر الخلق في الممالك يقتنون على شرب الخمر وتناول المسكرات وكانوا يهتمون في العريضة والتمت بسبب سكرهم في الأسواق والجمعات؛ فيؤذى بعضهم البعض، أو يُجرح بعضهم أو يجل بهم الإعياء والإرهاق مما يوجب محاكمتهم. والمسكرات حرام ومنه عنها في كل المناهب واللئل^(١). وبسبب ما تقرر عنها، وما ورد من ذمها بمصر الفاسد التي تنتج عنها، نرى أنه لا داعي إلى الإطناب في ذلك. يكفي أن أطلق عليها اسم الخيائث^(٢).

وبخصوص تشارك هذا الخلل، قال سلطان الإسلام عند ملكه بما أن المشرع عليه السلام وسائر الأنبياء قالوا بتحريم الخمر [ص ٥٣٣] وأن النصوص قاطعة في ذلك الشأن هنا على حين أن الخلائق لا يترجون ولا يتركون الشراب، وإذا نحن أيضاً منعنا الشراب مطلقاً، فمن المؤكد أنه لن يتفقد ذلك. بناء على هذا قررنا أن نكتفي حالاً بأن يقبض على كل شخص يحدونه شلاً في المدن والأسواق، وأن يعرض، ثم يربط إلى شجرة^(٣) وسط السوق حتى يمر عليه الناس، ويوجهوه فتيبه ويترجر.

وبخصوص هذا الموضوع أصدر مرسوماً وأرسله إلى أطراف الممالك. وفي هذا الزمان لا يمر أي مخلوق على أن يخرج إلى الطرق شلاً. وإذن فكيف يصل به الحال إلى حد الجنون والعريضة؟! وبهذا قضى السلطان على الفساد لتناجم عن اهتماء الشراب وعلى مشاجرات السكاري وخصوماتهم في الأسواق والجمعات.

(١) ورد في الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أحبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر". روي الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ورواه الطبراني عن القصاص بن بشير بنقط: "أحبوا كل مسكر". (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأعداء على لغة الناس للفيثوني، الجزء الأول، ص ٤٩، حلب بدون تاريخ).

(٢) يذكر الوصاف أنه في عهد غازان إنا نكتب شخص شرب الخمر، فإنه يعذب في السوق، ويلام عليه الحد الشرعي، ويعذب في شجرة يطلق عليها اسم شيراز "مروس السكاري" (مروس مسلمان) (انظر تاريخ الوصاف ص ٢٧٨، طبع بيبي).

كذلك أمر السلطان بالآلا يدخل أى مخلوق منزل الناس للبحث عن السكارى حتى لا يسلك العسس سلوكاً يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحمل المتاعب والمشقات بالمخلوق.
ليوفق الله تعالى هذا السلطان الجاهل الدين حتى يصير دائماً هذه الأحكام.
والسلام

الحكامة الثالثون

في إعداد نفقات الطعام للفاص والشراب لجيش السلطان المعظم

ليكن معلوماً للجميع أنه قبل هذا كان يسود الجدل والنزاع دائماً بخصوص إعداد نفقات الطعام. وكان الكتاب والمثقفون يوقع بعضهم بعض، ويتهمون بعضهم بعضاً. وكانوا يقاتلون في ذلك الأمر، فكان على الأمراء أن يشغلوا باستجوابهم ومحاكمتهم. وكانت نفقات الشراب والطعام في أيدي جماعة يتفقون مبالغ تزيد كثيراً عما صرفوه بالفعل. كذلك كانوا يضيفون بعض النفقات التي لم تكن لها صلة بتوفير الطعام وذلك من قبيل الصدقات ومعاشات الناس وغذاء الحيوانات والقهود وكذلك العلف ومشروب الرسل ورواتب بعض الأمراء الأتباع والخواتين ولوازم البيوت وأدوات المطابخ وأمثال ذلك. وهذه الأسباب تضخم ثروات طائفة من هؤلاء المستغلين. يضاف إلى ذلك ما كان يتفق على شئون اللادب وإقامة الحفلات. وأكثر هذه الأموال لم تكن في الحقيقة تنفق في هذا الغرض. كذلك حددوا للأصناف المختلفة أسعاراً مرتفعة. [ص ٥٣٤] وكانوا يميلون كل تلك النفقات على الولايات لتتولى تدبيرها. وفي نفس الوقت كانت الشئون المتعلقة بأموال الديوان غير مضبوطة ومضطربة. وفي نية الحكام والمثقفين ألا يعطوا الديوان شيئاً قط وذلك على النحو الذي وضحنا فيه أسباب تلك للفساد.

لكل هذا احتلت شئون الولايات اختلالاً كبيراً. ولم تكن النفقات اللازمة لتوفير الطعام تصل في وقتها. وكان الرسل الذين يذهبون لتحصيل تلك النفقات يهملون أداء واجباتهم مقابل ما كانوا يأخذونه من هدايا على سبيل الرشوة. كذلك كانوا يعطون المتعاملين معهم فرصاً كثيرة لسداد ما عليهم، وأيضاً كانت الحوالات تصدر مرة ثانية إلى ولايات أخرى، وهكذا سار الرسل على نفس الطريقة. وفي كل عام كان يذهب العليهد من الرسل لتحصيل نفقات الطعام، وكانت تزيد نفقاتهم وعلف دوابهم على أصل المال المخصص للنفاء. ومع هذا لم يكن المال يصل أيضاً رغم أن نفقات توفير الطعام قد حدثت؛ بحيث تكفي كل من يعمل لتحصيلها، بل كانت تكفي أشخاصاً كثيرين آخرين. ولكن حيث إنها

لم تكن تصل في وقتها، وكان للتصهون يفترضون المال بربح فاحش. وقد قوموا مائة من من الشراب بعشرة دنانير. وإذا كانوا يعملون بتدبير، فإن المتحصل يصير خمسة دنانير. وأحياناً كانوا يشترون مائة من بعشرين أو أربعين ديناراً.

ونتيجة لذلك فإن المال الكثير الذي كان يصل إليهم، والمبالغ التي كانت تزيد على نفقات توفير الطعام، أصبحت غير كافية. إذن فكيف تكون قيمة الخوالات التي كانت في أيديهم، وتأخر سدادها عامين؟ ومن جملة ذلك ما كان لا يزال باقياً على الأساكن المختلفة. وأما الخلل الأكبر حقاً، فإنه يمثل عندما كان الكتاب يسألون عن النفقات الخاصة بتوفير الطعام. عندئذ كان حكام الولايات يتدخلون بحجة أن أمر تدبير الطعام مسألة خطيرة، ويقولون: إننا نبادر بمصر تلك الأموال، ويكتفون الرسل بمهمة أخرى. وهذه العملية أيضاً لا تخرج إلى حيز التنفيذ. وهكذا كانت تضع النفقات الأخرى، قسم الحسابة. وبسبب تعطيل الرسل وتأخيرهم كانت تضع سدى المبالغ المخصصة للمصروفات. وإذا عزل الحاكم في نهاية العام فإنه كان يتحمل عذراً قائلاً: إن المال في عهدة الولاية، أو أنه ضاع. وإذا لم يعزل فإنه يتحجج بالحساب والتحقق ومرافقة رؤساء الديوان بحجة مشاركتهم الرسل، وأخذهم الهدايا على سبيل الرشوة. وهكذا يمضي الوقت عبثاً.

ولا شك أن أثر تلك القضاها وسوء التدبير إنما كان يرجع إلى تصرف المتعهدين الذين كانوا في نزاع دائم مع موظفي الديوان. وكان كلا الطرفين يتبادل التهم، [ص ٥٣٥] ويلقى بالثبته والذنب على عاتق الطرف الآخر، وظلت الوشاهات والسماحات قائمة فيما بينهم. ولم يتفق مطلقاً أن تعد المؤون لمدة عشرة أيام متتالية ولو أنهم رجعوا إلى السجلات واحتاطوا للأمر، لوجدوا أن الأموال الكثيرة قد ضاعت بهذه الطريقة بحيث إنه لا يمكن شرح ذلك. وكيف يمكن أيضاً إدراك حال المؤون التي تعد بهذه الطريقة؟ كذلك كانوا دائماً ينفلون الأطعمة والمشروبات مكرهين. وكانت تثار المشاحنات والمشاجرات بشأنها. وعندما كانت تصل إلى الجند وقت مفادتهم المعسكرات، كانت تبقى متروكة مهجلة. وعند الانتقال إلى المصايف والمشاتي كانوا يهتمون بتقديم الهدايا أكثر من اهتمامهم بتوفير المؤون. وفي أثناء ذلك كانت تضع النفقات المخصصة لها وتذهب. وعندما كانوا يشترون

للمشروبات من بئى الشراب، والأغنام من القصابين، فإنه كثيرا ما يحدث ألا يدفعوا لهم شيئا. ودالما كانت تلك الجماعة تصيح وتوح خلفهم. كما كانوا يركعون أمام الأمراء فى ذلة ومسككة، ولكن دون جنوى. ولهذا السبب أشهر كثير من بئى المشروبات والقصابين إتلاسهم. وهكذا فإن أمثال هذه للفاقد كانت تزيد على الوصف.

ولندارك هذا النقص قرر السلطان أن يكون الإصلاح على هذا النحو الذى يقضى بتوفير نفقات المؤن والأطعمة يوما لمدة ستة أشهر، على أن تعطى هذه النفقات نقدا من الخزانة كسلفة لشراء ما يحتاجون إليه من السلع. ثم ينقل كل ما يكون معينا فى إحدى الولايات. وكل ما يشتري بئى من أرخص بئى فرق السعر رهيدا للخزانة. ولا يتوقع أى مخلوق أن يستفيد من تفاوت أسعار المشروبات والأغنام والسلع وينهى أن يشتروا أرخص من الأسعار المحددة فى السجلات. لما ما كانوا يأخذونه قبل هذا من النفقات غير الضرورية ومن المآذب والحفلات العديدة التى لم يتفق عليها كثيرا، وكل ما يتبقى من أهام تقل فيها النفقات، فإن هذا كله يكون رهيدا للخزانة. ومن غفورات ذلك كله، تجمعت فى مدة عامين أموال كثيرة اشتروا منها خمسمائة ناقلة وخمسمائة بئى، وأودعوها لدى الخصالين والسياس الرضاء حتى تكون دالما معدة لتلبية متطلبات المشروبات والأطعمة. وكل ما كانوا يدفعونه كل سنة لتأجير الدواب، ينفقون بعضا منه فى شراء العليق ورعاية الدواب، [ص ٥٣٦] ويشترون بأقل من خمسة دنانير الشراب الذى يقدر بمائة من وكانوا يتناعونه قبل ذلك بثلاثين أو أربعين دنارا.

والآن صارت المشروبات المؤن والأغنام والموتج والولوزم الأخرى معدة ومتوفرة. وإذا أرادوا الحصول على أضعاف المقرر فإنهم يجدونه بسهولة ودون صراع أو نزال. وقبل هذا كان سعر الشراب الذى يشتريه للتمهون من بئى المشروبات مرتفعا جدا. هذا على حين أنه الآن متوافر فى الأسواق وفى حالة كساد. كذلك لا يدفع أى رسول أو محصل إلى الولايات للمطالبة بنفقات المؤن. ولهذا السبب لا تلزم مصروفات ولا تنبذ أموال، بل يأتى النقد إلى الخزانة. كذلك أصبحت الشؤون المتعلقة بتوفير المؤن ونهية أسبابها وترتيبها ونقلها تتم بصورة منسقة ومضبوطة لم يسبق لها مثيل دون شك فى عهد أى سلطان من السلاطين. ومن المقطوع به أنه لا يصرف أكثر من ربع ما كان يتبدد قبل هذا. ولو وضع

في الحساب أيضاً النفقات التي كان يتطلبها إيصال الرسل، فمن تكون المصروفات الحالية أكثر من العشر.

ولا شك أن ترتيب هذه الشؤون إنما هو أمر منوط باهتمام النواب ووزير البلاد الخواجه سعد الدين، فهو لا يدع دافعاً واحداً يتعرض للتلغ والضياح.

ليسط الحق تعال أهد الدهر ظل هذا السلطان الكامل العقل، الصائب الرأي.

والسلام

المكافأة العامية والثلاثون

فى إمداد نفقات المؤن للحواتين والجنود

فى عهد هولاء كان كانت نفقات توفير المؤن للجنود والحواتين تجرى على سنن المغول وعاداتهم، ولا يمكن زيادة هذه النفقات وتلك المقررات. وعندما كانت تجلب الضرائب من حروبهم فى ولايات الأعداء يعطى الجنود شيئاً منها، وكان لكل واحدة من الحواتين عدد من التجار يقدمون لها شيئاً من المال كربح أو أن شخصاً يهديها هدية. وكانت تشتك عدة لطمان ولها أيضاً تاجها ومنافعها. ومن هذه الأشياء كانت تتوافر للحواتين النفقات اللازمة لتوفير المؤن وما يحتاجن إليه. وكن قانعات بذلك.

وفى أواخر أيام أباقاخان ظهرت زيادة طفيفة فى المؤن. وبعد ذلك فى عهد أرغون خصص لكل معسكر مبلغ من المال. وكانت هذه النفقات تحول على الولايات لتحويلها. [ص ٥٣٧] وعندما كان الرسل ورؤسائهم يذهبون لتحويل هذه المبالغ، لا يدفعها الحكام، مترعين ببعض الأعداء التى شرحناها فى عدة مواضع. وكانوا يشغلون أوقاتهم بأخذ العلف والالتزام بتنفيذ الوعود وتقديم الهدايا. وإذا حصلوا على مبلغ ضئيل، كانوا يبدونهم فيما بينهم. وحيث إن نفقات توفير الطعام للجنود تجرى على هذا النمط، فإنه يتبين لنا كيف كانت تسير الأمور فى ظل هذه الأوضاع. وفى عهد كجياتو كان الحال أيضاً يجرى على هذا النمط. وهكذا ضاعت مبالغ كثيرة من الأموال على يد حكام الولايات وكبار الشخصيات.

أما فى العهد المبارك لسلطان الإسلام محمد سلطانه فقد وقعت الخصومة بين قواد الجيش. ولما كان يكيد الواحد منهم للآخر، فعرضوا للإهانات والاضطرابات بسبب هذه التصرفات. وقد بقى بعض تلك الأموال دينا على الولايات، وتبدد بعضها بين كبار المواطنين، فكان السلطان يأمر بمعاقبتهم، وعزل بعض منهم. بعد ذلك صرح قائلاً: لا يصح أن تضيق الأموال بهذه الطريقة، أو تحتلها حكام الولايات. وبذلك لا تنظم الشؤون المتعلقة بتوفير المؤن للجنود، ولا تصل الأموال إلى الخزانة أو إلى الجنود.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان بتعيين إحدى الولايات لكل جيش من أملاك الخاصة
 تفصل عن الديوان وتسلم لهم. كذلك تقرر أن تصرف الأموال المخصصة لتلك الجهات من
 الديوان، ويكتب تعهد لكل فئة تفصل فيه النفقات الخاصة بتوفير المؤن والعلف، وما تحتاج
 إليه الخواتين من ملابس وحواب وكذلك النفقات اللازمة لتدوير الشراب والاصطبلات
 والإبل والبغال وملابس البنات والسادة والفراشين والطباخين والجمالين والمكاريين وغيرهم
 من الخدم والمخمش. كما نص أيضا على ما ينفي الحصول عليه من اللوازم الأخرى، وأن
 يحسبها كلها ضمن مجموع النفقات حسب هذا الترتيب. ثم أمر بإيداع ما تبقى في خزنة
 كل خاتون، وأن تضبط الحسابات عندما تم تختم بتخصي الأميرين المعينين على رأس كل
 جيش. وعلى الجميع ألا يخرجوا عن حكم مرسوم السلطان حتى يكون هناك دائما رصيد
 في خزنة الخواتين يستفاد منه عند الضرورة. ثم أضاف السلطان قائلا: إن أملاكى الخاصة
 تصير من بعدى ملكا خاصا لأبناء الخواتين على أن توقف على أولادهم الذكور دون
 الإناث^(١). وإذا لم يكن لتلك الخاتون أولاد ذكور [ص ٥٣٨] فإنها تكون من نصيب أبناء
 الخواتين الأخريات. والأمر فإن كل تلك الولايات والأملاك في يد نواب الخواتين وذلك
 بموجب تعهدات الديوان. وقد صارت كلها عمرة، وتدر أموالا تزيد عما سبق.

أما النفقات الخاصة بتوفير المؤن للجند وما تحتاج إليه الصالح فإنها صارت كلها معدة
 ومرتببة، وتصل في وقتها. كذلك وضحت وتعمت الأموال المودعة بخزائن الخواتين. وفي
 هذا الوقت الذي كانت تدعو فيه الحاجة إلى زيادة النفقات لتصريف مصالح الجند، أمر
 السلطان بإعطائهم مبلغ ألف ألف دينار، وحواله إليهم بموجب هذا القرار. وكان هذا مددا
 كاملا للجند. وفي الحقيقة لم يتوافر مطلقا مثل هذا الضبط في أي عهد من العهود.

إن شاء الله تعالى سيظل ملك هذا السلطان وطبعا ومزدهرا أبد الدهر.

والسلام

(١) هذا الإجراء مخالف للشريعة الإسلامية التي لا تحرم الإناث من أن يرثن أيضا لهما، قال تعالى: ﴿ووصيكم الله في
 أولادكم للذكور مثل حظ الأنثيين﴾. (سورة النساء، آية ١١).

المكايمة الثانية والثلاثون

فى ضبط شئون الخزائنة وترتيب مهماتها ومصالحها

قبل هذا لم يكن متحدا تلويح حسابات الخزائن الخاصة بسلاطين المغول، أو يكون لها دخل ومخرج ثابتان. ولقد نصبوا عددا من الخزينة كى يأخذوا منهم كل ما يحصلون عليه من أموال، ثم يودعونها متضامنين، ويبلغون كل ما يلزم من نفقات بمعرفتهم جميعا. وعندما يتفد الرصيد يقولون: إنه نفذ. وكان الفراشون يحرصون تلك الخزائن، ويحملونها ثم يلقونها بصف. وقد بلغت الأمور من عدم الدقة وسوء النظام درجة كبيرة إلى حد أنه لم تكن هناك خيمة توضع فيها هذه الخزائن، بل كانت تكدم فى الصحراء، ويكتفى بتغطيتها بلباد. وهكذا يمكن القياس على سائر الأحوال. ومن جملة العادات النبعة عندهم أنه عندما كان يذهب جماعة الأمراء ومعهم أصدقاء الخزينة ويطلبون منهم الهدايا، كانوا يعطون كل واحد منهم شيئا على قدر مرتبته. كما أن الطهارة والسقاة والحدم وسياس الخيل، كان كل منهم يحمل إلى الخزينة كمية من للأكول والمشروب وغير ذلك [٥٣٩]، ثم يطلبون شيئا، فكان الخزينة يتشاورون فيما بينهم، ويلبون طلباتهم. ولأن الفراشين كانوا حراما للخزينة صار المسئولون يقبلون ممتلكاتهم، ويعطون كل واحد منهم تقودا. كذلك كان الخزينة يتبادلون الهدايا، ثم يتشاورون فيما بينهم، وأخيرا يتفقون على أن يحمل كل منهم شيئا إلى منزله. وبهذه الطريقة كان يضح من تلك الخزائن كل سنة ثمانية أعمار ما تحويه، ويصل فقط المعشران الباقيان من التقود إلى الجهة المطلوبة، فكان السلطان يأمر بإتفائها. ولأن حكام الولايات قد فهموا هذه الأمور جيدا، كانوا إذا سلموا أموالا لإبداعها فى الخزانة، فإنهم يأخذون بدل الشيء الواحد شيئين. وعندما يحضرون مالا أقل إلى الخزانة فإن ما يحضرونه يجرى ضبطه على هذا النمط. ومن هنا يتضح الموقف فتساءل كيف يستطيع السلطان أن يتفق عندما تدعو الحاجة إلى الإنفاق؟! وهكذا كان الحال يجرى على هذا المنوال دائما.

وحيث إن حراس الطرق أمروا بالاحتياط، وباعتقال أى شخص يخرج ثوبا أو شيئا آخر من الخزانة، صاروا يعقلون واحدا كل بضع سنين، وذلك أيضا لفرض خاص فى أنفسهم فكانوا ينتهزون الفرصة كى يوقعوه فى الذنب، ويقدموه إلى المحكمة. وهذا لم يحدث فى كل المهود أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. ولهذا السبب يستولون على المرصعات والذهب الأحمر. وإن شرح تلك الأحوال يتجاوز حد البيان.

أما الآن فلنضبط هذه الأوضاع ونصحبها، فرر السلطان أن تكون الخزانة مستقلة فى إدارتها، وأن يضع بيده المباركة كل ما يوجد من المرصعات فى صندوق، بحيث إنه لو يحدث أى تصرف فيها، يعلمه فى الحال. كما قرر أن يثبت فى السجل كل صغيرة وكبيرة بقلم الوزير بالنقير والقطمير. ثم أغلق هذا الصندوق بالقفل وختمه بختمه، وعين شخصا من الخزانة ومنه أحد الخدم من الحصيان ليحافظا على الصندوق، ويكون فى عهدهما. وبإستثناء هذين الاثنين لا علاقة لأى مخلوق آخر بهذا الصندوق.

أما كل ما يكون من الذهب الأحمر والقياب الخاصة التى تصنع فى المصانع، أو الأشياء التى يحضرونها من الولايات البعيدة كالنحف والندايا فإن الوزير يسجلها بالتفصيل جريا على القاعدة للبيعة، وتبقى كذلك فى عهدة هذين الشخصين المذكورين، وقطعا لا يتصرفان فى أى منها قط ما لم يصرح بذلك سلطان الإسلام تصريحاً مطلقاً. [ص ٥٤].

وأما كل ما يكون نقدا فضيا، وكذلك أنواع الثياب التى توزع دائما فقد نصب السلطان خزانة وحادما خصيا آخرين فتكون هذه الأشياء فى عهدهما، على أن يتولى الوزير إحصائها ثم يثبتها فى السجل. كذلك أمر السلطان بأن يكتب الوزير إذا ما يتقرر صرفه، ويعرضه حتى يؤمر عليه بقلمه المبارك. ثم يثبت ذلك نائب الوزير فى السجل. وما لم تكن التأشير مثبتة على أنونات الصرف، لا يصرف شيء قط لأى مخلوق. وتسمى الخزانة الأولى "تارين" والثانية "بيدون". وحتى لا يلزم التأشير على الأنونات فى كل لحظة تقرر أن يكتب الوزير كل شهر أنونات الصرف بالتفصيل جريا على المتبع، ثم يعرضها واحدا فواحدا على السلطان وقت الخلو وانتهاه الفرصة حتى يؤمر عليها.

كما أن على الوزير أن يطلب جرد الخزانة كل ستة أشهر أو كل عام حتى يتأكد من أن كل المبالغ موجودة بالخزانة أو لا، وذلك خشية أن تكون هذه المبالغ قد تقدمت من الخزانة

لسبب من الأسباب الكثيرة. وقبل هنا كان بعض العظماء والأصدقاء يلتصقون أن يصرف لهم قرض من الخزانة. ولكن لأن المرسوم قد صدر بعدم التصرف في الأموال بغير الإذن المبارك، رفض ذلك الالتماس. كذلك أمر السلطان بصنع ختم خاص يختم به في الحال كل ثوب يحضرونه إلى الخزانة، حتى لا يمكن إبداله.

وعن السعاة الذين كانوا قبل هذا يتدخلون في شئون الخزانة، أمر السلطان بأن يشتغلوا بالفراشة فقط، لأن الخزانة في عهدته هؤلاء الأشخاص الأربعة فقط. وتصفية الحساب ينبغي أن تكون بموجب الإذن الذي يعطى لهم. وأشار السلطان أيضا بألا يكون في الخزانة عيار الوزن العادي، بل يكون فقط العيار القانوني المختوم الذى بموجبه يكون التسليم والصرف. وليس لأى مخلوق الحق في أن يعطى أصحاب الخواتم ذراعا من الكرباس في مقابل نقد ذهبي، أو أن يماطل في النفع لحظة واحدة، بل ينبغي أن يدفع للمال في الحال نقدا لأصحاب الخواتم أو القماش. وينبغي أن يسلم نفس الصنف المطلوب المدعوم بدمغة الخزانة، ولا يتوقع المقاتلون عليها أن يتألوا شيئا من أحد في سبيل تسهيل مهمته. [ص ٥٤١] وقد تقرر تحصيل دينارين كرسوم للخزانة عن كل مائة دينار من النقود التي يحضرونها من الولايات ولا يأخذون زيادة قط عن المطلوب.

كذلك أمر بتخصيص خزنة أخرى، نصب عليها أحد الحصيان، وعليه أن يأخذ دينارا عن عشرة دنانير من النقود التي يحضرونها إلى الخزانة وأن يسلموه ثوبا واحدا على حدة عن كل عشرة أتواب ليضعه في الخزانة أيضا. كذلك أمر السلطان بإحضار أموال الصدقات الموقوفة إلى الخزانة كي يسلمها بيده المباركة للمستحقين. وقد تم ضبط ذلك بنفس الترتيب الذى سبق شرحه. وهذا النظام يطبق أيضا بنفس النسق المذكور على الخزانة المخصصة لمستودع الأسلحة. ولا يمكن أن تحفظ بهذه الصورة وتلك الدقة أموال أى حاكم أو صراف أو تاجر كبير ممن هم مشهورون بالمحافظة على المال، فكيف بتزالن الملوك؟! وقطعا لا يمكن أن تتصور الحياة ولو بدائق واحد من النقود.

وعندما يتوجه السلطان إلى التصيف أو إلى المشى يراجع الخزانة بنفسه عدة أيام قبل تحركه، ويستشى كل ما يريد نقله منها. ثم تسجل بالتفصيل الأمتال والأحمال تخمط الوزير ويتركها في تبريز في صناديق مغلقة ومختومة. وعندما يريد السلطان أن يعرف أحوال

الحزنة من حيث الكسب والكيف والقدح والخرج، يسأل الوزير، فيرجع بثوره إلى السجلات، ويعرض المطلوب في الحال. وحيث أن سلطان الإسلام علد ملكه مؤيد بالتأييد الرباني. كما أن إمداد اللواهب الإلهية بشأنه كامل تماما، وافق أن وزيره أيضا مع وجود كمال كفايته وكياسته وعلمه وفضله، لا يوجد لوثق منه، فلا جرم أنه لا يمكن أن يضيع هائق واحد من النقد أو ذراع من الكرياس ولم يعد لأي مخلوق مجال للخيانة.

وإنه لييمن وبركه هذا الضبط، وهذا الصدق اللذين أمر بهما سلطان الإسلام. وبفضل الأمانة والديانة، صارت النقود الذهبية تخرج من الحزنة بكثرة هائلة؛ بحيث إنها لو كانت بحرا لنفد ماؤه. وليس هناك في سجل قديم أو حديث نطالمة ذكر لمثل هذه الأموال الطائلة والتهاب التي لا حصر لها. كما أنه لم يعط أحد مثل هذه المقادير من حزنة أي ملك من الملوك.

ليوصل الحق جل وعلا هذه البركات إلى أيام السلطان المباركة بحق النبي وآله وسلم.

في ترتيب شئون المؤسسات ودور الصلاح

قبل هذا كان يمين في كل مدينة وولاية صناع كثيرون من قبيل القواسين وشاحذي السهام وصناع الجعبات والسيوف وغيرهم. كما كان للمضول مثل هؤلاء الصناعات. وكان كل واحد منهم يصنع آلة أو اثنين. وكانوا يتفاوضون أجورهم ومراتبهم. كما كانوا يتعملون بتقديم كمية كبيرة من الأسلحة. وكانوا يأخذون شئها من الحوالات المكتوبة على الولايات. وفي بعض المدن، كانت هناك مصانع يعمل فيها صناعات مهرة. وقد خصصت مبالغ من الأموال لهذا الغرض. وكان على رأس هؤلاء نواب أمراء حاملي السلاح. ومن كل الأموال التي تنفق، لم يستطيعوا أن يحصلوا منها على واحد من عشرين وذلك بسبب أن بعض هذه الأموال يتم صرفها بواسطة الحوالات. ومع أن مائة من أتباع الرسل يذهبون إلى الولايات لتحصيلها، كان يضيع أيضا ما يساويها أو ما يزيد عليها شئاً للطف وسد نفقات هؤلاء الأتباع ونفقات دولهم. وبواسطة الخيل التي ذكرناها كان يضيء بعض تلك الأموال بتصرف فيها حكام الولايات، وبعضها يبدد نتيجة أطماع وتصرفات النواب وكتاب المؤسسات، وبعضها يضيع هدرا بسبب كثرة الأمراء للشرفين على هؤلاء وهؤلاء. وبناء على هذا كان كل واحد يتصرف حسب هواه.

ولما كان الصناعات يهرون الأمور تجرى على هذا المنوال، تقاعسوا وصاروا لا يؤدون أعمالهم أداء كاملاً على نحو ما يلبه عليهم الحق والواجب، وصارت أوقاتهم مستفرقة في النزاع والمخاصمة فيما بينهم. وكان ينبغي أن تصرف في السعي والعمل. كذلك دبت بينهم المشاحنات، وكثرت الرشايات. وقد وصلت منازعاتهم إلى حد أن الأمراء - بشؤم هذه التصرفات - اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا على أنفسهم وشخصوا. وكانت التحقيقات تجرى دائما مع الصناعات، ويستخدم الصراع والجدل؛ فترتب على ذلك ظهور العيوب والمقاسد في شئون الملك. وعندما كانوا يذهبون لمراجعة الحسابات، لم يكن هناك شيء نط. فلا مفر إذن من أن يبقى عجز في السجلات يقدر بثلاثمائة أو أربعمائة ألف دينار كل سنة، ولا يظهر ما يدل على إنفاق ذلك واحد منها.

وعاقبة الأمر أن الثواب وكتاب المؤسسات كانوا يقتلون. وعلى أثر ذلك خرجت ديارهم. ثم أعقب ذلك القضاء على أسرهم. [ص ٥٤٣] وقد آل أمر المباشرين تلك الأعمال إلى أن صاروا مفلسين وأشراوا وساءت سمعتهم؛ فتشارك ذلك كله سلطان الإسلام بخلد ملكه. وقرر على هذا الأساس أن ينضم أهل كل حرفة من الحرف في كل مدينة إلى بعضهم البعض، ولهم بالأا يعطوا شيئا من العلف والملابس. وقرر كذلك إعداد كميات خاصة من كل نوع من الأسلحة وتقدير شئها، وقال: رغم أنهم عسانا وأسرى لنا ويجهون ما يصنعونه في الأسواق بأشمان يتفاضونها مثلما يبيع الآخرون إتناجهم فإنهم يحاسبون على ما يصنعون، وذلك على نفقة الديوان. وكذلك تصب على رأس كل طائفة شخصا أميناً وموثوقاً به ليحرف عليهم ويكون ضامناً لإخلاصهم وأمانتهم. وهؤلاء يأخذون أجورهم سنة بسنة، ويسلمون الأسلحة حسب للقرر المفصل، ويسلمون بها إحصالاً. وقد حدد السلطان إحدى الولايات لتتولى سداد نفقات كل تلك الأسلحة حتى لا تدعو الحاجة إلى إيفاد الرسل إلى كل الولايات لتحصيل هذه الأموال.

بهذه الطريقة تقرر أن تعد الأسلحة الكاملة لعشرة آلاف رجل كل سنة. هذا على حين أنه قبل هذا لم يكن يرى أحد مطلقاً حتى لكثيرين من الرجال المسلحين. كذلك عين السلطان لحرسه الخاص خمسين رجلاً اختارهم من خواص خواصه. وبالإضافة إلى ذلك أعد عدة آلاف قطعة من الأقواس والأسهم والشرع على نفقة الخزانة لتستعمل عند الحاجة. وعندما عقدت مقارنة بين الماضي والحاضر، تبين أن ما كان يتفق قبل هذا على بند العلف وأجور الحرفيين لا يزيد على نصف ما يذفع الآن شئنا للسلاح. كما أنه لهذا السبب قد استغنى نهائياً عن النفقات التي كانت تتحملها الولايات. ولكن قبل هذا وفي أوقات أخرى، لم يكن يوجد سلاح قط من هذه الأسلحة التي يتواتر وجودها. وبمسن التدبير هذا تجهز المعدات كل سنة وفق النظام المذكور، وتسلم بموجب إحصال. وبهنا انتهى الصراع وزالت الخصومات، وقضى على محاکمات الحرفيين والكتاب الذين كانوا يهدمون هذا السبب. وهم الآن محترمون وموقرون، ويمشون في راحة وطمأنينة. أما الأمراء الذين كانوا - بشؤم هؤلاء - ينازع بعضهم بعضاً؛ فإنتهم الآن جميعاً متضامنون متكفرون وأحباب أصفياء.

وحيث إنه خلال هذه السنوات جرت الأمور على هذا النحو المقرر فكانت مرتبة جيدة، عرض أمراء السلاح على السلطان شاهن: [ص ٥٤٤] فإن أكثر الآلات التي

يصنعها الحرفيون موجودة في الأسواق، ويمكن أن تشتري منها بصورة أنسب وأفضل. وقبل هذا لم يكن الصنّاع يعرفون رسم وترتيب الآلات الخفية. أما الآن فقد عرفوها في الأسواق. بعد أن كانوا مشغولين بالمفاسد والصراعات والمخضومات طوال اليوم، وكانوا يستولون على الأموال والمؤن، ولا يؤخون عملاً يذكر. وأخيراً رأوا من الضروري أن يشتغلوا بحرفهم عندما وجدوا أنفسهم معزولين. وهم الآن في الأسواق يصنعون الآلات والأسلحة على نفقتهم، ثم يبيعونها. ولهذا السبب فإن أنواع هذه الأسلحة موجودة في الأسواق على نحو أحسن وأفضل مما نصنعه نحن الآن. وما أحسن من أن ندفع أموال التعامل نقداً. وبناء على هذا نرى أنه بدلاً من أن نمدّ نحن الأسلحة ونعطىها الجنود، نوزع عليهم المال كي يشتروا به الأسلحة اللازمة لاستخدامهم، وبأسعار رخيصة، ولا تكلف أبداً. فاستحسن سلطان الإسلام -خلد ملكه- هذا الرأي، وأمر بصنع عدة أنواع من الأسلحة بنثر وجودها في الأسواق. أما باقي الأسلحة فشترى بالمال نقداً.

هذه الحالات من المفاسد والتفاسد التي ذكرناها كانت منتشرة بين الحرفيين الذين كانوا يصنعون السروج واللجم ومعدات الاصطبلات. وكذلك انتشرت بين الصنّاع الذين كانوا يصنعون آلات عديدة تتعلق بأصحاب المظلات والخزنة. وهؤلاء أيضاً قد تداركهم السلطان وأصلح شأنهم على النحو المذكور.

بهذه الإصلاحات استقامت الآن كل تلك الأعمال، وصارت مرتبة. وكانت العادة قد جرت قبل هذا أنه إذا احتاج السلطان إلى القليل من الآلات أو أدوات أخرى تبلغ قيمتها خمسين ديناراً أو مائة دينار، كانوا يوفدون رسولا لإنجاز هذه المهمة البسيطة. وما ينفقه هذا الرسول يربو على خمسة آلاف دينار لتوفير السواب والعلف بالإضافة إلى مصروفاته الخاصة.

أما الآن فقد تقرر أن يشتري الخازن كل ما يلزم ثم يضره، لو أن يدفع شئنا نقداً ليشره شخص آخر، ويسلمه له. وبهذه الطريقة انقطع مجيء بحمالة من أتباع الرسل والمحصلين كل سنة من الولايات، وبدلاً من بحمالة ألف دينار [ص 510] كانت تنفق مع مائة ألف من المشقات والاضطرابات والتخريب. والأمر الذي لا شك فيه أن ما يلزم لا يتكلف ما يزيد على خمسة آلاف دينار لإنجاز تلك المصالح.

بنلك زالت نهالبا تلك العادات والرسوم، واستمرت القوانين المستحسنة. وإن فوائد
هذه الإصلاحات تبدو في أن هذه الطريقة سوف تنتهج من بعد، وتستمر سنوات عديدة.
إن شاء الله العزيز.

الحكاية الرابعة والثلاثون

في ترتيب شئون دواب الخفافين

قبل هذا كانت إبل الخافان وأغنامه في البلاد تحت إشراف العمال ولم يمكن لها حساب وضبط. وكان ينبغي أن يملأوا على كل ما سلم لهم بفضل ما توافر من أماكن جيدة وكثرة الحراس والرعاة المتفرغين لهذه المهمة. فكان من المتوقع أن تتكاثر، فيصبح كل منها أكثر من مائة. ولكن عندما تفحصوا الأمر وغرروا الحقيقة لم يجدوا واحدا من بينها فانتحل المسؤولون الأعذار مدعين أنها نفقت وهلكت بسبب البرد. فأمر سلطان الإسلام غلدا ملكه بأن يتفروا فيما إذا كان يوجد لديهم عدد من إبل وأغنام الخاصة أم لا؟ فلما تفحصوا الأمر أفادوا بأن لديهم الكثير منها. فرد عليهم السلطان قائلا: إن دواب الخافان كانت أضعاف دوابهم، فكيف هلكت كلها. هذا على حين أن دوابهم لم تهلك بفعل البرد وطاعون الماشية؟! وبهذا تحققت أنهم يكذبون، وأنهم سرقوها كلها ثم باعوها.

وبناء على هذا صدر المرسوم بإحصاء الدواب، ولكن لم يتيسر ذلك وترك العمال عملهم. ثم إنه بعد تلك التجربة أمر بأن تسلم الإبل والأغنام لأشخاص ثقات يعتمد عليهم. وحيث إنه تتوفر أماكن جيدة وعمال هم عبيد لنا ومتفرغون لهذه المهمة، أي عذر يمكن أن يتحلوه بعد ذلك؟! وعلى هؤلاء المشرفين أن يتعهدوا مع العمال بتنفيذ الأصول لهذه المهمة، وإعطاء نتاج تلك الحيوانات عدة مرات كل سنة وذلك على النحو الذي يوفق المنفعة بعد أن كانت ضائعة. [ص ٥٤٦] والآن يكون للعمال الفائدة والوفر في الأموال. كما أن الأشخاص الذين ليس لهم مواطن خاصة، ولم يكونوا في زمرة العبيد يفضلون على الآخرين، وتلبي طلباتهم بشروط أصعب من غيرهم حتى لا يستطيعوا انتحال الأعذار. وعلى هذا النحو يتقرر إقناعهم. وسنة بعد سنة يزداد نتاج هذه الدواب ويكثر تولدها. هذا وقد عين السلطان الإبل التي يمكن استخدامها على حدة لنقل الأحمال. كما خصص مجموعات أخرى لنقل الخزائن والملابس وما تحتاج إليه المسكرات، وعهد بالإشراف على ذلك إلى أشخاص ثقات. وكذلك الأمر فيما يتعلق بنقل محتويات أماكن الشراب ولوازم المنازل. وقد بلغ ضبط هذه الأعمال وترتيبها بحمد الله تعالى ومنه درجة لم يسبق لها مثيل

في عهد أي سلطان من سلاطين المغول والمسلمين من حيث التنظيم والتسيق. ولم يتوافر
هنا المقدار من الإبل لنقل البضائع وتفريغها. وكثير من الإبل ترعى في مراعيها دون الحاجة
إليها في حمل الأحمال. وهي دائما في ازدياد يوما بعد يوم. كما أن تزويدها بالمعدات
والآلات أصبح أمرا في غاية الحسن والجودة.

إن شاء الله يكون تقديم العون إلى هذه الدولة دائما متراصلا.

الحكاية العاشر والثلاثون

فى ترتيب شئون البازدارية وحراس القهود

قبل هذا كان البازدارية وحراس القهود يصطادون الحيوانات فى الولايات. وكان يعين لهم أمن يذهبون فى كل عام، وفى أى موضع يصيدون ثم يحضرون هنا ما يصيدونه ويسلمونه لأمرأ البازدارية وحراس القهود. وكان مقررا لهؤلاء فى كل ولاية مبلغ من النقود يتسلمونها باسم العلف والثونة والملابس. وكانوا يهدون هذه المبالغ فى كل سنة عما قبلها عند تحصيلها من الرعايا الأكثر رواجاً، وذلك بضرب العصا وفرض نكقات إضافية على العلف والثونة، وباعتقون منهم تعهدات بسداد ما عليهم. هذا على حين أنهم يحضرون عددا ضئيلا من الحيوانات إلى محطات البريد. وفى الطريق حيثما كانوا يصلون إلى كل مدينة أو محطة للبريد أو قرية، يستولون على خيول كثيرة. فيركبون بعضها، ويحملون بعضها أمتعة خاصة بأصحابهم ومرافقيهم. [ص ٥٤٧] كما كانوا ينحسون أصحابهم ومعارفهم، بل أيضا كل شخص مقرب إليهم من تلك الحيوانات التي يحضرونها. وبواسطة اثنين أو ثلاثة من الطيور المقترنة للدرية على الصيد أو ثلاثة من القهود يصيدونها، كانوا يحصلون على نفقات كثيرة يحتاج الناس إليها فى الولاية. ثم يهدونها فى الطريق متذرعين بحجة الإنفاق على غداء خيول البريد وتلك الحيوانات، ولا نهاية لما كانوا يستولون عليه لأنفسهم زورا وبهتانا من القرى وطرق عبور المارة والمسافرين. وكانوا يأخذون الأموال حسب إحصائهم لهم للحيوانات. ولم يكن يحدد نوعها وعددها وما تقرر صيده منها. وعلى هذا لم يكونوا يحضرون كثيرا من الحيوانات والقهود. كذلك لم يحرصوا عند ما يملكون من حيوانات. وإذا ما اصطاد شخص ضال حيوانا فى صحراء إحدى الولايات أو أنه اشتراه، وأراد بهذه الطريقة أن يحصل على مرسوم يثبت أنه يمتلك حيوانا، أو يدعى أنه شخصية متميزة فإنه بهذه الطريقة يجر على الناس، ويزيد فى اضطهادهم، ويحصل على مرتب وعلف ومثونة. وفى كل عام كان يعي عدة أشخاص يحضرون اثنين أو ثلاثة من الحيوانات، ويأخذون مرسوما يثبت أنهم يمتلكون حيوانات، فعين لهم المرتبات والمؤن والعلف ثم يعرضون. فأى إنسان يوجد، ولا يختار هذه المهنة؟

وهكذا كان هنا النظام يزداد سوما سنة بعد أخرى. وكان كل واحد من هذه الجماعة يحمي مائة من الناس ويغضب ألفا. أما البازنارية وحراس الفهود وأمرأهم الذين كانوا يلازمون للعسكر، ويتكفون طيوراً مفترسة مدربة على الصيد، فإن بعضهم كان يزداد الحضرة السلطانية بالحيوانات دون حاجة إليها. وكان هؤلاء يكونون عدة من الأسراء ومجموعة من الرجال والأثباع ينضم إليهم بعض الطوائف من سباس الحبل والمكاريين والحمالين والقرويين سكان القرى. وقد شد كل منهم عدة رهشات حول وسطه، وهم يضعون في أحزمتهم دبوساً حديدياً يضربون به رأس كل من يصادفهم عدة ضربات، ثم يتحدثون إليه ويخطفون عمامته أو قلنسوته. وكان بعضهم يقول: ليس هناك قانون (ياسا) يسمح بأن يخطب كل شخص رهش اليوم على قلنسوته، وينفخ بهذه الحجة، ويخطف القلنسوة. وكان بعضهم يفعل كل ما يريد دون انتحال أى علم. [ص ٥٤٨] وإذا مر أحد بجوار عمام أو منازل أصحاب حيوانات الصيد، فإنه يرى بعينه ما يرى. أما إذا مر شخص من أفراد القافلة أو غيرهم بمأوى البزاة والبازنارية في إحدى القرى، فإنه يتعرض لحالة لا تقل عن السلب والنهب. وفي كل قرية كانوا ينزلون بها، يستولون على الأغنام والطيور لطعامهم وطعام حيواناتهم كل على حدة. ناعيك عما كانوا يأخذونه من اللبن والشعير للوابهم.

وعند سيرهم إلى المصايف والمشتى، كانوا لا يرضون بتلك الكمية، بل كانوا يكتفون رؤساء القرى الواقعة على معابر الطريق بتقديم الأغنام والدقيق والشعير، وما يحتاجون إليه فضلا عن المئونة والعلف. وكانوا يتقلونها على دواب الناس إلى مناطق إقامة هؤلاء السادة. وكانوا يحصلون على مبالغ من الأموال عن طريق اختصابهم الدواب الكثرة ثم يعها. كذلك كانوا يطعمون في الحمر من الفصائل الجيدة، ولا يعيدونها إلى أصحابها. وكانوا ينهبون أيضا كل من رأوه في الطريق. وحتى يشتهر اسمهم ويرهبهم الناس كانوا يملفون لى بعض الرؤساء والعظماء في الولاية لأى سبب نالهم. وحيثما يوجد شخص فنان يتمتع بحمايتهم، كان له أن ينفذ كل عمل يريده سواء أكان سليما أم معوجا حتى ضرب الناس بالعصا بمؤازرة الحكام وفوضى التنفيذ من رعاهما. وإذا اتفق أن طالب بعض الشحن والحكام أتابعهم بشيء كانوا يكسرون ليلاً جناح أحد طيور الصيد، ويدعون أن الرعاع هم الذين

جرحوا هذا الطائر. ويشهد الواحد منهم مع الآخر. ولا بد أن الملوك إذا ما سمعوا أن شخصا شاغب وكسر جناح طائر الصيد، فإنهم يتضبون، فيكون ذلك حجة وذريعة للشحن والتواب والحكام لأن يقولوا: لقد أقمنا خيمة قاصدين الصيد في الموضع القلاني. لكن الرعاع شرعوا في الصيد في ذلك المكان أو أنهم مروا من هناك؛ ففزعت الطيور. وهكذا انتهزوا هذه الفرصة فكان إذا مر شخص على تلك الخيمة، وكان بعيدا أو قريبا منها، يأخذون منه على الفور، ودون مناقشة - حصانة وملاسة - أو يستولون على مبلغ من المال على سبيل الهدية؛ فكان المسكين يخلص نفسه من تلك الورطة بعد صراع طويل ومشقة بالغة. وتوجد حكايات كثيرة من هذا القبيل يطول شرحها.

فكر سلطان الإسلام خلد ملكه في تدارك هذه الأمور، فقرر أولا [ص ٥٤٩] أنه يكفى ألف حيوان من حيوانات الصيد وثلاثمائة من الفهود مما يحضرونه من الولايات. ثم أمر البازارية وحراس الفهود بأن يعينوا الأشخاص الذين يرونهم لائقين للقيام بهذه المهمة في الولايات وأن يكتبوا ذلك بالتفصيل، ولا يؤذن لأي بازرار آخر بممارسة الصيد في الولايات. ثم حدد مبلغا من المال لما يأتون به من الحيوانات المدربة وغير المدربة؛ بحيث يكفى حاجتهم، ويدخل ضمن ذلك نفقات طعامهم أثناء إقامتهم ورحيلهم وما يلزم دوابهم.

شرح السلطان هذا كله بالتفصيل بطريقة لم يبق معها أي عذر. وقرر بعد ذلك مرتبا لكل من يعهده ألف من حيوانات الصيد هذه، وثلاثمائة من الفهود. ثم أصدر مرسوما يختمها بالختم الذهبي، وأعطاه تعهدا نص فيه على ألا يؤخذ من أحد في الطريق مثونة أو علف أو أي شيء آخر. ثم أرسل هذه الأحكام إلى كل للمالك حتى يساعدوا بضرورة تنفيذها. وعندما حسبوا التكاليف، وجدوا أن هذا القدر - الذي قرر لهذه المجموعة من الحيوانات والفهود والمؤن والملف، وكذلك طعام الدواب ويدخل في ذلك أيضا ما يحتاجون إليه - قد بلغ كل هذا نصف ما كان يجري عليه الحال من قبل، رغم أنهم لم يكونوا يحضرون ثلث هذه الحيوانات. وكان ما يتفق على الطعام يبلغ ما يزيد على ضعفين أو أكثر مما عليه الآن. وإذا فكيف يمكن حصر المخالفات وزيادة الأعباء التي كانت تقع على الرعية نتيجة هذا السلوك؟

أما الآن فإنهم يحضرون كل سنة دون مشقة ألفاً من حيوانات الصيد، وثلاثمائة من اليهود ويسلمونها. ولما ذاع في البلاد أنه لا يحق لهؤلاء أن يطالبوا بشيء من الدواب والعلف والطعام سواء أكان هذا سرا أم علنا، وعلى الرعية ألا يعطوهم شيئا، ولا يستطيع أحد المطالبة بشيء من أمثال هذا، فالذى لا يحق له أخذ الزبادات أتى يمكنه أن يسد الطريق، ويمنع السر فيه لو أراد؟! وإذا طالب بشيء من الناس، فالأمر الذى لا شك فيه أنهم لن يعطوه. ومن الضروري تسليم هذا المقدار للمعين كل سنة، وإلا فسوف يضيفونه إلى ما تبلى عليهم ويسترد منهم. ونتيجة لهذا تعطل كثير من البازدارية والصيدان، ولم يعودوا يمارسون هذه المهنة. ومن تاريخ صدور هذا القرار لم ينظم أحد مطلقا فى سلك البازدارية والصيدان، ولم يستطع هؤلاء أن يقدموا ملتمسا فى هذا الشأن؛ لأن هذا القرار قد شملهم جميعا. أما الذين كانوا فى حمايتهم، فقد دخلوا فى زمرة الأتباع. والأمر الذى لا شك فيه [ص. ٥٥٠] أنه إذا أراد شخص أن يبقى موقفه ثابتا، فإن عليه أن يقى بما عليه من التزامات مالية. وقطعا ليس هناك أى استبداد أو مشقة. وقد نسبت تلك الطائفة هذه الأساليب المعوجة، وصاروا من جملة العقلاء المتصفين من البشر.

لما عن تدارك حال البازدارية للمتزين فقد أمر بأن يحص بالتفصيل على مرتباتهم وطعام الحيوانات التى فى عهدة كل منهم، وأن تدفع لرفيسهم مرتباتهم نقدا من الخزانة، وذلك سنة بسنة، وبالتمام والكمال. ولهذا السبب لم يبق لهم أى عذر أو حجة. وعندما يتسلمهم ويسيرهم للصيد فى إحدى الجهات، فإنه يعين معهم عددا من البازدارية والطيور المقترسة للتدربة على الصيد، ويأمر بإعطائهم عيولا خاصة كى يستخدموها فى حمل لوازيمهم على أن يدربوها ويجهزوها حتى لا تبقى مترامية منهكة وغير ملهبة. ثم عليهم أن يمسوا ما يستغرقونه من زمن فى الذهاب والإياب. كذلك قرر أن تكسب فى الحريف والشتاء الحوالات المحتومة بالحتم الذهبى والخاصة بالعلف واللؤن مما بهم تلك المواضع. ولما كانت الحيوانات بالإضافة إلى الطعام العادى تحتاج فى تربيها على الصيد، وإبان مرضها - إلى الدجاج والحمام، فإنه قرر أيضا أن تهيأ لها بقدر الحاجة هذه الطيور بموجب حوالات، وأن توضع هذه الطيور فى الأقفاس. وكذلك تكب الحوالات حيث تحمل هذه الحيوانات، موضحا بها العدد المقرر منها.

وحيث إن الأمور تجري على هذا النحو، لم يستأى سبب للانحراف عن الطريق المستقيم. ولما كانت هذه الأحكام قد انتشرت وذاعت تتيح بأن كل المبالغ من الأموال التي يحتاجون إليها قد عينت وقررت، وأنهم يعطون تقاضا من الخزانة، أو أنهم يكتبون حوالات مضمومة بالختم الذهبي. لما كان ذلك كذلك فإن هؤلاء الصيادين لا يستطيعون أيضا مطالبة أهالي المواضع المختلفة بشيء يزيد عن المقرر وإنما طالبوا بذلك فإن الناس لو عرفوهم على الحقيقة، لا يعطونهم شيئا. وفي أول الأمر حدث مرة لو مرتين أن بعض أمراء الصيد طالبوا بالزيادة أثناء سيرهم في إحدى الولايات على الرغم من أنه قد عينت لهم المئون والعلف والشعير لإطعام الخيل. وكانت الحوالات قد كتبت لهم وختمت بالختم الذهبي، وأخذ عليهم تعهد بالألا يتقاضوا شيئا. ومع هذا وصل خبر يزيد بأنهم تقاضوا ما يزيد عما هو مقرر لهم، فسير إليهم السلطان رسولا موثوقا به، ذهب إلى تلك الولاية التي وقعت بها المخالفة، وحقق معهم، وأثبت إدانتهم، وضرب كلا منهم بالعصا سعا وسبعين مرة، فاعتبر الجميع، [ص ٥٥١] وتركوا ذلك السلوك. والآن نادرا ما يحدث أن يسلك بهازدار أو حارس للمهود سلوكا موحجا. ومع أنه لا يمكن أن يتحول الذهب إلى حمل، إلا أن ظلمهم الفادح قل كثيرا عن ذي قبل.

ولا شك أنه بفضل هذا العدل والوثوق التام سوف ينسى سكان العالم وفي أسرع وقت الظلم والتعدي إن شاء الله وحده.

المكايبة السادسة والثلاثون

في ترتيب شئون كل الممالك

(الإصلاح الزراعي)

قبل هذا كان ولاية الأقاليم يصرحون دائما: إن أكثر الولايات قد صار خربا، والرهايا أصبحوا فقراء مستضعفين؛ بحيث لا يستطيعون أن يعتمدوا اعتمادا كليا في زراعتهم على ثمرانهم وبذورهم. وقد بقيت كميات كبيرة من المياه، ومساحات شاسعة من الأراضي مهملة، ولا يهتم أحد بمطالب الزراعة، ولا يتشارك أمورهم. كما أن للمقادير المحدودة من البذور التي حصلوا عليها من الديوان في المهورد السابقة قد استهلكوها كلها إبان الغلاء فكان هذا سببا في الإضرار بالديوان والريعية.

فتدرك سلطان الإسلام عند ملكه الأمر على هذا الوجه الذي يتلخص في أن يؤخذ من كل حاكم وصاحب إقطاع مقدار معين من المحصول شتا للمعدات والبذور، وما تحتاج إليه الزراعة، وذلك من مجموع ما يجب عليه تقديمه للديوان، وبأخذ إيصالا بذلك حتى يباشر المسئولون للعمل في الولايات بموجب تلك العوامل، وحتى تزيد الرقعة الزراعية. وقرر أيضا أن يكون للمزارع بلا منازع النصف أو الثلث من الربيع والإنتاج إذ إن الحاكم أو الوالي كليهما يمكنه أن يزرع الأماكن الأكثر صلاحية للزراعة. كما تنحاح له فرصة أكبر للحصول على لوزم الزراعة والمعامرة. ثم صرح السلطان قائلا: لكننا نلبية لرغبة الناس، ولكي يكون للحاكم موارد إنشائية قررنا أن يسلم له المزارع ثلث أو ربع المحصول. وكل ما يزيد على ذلك، يصبح ملكا له. وقد دفعهم الحرص والطمع من أجل الحصول على كسب ولم ير إلى بذل الكثير من الجهد والاجتهاد في باب التعمير والتشييد. وعندما تيسر الزراعة ستين أو ثلاث سنوات، وتستقيم أمورهم عندئذ يعود ربع المحصول إلى الخزانة، [ص ٥٥٢] وذلك على النحو المثبت في تعهدهم. كذلك راجت العملة النقدية.

ومن جملة الذين استغلوا التفوذ، كان هناك بعض الحكام ممن يسرون على نهج الأقبوام السابقين، ويتبعون بعض الأساليب الختوية التي ورد ذكرها في عدة مواضع. وقد اعتادوا

ذلك، ولم يكونوا يفكرون مطلقاً في وجوب تسديد أموال لديوان. وكانوا يعتبرونها ملكاً خاصاً لهم لا ينازعهم فيها أحد مطلقاً. وفي أول سنة بددوا تلك الأموال. وفي النهاية عندما طولبوا بالسداد لم يبق هناك شيء قط لا من الربيع ولا من الأصل. وقد انصرف تفكيرهم في أنه إذا كان لزاماً عليهم أن يسددوا شيئاً ولو اسمياً مما عليهم، فإنهم يعتبرونه من نفقات الثيران والبذور^(١) [ص ٥٥٥].^(٢)

والخلاصة أنهم كانوا يتحلون الأغلار عن التقصان والحسبان بسبب حدوث الأزمات السماوية والأرضية. ولكن أكثر هذه الأغلار لم تكن تقبل منهم، وصدور كل ما كان يملك هؤلاء من أسلاك ومتاع وبقيت طلائع منهم تحت الحراسة. وكان للبعض الآخر أدوات وبذور. وقد حققوا لأنفسهم ربحاً وفائدة. وهذه الفئات لا زالت باقية وقائمة. وقد استراح بذلك كثير من الناس من الرعايا وغيرهم، وشغلوا بالعمارة والزراعة. وكانت تلك المواضيع هي التي جرت العادة بإمساكها بالبذور. ولكن خوى النفوذ كانوا قد ألقوها بالهبل لئلا يسوء التدبير ثم باعوها.

وقيل هذا لم يحاول أحد تعارك هذا الخلل. لذلك أمر السلطان بأن تسلم البذور من جديد للزراع جميعاً. ولهذا السبب زاد الدخل في بغداد وشيراز عن خمسمائة ألف دينار على الأموال المكتسبة. ولقد أشرفت تلك البذور مرة أخرى. كما تحقق للرعايا انحصاف مضاعفة من تلك الفوائد، وقوى شأنهم، وظهر العمران في كل مكان وعم الرخص. ولما كان السلطان يمنع الجند الإقطاعات عمر كثير من المواضيع بهذه الوسائل. وقد قرئ في ذخيرهم أنه إذا لم تكن هذه الإقطاعات موجودة، فإنه كان ينبغي منح ولايات عديدة وأملاك كثيرة وقد ظل باقياً كثير منها حتى الآن تحت تصرف الديوان، ويصل إليهم ربحها. (يقول المؤرخ رشيد الدين): إنني لم أر ولم أسمع مطلقاً أن أحداً في أي عهد، قام بمثل هذا التدبير الحسن، ولم تكن لديه الرغبة والتفكير في إقامة مثل هذه العمارات، وفعل هذه الخيرات.

(١) حاشية مطرلة لتفري صفحات ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤.

(٢) الأفعال هنا من صفحة ٥٥٢ إلى صفحة ٥٥٥ بسبب الحاشية للطولبة التي احتلت بقية صفحة ٥٥٢ وصفح

٥٥٣، ٥٥٤. وهذه الحاشية ترجمت ووضعت عقب ترجمة نص تاريخ غازان بأقلمه.

وبخصوص الدواب والطيور التي أمر بتسليمها لكل شخص قرر أن تجرى أيضاً على هذه القاعدة، أي أنها تعادل ثلث الإنتاج، لتحقق لهم فائدة من ذلك وليوفروا لهم ثروة، وتكون الدواب والطيور ولكافة الناس في حماية تلك الدواب والطيور الخاصة بالسلطان. وبذلك لا يستطيعون أن يملوا أيديهم إليها مطلقاً، ولا يمكن لأحد أن ينمهم من ممارسة حقوقهم في المواطن والبقاع. ومع هذا كان للدبوان أيضاً فائدة من هذا الوضع. وعندما نصل الرهيات السلطانية إلى إحدى الولايات، ويلزم توفير بعض الدواب للباذارية وغيرهم. قرر أيضاً أنه لا ينبغي أن تؤخذ الحمير والخيول من الرعايا. وكذلك الحال إذا ما دعا الأمر إلى توفير الطيور والحمام لإطعام الحيوانات أو لاستعمالها في الطبخ فإنها تعد لازمة لخاصة الدبوان. وكان حال هذه القضية مثل حال قضية الوسطاء، فرفضت بذلك عادة الاستيلاء **[ص ٥٥٦]** على الحمير. وقبل هذا كان كل من أراد شيئاً، يستولى عليه دون حياء. وإذا كانت هناك ضرورة فإنهم يتداركون الأمر من الدبوان عن طريق هؤلاء الوسطاء، ولا يمكن شرح ذلك، ويكفي أنهم كل سنة، كانوا يستولون على عدد من الحمير يمتصونها من الرعايا والتجار وغيرهم. وكان الفلاحون دائماً في ذهول وحيرة خوفاً على دوابهم. وكان بعض الصيادين يأخذون الدواب نهائياً ولا يردونها، ويتخلف بعضها في الطريق ويهلك، فينتج عن ذلك انصراف الفلاحين عن الزراعة والفلاحة.

وحيث إن سلطان الإسلام منع البازدارية من الاستيلاء على الحمام والدجاج من الناس وأباح لهم أخذها من طيور الخاصة، أصدر قراراً بوجوب تطبيق الأحكام والقوانين على الأمور الصغيرة. وبالضرورة تجرى هذه الأحكام أيضاً على الأعمال الكبيرة. ثم يقول: إننا إذا لم نستطع منع الصيادين من الاستيلاء على الحمام، فإنه يكون من المهال أن نقدر على منعهم من الاستيلاء على الأغنام. ويكون أكثر تضرراً إذا ما حاولنا منعهم من الاستيلاء على الأبقار.

وعلى هذا النحو أصدر السلطان مرسوماً يقضي بالآي يلقى الصيادون شبابهم بتأثم حشما يوجد الحمام. وفي الحقيقة للسلطان في حق الناس الكثير من أمثال تلك التدابير الحسنة والشفقة الوفيرة. يبدو ذلك واضحاً في اهتمامه بمنع شر الظالمين والقضاء على فساد الفسدين، وفي مراعاته مثل هذه النكات الدقيقة الصغيرة.

بكل هذا يتحقق ويتضح كمال حسن الأخلاق والسمرة الحسنة والعدل والإنصاف لهذا
السلطان الراعي العدل أبقاه الله أبداً الدهر ولا شك أن لكل العالم فيما بعد سوف
يتعجبون من هذه الحالات.
فليستجب الله الدعاء الذي يطلقه كافة الخلق ليلاً ونهاراً بحر وإقبال دولة هذا السلطان.

في ترتيب الشئون المتعلقة بتصميم الأراضي الجور

لا يخفى على من تتبع التواريخ الصحيحة، وسلك الطريق للمقول، أنه لم تكن البلاد مطلقاً أكثر خراباً مما كانت عليه خلال هذه السنوات خصوصاً في المواضع التي وصلت إليها جيوش المغول؛ [ص ٥٥٧] إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام چنګيز خان وذريته لم يتيسر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التي سخروها، وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد في العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء.

وإن ما قيل عن الإسكندر إنه قد استولى على بلاد كثيرة، فهو خبر غير صحيح؛ فقد كان يفتح البلاد، ثم يرحل عنها ولا يقيم فيها. وعندما يبلغ الناس ذبوع صيته، كانوا يسارعون إلى الخضوع له والدخول في طاعته، وذلك لميثته وصلابته. وكانت مدة عمره ستاً وثلاثين سنة. وفي السنة الرابعة والعشرين من عمره استولى على ملك إيران، وقتل دارا^١. بعد ذلك أخضع العالم مدة اثنتى عشرة سنة. وعند عودته توفى بالقرب من بابل. وقد استولى على بلاد كثيرة خلال فترة الاثنتى عشرة سنة، لكن لأنه كان دعواً على السير دائماً، ولا يتوقف، كان الناس يتورون عليه مرة أخرى بعد رحيله. وحيث إنه لم يكن له ابن وذرية لم يبق الملك في أسرته، وأل الأمر من بعده إلى ملوك الطوائف كما سوف يأتي شرح تلك الحكايات في تاريخه.

(١) هذه الرواية تتفق مع ما ذكره للمسعودي إذ يقول: لما قتل الإسكندر من فليس "دارا بن دارا"، تغلب كل رئيس تاحية على ناحيته، وكاتبهم الإسكندر فذهبهم فرس ونيط وخرم. وكان مراد الإسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وفرضهم، ولهذا كل رئيس منهم على المصنع الذي هو به فينعم نظام تلك والاتشاد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع إليه الأمر (سروج القذهب، تحقيق محمد يحيى القنن عبد السيد، ج ١، ص ٢٢١، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م).

وأما الطبري فيذكر أن الإسكندر حارب دارا وهزمه، فلما رأى تلك رجلاً من حرسه ضللاً ليدلاً المخطوة عند الإسكندر إلا أنه أمر بترسها وصلبها، وأن ينادى عليهما: هذا جزء من اجترأ على ملكه، وعش لعدل ياد. (تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، دار المعارف ص ٥٧٤ - ٥٧٧، القاهرة ١٩٧٩ م).

أما وضع چنگيز خان فقد كان على تقيضه؛ إذ إنه فتح البلاد، وسخر العباد بشأن وحذر، فبقي جميعهم مطيعين ومتقادين له. ثم حافظ على هذا الملك أبناؤه وذريته وأخضعوه لمشيئتهم. وكما هو معروف استولوا على ثلاثين مملكة أخرى بالإضافة إلى ما كان قد استولى عليه چنگيز خان. وعندما استولوا على الولايات والمدن العظيمة ذات الطول والعرض، ثقلوا كثيرا من الخلق، بحيث إنه لم يبق منهم أحد إلا نادرا. وهذه المدن من قبيل بلخ وشبورغان وطاققان ومرو وسرخس وهراة وتركستان والسرى وهمذان وقسم وأصفهان ومرغه وأردبيل وبردع وگنجه وبغداد والموصل واربيل، وأكثر الولايات التي ترتبط بهذه المواضع. أما بعض الولايات التي كانت تحترق نورا، وصارت طريقا لعبور الجنود الكثيرين فقد قضى على أهلها قضاء مبرما، لو أنهم هربوا. وقد بقيت هذه الأماكن خرابا مثل ولايات ابخورستان والولايات الأخرى التي صارت حادا فاصلا بين الخاقان وقابدو. وكذلك بعض الولايات الواقعة بين دربند وشروان وبعض أنقاليم أيلستان وديار بكر [ص ٥٥٨] مثل حران وروحه وسروج والرقه، ومدن كثيرة على جانبي الفرات كلها صارت خربة وغير صالحة. وكذلك ما دمر من بلاد تقع بين الولايات الأخرى، ونتيجة للقتل والسفك مثل خرابب بغداد وآذربيجان وغيرها في تركستان وبلاد إيران والروم من المدن والقرى المخربة مما هو مائل أمام الناس. وكل هذا يزيد عما يمكن حصره.

وصفة القول أنهم إذا أرادوا القياس عن طريق النسبة فإنه لن يكون الممران في الممالك واحدا من عشرة، والباقي كله خراب. ولم يكن أحد في هذه العهود يفكر في بند التعمير وهو أمر نادر إن شرع البعض في تعمير أحد المواضع إرضاء لأهوائهم مثل هولاكو خان وأباقاخان وأرخون خان وگيخاتو خان، فإنهم عندما أرادوا تشييد عمدة قصور قى الأناغ وأرمية وسقورلوق وسجاس وخوجان وزنجان وسراى التصورية في أران، وتعمير تلك الأماكن، أو أنهم ينشئون سوقا أو مدينة ويعمرنهما، أو يجرون فيها نهرا من الماء، فإنه نتيجة لهذا صارت ولايات كثيرة أكثر خرابا مما كانت عليه رغم ما أتفق عليها من أموال بغير حساب. كما نزع عن الولايات الأخرى رعايا كثيرين دفعة واحدة. وقد خرجوا منها مجبرين، ولم يعمروا واحد من تلك الأماكن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد كما نشاهد. بل إنه إذا نتت تلك العمارة فإنه يظهر إلى جانبها ارتفاع نسبة الدمار الذي يلحق بالولايات.

ثم أراد الحق تعالى أن يكون إحياء الملك وتقوية دين الإسلام بواسطة الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان خلد الله ملكه وفي الأزل جعل الحق تعالى على يديه تحقيق الخير العميم وإنجاز العمل العظيم. وقد أعلی بحمد الله ومنه شؤون الإسلام على النحو الذي أوردنا شرحه. وأما ما يتعلق بشؤون الممارات والخيرات بصفة خاصة، فقد سجلناها على حدة على النحو الذي مر ذكره. وكذلك أخبار ضبط أمور المملكة ورعاية الرحمة ونشر العدل والإنصاف حسب ما بيناه. ولا بد أن السبب الأكبر لعمران الولايات يمكن أن يكون نتيجة لتلك الأمور، كما أننا نعاين ونشاهد في المدن التي صارت خربة أنه لم يكن في كل عشرة منازل محسة منها مسكونة. [ص ٥٥٩] وهذه أيضا عربت رغم أنها كانت عامرة.

والآن يبين عدل السلطان الشامل بشد في كل سنة، وفي كل مدينة ما يزيد على الألف منزل. فالدار التي كانت تقوم بمائة دينار، تساوي الآن ألف دينار وزيادة. ولقد شرحنا هذه الأمور في الفصول السابقة.

وأما حال الأماكن الخربة فلم يكن أحد يميل إلى تعميرها، ولا تتوافر لشخص قط القدرة على التعمير من ماله الخاص بنسبة واحد من ألف من تلك الخرائب. فسلطان السلطان تلك الأراضع يرثيه الصائب وحسن تدبيره، فكان أن أحضر الأمراء والوزراء وأركان الدولة، وقال لهم: إن هذه الولايات الخربة والمقرى القاحلة، والتي كانت ملكا لأبائنا هي الآن ملك لنا، وما سعة أملاك الدولة والخاصة، وبعضها ملك للناس. ومنذ عهد هولاءكو خان إلى الآن لم ينل أحد منها متا من الثمار أو نائفا من المال. ولو أراد أحد أن يعمرها ببلون إذن، فإنها تنتزع منه بعد تحمل المشقات الكثيرة والتفقات الباهظة. وعلى هذا لا يقدم الناس على تعمير تلك الأماكن. وإذن فلم لا نعد خطة لتعمير هذه الخرائب بحيث تصل حصص مبنية إلى الديوان بما يخص أملاك الدولة والخاصة، وتخصص حصص للمالك مما يعتبر ملكية خاصة. وكذلك نعطي حصص للديوان وللأشخاص الذين يقومون بالتعمير بحيث تكون لهم عرنا بصفة دائمة ومدخرها صالحا لأولادهم وأحفادهم، ويكون لهم في ذلك كسب موفور، ويقبلون على عملهم بصورة أتم وأنضل.

وهم إذا ما وجدوا في الزراعة فوائد كثيرة، فإنهم يتجنبون متاعب التجارة وتعمل مشقات السفر والمعاملات الأخرى، ويبدلون دفعة واحدة إلى التعمير والزراعة، ذلك أن جمهور الناس يجرون وراء ما فيه نفعهم وكسبهم. فلو نقلت الحطة على هذا النحو فسوف تعمّر أكثر الخراب في زمن قصير. وإنسا يتيسر تعمير مثل هذه الخراب بقوة جميع أهل العالم وتضارفهم. ومحال أن تعمّر بغير هذا الطريق. وعندما تعمّر تلك الأراضي البور ترخص الغلال، ويتيسر الحصول على الثؤن الكبيرة عند مسر الجبوش للقيام بمهام ضرورية [ص ٥٦] في المناطق المتاخمة للثفور، وتتدفق الأموال أيضاً على الخزانة، ويعود من جديد التقدم والازدهار على أصحاب الأراضي والملاك، وينعم الرعايا بالاستقرار والرخاء ويحصل لنا الأجر والثواب كاملين، ويبقى ذكرنا الحسن مؤبداً ومخلداً. فتعجب جميع الحاضرين وظلوا متحيرين من هذه الأفكار الصائبة والكلام اللطيف. وبعد أن أجمعوا على التصاه والمدح، قالوا: إنه لم ينكر شخص آخر في العالم في طريقة غير من هذه الطريقة وفي تدبير لئيد من هذا التدبير. فأنت تعمّر ما غيره أبداً. وإن الفرق بين هذه المرتبة وتلك لمعلوم ومحقق عقلاً وعرفاً وشرعاً. فأنت تحيي ما أماته الآخرون بصورة مطلقة. وإن هذا القدر من الكلام في الكفاية. فمانا نقول أزيد من هذا؟

بعد ذلك أمر السلطان بكتابة الشروط والراسيم. وبناء على هذا قرر أن ما كان قديم البوار من أملاك الدولة، وما لم يكن مزروعاً من القرى والمزارع وقت جلوسه المبارك، تعتبر جهتها من الأراضي البور، وأمر بأن تكتب الشروط وتتم بحتم الدولة الذهبي، وتنص على أن كل شخص يرغب في امتلاك تلك الأراضي وتعميرها عليه أن يراعى الأقسام الثلاثة الآتية:

القسم الأول:

ما كان موجوداً به الماء والشمير، ولا يستلزم زيادة في النفقات والجهد، أو أنه يزرع بواسطة مياه الأمطار، وليس في حاجة إلى القنوات والأنهار والسدود. هذه الأراضي عندما يشرعون في تعميرها لا يعطون الديوان شيئاً قط في السنة الأولى من زراعتها. أما في السنة الثانية فيدفعون دانتين مما هو مقرر من الحقوق الديوانية على أن تحسب لهم أربعة دوايق جزاء سعيهم وكدهم. ولما في السنة الثالثة فيدفعون أربعة دوايق ونصف من حقوق

الديوان كالمعتاد في كل ولاية، وما يزيد ذلك فهو حق المزارع. وكذلك ما فيه من ربح يكون كله ملكا له. [ص ٥٦١].

القسم الثاني:

ما يكون إعمارها من النوع للتوسط، وإصلاح الأنهار، واستخراج الماء منها قليل للتكاليف، وشروطه على نحو ما ذكر، إلا أن المزارع يسلم الديوان أربعة دوانق من الرسوم المقررة.

القسم الثالث:

ما يكون إعمارها صعبا وعسيرا. وينبغي أن يقام سد على نهره وما تكون قناته بحرية. وينبغي إعادة تعميرها. وذلك القسم أيضا تطبق عليه الشروط المذكورة. ولكن على الشخص الذي يصلح أرضا من ذلك النوع أن يسد نصفا من حقوق الديوان، ويكون له النصف الباقي تقديرا لجهوده. وقد اشترط السلطان أن تؤدي حصة الرسوم هذه باسم الحراج.

وكل شخص يقوم بإصلاح تلك الأراضي، تصير ملكا له، وتبقى له على الدوام، ثم تحول إلى أولاده من بعده. وإذا أراد أن يبيعها لشخص آخر، فإنه يجوز ذلك. وفي هذه الحالة يأخذ الديوان الحراج المقرر من المشتري. واشترط أن كل أرض بور لا تستعد ماها من نهر خاص بأرض عامرة، ما دام المالك لتلك الأرض لا يريد أن يعطى غيره الماء حتى لا يقع نزاع بهذا السبب.

بعد ذلك صرح السلطان قائلا: لما كنا قد أبلغنا الحيازة والقسامة، فإنه ينبغي أن تقدر وتعين حصة الديوان أيضا على الأراضي البور في كل ولاية حسبما يحدد الخبراء، وتسد باسم الحراج. ولا يكون للمتصدين والنظاميين سلطة الاستيلاء والمشاركة والإتقال على أراضيها. وبهذا يقضى نهائيا على تلك المشقات. وحيث إن رقعة ممالك السلطان عتد ملكه عظيمة ومتنعة وفسحة، ففكر في أنه إذا كان على كل راغب يريد أن يأتي إلى الخيم كي يأخذ الوثيقة المين بها الشروط، فإن كثيرين من هؤلاء الناس لا يقدمون على ذلك بسبب بعد المسافة وتحمل التفتتات، وبعض منهم بسبب العجز وعدم القدرة على السفر، وبعضهم لا يعرف ما في ذلك من فائدة فيحجم عن الذهاب. لكل هذا أمر

السلطان بتعيين واحد أو اثنين من كبار الشخصيات الثقات، وسلموهما وثائق الشروط وعيّن لهما السلطان نموذجاً وقاعدة سيران عليهما، وأذن لهما في أن يعطيا كل راضب نسخة من تلك الشروط على أن تكتب على ظهرها صورة مرسوم الوثيقة. وبذلك يكون ذلك الحكم مزيداً وعقدًا ولا يكون لأى مخلوق اعتراض على ذلك حتى ينفذ ذلك العمل بسهولة في كل ولاية.

وحيث إنهم باشرُوا الأعمال بموجب هذه التعليمات، توعدت هذه القاعدة، وسار هنا الأمر نحو الغاية المرسومة، [ص ٥٦٢] وكانت له صفة الدوام والاستمرار. وقد سموا ذلك الديوان (ديوان التخليص). وحتى هذا الوقت أعطى نواب ذلك الديوان الناس كثيرا من سجلات الشروط، فترافر العمران، وصار في ازدياد يوما بعد يوم.

أما ما يخص أملاك الناس، فكل ما كان قريبا من العمران، قرر السلطان أن كل شخص يريد تعميره، عليه أن يتشاور مع صاحبه. وأما ما كان قديم البوكر من الأراضي، فإنه يقدم على تعميره دون استشارة. وإذا ما ظهر مالك الأرض، وتحدت ملكيته لها ضاماً عن طريق الشرع والشهرة، فإنه يست قى أمرها كما لو كانت عامرة. لكن مقدار ما يسنده من الرسوم، هو ما نص عليه في القسم المخصص بالديوان، وعليه أن يدفع للمالك نصف المبلغ المقرر، والنصف الآخر للديوان. وتلك الضوابط إنما تطبق على الولاية التي كانت قبل هذا وحتى الآن حكرا، وكان يدفع للديوان عشر شتها. أما الولاية التي كانت في الأصل خالية من القيود، ولم يكن عليها رسوم وغير خاضعة لنظام الحكر، فإنها تسلم للمالك بأكملها. وليس للمالك أن يعترض لأنها تكون في حكم من عمر الأراضي الديوانية، فهي باقية وعقدية.

أما المواضع الخربة التي تقع في مناطق المنزل، وقاموا بتعميرها بأنفسهم، فإنه يطبق عليها ما شرحناه في القسمين: الخاص والديوان.

لكن السلطان أنصف قائلا: حيث إن المنول هم الذين لن يؤدوا قطعا حقوق الفلاحين في الولايات، ولن يقوموا بتعمير هذه للمواضع سواء جاءت في عداد الأماكن الأخرى أم لم تأت، ولن يسمحوا لأى شخص من الفلاحين بطلبهم بأى حق من الحقوق بل إنهم سوف يمهلون بتعميرها إلى أسراهم وعيبتهم. وكذلك التازيك فإنهم لا يعمرونها

بواسطة الفلاحين الذين ورد ذكرهم في موضع آخر. وإذا لم يأت الفلاحون المذكورة أسماؤهم في القائمة إلى موضع من المواضع، فإنه يجوز جمعهم. وطبقا لهذا القرار أصدر سجلات الشروط للوثقة. ونحن لم نذكر أكثرها مراعاة للاختصار، وهي المذكورة بأكملها في قوائم الشروط [ص ٥٦٣] والجميع مشغولون في كل البلاد في وقتنا هذا بتعمير الأراضي، والمصران في ازدياد يوما بعد يوم. وبهذه الإصلاحات يشتد أزر كثير من الناس ويزدهر بذلك شأن (ديوان التخليص) تزددهارا كبيرا وتزداد محاصيل الأراضي كل عام. وعلى هذا سوف نقل الخراب في أسرع وقت.

كذلك أمر السلطان بأن تسجل في السجلات كل الأراضي البور في كل ولاية، ثم يؤتى بها إلى الديوان؛ حتى إذا سلمت للناس، يمكن عرضها كل عامين للتأكد من أنها قد عبرت بأكملها، أو أن بعضها قد بقي دون تعمير. وإذا ما موه أحد الثواب، وحاول إفساد الأمور، وأخفى بعض الأراضي البور، واختصها لنفسه أو أنه شارك أحدا، ولم ينص في السجلات على نصيب الديوان، فإنه مكتشف أمره نتيجة المراجعة وإعادة العرض. ليواصل الحق تعالى ثواب هذه الخيرات إلى عهد السلطان المبارك بینه وكرمه.

المكايبة الخاتمة والثاقون

صعود الفرمان بإنقامة دور خاصة للرسل في البلاد ومنع الشحن والحكام من النزول في منازل الناس

قبل هذا كان ينزل دائما في كل مدينة في منازل الرعايا والملاك ما يزيد على مائة أو مائتين من الرسل. وكفلك الحال عندما كان يصل الوافدون من غير الرسل إلى إحدى المدن، فإن الشحن والحكام ينزلونهم في بيوت الناس بقطع الصداقة والمعرفة. وإذا ما وصل الرسل، فإن مهمة الأدلاء أن يصحبهم إلى بيوت الناس قائلين لأصحابها: إن هؤلاء الرسل ينزلون ضيوفا عندكم. وفي مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئا. وفي ذلك اليوم يسترضون ما لا يقل عن مائتي منزل. وعاقبة الأمر ينزلونهم في منازل الأشخاص المتضامين منهم كي يتشاهم الآخرون. وكانوا يأخذون للرسل من بيوت الناس السجاجيد وملابس النوم وأدوات الطبخ. وأكثر هذه الأدوات كان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم وإما الأدلاء بحجة أن الرسل قد استولوا عليها ولم يردوها. وإذا أعيد بعضها [ص ٥٦٤] فآفة قيمة لها بعد أن ظل الرسل يستملونها مدة طويلة. وكان كل حاكم يذهب إلى إحدى الولايات يسلب ما لا يقل عن مائة منزل. وكل هؤلاء الرسل كانوا ينزلون في منازل للملاك والرعايا. وقد علم مؤلف هذا الكتاب أنه عندما عزل تنغاي بن يسوهر من شحنة يزد، فإن أعوانه وقت مغادرتهم المدينة احتاطوا للأسر، واحتل أتباعهم سبعمائة وبضعا من المنازل. وبالضرورة كانت دائما أحسن المنازل تلك التي اغتلبوها مقررا لنزول الرسل والشحن. وقد ترتب على هذا أن أحدا لم يكن يقدم على بناء منزل من المنازل. وهؤلاء الذين شيدوا بيوتنا حولوها إلى مقابر، وأطلقوا عليها اسم أرهطة أو مدارس. ولكن لم يجد هذا قبلا. كذلك استثنى كثير من الناس عن استعمال أبواب منازلهم، واغلقوا لهم بمرات شائكة تحت الأرض حتى تكون سرا مجهولا. وكانوا أيضا يشقون الجدران، وينزلون منها. كما أن الرسل كانوا يسلمون دوابهم للأدلاء، وهؤلاء يرسلون أشخاصا لعدم أسوار حقائق الناس، ثم يسوقون إليها الدواب. وفي اليوم الذي يغادر فيه الرسول المنزل، كانوا يملئون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما يصلون تبعاء، ولا ينقطعون. وحشما ينزل رسول في إحدى

المخلات، كان السكان هناك يقعون في عذاب ومثقة إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التي يرونها، ويوشقون حمامهم وطيرهم بهمامهم. وكثيرا ما كانت هذه الهمام تصيب أطفالهم. وكانوا يستولون على كل ما يجدونه من المأكولات والمشروبات وأصناف علف الدواب مما يمتلكه أي مخلوق. وبسبب ذلك يتعرض الناس للشعاب والمشقات. ومهما كانوا يصرخون ويتوحدون، لم يصل صباحهم إلى أي من الأمراء والوزراء والحكام.

وذات يوم قدم إلى الدهوان رجل هرم من الأعيان من ذوى الشرف والهمة، وشرح بقول: أيها الأمراء والوزراء والحكام: "هل تسيخون أن أكون رجلا هراما، ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون. وقد ترك كل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وهما هم الرمل قد نزلوا في منزلى، وجميعهم شباب قوى نشيط [ص ٥٦٥] يتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقسمون عندي فيشاهدنهم أولئك النسوة، ولن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين. وحيث إننا فى دار واحدة مع هؤلاء الرسل، لا أستطيع مراقبتهم ليلا ونهارا. وكما أرى فإن أغلب الناس مرضون لهذا الوضع. وحيث إن الأمور تجرى على هذا النمط، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة، وسيكونون جميعا أبناء أتراك مخلطين.

ولقد ذكرت عدة حكايات فى هذا الصدد على سبيل التمثيل، فى عهد أحد سلاطين السلاجقة. كان السلطان مقيما على تخوم نيسابور وكان الأمراء والأتراك يتزلون فى دور الناس، ليس على هذه الشاكلة التى تحدث فى هذه الأيام. وذات يوم نزل تركى فى أحد المنازل، وكانت زوجة رب الأسرة عروسا جميلة وعفيفة، وفى أول عهدها بالزواج، فطمع فيها التركى، وأراد أن يتنزع بحجة لإخراج الزوج من الدار حتى يخلو له الجوى، فصرف الرجل قصد التركى، ولم ينادر منزله. فأخذ التركى يضرب الرجل قائلا: "سر بجوادى وارو ظمأه. ولم يكن الزوج يستطيع أن يتخلص زوجته، ولم تعد هناك حيلة يلجأ إليها. وأخيرا قال لزوجته: "أنا سوف أبقى فى المنزل. انذهى أنت بالجواد إلى شاطئ النهر لتسقيه. وجرىا على عادة العروس فى الأيام الأولى من حياتها للزوجية، كانت ترتدى ثيابا أنيقة، وازدانت أحسن زينة. وتصادف أن السلطان كان يمر، فوقع نظره على تلك المرأة، فاستدعاها وسألها

قالا: كيف أنك امرأة حديثة العرس، وتفردين الجواد كى تسقيه؟ أجابت المرأة: بسبب جورك وظلمك أنت أيها السلطان، فتصجب من قولها وأسأفا عن السبب، فأعدت عليه شرح قصتها. فأثر ذلك للكلام، وتآرت غيرته بسبب تلك الحالة، وأمر على الفور بالآ منزل أى مخلوق منهم منزلا على الحدود هناك [ص ٥٦٦]. ولهذا السبب أقاموا شاذباخ الثابتة لنيسابور التي أصبحت مدينة فى هذا الزمان. كان ذلك الشيخ يتحدث عن تلك المهن وهو يكى دون أن يؤثر ذلك فى الأمراء والوزراء قط.

وقصارى القول أنه عندما كان سلطان الإسلام يدير شئون الممالك كان أول قرار له فيما يتعلق بموضوع الرسل هو أنه أمر بالآ يرسل رسول واحد من كل مائة أو مائتين من الرسل والأنبياء الذين كانوا من قبل يذهبون عيثا إلى الولايات إلا إذا كان إيفاده لتصرف مصالح الملك الضرورية، وأن يذهب لأداء هذه المهمة الرسل المعاونون وسعاة اليريد الذين لا يرون فرية ولا مدينة، ويكون توقفهم فقط لطعام يتناولونه على عجل، أو لركوب جواد آخر، أو لقضاء حاجة. وإذا دعت الضرورة إلى إيفاد أحد الرسل لتحصيل الأموال - وهذا نادرا ما يحدث فإنه أمر بتشييد دور خاصة لضيفة الرسل كى ينزلوا فيها فى المدن. وقد زودت هذه الدور بالفراش وملابس النوم، وكل ما يحتاج إليه. كذلك خصصت مبالغ من الأموال تنفق دائما على هذه الدور وتعميرها. وأصدر أيضا مرسوما يقضى بأن يتم الأحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم، أو يستأجرونها.

وبحمد الله ومنه زالت تلك الشاعب، واستراح الناس، ونسوا ذلك الصلاب وتلك المشقات، ولم يجرؤ أى وسط على أن يطلب من أحد رغيفا واحدا من الخبز أو منا من الثين. وبهذا قضى قضاء مبرما على اسم الوسطاء. ونتيجة لهدوء البال ورفاهية الخاطر شيد الناس قصورا رائعة، وخططوا لها الإيوانات وخططوا بالتعمير وإقامة الحدائق الضاء. وقطعا لم يجرؤ أى مخلوق على أن يدخل دابته فى حدائق الناس. والدار التي كان شنها قبل هذا مائة دينار، صارت تباع الآن بألف دينار. أما جمهور الثالين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عن أوطانهم منذ أكثر من خمسين سنة، وكانوا ينتقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعا قد أخذوا يمددون بسحبى إرادتهم إلى مدنهم وديارهم القديمة، [ص ٥٦٧] وألستهم تلهج بالدعاء لدولة سلطان الإسلام بإعلاص تام من جميع قلوبهم.

فليستجب الله دعائهم.

المكايبة التاسعة والثلاثون

فى منع المكارين والجمالين والسعاة من إيذاء الناس

قبل هذا كان كل رجل شريف أو سيد يريد الذهاب إلى السوق لتبادل المنافع أو للإستحمام، يلتف حوله عدد من المكارين قالين له: "نبهني أن تعطيتنا مالا كثيرا تنفقه اليوم على عشيقاتنا وسقانا ومطربينا وخبزنا ولحمنا وحوادثنا ولوازمنا الأخرى. فأنت عليك أن تدفع الثمن". فإذا لم يعطهم أو اعتذر لهم، يادروه بالسفاهة والوقاحة. وتكون عاقبة الأمر إما أن يأخذوا منه مالا، وإما أن يضربوه ضربا مبرحا. وكثيرا ما كان هذا الرجل المسكين لا يملك مالا، فيضطر إلى الاقتراض. وبذلك يخسر ماله وعرضه وكرامته، ولا يستطيع مغادرة السوق.

وكان هؤلاء الصعاليك يقفون على مقترق الطرق لفوجا لفوجا. ومن استطاع من الضحايا التخلص من فوج، وقع فى يد فوج آخر. وكان الحال يجرى على هذا المتوال. فإذا ما وصل إلى طائفة الجمالين، وجد نفس السلوك. وكذلك الحال إذا ما وصل إلى فريق الرسل والسعاة، فإنه يجد منهم أسوأ مما وجد من الآخرين. وكثيرا ما تصادف أن شخصا واحدا يقع فى يوم ما فريسة لجميع هذه الطوائف؛ لأنهم احترقوا هذا العمل [ص ٥٦٨] وكان هؤلاء يقفون مترصنين صيغهم. كما كانوا جميعا على صلة بالخواتين والأمراء الأنجال والأمراء. وإذا كان لأحد القدرة على مقاومتهم والتغلب عليهم فإنه لم يمكن يرى من المصلحة منازعتهم ومجاهبتهم؛ لأن هؤلاء الكبار كانوا يتضامقون ويفكرون فى إيجاد مناصب تتيح لهؤلاء المكارين والجمالين والسعاة ممارسة هذه الأساليب وهم قادرون على ذلك. وكانوا يزيتون الدواب فى أيام الأعياد ومناسبات التوروز والحفلات وأمثال ذلك. ثم يذهبون فوجا فوجا إلى منازل العظماء. فإذا ظهر لهم رب البيت، فإنهم كانوا يأخذون بإلحاح كل ما يطلبون. وكانوا يتلفظون بألفاظ غاية فى الوقاحة والمهذبان، ويكيلون له الشتائم والسباب حتى يحصلوا منه على مطالب أكثر. وبالضرورة كانوا يسلبون كرامة الناس كما يستولون على الأشياء التى تخصهم. وإذا لم يمكن رب البيت حضرا، أو أنه اغتضى خوفا منهم، فإنهم يرهنون كل ما يملكونه بمبالغ كبيرة لدى السكارى المدمنين

أو أنهم بأخلاقها بالإلحاح والإصرار. وفي بعض البلاد كان هناك رسل كثيرون وغلما ن وضباط بحيث إنه في الواقع وحقيقة الأمر كان كل واحد من الرعايا يقابله اثنين من هؤلاء.

وأنا عبد التلوة ومؤلف هذا الكتاب أذكر أنه في سنة ١٢٩١/هـ/١٦٩١م كان اللعين علي خواجه بن عمر شاه السمرقندي حاكما على ولاية يزد، فذهب إلى قرية تدعى فيروزآباد من أكبر القرى هناك والتي بسبب ارتفاع أبنيتها وفخامتها يمكن الاستفادة منها واستغلالها. ورغم ما بذله هذا الحاكم من جهد خلال ثلاثة أيام كاملة لم يستطع أن يجد شخصا قط من الرؤساء. وقد رابط في القرية سبعة عشر محصلا من محصلي الحوالات والسندات. وأخيرا اعتقلوا من الصحراء أحد الحراس واثنتين من الرعايا، وأحضروهم إلى القرية مقيدين بالحبال، وصاروا يضربونهم كي يحضروا أشخاصا آخرين ليزودوهم بالأطعمة الكافية. وقطعا لم يتيسر لهم هذا.

كذلك كان ينبغي توفير العلف والمؤن والشراب والمشروبات لمجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم. وقياسا على هذه التصرفات كيف يمكن الوقوف على الأنواع الأخرى من المظالم التي كانت تقع على كامل الرعايا؟!

كذلك ينبغي التفكير في أن البدع المعقدة والرسوم السيئة إذا تعود عليها الناس الأشرار على مر الأيام، فكيف يمكن تداركها في زمن قصير؟! خصوصا أن المراسيم قد أرسلت إلى كل الأطراف في كل مكان لاستمالة الرعايا ومنع بعض هذه المظالم عنهم. ولكن لم ينفذ هذا بأى وجه من الوجوه، ويش الخلق جميعا من تنفيذ ذلك.

[ص ٥٥٣] أما في هذا الوقت الذي حل فيه المهدي المبارك لسلطان الإسلام خلد الله سلطانه، وأدام عدله وإحسانه - فإنه يكون تفكيره المبارك منصباً على ما هو محض خير ومستهدفاً العدل. فبذل كل همته كي يتدارك الخلل الذي تطرق إلى شئون المملكة، وعمل على أن يقضي قضاء مبرما على البدع والفساد، وسمى في أن يكون الناس دائما في راحة وطمانينة. وفي هذا الصدد صرح قائلا: "إن فوائد محصول العمر الإنساني في الدنيا هي تحقيق هذه الأمور".

ولقد تعهد السلطان غازان خان بأن يهدى في هذا الشأن سعيا جديدا واجتهادا تاما فعمل على تدارك هذه العيوب في البلد الذي يدفع الضرائب وقال في هذا الشأن: إنه في الوقت الذي عدل فيه عن اتباع نصوص الياسا وتطرق الخلل التام إليها، ينبغي المبادرة بإصلاح تلك الأوضاع، والبدء بمعالجة الأمور الصغيرة، حتى يعلم الخلق أنه ما دامت المؤازعة والمسايلة تجرى على الأمور الصغيرة وتوقع العقوبة على المقصرين، تكون هذه العقوبة بالضرورة أضعاف ذلك في الأمور الكبيرة، فيكتفون أيديهم عن ذلك مرغمين. وكان يقول أيضا: "حيث إن الإحاطة بكل عمل تقتضى الوقوف على أصله ومكوناته، تصير كل جزئياته داخلة فيه. ولو يشغل الناس بإصلاح جزئياته واحدة فواحدة، فيصلحون واحدة ثم يصلحون الأخرى، فإنه يمتل مرة أخرى، ولا يمكن ضبطه. كذلك صرح قائلا: إن القوم الذين تعودوا هذا الأسلوب مدة طويلة، وصار مألوقا عندهم لن يستطيع منعهم من ذلك الأمر مرة واحدة، ويكون إقلاعه عن أمر صعبا للغاية. كذلك الولاة والحكام قد أصموا آذانهم في هذه السنوات، ولم يحاولوا الإصلاح، بل شقوا على الرعايا، فراحوا يزينون عليهم الأعباء ويأخذون منهم الضرائب، ولا يعطون الديون شيئا. ثم يحاكمون هؤلاء الرعايا المساكين كل سنة، فيضطر هؤلاء إلى تقديم الرشاوى للخلاص منهم، ويسردون عدة حكايات عن كل ما يحدث لهم. وإذا قتل منهم أيضا عدة أشخاص، فإن الآخرين يتصورون أن المسألة حدثت بمحض الصدفة، وأن الشخص الفلاني لم يهتم بهم. وإلا إذا كان هناك حرص على المال والمحافظة عليه، فإنه كان ينبغي أن تطبق هذه القاعدة على الطوائف الأخرى.

وقصارى القول أننا إذا عائبنا بعضا من هذه الجماعة، فإن ذلك لن يكون ممكنا؛ إذ إن الآخرين يسلكون نفس السلوك، ولن يكفوا أيديهم عن الظلم والعدوى. وهكذا يبقى الرعايا في عذاب، ولن يصل مال قط إلى الخزانة. وإذا نال الصلحة تقضى بأن تفكر في طريقة تكف بها أيدي حكام الولايات نهائيا عن التصرف في الأموال وتبديدها، وحتى لا يبدوا قطعاً أى سبب يفتح طريق الاعتناء؛ فيكون مثلهم مثل الثعلب الذي قال: "سوف أستطيع الخلاص من الكلب بلف حيلة. ولكن من لمستحسن إلا أراه أنا وهو لا يرانى". وإذا فالأفضل في هذه القضية أيضا ألا يستطيع الولاة أن يكتبوا حوالة حتى ولو بدانت واحد. ثم أمر بأن يسر إلى كل بلد كاتب جلد يكتب بالتفصيل كل ما يضمه ذلك البلد

من قرى واحدة فواحدة. وبموجب الحصر السابق تحدد الضرائب عليهم، ولا تكون خاضعة للتخميم والتجزئة. وهكذا يعمل على أن يكون الرعايا مرفعين مطمئنين. كذلك أمر بأن تفحص كل أملاك الخاصة والأوقاف والملوك الذين احتفظوا بملاكيتهم مدة ثلاثين سنة بلا منازع، وأن تكذب موضة بأسماء المحصلين، ثم يثبت ذلك في سجلات القاتون حتى إذا فقدت أيضا حجة لأحد الأشخاص؛ أو أن شخصا يريد أن يستولى عليها، فإنه يرجع إلى هذا السجل، ويتم التصرف بموجب القانون المثبت في السجل. وبذلك لا يبقى مجال للتليس والتعدي.

وعلى هذا سار الكتاب إلى البلاد حسب تلك الأوامر. وعلى الرغم من أن الناس الثقات المستقيمين قليلو الوجود، فإنهم سعوا بقدر الإمكان في تسجيل قوانين البلد في سجلات خاصة ثم إحضارها إلينا.

بعد ذلك أمر بالأل يكتب على الإطلاق أي ملك لو وال أو كاتب حوالة أو سندا على ورقة من الأوراق. [ص ٥٥٤]. وإذا حررت حوالة فإنه يعلم الحاكم الذي أعطى التصريح. كما تقطع يد الكاتب الذي كتبها حتى يراه الكتاب الآخرون فيتعظون ويعتبرون. ثم عين لكل بلد كاتبها يلازم الديوان الكبير، وعليه أن يكتب في أوائل كل عام المبالغ التي دخلت ذلك البلد، وذلك بمقتضى القانون، ويكتب ذلك بالتحديد والتفصيل في كل قرية، ويؤشر على هذا السجل نواب الديوان الكبير، ثم يوثق بختم الدولة الذهبية ويرسل إلى البلد حتى يسلم الرعايا ما عليهم على قسطن مع نصف العشر ورسم الخزانة وذلك عن طريق المحصل الذي عين في كل بلد. وهذا المحصل يعطى أصحاب الولايات بعضا من المال نقدا بمقتضى الحوالة المختومة بالخطم الذهبية، ثم يرسل الباقي إلى الخزانة العامة، ويسلم الخزانة هذه المبالغ بالإضافة إلى الرسم المقرر. وإذا حصل - أحيانا - أحد المحصلين أو الرؤساء مبلغا أكبر فإن عليه أن يسلم الخزانة نصف دينار كرسوم للخزانة عن كل مائة دينار وعشرة دنانق، وإلا فإن على المحصلين أن يحضروا المبالغ التي حصلوها ويودعوها مع رسم الخزانة لدى الخزانة.

وأمر كذلك بأنه عندما يحصل مبلغ نقدي من الرعايا في البلاد، لن يسمح مطلقا بأى وجه من الوجوه أن يسلموا الخزانة شيئا من البضائع العينية ولو بقدر دينار واحد. وإلا فإن

على الشخص الذى يحضر بضائع عينية أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ثم يودع فى الخزانة مالا تقديما. ويراعى أن تدفع المبالغ تقدا للمرتبات واللعنات والتفقات التى يجرى العمل بها فى كل مكان، ولا يقصر المسئولون فى دائق واحد حتى يزيد الخلق جميعا من دعائهم للدولة طالت أيامها.

وبواسطة الحوالات المفصلة والختومة بالحنم الذهبى، التى تحمل من هنا إلى البلاد صار جميع الرعايا فى الأماكن المختلفة مطلعين على المبالغ المقررة عليهم، وهم يعرفون جيدا أنه لا ينبغى أن يندموا دائما واحدا زيادة عن المطلوب. وأيضا لديهم رسالة رجال القانون الموضح بها المبالغ التى عليهم وكيفية سدادها.

ولما نفذ هذا القرار المسجل، ظن ملك رود أور من أعمال همذان أنه تم قبيل الأحكام السابقة التى صدرت ولم تنفذ، فصرح لأحد الكتاب بأن يكتب - مع إيقاف التنفيذ - عدة حوالات على إحدى الولايات فصدر الحكم بقتله، وبقطع يد الكتاب الذى حرر الحوالات. فلما علم الكتاب بذلك القرر لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات توفى فى الموضوع الذى حرب إليه. كذلك قبض بعد مدة على أحد الكتاب فى تهاوند وقطعت يده. وفى همذان كتب أحد القبايل من الأترياء حوالة على شريكه بمنين من السحاق^(١١)، فقبض عليه، وصدر فرمان بقتله. وبمزيد من الشفاعة، تخففت عنه عقوبة الإعدام، وضرب مائة وعشرين عصا، ودفع ألف دينار غرامة جزاء جرمه.

وقريبا من هذا الوقت، كانوا يجلبون للحاضرة قبلة من الهند. فلما وصلوا إلى همذان حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف، فقال الحكام هناك: ينبغى أن نحصل على العلف من الخنائق. فلما بلغ هذا الكلام السمع الأشرف للسلطان، قال: إننا دائما نحتاج للأمر، ونعد فى حسابنا ما يازم من العلف والمؤن للقبلة، فكيف تؤخذ من خنائق الناس؟! ولكننا نتجاوز هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسوف نعالجهم.

وصفوة القول أنه خلال هذه السنوات لم يكن هناك مجال ولن يكون لأى مخلوق أن يكتب فى حوالة شن من واحد من اثنين. وبهذا سد نهالها طريق تحرير الحوالات. وقد علم

(١١) حسب بوضع فى بعض الأقسام لكسبها حوضا.

في العام الماضي أنه لما لم يكن في مقدور الحكام أن يربطوا شيئاً على المبلغ المقرر، صار الرؤساء وعمد القرى يلتزمون بسداد الزيادة، ويقسمونها فيما بينهم. وهكذا عندما يعلم كل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، لا يعطى شيئاً زيادة عن المطلوب. كذلك لا يستطيعون مطالبة الفراء والأشخاص الآخرين الذين لم ترد أسماءهم في الكشوف.

حكاية مسير الأمير نوروز إلى تركستان لدى قهردوغان

[ص ٥٧٧] عبر نوروز مع نفر ضئيل من المطرودين نهر جيحون عن طريق بدخشان وصمم على المسير إلى الأمير قاهنو^(١) بن قاشين بن توغكاي قلان وقال لنفسه: "إن الراجل لا يصير خبيراً وبحراً ما لم يسافر ويرحل". وعندما وصل نوروز إلى حضرة الأمير قاهنو أظهر له الصدق والطاعة والإخلاص. ولما سأله قاهنو عن سبب جلالة عن وطنه المألوف وترك مسكنه المعروف وعن الباحث على قدمه ووصوله إلى هنا أجاب قائلاً: "إن أميتي وورغيتي ودعائتي إلى الله أما العبد المخلص والمحجب دون إكراه هي أن أتشرف وأسعد بمشاهدة صاحب البلاط الملكي ومطلعة غرته لليمونة. وحمدنا لله ومنه فإن آثار الرقعة وعلو الشأن وأخبار رعاية الرعية وآيات السياسة والكياسة وذكر العظمة وصيت الملك لهذا البلاط العالی القدر قد طبق الأفاق". ثم شرح أحواله دون تردد ودعشة وبحشية، وختم كلامه قائلاً: "إن علام الغيوب مطلع وعليم بأنتي يرى من الذنب والنجاسة اللذين اتهمت بهما أكثر من براءة الذنب من دم يوسف. كما أنتي أظهر من صفاء السماء.

(بيت من الشعر الفارسي ترجمته:)

لم يجر علي لساني ولم يمر بخاطري

ولم تكن قسط هذه نيتي أنا العبد

(١) يكتب أيضاً قهردوغان، وهو ابن قلش بن توغكاي قلان، ربي في مسكر چنگیز خان، وبعد ولادة جده توغكاي لازم منگور قلان وبعد كان يلزم أربع بركا، وسعى في إجلاله على عرش الخاقانية. فلما خضع أربع بركا لأبيه قوبلاي قلان وأطاع امره، استدر قاهنو عرفاً من قوبلاي، كتار عليه، وطنى وبني، وتركب حدة طاسفات. وقد عمر دهر طوبلا إلى أن توفي متأثراً بمرضه في إحدى المراك التي عاشها ضد نيسور قلان حفيد قوبلاي قلان (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء چنگیز خان من توغكاي قلان إلى تيمور قلان، الترجمة العربية، ص ٣٢١-٣٢٢ رحلات ساركوپولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها ولهم مرسدته، وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٣٥١، ٣٥٢، منشور اللجنة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م).

عندئذ قال قايبدو: "إذن ما سبب الانهزام والفرار والاضطراب؟" أجاب نوروز: حقا إنها مثل أسطورة الثعلب الذي كان يفر هاربا مسرعا. فسأله ابن آوى عن سبب انهزامه. فأجاب الثعلب: إن الملك قد يكون غيبا ساذجا كالحمار. فقال ابن آوى: حيث إنك لست حمارا فلماذا تهرب؟ قال: يا صاحبي إلى أن يثبت أنني لست حمارا، لا بد أن يهينني كثير من الجراح المؤلمة القاسية. [ص ٥٧٨] فأعجب قايبدو بهذه القصة إعجابا شديدا، وشمله برعايته الثامة وأجلسه إلى جانبه، وقدم له كل ما يلزم للإقامة والتكريم.

وهكذا ظل نوروز حائرا مدة ثلاثة أعوام متتالية في إقليم تركستان كالحمار في الوحل والهرباء في الماء. وكان يرجئ أهامة التي لا نهاية لها. ولما كان مجهولاً على العناد والكبرياء، لم يكن ينسجم في غربته ووحشته وكرهه مع أمراء قايبدو وخواصمه جرباً على قاعدة الفرياء والضيوف. والسبب في ذلك أن نوروز عاش ثلاثين سنة كاملة وسط ممالك إيران، وقلب ديار خراسان في هناء ونعيم وحرمة وتعظيم في دولة سخانات المغول. وكان الطي والنشر والتعزى والبسط والحل والعقد في الإقليمين الثالث والرابع في قبضة والده أرغون آقا^{١١}. وكان قد ترك له الشيء الكثير من الناع والأمالك والعقود والنفود والحواشى والمواشى التي لا حصر لها.

لكل هذا رغم زوال الحرمة والحشمة وضياع الأمالك والأسباب والجللاء عن الأهل والديار، لم يعد يتحمل صولة أمراء قايبدو وسطوتهم. وهم أيضاً لم يكونوا يسلكون معه طريق العزة والحرمة، وجادة الوفاق والأوراق. ورغم وجود كل هذا لم يخط أحد من قدره، بل ظل يهيش موفراً ومعظماً حتى مل طول الإقامة وسامة البقاء؛ فاستأذن في العودة.

(١١) هو من قبيلة لوريان وأبوه تايبر الذي كان أميراً لألف جندي وتعد قبيلة لوريان من أشهر قبائل المغول. تولى أرغون حكم إيران من قبل خلفائكم لتطول قبل مجيء هولانكر خاندان، فقام بقمعهم خير قيام. وألقى بالشمعة موقظين أكفاه كان منهم اللزوخ عطا ملك الجورنى. ثم أرغون بعنه إصلاحات، وحذف الضرائب عن كامل الرعايا وظهروا في عهد بالأمن والأمان. وكشاه يهيمه بهمهم صله تعرض لشمالات مفرسة من قبل المظالمين للماسدين الطامعين في منصبه، ولكنه كان يترهم الحجة وينصر عليهم. وهكذا استمر يزيدى واجبه إلى أن قدم هولانكر بحمله على إيران لاستقبله لزوخ استقبال، وأقام له سرفهقا فعمك منسوجا بخروط الذهب. وصار واحداً من أخلص أهباه. تحدث عن أرغون آقا اللزوخ عطا ملك الجورنى في صفحات عديدة ومتفرقة من كتابه تاريخ جهانگشاى (انظر ترجمة الدكتور محمد التونجى غنا الكتاب، المجلد الثانى، طب ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

وبعد أن شمله قابدو بمملكته ورعايته، سَيرَ لمساعدته ثلاثين ألف فارس مع الأميرين
التجلين أبوكان وأركتمور والأميرين بساور وكوهك وغيرهم، وذلك بقصد الذهاب إلى
ديار خراسان وقمع أعداء نوروز. ثم أوعز أيضًا إلى الجيوش التي تقسم في منطقة نهر
جيجون بتقديم المساعدة له. كذلك أرسل مع نوروز جنودًا بقيادة ابنه ساربان وكانوا
بمضون الشتاء والصيف على ضفاف نهر جيجون، وفي بادغيس وشورغان بعد ذلك سار
نوروز في الطلبة.

إسلام غازان وكيف تم ذلك

[ص ٦٠٤] كان غازان المبارك النظر، ليمون للتقدم يتشاور مع الأمراء في تدبير القضاء على الأعداء وقهرهم وقسمهم، وبأية وسيلة يمكن ذلك حتى يصير الخصم قريباً للبرار ومقرباً عليه بالفناء. وكان كل أمير يدل بلوه في هذا الشأن بقدر وسعه وطاعته. وبحكم أن الأمير نوروز سبق أن قدم هدية لغازان - إجلالاً وتعظيماً - عرض على رأى السلطان ملجأ العالم قاتلاً:

(شعر فارسي، ترجمته)

هكذا قال: أيها الملك السيد المقدم
بعلتك يصير الجو ربيعاً في شهر "ردى"^(١)
فلتبق دافعاً موقفاً في العالم
ولكن هذا العالم مثلي عبيدك مطيعاً لك

لقد أثر عن علماء الإسلام والمؤمنين وأرباب التصويم أنه سوف يظهر خلال سنة شمسة وتسعين هجرية (١٢٩١م) سلطان عظيم يكون ظهوراً للدين الإسلامي، فيصير الإسلام - بفضل رعايته وعنايته - ناضراً مزدهراً بعد أن كان متدسراً. وبسبب عدل هذا السلطان في ملكه تصير الشاه آمنة ومستريحة من بطش الذئب، ويتخلص الغزال من جور الفهد. ولشمول إتصافه تسلم الصعوبة^(٢) الضعيفة من صلابة الصقر، وينجو (القيح)^(٣) من شوكة ومهايته ويظل الناج وعرش الملك لسنوات عديدة في مكانهما اللائق بهما. وأحياناً كان يقول بخاطر العبد أن يكون ذلك الماهل هو غازان خان إذ أن أسرار هذه العلامات وعوائل هذه الشوائب تبدو في صورة الحال وصفحة آثار الجنين المبين للأمر النجل المانع الشر.

(١) دى: الشهر العاشر في السنة الإيرانية. فيه يندك البرد، وهو يتبادل شهر ديسمبر وأحياناً من شهر يناير في السنة الحالية.

(٢) الصعرة والصعرة واحد، وهو طائر صغير أحمر الرأس.

(٣) (القيح) الجبل، عرب كيك (انظر كتاب الأسماء الفارسية للبريد، تأليف السيد أبي شير، ص ١٢٣، بيروت ١٩٠٨).

وإنه لظاهر وواضح أنه لو تقلد الأمير النجل قلادة الإسلام، والترم عقائد الإيمان وطرقه، فلا بد وأن يكون مثلاً لأولى الأمر في عهده فيمتح رعاياه المسلمين - الذين ظلوا قاهين في حضيض المذلّة وهبوط الوبال - نشو الإيمان ونشأة الرعاية؛ حتى يتيسر لهم بعد ذلك نصر الموالى وقهر الأعداء عن طريق نشر الدين وبسط العدل بعد بذل الطاعة التي لا مفر منها، والتي تكون في الأعصاق فرض عين، بل عين فرض. ويهسر جميع المسلمين مرهدين ومهيبن. وبسبب صلته وإخلاصه هتته وتوجه القلوب إليه [ص ٦٠٥] ينصره الحق سبحانه وتعالى. وإن الدين الإسلامي الذي اتدرس وانطوى بسبب تغلب كفار الكفار واستيلاء الظالمين والفاستين ليحميا يمن تقوية الأمير النجل.

وحيث إن الحق سبحانه وتعالى كان قد زين وأنار في الأزل قلب الأمير النجل بنور التوحيد، وصارت ذاته الشريفة مخزن أسرار القدس وحاملة المعرفة، وطلع عليه صبح السعادة الأبدية، ورفع عن بصيرته غشاوة العيوب والريب - أثر في قلبه المبارك كلام نوروز للعقول، وتفتحت زهرة قلبه لحديته، وظهرت "يد موسى البيضاء من جيب الغيب"، وأزال عن عينه وأذنه حجاب الظلمة وغطاء الغفلة، واختار النور بدلاً من الظلمة، فقال: إن حديث هذا الداعية وشعثة هذا الباحث كانا نصب عيني وضميري إذ كيف يقتضى العقل أن يسجد رجل عاقل لجماد مصنوع موضوع على الأرض ولا يتوسل إليه مباشرة، بل يستمد الهمة من شخص آخر يرمز إليه بهذه الصنم. وإن الخضوع أمام جماد وشروط لثمة ومراسم تقبله لأمر مستكف.

وإذن فعبادة الأصنام والسجود للأوثان كلاهما أمر في غاية الضلالة والجهالة ومادة للاحتقار والاستهزاء. وإن الدين الإسلامي هو زينة جملة الأديان وخلاصة النوايسم الإلهية؛ لكن العلائق والعوائق للتواترة والتوالي كانت حائلة دون هداية نور الإيمان. وحيثما يوجد الماء قريباً لا تدعو الحاجة إلى حبل طويل.

وهكذا صار اقتراح نوروز مسموعاً ومقبولاً. ثم طلب إحضار قطعة اللعل التي كان قد لودعها خزائنه. وفي اليوم الرابع من شعبان سنة أربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤م)، في جوسق كان يوجد فيه عرش أرغون "بهرغزير لار دوماتند" أهدوا حفلاً كبيراً. ثم اختسل الأمير النجل وفق الشريعة الإسلامية، ولبس ملابس نظيفة. بعد ذلك صعد فوق قصر مرتفع

ووقف على درجة العرش، مظهرًا الخضوع لحضرة الربوب. ثم لفته كلمة الشهادة الشيخ
 "صدر الدين إبراهيم" خلف صدق الشيخ صدر الدين حمويه - رحمه الله - .
 وهكذا أخذ غازان بعزم صادق ينظم من صميم قلبه الصادق كلمة الإخلاص. وقد ردد
 عدة مرات كلمة التوحيد بلفظ التكبير.

(بيت من الشعر الفارسي ترجمته)
 رقم ذلك الأمر النجل بسبعه
 فذكُـسره بسوحـدانية الله

وقد أسلم معه جميع الأمراء والجنود، وعددهم يقرب من "مائة ألف"^{١١} مشرك متمرد.
 ورغم أن الالامات (بختييان) قد علموه أيام الصبا وزمان الطفولة عبادة الأصنام وتقديم
 الأوتان، وكان ثابته وراسخاً في هذه العقيدة فإنه عندما دخل في الدين الإسلامي، أسفى
 بأذن العقل وسمع الرضا إلى أمة الإسلام والدين الحنيف، فاستقر في سكينته صلوه. وكان
 في الإخلاص [ص ٦٠٦] أسدق من أوبس وسلمان، وصار الجمع مشغولين بهذه الأفرح
 والمسرات الكبيرة وإقامة المحفلات والمآدب. وكان كل الأمم من الترك والعجم يتشرون على
 عرشه المبارك الدرهم والدنانير ونفائس الجواهر ورغائب النفائس. وكانوا ينشدون.

(شعر فارسي ترجمته)

ليظل بقلبا باقياً في ملكك على الاستقرار والسوام...
 لئال والحال والزمن والمقال والأصل والنسل والحفظ والعرش
 وليبق لئال الوافر والحال الحسن والمقال السمد والسنة المباركة
 وليسدم للأصل - ثلاثين نسلًا - الحفظ باسم والعرش المطاع

ثم وقف الأمراء والقواد (نوبتان) والأئمة والمشايخ. وفتداه بسلطان الإسلام، وباعضاء
 صادق مبركة من شواب الكندر ومصفي من الرماء، دخلت - في دين الإسلام أفواجًا -
 طوائف التتار من الأطراف والقراسى والبوادى والضواحي، من الكافر والكافرة ابتداء من
 سن السابعة إلى سن السبعين، وذلك بدافع الرغبة ومحض الاختيار. وشرفوا بشريف هداية

(١) يذكر نازع عبد الله الحرزي القلب بوصف الحضرة في كتابه "تاريخ رسال" ص ٣١٧ طبع بمصر أن من
 أسلم من التتار يزيد على مئتي ألف مشرك.

نور الإيمان، ليظل توالدهم وتاسلهم مؤمنين ومؤمنات حتى تُصخ الصور. وصار اعتقاد
الموحدين بإعجاز أمة أحمد وإظهار دين محمد عليه الصلاة والسلام أكثر شهيداً. كما صار
صدق إخلاص المؤمنين أكثر تأكيداً.

وفي ذلك اليوم أمر جماعة الأئمة والمشايخ والمسادات بالإدراجات والإنعامات والمرتببات
والمناصب. كذلك بذل النذور والصدقات في حق الفقراء والمساكين. ثم توجه إلى قبور
الأولياء ومزارات "الأهدال"^(١). وكان يطلب بتضرع وبتهال من - حضرة ذى الجلال -
القوة للانتقام من الأعداء ودفع الحساد. كذلك أنشأ الخوانق والقبور.

بعد ذلك سمر - بهذه البشري - العنائين وسعاة البريد إلى أطراف البلاد وأرجائها
وأخاتها. وإن حلالة هذه السعادة التي هي أصل الحياة وشره شجرة التوفيق شالدة بالية.
وهكذا أوصل هذا النبأ إلى سكان الأقاليم. فتوجه إلى حضرة غازان من أطراف العراق
وعراسان المشايخ والأئمة في خضوع تام. ثم استقبل شهر رمضان ركن الصيام بدلاً من
الأضام، وكل ليلة كان الخلق الكثيرون من التازيك والترك والأمصار يتناولون طعام
الإفطار على بساط ساطه.

وهكذا فإن عروة جبل الدين اللتين كانت قد وجدت الانقسام والانصرام عادت
إلى التنظيم والقوة، وصارت همه غازان مقصورة على تأسيس قواعد الدين وشهيد مباني
اليقين، وتقوية أساس الشرع ورعاية قوانين الأصل والترع. وكانت همته باعثة على التزام
طريق الورع ونهته متجهة إلى العفة والتقوى.

جعل الله سبحانه وتعالى الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان - في طوقان
الطوارق والحدشان - [ص ٦٠٧] كتيباً لصالح العباد وبنجاحهم وسبباً لأمن الخلق وأمانهم

(١) الأهدال جمع بدل. وعند التصوف أن الخلق تعالى جعل الأرض سبعة عالمين واختار لكل إقليم من عباده الصالحين و
فيه يسمى "بدلاً" ليحفظه. ويقال إنهم صور روحانية محضة بدون فيها. وهم أولياء إنا سات أنهم خلقه غيره
فكان بدلاً منه. كما أن حجاب قلعة الخواري مرفوع عنهم. ولذلك بدون في شكول محظفة مبانة، وهم
معروفون باستنصاف الورع وتصحيح الزيادة وسلامة الصدر للخلق والصحبة لهم. (انظر دكتور حسين عيب
للصوري: المجموع الفارسي العربي الجامع، ص ٢٧، الفقرة ١١٩٨٢، دكتور سيد جعفر مسجداني: فرهنگ لغات
و اصطلاحات و تسميات عربتي، ج ١، ط ١، تهران ١٣٥٤ هـ ش).

حتى تصان آلاف النفوس الطاهرة من أذى الحلاب والخوف من مخالب التنار الكفار! فلا
جرم أن صار صيت أيام معدته وسمعة سوق مكرمه طنين أذان العالم.
وصفوة القول أنه بعد ذلك صارت طاعته واجبة ولازمه على ملوك الإسلام وسلاطينهم
بموجب قوله تعالى: ﴿... وأولى الأمر منكم﴾^(١١).

(تت الترجمة بحمد الله وفضله)

(١١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اطعوا الله واطعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فإن تنازعهم في شيء
فرموا إلى الله والرسول إن كنتم تنازعون بالله واليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴿ (سورة النساء الآية ٥٩).

قائمة المراجع أولاً: المراجع العربية

ابن الأثير الجزري (علي بن أحمد أبي الكرم):

- الكامل في التاريخ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨
١٣٥٨هـ - ١٩٢٩ - ١٩٣٩م.

ابن لياس الخطمي (محمد بن أحمد):

- بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول القسم الأول، تحقيق
الدكتور محمد مصطفى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمرو):

- تذكرة النبي في أيام التصور وبنيه: حوادث وتراجم (٦٧٨ - ٧٠٨هـ/
١٢٧٩ - ١٣٠٨م)، حققه دكتور محمد أمين وراجعه دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦م.

ابن حجر العسقلاني (الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد
بن علي بن أحمد):

- الدرر الكامنة، نشر دار الجليل، نسخة مصورة من طبعة دائرة
المعارف بمبدر الدكن، بيروت ١٣٥٠هـ - ١٩٣٦م.

ابن زهد آل محمود (عبد الله) الشيخ:

- قضية تمديد الصلوات، قطر النوحة ١٩٧٦م.

ابن شاکر الكشي (فخر الدين محمد بن أحمد):

- فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م.

ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أمرون الطيب للطلبي):

- تاريخ مختصر النول، بيروت ١٩٥٨م.

ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى):

- مسالك الألبار في ممالك الأمصار. دولة المماليك الأولى (٧٠٠ ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ ١٣٤٩ م): دراسة وتحقيق دوروتيا كرهولسكي ترجم التمهيد المطول عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، الناشر المركز الثقافي للبحوث، بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.
- ابن الفوطي (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد):
 - المحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (٦٤٢ ٧٢٣ هـ / ١٢٤٤ ١٣٢٣ م)، وقف على تصحيحه والتعليق عليه مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م.

أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):

- المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء) نشر مكتبة لثني، القاهرة بدون تاريخ.
 - تقويم البلدان، تصحيح رينود مدرس العربية وفيلارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ مسيحية.
- إدريس (محمد محمود):

- رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٣ م
أرنولد (سير توماس):
- الدعوة إلى الإسلام، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم وآخرون، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧ م.
- الإصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي):
- المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جبار عبد المال الحنسي، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م.

بارتولد (فاسيلي فلاديميروفيتش):

- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان
راجعه إبراهيم صبرى، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة
١٩٥٨م.

- تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثة، الناشر دار
المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.

- تركستان منفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح
الدين عثمان هاشم، الناشر قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة
والفنون والآداب، الكويت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

بهر (مصطفى طه) دكتور:

- مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة بدون تاريخ.
البليسى (شرف خان):

- شرفنامه. ألفه بالفارسية شرف خان البليسى، ترجمه إلى العربية، محمد
على عونى، راجعه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٦٢م.

براون (إدوارد جرانفيل):

- تاريخ الأدب فى إيران من القردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية
الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

بروكلمان (كارل):

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس
ومنيർ البعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، الطبعة
الثالثة، بيروت ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

- الجراحى (إسماعيل بن محمد العجلوني) الشيخ المنصور:
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الجزء الثاني، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٥٢هـ.ش.
جرجى زهدان:
- تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٣١م.
جمال الدين (محمد المسعيد) دكتور:
- علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة عباسية الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
جيد شيرازى (معين الدين أبو القاسم):
- شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المنار، بتصحيح وتحشية محمد قزوینى وعباس إقبال، طهران ١٣٢٨هـ.ش.
جنى (فيليب): دكتور
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمه الدكتور جمال اليازجى أشرف على مراجعته وخرجه الدكتور جبرائيل جبور، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٢م.
الخميرى (محمد عبد المنعم):
- الروض المطار فى غير الأقطار، حققه إحسان عباس، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠م.
عصباتك (جطلر حسين) دكتور:
- العراق فى عهد الإبلخاتيين ٦٥٦ - ٧٣٦هـ / ١٢٥٨ - ١٣٣٥م:
الفتح الإدارة الأحوال الاقتصادية الأحوال الاجتماعية، بغداد ١٩٦٨م.

تحليل أهم:

- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان، الناشر دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢م.

الدواقر (موسم):

- التحفة المملوكية في الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨ ٧١١هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق الدكتورة زينة محمد عطا، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ.

- مختار الأعيان: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

الدواقرى (أبو بكر عبد الله بن أبيك):

- كثر الدرر وجامع القرر، وهو الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر تحقيق هانس روبرت رويسر، القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

ديماند (م.س):

- الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكري، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٢م.

رشيد الدين (فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة):

- جامع التواريخ، تاريخ المغول المجلد الثاني الجزء الأول: تاريخ هولوكو مع مقدمة كاترمير، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد

محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثاني، الجزء الثاني: تاريخ أبناء هولاقو خان من أباقاخان إلى ميخاتوخان، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد القاهرة ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، تاريخ خلفاء چنكيز خان من أوكتاى قان إلى تيمور قان، نقله عن الفارسية إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد الناشر دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣م.

زكى محمد حسن (دكتور):

- التصوير فى الإسلام عند الفرس، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- فنون الإسلام، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

- التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام، مقالة نشرت فى هدية المقتطف السنوية بعنوان "توابع مجيدة من الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨م.
السباعى محمد السباعى (دكتور):

- عطا ملك الجوينى وكتابه جهانگشا، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
ستين رسيهان:

- تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، ترجمة الدكتور السيد الباز العربى، الجزء الثالث، بيروت ١٩٦٩م.

شولو (برتولد):

- العالم الإسلامى فى العصر المغولى، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى راجعه وقدم له سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

الصياد (فؤاد عبد المعطي) دكتور:

- مؤرخ المذول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، الطبعة الأولى
القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م.

- المذول في التاريخ (من چنگيز خان إلى هولاءو خان)، القاهرة
١٩٧٥م.

- الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاءو خان)، منشورات
مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ
١٩٨٧م.

- النوروز وأثره في الأدب العربي من منشورات جامعة بيروت العربية
بيروت ١٩٧٢م.

الطيرى (أبو جعفر محمد بن جرير):

- تاريخ الرسل والملوك: الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم"
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

المبود (نافع توفيق) دكتور:

- الدولة الخوارزمية: نشأتها علاقاتها مع الدول الإسلامية نظمها
العسكرية والإدارية ٤٩٠ هـ/١٠٩٧ - ٦٢٨ هـ/١٢٣١م، بغداد
١٩٧٨م.

الغزوى (هباش):

- تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الأول، حكومة المذول، بغداد
١٣٥٢ هـ - ١٩٣٥م.

- التصريف بالمؤرخين في عهد المذول والمترجمان (١٠١٠ هـ / ١٢٣٤م إلى
١١٤١ هـ / ١٣٥٤م)، بغداد ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م.

عطا ملك الجوينى:

- تاريخ فاتح العالم (جانگشاي)، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنكليزية الدكتور محمد التونجى، المجلدات الأول والثانى، الطبعة الأولى، حلب ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

على إبراهيم حسن (دكتور):

- دراسات فى تاريخ الممالك البحرية، وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٨م.

الفراز (محمد صالح) دكتور:

- الحياة السياسية فى عهد السيطرة المغولية، النجف ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود):

- آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صادر، بيروت ١٣٠٨هـ ١٩٦٠م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد):

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة ١٣٣٣هـ ١٩١٤م.

كراتشكوفسكى (الغناطيوس يوليانوفيتش):

- تاريخ الأدب الجغرافى العربى: القسم الأول، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة ١٩٦٣م، والقسم الثانى نقله نفس المترجم، القاهرة ١٩٦٥م.

كرافولسكى (دوروتيا):

- العرب وإيران: دراسات فى التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجى ترجمة الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربى للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

السراج (كي):

- بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية، وأضاف إليه تعليقات بلدانية وتاريخية وأثرية، ووضع فهرسه: بشر فرنسيس وكور كيس عواد، بغداد ١٣٧٢هـ - ١٩٥٤م.

ماركو پولو:

- رحلات ماركو پولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها "وليم مارسدن" ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م.

الموردى (أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى):

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- المجتمع العربى، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٦م.

محمود نجيب حسنى (دكتور):

- الموجز فى قانون العقوبات: للقسم الخاص، القاهرة ١٩٩٣م.
- السعوى (أبو الحسن على بن الحسين بن على):
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

المقرئى (قلى الدين أحمد على):

- الخطة المقرئية المسماة الواصف والاعتبار، طبع بمطبعة الساحل الجنوبى، الشياخ، بيروت ١٩٥٩م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٣٥٣ / ١٣٥٨هـ / ١٩٣٤ / ١٩٣٩م.

المؤرخ الإبرانى الكبير فيات الدين خوالص كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربى أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشي):

- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي
القاهرة ١٩٥٣م.

نظام الملك الطوسي (خواجہ):

- سياستنامه أو سير الملوك، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة
الثانية دولة قطر، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

ليندهام (جوزيف):

- موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، ترجمة محمد غريب جوده
المهبة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

هارولد لام:

- چنگيز خان وجحافل المغول، ترجمة متري أمين، مراجعة وتقديم
الدكتور زكي نجيب محمود، القاهرة ١٩٦٢م.

هتس فالتر:

- المكايل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن
الألمانية الدكتور كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان

١٩٧٠م:

ياقوت الحموي:

- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ ١٩٧٦م.

ثانیه: المراجع الفارسیة

القبال (عباس):

- تاریخ مفصل ایران استیلای مغول تا اعلان مشروطیت، جلد اول: از
حملة چنگیز تا تشکیل دولت تیموری، طهران ۱۳۱۲ ه.ش.

- مقاله بعنوان: "چساو چاپ اسکناس" نشرت ضمن مجموعه
مقالات عباس اقبال آشتیانی: شامل یکصد و یک مقاله با مقدمه
و تصحیح دکتر محمد دبیر سیالقی، تهران ۱۳۵۰ ه.ش.

القبال یغمائی:

- بسطام و بایزید بسطامی، تهران ۱۳۱۷ ه.ش.

پارتولد:

- تذکره جغرافیای تاریخی ایران، ترجمه حمزه سردادور (طالب زاده)
طهران ۱۳۰۸ ه.ش.

براون (ادوارد):

- از سعدي تاجمسی: تاریخ ادبی ایران از نیمه قرن هفتم تا آخر قرن نهم
هجری: عصر استیلای مغول و تاتار، ترجمه و حواشی بقلم علی اصغر
حکمت، تهران ۱۳۲۷ شمسی = ۱۹۴۸ میلادی.

بیانی (شهرین): اسلامی نلوشن:

- دین و دولت در ایران عهد مغول، جلد دوم: حکومت ایلخانی: نبرد
میان دوفرننگ، چاپ اول، تهران ۱۳۷۱ ه.ش.

پتروشفسکی:

- کشاورزی و مناسبات ارضی در ایران عهد مغول، ترجمه کریم
کشاورز، تهران ۲۰۳۵ شاهنشاهی.

بيكولو سكاي (ن.و) وآخرون:

- تاريخ إيران از دوران باستان تا پایان سده هجدهم میلادی، ترجمه کریم کشاورز، تهران ۱۳۵۴ ه.ش.

جروسیه:

- امپراطوری صحرائوردان، ترجمه عبدالحسین میکده، چاپ سوم تهران ۱۳۶۸ ه.ش.

جوزجان (أبو عمرو منهاج الدين عثمان بن سراج النيسن، معروف به منهاج سراج):

- طبقات ناصری (ألف فی الفترة ما بین ۶۵۷ - ۶۵۸ هـ) تحقیق عبدالحی حسی قندهاری، کابل ۱۳۴۳ ه.ش.

الجوبی (علاء الدين عطا ملك بن قاه الدين محمد):

- تاریخ جهانگشای (ألف ما بین سنة ۶۵۰ - ۶۵۸ هـ) نشر وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينی، ليدن ۱۳۲۹ / ۱۳۵۵ هـ / ۱۹۱۱ م - ۱۹۲۷ م.

حافظ آبرو:

- ذیل جامع التواریخ رشیدی (ألف سنة ۸۲۳/۱۴۲۹ م شامل وقایع ۷۰۳ - ۷۸۱ هجری قمری)، باهتمام دکتر خاتابا بیانی، تهران ۱۳۵۰ ه.ش.

حوالتمو (غیاث الدين محمد بن همام):

- حبيب السير فی ائخبار أفراد البشر (ألف سنة ۹۳۰ هـ / ۱۴۲۳ م چاپ اول، تهران ۱۳۳۳ ه.ش - چاپ دوم عکسی، تهران ۱۳۵۳ ه.ش.

- رجال حبيب السير: از حمله مغول تا سرك شاه اسماعيل اول، گورد آورده عبدالحسین نوالی، با مقدمه و سه فهرست، طهران ۱۳۲۴ ه.ش.

رشید الدین فضل اللہ بن عماد الدولہ آبی الخیر بن موفق الدولہ ہمدانی:

- تاریخ مبارک غازی (داستان غازان خان) ہسبی و اہتمام اقل العباد
"کارل یان"، ہر تفرورد از ہلاد انگلستان سنہ ۱۳۵۸ ہجری مطابق
سنہ ۱۹۴۰ مسیحی۔

- جامع التواریخ، جلد دوم در تاریخ پادشاهان مغول از اوگتای قاآن
تایمور قلان، نشر و تحقیق ادگار ہلوشیہ، لندن ۱۳۲۹ھ/۱۹۱۱م۔

- جامع التواریخ: مغول ایران، جلد سوم، متن علمی و انتقادی فارسی
ہسبی و اہتمام عبد الکریم علی اوشلی علی زادہ، نشر معہد
الدراسات المشرقیہ بآذربایجان السوفیاتیہ، باکو ۱۹۵۷م۔

- جامع التواریخ، جلد اول از آغاز پیدایش قبائل مغول تا پایان دورہ
تیمور قلان، نشر و تحقیق بہمن کریمی، طهران ۱۳۲۸ھ۔ش۔

- جامع التواریخ رشید الدین فضل اللہ ہمدانی، بہ تصحیح و تحشیہ
محمد روشن مصطفی موسوی، جلد اول، طهران ۱۳۷۳ھ۔ش۔

- جامع التواریخ: قسمت اسماعیلیان و فاطمیان و زاریان و داعیان
ورفیقان، ہکوش محمد تقی دانش پڑوہ و محمد مدرس (زنجانی)
بنگاہ ترجمہ و نشر کتاب، چاپ دوم، طهران ۲۵۳۶ شاہنشاہی۔

- تاریخ افرنج بافصلی از جامع التواریخ، با مقدمہ و حواشی و فہارس
ہکوش محمد دبیر سیاقی، مدخل کارل یان، طهران ۱۳۳۹ھ۔ش۔ =
۱۹۶۰م۔

- جامع التواریخ، جلد ۲، جزء ۵: ذکر تاریخ آل سلجوق، ہسبی
و اہتمام احمد آتش، انقرہ ۱۹۶۰م۔

- مکاتبات رشیدی، ہسبی و اہتمام و تصحیح اقل العباد محمد شفیع،
بإضافة حواشی و فہارس، لاہور ۱۳۶۴ھ - ۱۹۴۵م۔

- وقضاه ربع رشیدی: الوقفة الرشیدية بخط الواقف فی بیان شرائط
أمور الوقف والمصارف. اثر رشید الدین فضل الله بن ابی الخیر بن
علی المغانی مشهور برشید الطیب، جاب عکسی از روی نسخه
أصل، زیر نظر مجتبی منوی ابرج افشار، سلسله انتشارات انجمن
آثار ملی، شماره ۸۷، تهران ۱۳۵۰ ه.ش.

زاده (هاشم رجب) دکتر:

- آئین کشور داری در عهد وزارت رشید الدین فضل الله همدانی،
تهران ۲۵۳۵ شاهنشاهی:

ستوده (منوچهر):

- قلاع اسماعیلیه در رشته کوههای البرز، تهران ۱۳۴۵ ه.ش.

شبانکاری (محمد بن علی بن محمد):

- مجمع الأنساب به تصحیح میر هاشم محدث، تهران ۱۳۶۳ ه.ش.

شپولر (پرتولد):

- تاریخ مغول در ایران: سیاست، حکومت و فرهنگ ایلخانان، ترجمه

دکتر محمود قناب، تهران ۱۳۵۱ ه.ش.

صفا (ذبیح الله) دکتر:

- خلاصه تاریخ سیاسی واجتماعی و فرهنگی ایران تا پایان عهد صفوی

تهران ۲۵۳۶ شاهنشاهی.

القاشانی (أبو القاسم عبد الله بن محمد)

- تاریخ لولجایتو (پادشاه سعید ضیاء الدینا والدین لولجایتو سلطان

محمد - طیب الله مرقدہ - به اهتمام مهین همپلی، بنکاه ترجمه و نشر

کتاب، تهران ۱۳۴۸ ه.ش.

لوی (حمید)

- تاریخ یهود ایران، نشر کتابفروشی بروخیم، تهران ۱۳۳۹ شمسی -

۱۹۶۰ میلادی.

- مجموعه خطابه های تحقیقی درباره رشید الدین فضل الله همدانی که در مجلس علمی مربوط به او از ۱۱ تا ۱۶ آبان ۱۳۴۸ هـ.ش در دانشگاه های تهران و تبریز خوانده شده است، طهران ۱۳۵۰ هـ.ش. خجوانی (محمد بن هفتوشاه):
- دستور الکاتب فی تعیین الترتیب، جزء اول از جلد یکم، نشر و تحقیق عبد الکریم علی اوغلی زاده، مسکو ۱۹۶۴ م. نصیر الدین طوسی (خواججه):
- تنسیخ نامه ابلهانی، با مقدمه و تعلیقات مدرس رضوی، تهران ۱۳۴۸ هـ.ش.
- وصاف (آدیب شرف الدین عبد الله بن فضل الله شیرازی الملقب بوصاف الحضرة):
- تاریخ وصاف، طبع بمبای، ۱۲۶۹ هـ.
- تحریر تاریخ وصاف، به قلم عبد المحمد آجی، انتشارات بنیاد فرهنگ ایران، تهران ۱۳۴۶ هـ.ش.

Arberry:

- Classical Persian Literature on Rashid Al Din, London 1958.

Barthold.W.

- Mir Islama, St Petersburg, 1912.

Berthold Spuler:

- Die Mongolen in Iran, Leipzig, 1939.
- The Cambridge History of Iran. Vol 5, The Saljug and Mongol Periods, edited by J.Boyle, Cambridge 1968.

M. Le Baron:

- Histoire Des Mongols depuis Tchinguiz-khan Jusqu' à Timour Bey ou Tamerlan, Paris, 1824.
- Encyclopaedia Judaica, Vol 13, Second Printing, Jerusalem, 1973.

Grousset Ren:

- L'Empire des Steppes. Paris, 1948.

Howorth H.H:

- History of the Mongols. London, 1875.
- Proceedings of the Colloquim On Rashid Al Din Fadlallah: Tehran, Tabriz, II - 16 Aban 1348 (27 November 1969), Tehran 1971.
- Rashid al Din,s Knowledge of Europe, by Karl Jpan.
- Rashid al Din Fazl Allah and India, by k. A Nizami.

Walter J. Fischel:

- *Jews in Economic and political Life of Mediaeval Islam*,
Royal Asiatic Society Monographs, Vol. XXII, London, 1937.

فهرس الموضوعات

صفحة	مقدمة
٧	المقدمة
	المقدمة
١٧	أولاً: رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ التعريف برشيد الدين المؤرخ تأليف كتاب جامع التواريخ أقسام هذا الكتاب أهميته
٣٢	ثانياً: رشيد الدين وتاريخ غزوان خان الأقسام الرئيسية الثلاثة التي اشتمل عليها هذا التاريخ
٣٤	القسم الأول نشأة غازان وتربيته تعيينه حاكماً على خراسان اعتناقه الإسلام توليه العرش واتخاذ الإسلام ديناً رسمياً للعولمة النتائج التي ترتبت على ذلك تدليل المؤرخ على صحة إسلام غازان
٣٨	القسم الثاني التاريخ السياسي للفترة التي حكم فيها غازان موقفه من نوروز الحملات التي شنّها على الشام
٤٧	القسم الثالث الإصلاحات التي قام بها غازان خان بوحي من إسلامه وإخلاصه لطبقته

الترجمة

٧٧ تاريخ غازان خان بن أرغون خان بن أبلقخان بن هولاقو
خان بن تولوي خان بن چنگيز خان
وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:

٧٨ **القسم الأول من تاريخ غازان خان:**

في تقرير نسبة العظيم، وذكر أحواله منذ الوقت المبارك
لولادته حتى زمان جلوس والده أرغون خان على عرش
السلطنة، وذكر زوجاته وأبنائه وجدول شعبهم الشريفة

٨٧ **القسم الثاني من تاريخ غازان خان:**

في مقدمة جلوسه المبارك، وصورة العرش والخواتين
والأمراء الأتجال والأمراء عند جلوسه على عرش السلطنة
وتاريخ زمان حكمه، والحروب التي قام بها، والفتوحات
التي تسرت له

مقدمة جلوسه للمبارك منذ أن عهد إليه ولده أرغون خان
بأن يكون نائبا عنه في حكم خراسان إلى وقت تغلبه على
بابلو

وهذا القسم يشتمل على عدة حكايات:

١٠٢ - حكاية حاله في خراسان بعد وفاة أبيه أرغون خان حتى
وقت مسيره إلى ناحية آذربيجان في عهد كهناتو ثم
عودته من تبريز إلى خراسان

١٠٦ - حكاية توجه غازان إلى ناحية ألتاغ قاصدا مقابلة
كهناتو وعودته من تبريز وهزيمة نوروز وفتح نيسابور

١١٠ - حكاية خضوع نوروز ومثوله مرة أخرى أمام غازان
والاحضال بهذه المناسبة وتقديم الهدايا

- ١١٣ - حكاية توجه غازان من ناحية غمرسان إلى عراق العجم
ومحاربه باهو في منطقة "هشترود" و"قربان شيره"
- ١٢١ - حكاية انشراح المصدر المبارك لسلطان الإسلام غازان
مخان بنور الإيمان، واعتناقه الإسلام هو والأمراء بحضور
ابن الشيخ صدر الدين حمويه الجوهري دامت بركته
- ١٢٥ - حكاية توجه المراهبات المباركة لسلطان الإسلام غازان
مخان للقاء باهو للمرة الثانية، وخضوع أمره
- ١٣٠ - حكاية الشروع في ترتيب شعون الجيش والبلاد، وذلك
عقب الجلوس المبارك لسلطان الإسلام
- ١٣٢ - حكاية سرد "سوكا" و"بارولا" ووضوح ذلك وتوجه
الجيش للقضاء عليهما ومآل تلك الحال
- ١٣٦ - حكاية أحوال "تورهن آقا" وموقف الأمير نوروز منه
وبعد اختلال أمور نوروز
- ١٣٩ - حكاية توجه المراهبات السلطانية إلى بغداد وإعدام
"الفراسياب لر" و"جمال الدين المستجرداني ومولانا عز
الدين مظفر الشيرازي وولادة الأمير النجل "تولجاي"
- ١٤٢ - حكاية حال "قبحصر" غلام الأمير نوروز، وقتل أبناء
نوروز وإخوته، والقضاء على نفوذه نهائياً، وقتله في هرات
- ١٤٩ - حكاية ارتفاع منزلة صدر الدين الزنجاني، وازدهار شأنه
بعد قتل الأمير نوروز، ووصول المراهبات السلطانية من
آلاتاغ إلى تبريز، وتشيد القبة العالية في "شم تبريز"
- ١٥١ - حكاية اختلال أحوال صدر الدين الزنجاني وإعدامه

- ١٥٥ - حكاية توجه الرايات السلطانية من دار الملك تبريز إلى مشتى بغداد وتقويض منصب الوزارة إلى الخواجه سعد الدين، ووصول خير صمد "سولاميش" ومسير الجيوش لإخضاعه
- ١٥٩ - حكاية توجه سلطان الإسلام إلى الشام ومصر، ومحاربة المصريين وهزيمتهم، وفتح بلاد الشام
- ١٦٧ - حكاية توجه سلطان الإسلام إلى الشام ومصر للمرة الثانية
- ١٧٠ - حكاية تكريم الخواجه سعد الدين صاحب الدهبان وإعدام حاسديه
- ١٧٢ - حكاية توجه سلطان الإسلام غلزان خان إلى ناحية "الاناغ" ثم تحركه من هناك عن طريق نخجوان إلى مشتى "أران"، ووصول المرسل الذين كانوا قد لوفدوا إلى مصر
- ١٧٤ - حكاية الحفل العام الذي أقامه سلطان الإسلام في المخيم الذهبي بموضع بستان أوجان، وختم القرآن هناك والإععام العام
- ١٧٧ - حكاية توجه الرايات السلطانية من مدينة الإسلام "أوجان" إلى بغداد، وشرح الأحوال التي حدثت في الطريق، ثم للوصول إلى واسط والحلة، والتصميم على السير إلى الشام
- ١٨٤ - حكاية وصول قتلغشاه نوبان للقضاء جيش مصر، ثم رجوعه من هناك، وعودة الرايات السلطانية إلى أوجان
- ١٨٩ - حكاية محاكمة الأمراء والجنود الذين عاندوا من الشام، ثم عقد مجلس الشورى (القروريلتاي) بموضع أوجان وتشرف الأمراء بقاء غازان

- ١٨٧ - حكاية إصابة سلطان الإسلام بالرمد، ووصول الأمراء
الأنجال من خراسان، ثم توجه الرهبات السلطانية إلى
بغداد، ونزولها في "هولان موران"
- ١٨٩ - حكاية اعتكاف سلطان الإسلام في مشفى "هولان مران"
وظهور "الافرنك" وشرده، وإعدام جماعة الكثيرين للفتنة
- ١٩١ - حكاية إقامة الحفل فسي عظيم "أهلوزميش خاتون"
للاحتفال بعيد ميلاد الأمير المنجل "أبي زهد"، وخروج
سلطان الإسلام من معتكفه الأرميني (جهله)
- ١٩٢ - حكاية تكريم الخواجه سعد الدين صاحب القديوان لما
أبداه من إخلاص في قضية "الافرنك"
- حكاية وفاة "كرمون خاتون"، ونقل جثمانها إلى تبريز
والكلمات العديدة الحكيمة التي تنوه بها سلطان الإسلام
في شتون الخلق والحياة

١٩٩ **القسم الثالث من تاريخ شقران خان:**

في أخلاقه الحميدة وسيره المستحسنة، وأكثر عدله وإحسانه
وعبراته ومبراته وفتون أدابه وأفضل عاداته وكلماته التي
صرح بها في كل وقت، يحتاج الأمر فيه إلى تحقيق وتلخيص
والحكم الرصينة والقوانين النافذة المتضمنة رعاية مصالح
كافة الخلق، والتي نفذها في كل شأن من الشؤون، ونوادير
الحكايات والأحوال مما لم يذكر في القسمين السابقين.
وهذه يتضمنها موضوعان: أحدهما تم تربيته وتسجيله
وهو عبارة عن أربعين حكاية وثانيهما يمرر حسب القضايا
والحوادث المختلفة والمترقة

- ٢٠٢ الحكاية الأولى - في فنون كمالات وعلوم سلطان الإسلام
خلد ملكه وعرضه الصناعات
للمختلفة، ووقوفه على أسرارها

- ٢١١ الحكاية الثانية في عفة سلطان الإسلام وعصمته
- ٢١٢ الحكاية الثالثة في فصاحة سلطان الإسلام وبلاغته،
وحسن سؤاله وجوابه للقريب والبعيد والترك
والنازك
- ٢١٤ الحكاية الرابعة في صبر سلطان الإسلام وثباته وصدق
عهده وميثاقه
- ٢١٨ الحكاية الخامسة في أن كل كلمة تجرى على اللسان
المبارك لسلطان الإسلام تكون دقيقة
وفصيحة
- ٢١٩ الحكاية السادسة في بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده
وسخائه على وجه مستحسن قائم على
المعرفة
- ٢٢٥ الحكاية السابعة في إبطال الديانة البوذية وتخريب معابد
البوذيين وتخطيم كل الأصنام
- ٢٢٧ الحكاية الثامنة في عجة سلطان الإسلام لأسرة الرسول
عليه السلام
- ٢٢٨ الحكاية التاسعة في شجاعة سلطان الإسلام وإعداد الجيش
للقتال، والمثابرة والثبات في الحروب
- ٢٣٣ الحكاية العاشرة في إثناء سلطان الإسلام النصيح إلى
القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم
والتقوى
- ٢٣٦ الحكاية الحادية عشرة في منع سلطان الإسلام الجنود
وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر
- ٢٣٨ الحكاية الثانية عشرة في ميل سلطان الإسلام إلى التصمير
وحث الناس على ذلك

- ٢٤٣ الحكاية الثالثة عشرة في أبواب البر التي أنشأها وأحدثها سلطان الإسلام في تبريز وهمذان والولايات الأخرى، والأوقاف التي لوقفها عليها، والترتيبات التي أعدها لذلك
- ٢٥٣ الحكاية الرابعة عشرة في القضاء على التزوير والدعوى الباطلة ومنع غيابة الخائنين والمارقين
- نص المرسوم الخاص بتفويض القضاء
 - نص المرسوم الخاص بعدم النظر في القضايا التي مضى عليها ثلاثون سنة وذلك بالشروط المقررة في هذا الشأن
 - نص الوثيقة المكتوبة على ظهر المرسوم
 - نص للمرسوم الخاص بإثبات ملكية البائع قبل البيع
 - نص للمرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتعميد الشروط اللاحقة
- ٢٧٣ الحكاية الخامسة عشرة في إتلاف التبايلات غير القانونية وإبطال الجميع البالية
- ٢٨٠ الحكاية السادسة عشرة في إبطال الحكر والاستيلاء بغير الحق على ملك الغير والقضاء على أنواع المصادر
- نص المرسوم الخاص بتحويل مقررات الولايات التي كتبها الدهوان الأعلى بالتفصيل، ومنع حكام الولايات منها باتا من تحرير الحوالات

- ٣٠٦ الحكاية السابعة عشرة في المحافظة على الرعايا ورعايتهم
ودفع الظلم عنهم
- ٣٠٨ الحكاية الثامنة عشرة في إبطال دواب البريد، وعدم إيفاد
الرسل وكف أذاهم عن الخلق
- ٣١٥ الحكاية التاسعة عشرة في القضاء على اللصوص وقطاع
الطرق وتخليص الناس منهم
- ٣١٩ الحكاية العشرون في تخليص عيار الذهب والفضة من
الغش بطريقة فريدة لم تكن موجودة من
قبل على الإطلاق، ولم يكن من الممكن أن
يكون هناك ما هو أفضل منها
- ٣٢٤ الحكاية الحادية والعشرون في تعديل أوزان الذهب
والفضة والأحمال والمقاييس والمكاييل وغير
ذلك
- ٣٢٩ الحكاية الثانية والعشرون في ضبط الأمور المتعلقة بشئون
المراسيم والبايزات التي تمنح للناس
- ٣٣٤ الحكاية الثالثة والعشرون في تدبير الشئون الخاصة
باسترداد المراسيم والبايزات المكررة التي
كانت موجودة في أيدي الناس
- ٣٣٨ الحكاية الرابعة والعشرون في منح جنود المغول
الإقطاعات في مختلف المواضع من كل
ولاية
- ٣٤٧ الحكاية الخامسة والعشرون بخصوص كيفية إعداد جيش
خاص للسلطان
- ٣٥٠ الحكاية السادسة والعشرون في تحريم التعامل بالربا والغش
الفاحش

- ٣٦١ الحكاية السابعة والعشرون في منع المغالاة في دفع مهور
الزواج
- ٣٦٣ الحكاية الثامنة والعشرون في إقامة للمساجد والحمامات
في جميع القرى التي تضمها البلاد
- ٣٦٤ الحكاية التاسعة والعشرون في منع الخلق من احتساء الخمر
- ٣٦٦ الحكاية الثلاثون في إعداد الطعام الخاص والشراب
للمخيم للمعظم
- ٣٧٠ الحكاية الواحدة والثلاثون في إعداد النفقات الخاصة
بطعام الخواتين والعسكرات
- ٣٧٢ الحكاية الثانية والثلاثون في ضبط شؤون الخزانة وترتيب
مهامها ومصالحها
- ٣٧٦ الحكاية الثالثة والثلاثون في ترتيب شؤون المؤسسات
المسكربة ومصانع الأسلحة
- ٣٨٠ الحكاية الرابعة والثلاثون في ترتيب شؤون دواب الخاقان
- ٣٨٢ الحكاية الخامسة والثلاثون في ترتيب الشؤون المتعلقة
بالمصايد ومروضى الفهود
- ٣٨٧ الحكاية السادسة والثلاثون في ترتيب شؤون كل الممالك
(الإصلاح الزراعي)
- ٣٩١ الحكاية السابعة والثلاثون في إعداد الشؤون الخاصة بتعمير
الأراضي البور (تابع الإصلاح الزراعي)
- ٣٩٨ الحكاية الثامنة والثلاثون بشأن صدور الرسوم المتعلقة
بإقامة دور في الممالك خاصة بالرسول
ومنع الشحن والحكام من النزول في
بيوت الناس
- ٤٠١ الحكاية التاسعة والثلاثون في منع للكافرين والجمالين
والسعاة من إيذاء الناس

- ٤٠٤ الحكاية الأربعون في منع إجبار الجوارى على الإقامة في
دور البغاء

النصوص الإضافية

- ٤١٠ النص الأول - حكاية مسير الأمير نوروز إلى تركستان لدى
قيموغان

- ٤١٤ النص الثاني - حكاية اعتناق غازان الإسلام، وكيف تم
ذلك

- ٤١٩ قائمة المراجع

هذه ترجمة كاملة لتاريخ غازان خان الذي يكون قسماً مهماً من كتاب جامع التواريخ، تأليف رشيد الدين فضل الله الهمذاني. مؤرخ المقول الكبير والكاتب الموسوعي الذي أحاط علمه بكثير من أنواع المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتي في المقدمة دائماً.

وتبرز أهمية الكتاب فيما لقوه عن المقول في الأحداث التي كان يعايشها المؤرخ، فقد عاصر هذا المؤرخ دولة المقول في أبعى فتراتنا. وشاهد حصار بغداد وفتحها على يد هولاكو خان، والتحق بخدمة أعظم سلاطين الأيلخانيين وبلغ أعلى المراتب في عهد غازان وأولجايتو وفترة من حكم أبي سعيد بهادر خان، ولعب دوراً هاماً في سياسة دولة المقول وإدارتها. فضلاً عن هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ لأحداث كان يعاشرها ويشهد لها بعيني رأسه، ويسسها وصف المثقف الخبير بشؤون الحياة. كذلك استطاع الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه ميزة كبيرة لم تتوافر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ المقول من السابقين أو المعاصرين له.

Bibliotheca Alexandrina



0413741

ISBN 977-3875-70-0



90000



9 789773 875700